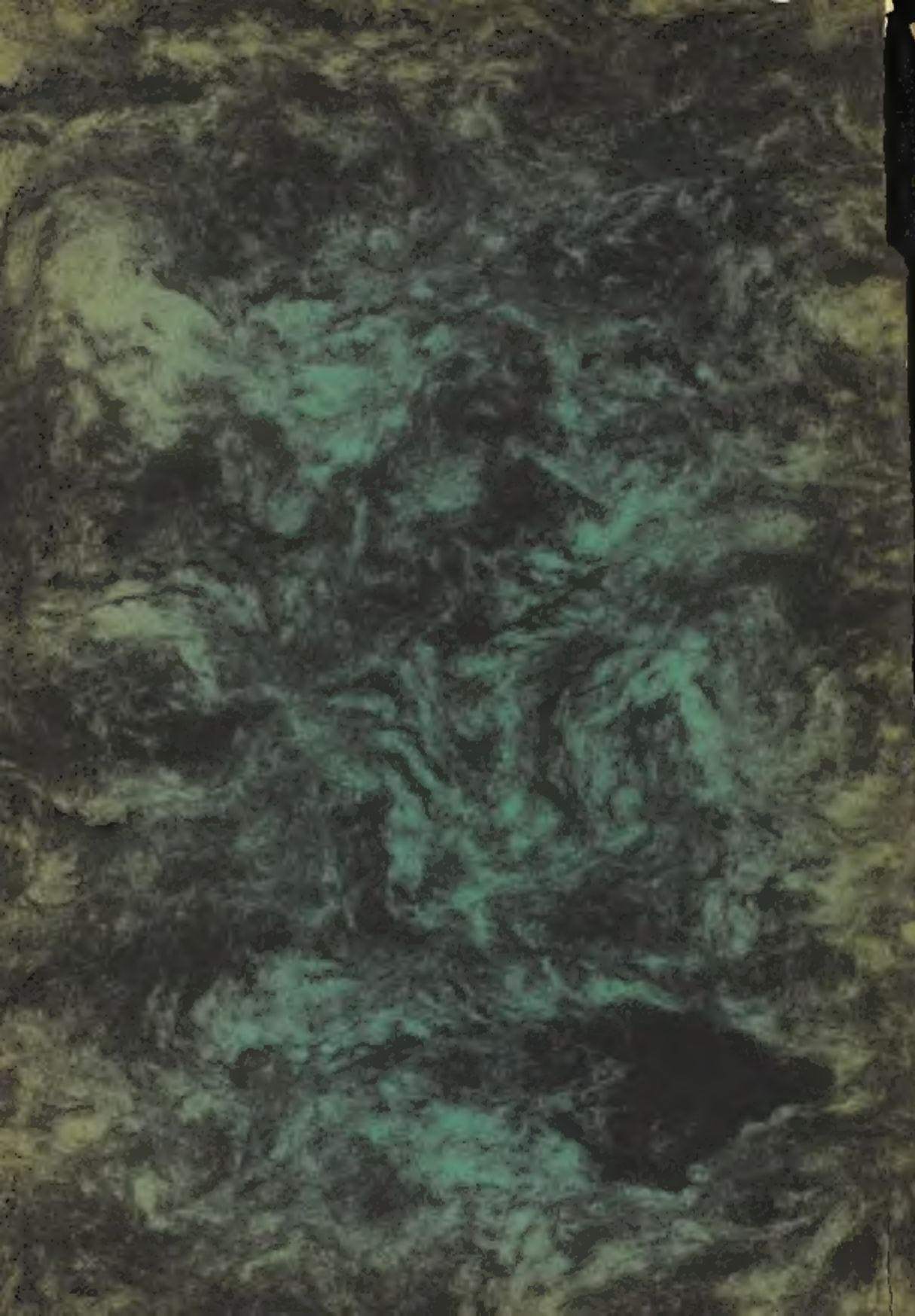




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







دراسات تاريخية سودانية

معالم تاريخ السودان وادي النيل (من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادي)

بسم
الشايط بصنيلى عبد الجليل

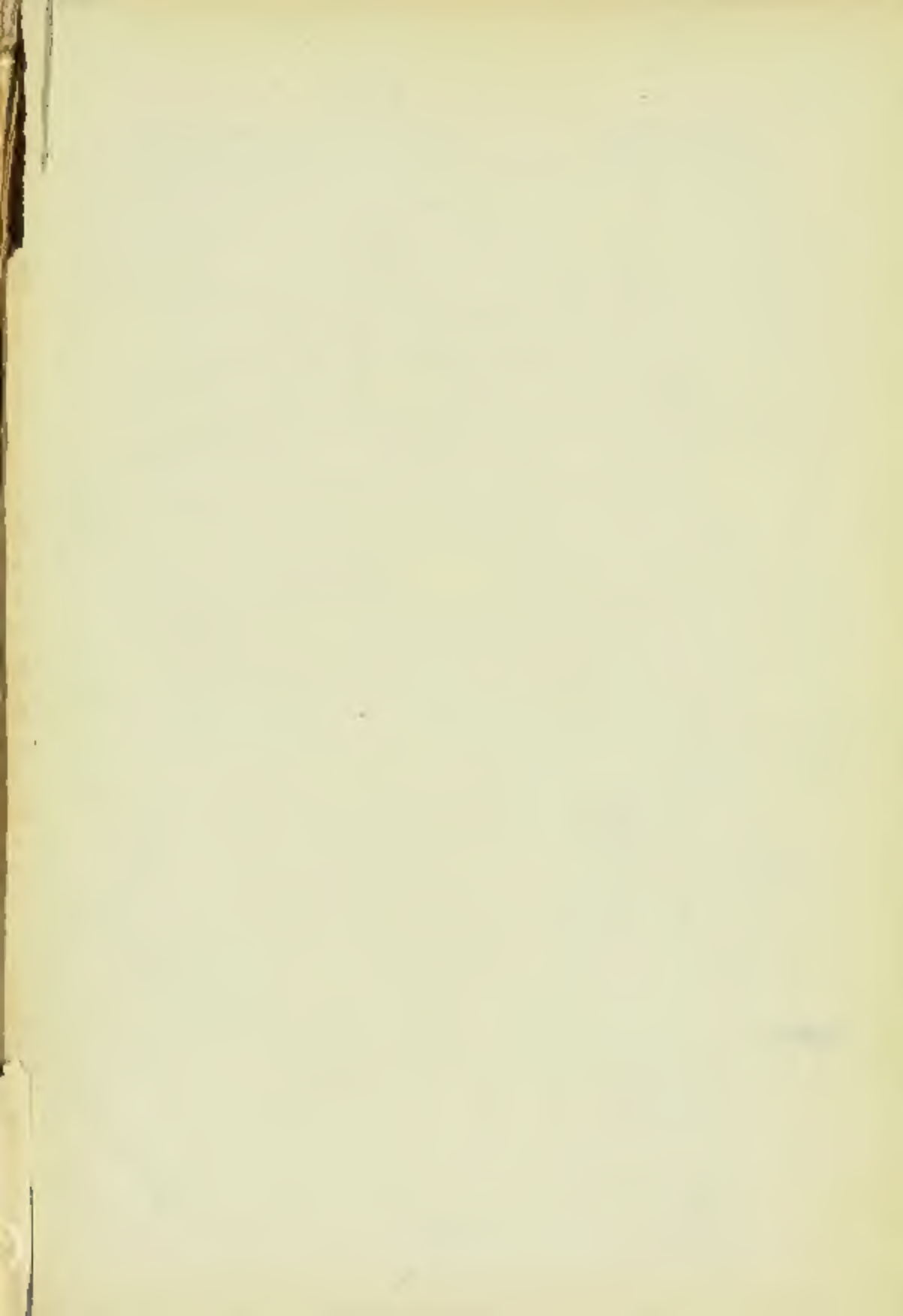
أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقاً مخرجة إدارة الدراسات)

الطبعة الأولى

مقروء الطبع محفوظ للمؤلف

القاهرة

١٩٥٥



خريطة رقم ١
سودان وادي النيل



962.4

B96

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

هذه الكلمة ليست على سبيل التقديم . فلصاحب الكتاب - الأستاذ الشاطر بصيلي - من المسكنة في عالم البحوث التاريخية السودانية ما يغنيه عن أى تقديم . ولكننى أحببت أن أظهر ما تركته قراءة هذا الكتاب قبل طبعه في نفسى من أثر . فحرصت على أن أضع في أوله هذه الكلمة .

وقد اتجه الأستاذ بصيلي قبل قدومه لمصر بسنين الى العمل المخلص الصادق في تحقيق الكثير من مسائل التاريخ السودانى في مختلف العصور . ونعم ما فعل . فالبحوث السودانية في موقفها الراهن أكثر حاجة للتحقيق العلمى ونشر الوثائق التاريخية منها لاي نوع آخر من العمل العلمى . وأكثر عصور التاريخ السودانى حاجة للجهد هو بالضبط العصر ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر أو ما يصح أن يسمى عصر الامارات والرياسات العربية الافريقية .

ولقد ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات ككشفاً كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءاً وأن يقدم من متفرق أحداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق . ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذى أشرنا اليه . ومن ثم فقد أسدى الأستاذ الشاطر بصيلي بكتابه هذا للدارسين يدا تذكرففتشكر .

وطريقة الأستاذ الشاطر بصيلي تقوم على أن يورد في المسألة شتى الآراء . ثم يعطى لكل رأى ماله وما عليه ويخلص من هذا الى الرأى الذى يرى . فهو اذن لا يورد شيئاً بلا دليل . وهو اذن لا يفرض على القارئ شيئاً بعينه . بل هو يتيح له الا يقبل شيئاً إلا بعد اقتناع . على أن المؤلف

كان حريصاً في نفس الوقت على أن يكمل التحقيق بالرواية المنصلة فجاء الكتاب كتاباً بالملغى المحقق .

وان كان لي أن أرجو لنفسي ولنسبي من الدارسين تكملة يتولاها الأستاذ الشاطر بصلي فهي أن يعالج على النحو الذي نحا دراسة الامارات العربية الافريقية في غير سودان وادي النيل . وهذا لأنني أعتقد أن الدراسة المقارنة لتلك الامارات تعين كثيراً على فهم تكوينها وأنظمتها وثقافتها . على أن تكمل الدراسة المقارنة ببيان اتصال تلك الامارات بالعالم حولها وخصوصاً بمنابعها الغربية والافريقية . وأدعو الله في الختام أن يتمكن الأستاذ الشاطر بصلي من المضي قدامه في خدمة العلم وأن ياتي من قومه في شطرى الوادي ما هو خليف به من التشجيع والعون .

محمد شفيق غريبال

معهد الدراسات السودانية

يوليو سنة ١٩٥٥

تعريف

لقد أتاحت لي السنوات الثلاث والثلاثون التي أمضيتها في سلك الادارة المدنية في السودان فرصة الانتقال بين رجبه المختلفة ، والتعرف على مظاهر الحياة في صورتها الواقعية ، وكان من نصيبي أيضاً أن عاصرت مراحل تطور المجتمع في الفترة من نهاية الحرب الكبرى الأولى الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وقد وجهت اهتمامي منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها البلاد الى دراسة تاريخه كما جاء في مختلف المراجع المطبوعة وتابعت قراءة ما جاء في الدوريات والنشرات وفي الصحف ، وقارنت بين ما ورد في هذه المطبوعات وبين ما تجمع لدى من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها أهل البلد فوجدت أن الحاجة قوية ، وبخاصة بعد اضطراب التقدم في مظاهر الحياة اليومية الى تحقيق ما كتب عن تاريخ البلد ، وتفسير ما جاء في الكتب على ضوء حياة المجتمع ، ولهذا أتجه تفكيري منذ سنوات خلت الى محاولة سد هذه الثغرة ، وقد بدأت هذه المحاولة بكتابة جذاذات بما جاء في المطبوعات المختلفة ، ويوميات ومذكرات بما في المخطوطات المحلية ، وتصوير البعض ، وتفصيلات الأحاديث التي دارت مع الأهليين بصدد تاريخهم ، وقد وجدت من جميع من تحدثت إليهم أصدق المعونة والوقاء وبين هؤلاء الكثير من العلماء والفقهاء وأهل المعرفة ، وقد تجتمعت لدى من العناصر ما ساعد على كتابة دراسة عن السلاطة السنارية وأصول أسرتها ، التي شكلت موضوع جدل أكاديمي بين الباحثين من الأجانب ، وقد تم اعداد هذه الدراسة فعلاً قبيل الحرب الأخيرة الا ان ظروفها القاسية قد حالت دون نشرها بعد أن وصلت الى المطبعة فعلاً .

وحاولت بعد عودتي من السودان في عام ١٩٤١ م اعداد البحث لنشره في صورته التي تم عليها من قبل ، وعندما بدأت في اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك ، وجدت أن تطور الاحداث في السودان تتطلب بادية ذي بدء دراسة تاريخية تحليلية مختلف مراحل تطور المجتمع في جنوب الوادي ، وما تركته تلك التطورات من انطباعات وانعكاسات ، لتعاون على تفسير مظاهر الحياة وتقريبها الى الأذهان في صورة أقرب الى الراجع ، وأن يتبع ذلك القيام بدراسات تفصيلية في مختلف نواحي النشاط ، لذا استقر الرأي على المطلب الاول لشدة الحاجة اليه في بناء السودان الجديد ، وقد توقرت على كتابته في العامين الماضيين ، خلال فترات الفراغ المحدودة

وانى لا أدعى أن الموضوع قد استكمل بحثه بل حاولت مخلصاً أن أبرز الصورة التي تجمعت لدى عناصرها عن الفترة من تاريخ السودان في القرن التاسع الى القرن التاسع عشر الميلادى، وقد تكون هذه الحقبة من الزمن طويلة وليس من اليسير معالجة معالمها في كتاب محدود الحجم، لكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق النسبي بين حياة الفرد العادى التي لا تتجاوز عملياً الاربعين عاماً وبين حياة الأمم التي قد تتجاوز في مرحلتها الحضارية ما يقرب من الثمانية قرون نجد أن الفترة التي ضمها الكتاب - عشرة قرون تقريباً - ليست بالكبيرة نسبياً، وإن ضرورة استكمال البحث تقتضى الرجوع الى مصادر مظاهر الحياة في الماضى البعيد والقريب؛ فالحياة بالنسبة للجمتمع في حيويتهما تتفاعل ظواهرها المتتابعة الحلقات، وليس من السهل الوصول الى نتائج إيجابية دون ربطها بعضها ببعض وتعاليلها والتعرف على سلوكها وما تركته من أثر في تكوين حالة حضارية تمثل الكم من هذه الظواهر، وقد تستغنى كل ظاهرة منها عدداً من السنين يتفاوت في عدده بين العشرة والعشرين عاماً متمشية في ذلك مع تطور العلاقات مع الدول المعاصرة. فالأحداث الكبرى في جنوب الوادى (السودان) كنشأة السلطنة السنارية وانهارها، وامتداد الادارة المصرية، والثورة المهدية لم تكن كل منها الا نتاج تفاعل في ظواهر اجتماعية ترجع في مصادرهما الى أقدم العصور.

وكما أوضحنا من قبل فاننا قد بذلنا جهداً مجتهد المتواضع لاجراء هذه الدراسة على الصورة التي تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا ونرجو أن يتقبلها القارئ بالروح التي أملتها، وبالمساهمة في متابعة الدراسات ولا يسعنى إذ أتحمّل مسئولية ما في الكتاب إلا أن أتقدم بواقر الشكر والشناء عرفانا بالجميل الذى أسداه السادة الاساتذة واخوانى الكثيرين من تشجيع وعون كان له أثره في إنعام البحث ونشره، وبما لاشك فيه ان هذا التشجيع وهذا العون - موجه في الحقيقة وواقع الامر الى السودان، كما يصور مدى الاهتمام بدراساته وتقدم المعرفة الخاصة به لىكى يتسنى تشييد أسسه ومقوماته على قواعد سليمة، وأخص بالذكر السادة الاساتذ الكبير محمد شفيق غربال الذى تفضل بتقديم البحث، ودكتور محمد عوض محمد، دكتور سليم حسن، دكتور سليمان حزين، دكتور محمد متولى، محمد احمد حسونه، و. ا. ج. اركل، ودكتور محمد محمود الصياد، والاساتذ صالح خليل وريتشارد هل، ودكتور جورجى صبحى، والاساتذ عبد الفتاح حسن والاساتذ عبد الفتاح ابراهيم والاساتذ احمد عبد السلام كفافى، ودكتور محمد أحمد أنيس

دكتور عبد المجيد عابدين والسيد ابراهيم رياض المحامى والسادة عبد العزيز اسماعيل
واحمد عيسى وبدر الديب ، لاهتمامهم بالبحث وتشجيعهم على اتمامه ودكتور محمد
فؤاد شكرى لتوجيهاته ونصائحه التى كان لها أطيب الأثر فى اعداد البحث ودكتور
حسن عثمان للتشجيع والعون وكذا فضيلة الشيخ يوسف بهوى ، والسادة محمد كامل
ودكتور فردريك سايزاك ، محمد المعتصم سيد ، ومحمد عبد الرحيم ، وسيد مدنى
يحيى ، وحاج الشيخ عمر دفع الله ، وأحمد محمد صالح الزاهد ، عبد الفتى سعودى ،
صلاح الدين الشامى وعمر محمد علي ومحمد احمد الجابرى ، والآئنة ماريون لا بورده ،
واحمد محمد سلامه ، وعبد الرحمن الفصيل الشاطر ، ويوسف الآمين أحيمر ،
والمهندس المرحوم طه صالح والمرحوم الأستاذ محمد صلاح الدين الباقر ،
والى جميع من تفضلوا بإهداء المعونة .

كما أقدم جزيل الشكر على المعونة الصادقة التى قدمها السيد أنيس أبو فاضل
صاحب مطبعة أبو فاضل ، وللسادة أعضاء أسرة مطبعته .

وأعتذر للقارىء الكريم عما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مطبعية لم أنتبه اليها
عند مراجعتى الأصول .

الشاطر بصلى عبد الجليل

مقدمة

يحتاز السودان اليوم مرحلة دقيقة فاصلة من مراحل حياته ويضطرب حاضره بورااث عتيقة غائرة في تاريخه قروناً طويلة ، وهي تاج دورات متتابعة من الاستقرار حيناً والقلق والمكائد والفتن حيناً آخر . ومن الأصول العريضة التي تبني عليها النهضة السودانية الحديثة ، معرفة تاريخ السودان ، ودراسته دراسة موضوعية تطورية في شتى نواحي النشاط الانساني ، وهذه الدراسة تساعدنا كثيراً على تفسير الحاضر ، فاذا ما اجتمعت بين أيدينا ، معرفة ماضينا وحاضرنا ، سهل علينا أن نضع الخطوط الرئيسية لإرساء قواعد سليمة لمستقبل السودان ، دون أن نتعجل الأحداث أو ننحرف عن القصد أو نبأس من العلاج ، الذي قد يقتضى جهود أجيال متتابعة يعمل كل منها على إتمام عمل سابقه . ولابد إذلت من جهود غلبية مفضية ، يقوم بأعبائها نفر من أبناء الوادى ، يهبون أنفسهم للحق . فيتبعون مظاهر المرض ثم ينفذون إلى أسبابه .

والسودان مركز خطير في أرض العروبة والاسلام . فهو موطن لعدد كبير من القبائل ، التي ترجع بأصولها إلى عهد الدعوة الاسلامية ، وهو مهد للهجرات الدينية والتجارية ، بين أقصى أركان القارة الافريقية ، وبلاد الشرق بعامة وأرض الحجاز بخاصة . وقد اختلطت القبائل التي هبطت أرض السودان واندمجت بدرجات متفاوتة ولا تتم دراسة تاريخه إلا إذا رجعنا إلى تطورات الأحداث في الأفطار المجاورة التي كان لها أثر فعال في السودان .

والسودان أيضاً منزله في الاقتصاد الافريقى ، يحكم مركزه كعبر قلب القارة الافريقية ، التي يحاول الاستعمار الأوروبى أن يقيم فيها امبراطوريته الثالثة ، ويود الاستعمار أن يجعل من السودان دويلات ترضى لبعضها الدوائر . ولاشك في أن مستقبل أفريقيا وثيق الاتصال بمستقبل السودان ، وقدرته على الافادة من امكانيته الضخمة ، وتحريره لاقتصاده القومى ، من التيارات التي انحرفت به إلى أهداف جانبية ، ولا يتم لنا ذلك إلا إذا استطعنا توجيه المشاعر القومية ، في عمل دائم نحو هدف يعمل الجميع للوصول إلى تحقيقه . ففي طريق تحقيق هذا الهدف نذوب الفوارق ،

وتحل محلها روابط تزداد تماسكا وقوة من يوم إلى يوم ، ومن جيل إلى جيل في ظل حياة ، متكاملة الأركان واضحة المعاني سليحة الوسائل .

والكتاب الذى تقدم له ، يعطينا صورة للعالم الرئيسية لتاريخ السودان الشمالى من بدء ظهور الدعوة الاسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وما كان المجتمع من أثر في الهجرات ونشأة الدويلات العربية الاسلامية ، وتطور نظمها من إقطاعية مطلقة إلى إقطاعيات قبلية ، ثم قيام الحلف السنارى ، في بداية القرن السادس عشر الميلادى ، الذى قام على أساس «الجمهورية التجارية» ثم أخذت تقرب إلى ذلك النظام تقاليد وعقائد موروثه ، لم يكن من السهل على المجتمع التخلي عنها ، لاكثر من سبب . كما اهتم الكتاب ببيان أثر الدعوة الاسلامية ، في السودان وصراع المجتمع الحفى ، وهو الصراع الذى نشب بين الحضارتين المحلية والتي جاءت بها الدعوة الاسلامية .

وبينا نجد أن الذى كتب عن السودان ، في مختلف نواحي نشاطه ، كثير وكثير جداً لا يحصره العدد ، فإن المصادر الأولية لتاريخ السودان الاسلامى بالذات قليلة جداً ، وما وجد منها تضارب رواياته ، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتاب ، فوقع منهم من وقع في خطأ مقصود أو غير مقصود ، بسبب غموض العبارات الواردة في تلك الروايات ، الأمر الذى جعل أولئك الكتاب ، يحاولون تفسيرها في الصور التى بنيت عليها دراساتهم ، وبرزت في كتابتهم . وبالإضافة الى ذلك حاول هؤلاء الكتاب اعتبار التطورات المحلية كوحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحناها في البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعل مشتركة عناصره منها ما هو محلى وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وأثيوبيا . ولذلك فقد جعلنا المنهج الذى التزامنا في معالجة موضوع هذا الكتاب ، يقوم أساساً على تصوير المجتمع وتحليله من الناحيتين الموضوعية والتصورية ، لأن هذين العنصرين مرتبطان ارتباطاً يساعد على تفسير صحيح للأحداث الواقعية . واعتمدنا في هذه الدراسة كثيراً على روايات ووثائق محلية ، نشرها لأول مرة وقد أمدتنا بمعلومات تلقى ضوءاً على الكثير من التطورات والتنظيمات الخاصة بجهاز الحكم . كما أن هذه الوثائق قد ساعدت على تحقيق أصل البيت السنارى وهو الأمر الذى اختلفت فيه الآراء ، وبقي مشكلة معلقة كما ذكر كروفورد في كتابه «علكة الفونج السنارية»^(١) . بل اقترح كروفورد في كتابه ،

اجراء بحوث اركيو لوجية في منطقة الفونج ، للوصول الى حل لهذه المشكلة ، ولكننا استطعنا بفضل ما وصل اليه من روايات من شرق السودان ووثائق خطية مملوكة بفتح أحد السلاطين ، أن نقيم الحجة على أن هذه الأسرة قد انتقلت من جنوب غرب ارمينيا ، وهي المنطقة التي يبدو أنها قد مارست الحكم فيها الفترة من الزمن وقد ساعدنا على التحقق من الفترة السابقة لا تتقالم الى حوض النيل الازرق ، ما كتبه الرحالة داود رويني ، وما كشف عنه روسيني من آثار ، مقابر الفونج ، العديدة المنتشرة في منطقة حوض بركة والمناطق المجاورة .

وكشفت الروايات والوثائق ، التي اعتمدنا عليها عن وجود بعض سلاطين ، تولوا الحكم في سنار ، ولم ترد اسماءهم في المخطوطات المتداولة .

وكثيراً ما اعتمدنا على التقاليد والعادات المتبعة في اختيار السلاطين وتنصيبهم ولاية الملك . وما يتبع في ولاية المشايخ للمسيخة والمناجكية ، وبمقارنة ذلك بتقاليد الاقطار المجاورة يتبين في وضوح التيارات ، التي اثرت في تقاليد السلطنة ، والتي هي نتاج الطابع الديني ، المتغلغل في بناء المجتمع السوداني الذي احتفظ بذلك الطابع ، في صور تكيفت بالظروف القائمة من وثنية ومسيحية واسلامية ، وما زالت بعض آثارها مبلوغة حتى اليوم .

وينتهي موضوع البحث بالكتاب الثالث الخاص بامتداد الادارة المصرية الى السودان ، وظروف ذلك الامتداد ، وما أدخله من تعديلات على نظم الحكم ، وما كان لذلك من أثر في حياة المجتمع المحلي ، ولم يكن من السهل على المجتمع أن يتخلى عن تقاليده وعاداته الموروثة ، الامر الذي جعل الادارة المصرية تصطدم بتلك التقاليد ، وتدخل معها في صراع خفي ، وكانت هذه أولى تجاربها القاسية ، وقد حاولت مصر ارساء قواعد الحكم ، بما يتماشى مع حالة البلاد الواقعية ، وذلك بالمراسم التي أصدرها سعيد باشا خلال زيارته للسودان في ١٨٥٧م ، وكانت هذه المراسم نتاج ما اكتسبته مصر خلال ما يقرب من الاربعين عاما الاولى ، من امتداد الادارة المصرية ، غير أن الوقت الذي صدرت فيه تلك المراسم قد جاء متأخراً ، حيث اشتد الضغط الأوروبي على مصر في مسألة ابطال الرقيق ، وكان من نتيجته الاستعانة بالأوروبيين الذين اسندت اليهم مناصب ذات مسئولية من الدرجة الاولى في إدارة البلاد ، وقد عمل هؤلاء على تفويض الجهاز الاداري واقتصاده بادخال عناصر ضعيفة . واخذت بعد ذلك الاحداث في مصر تتطور في

سرعة فائقة ، واشتد التنكيل في السودان على يد الاوروبيين لتنفيذ ابطال الرقيق ،
بوسائل عنيفة وصارمة ، أحدثت فجوة عميقة القور في المجتمع السوداني ، تعطلت
معها اسس الاقتصاد القومي ، التي أسهم فيها الرقيق بتصيب واخر .

وقامت في مصر ثورة عرابي التي استغلها دهاقنة عرسوا بتمزيق الشعوب
وتحطيم قيمها واتلاف نفوسها وعقائدها ، فجاءت الجيوش البريطانية الى مصر ،
لفشل الحركة الوطنية ومساندة الخديو ، وهي في الحقيقة وواقع الامر تستخدم الطرفين
المختصمين لمصلحتها للسيطرة على وادي النيل .

وفي السودان أخذت الدعوة المهدية ، مظهرها السافر وحاول عبد القادر باشا
حلي معالجة الموقف ، بالطريقة التي تناسب مع الوضع المحلي ، ولم تمهله السيطرة
البريطانية من اتمام خطته ، فكان استدعاؤه وتعيينه هكس تنفيذياً للنصيحة البريطانية ،
كما كشفت عن ذلك الوثائق ، وسيطر هكس بدوره على الموقف في السودان ووجهه
لخدمة مصلحة بلاده ، لتيمة الفرص المناسبة للانفراد بالسودان ، وابعاد الادارة
المصرية ، وبدأ الصراع بين الدول الاستعمارية ، وقد تعرضنا في هذا البحث لمختلف
المراحل والوسائل التي تدرعت بها تلك الدول للتدخل في حوض النيل ، والتي برزت
في صورة معاهدات واتفاقات ، وهدفتنا من هذا العرض المتتابع ، ربط الحلقات
بعضها ببعض للوصول الى نتائج ، واضحة المعالم تبين لنا الاهداف ، التي رسمتها
الدول الاستعمارية .

ومما لاشك فيه أن صاحب الرسالة المهدية ، كان يهدف ، أولاً وقبل كل شيء ،
الى الدعوة الى اصلاح ماقد كان في نظره مغايراً للطريق التزيم ، إلا أن سرعة تطور
الاحداث ، في الداخل وملاساتها في الخارج ، قد انتقلت بالدعوة التي بدأت كظاهرة
اجتماعية تجاوبت مع الشعب ، فتشكلت بالمظهر الديني العنيف ، مخالفة في ذلك
معاهدناه ، في مثيلاتها في الفترة التي سبقت امتداد الادارة المصرية الى جنوب الوادي ،
وهذه الظاهرة بعيدة العمق متأثرة بحالة المجتمع ، وتنطلب هذه الظاهرة دراسة
أكثر توسعاً وعمقا وذلك بمقارنتها مع الحركات الدينية المماثلة التي قامت في شمال
أفريقيا وفي الجزيرة العربية وغيرها ، وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد
تميزت الدعوة المهدية السودانية بطابعها المحلي الخاص . وسوف يكون لهذه الدراسة
خطرها في توضيح مواضع الضعف ، التي أفاد منها المستعمرون ، في صورة او اخرى
للاوصول الى اهدافهم .

وتنتهى دراسة هذا الكتاب ، بعرض تطور الصراع الاستعماري بين الدول الكبرى ، وانتقال ميدانه الى حوض النيل الأعلى وأثيوبيا ، وذلك في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي .

ولايقتونا أن نذكر أننا لم نتعرض في صورة تفصيلية ، لهجرات القبائل وترحالها من دار الى أخرى ، بل اكتفينا بدراسة عامة تتناسب مع موضوع الكتاب ، وأملنا كبير في أن يتوفر نقر من أبناء الوادي ، للاهتمام بهذه المسألة اهتماما إليميا لغويا وتتصل جهودهم ، حتى يتضح الماضي الذي به نستطيع فهم الحاضر وبناء المستقبل . ونرجو أن يعنى الباحثون بدراسة المرأة السودانية ، وان تحظى بالعناية اللائقة بالدور الذي لعبته في حياة المجتمع ، فقد اسهمت بنصيب وافر في النشاط اليومي الخاص والعام ، وكانت مصدر قوة محركة خطيرة لها نفوذها وسيطرتها ، الامر الذي تميزت به عن اخواتها في الكثير من دار الاسلام .

ولاشك في أن أبناء الوادي اقدر على فهم مشاكله على وجهها الصحيح ، والله الموفق الى طريق السداد .

مؤشبة البكري

١ - ج ٠ ع

القاهرة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٤

فصول البحث

١ - تقديم السيد الأستاذ الكبير محمد شفيق غريال

٢ - تعريف

٣ - مقدمة البحث

الكتاب الأول : السلطنة السنارية في موطنها الأول

تمهيد : الوضع الاقليمي ، تعريف اقليمي ، السكان ، الاسلام ووادي النيل الأوسط ، تطور العلاقات بين البيت السلياني والمسلمين ، تطور الصراع وأثره في السودان ، الوطن الأول للأسرة السنارية ، هجرة السلطنة إلى موطنها الجديد . توزيع السكان في حوض النيل الأوسط السكان المشتغلون بالزراعة والتجارة في السودان ، مناطق الرعي والزراعة البدائية . تطور المجتمع السياسي ، المجتمع ، بنيته ، حياته ، مظاهر نشاطه الاجتماعي نظام الحكم والاقطاع ، التنظيمات الاقتصادية .

ص ١ - ٦٧

الكتاب الثاني : السلطنة في حوض النيل الأزرق

عرض - الحلف السنارى ، زعامة سنار ، تنظيمات الحكم - الجمهورية التجارية . ازدهارها ، حروبها ، تدهورها ، انتقال السلطة لوزارة الحق ، الترتيب الزمني لولاية الحكم ، التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليد ولاية الحكم ، ملقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم ، مراسيم تقليد المشيخة ، مراسيم الاستقبال عند السلاطين ، مراسيم تقليد الخلافة الدينية ، مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلي ، تقاليد الاستقبال عند الفقهاء .

ص ٧٠ - ١٢٣

الكتاب الثالث : من امتداد الادارة المصرية إلى السودان إلى نهاية القرن

التاسع عشر . السلطنة في سنواتها الأخيرة . الملك نمر والعذر باسما عيل بن محمد علي . تنظيمات الادارة الجديدة . التنظيمات الضريبية ، الاعفاءات الضريبية ، التنظيمات الادارية اداة الحكم ومشكلاتها ، مشكلة الرقيق ، أصول النخاسة في العصر الحديث ، تطور مسألة الرقيق ، الرقيق في دار الاسلام الرقيق وسيلة للضغط

السياسي ، الرقيق في الدعاية المفرضة ، دخول مسألة الرقيق في المعاهدات ، معاهدات الرقيق . لكسب حقوق النشاط البريطاني وحلته هكس . التمهيد لسياسة الاخلاء ، تنفيذ سياسة الاخلاء ، قتل سياسة الاخلاء اخفاق حملة انقاذ غوردون . فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق . مقاليد الادارة في يد الأوروبيين .

المهدية : الدعوة المهدية وظروفها . الامام المهدي ترجمة حياته مركز السودان في الصراع الدولي في حوض وادي النيل . تمهيد ، تطور الصراع بين الدول ، القواعد التي بدأ منها زحف الاستعمار ، المنطقة الشمالية حوض النيل الأدنى والاطوسط ، المنطقة الشرقية ، اثيوبيا والقرن الافريقى — كنيا ، أوغندا ، شرق أفريقيا . المنطقة الغربية غرب أفريقيا الفرنسية ، الكنفو الحرة — البلجيكية فيما بعده تجمع الزويدة في غاشودة ، خروج الفرنسيين — الاتفاق الودى بين الدولتين سنة ١٩٠٤ م . ص ١٢٥ — ٢٤٨

الملاحق :

٢٥١ — ٢٥٣	الملاحق الأول — مخطوطة الشيخ أبو دلق
٢٥٤ — ٢٥٥	الملاحق الثاني — وثيقة عن حفريات روينى
٢٥٦ — ٢٦٠	الملاحق الثالث — تاريخ مدينة أوجي
٢٦١ — ٢٦٢	الملاحق الرابع — خطاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦٣ — ٢٦٦	الملاحق الخامس — التفسيات الزراعية والمعاملات
٢٦٧ — ٢٦٨	الملاحق السادس — خطاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان إلى الشيخ القرصى
٢٦٩ — ٢٧١	الملاحق السابع — خطاب السلطان محمد بإدي عجيب
٢٧٢ — ٢٨٢	الملاحق الثامن — وثائق احمد ممتاز باشا
٢٨٣ — ٢٨٥	الملاحق التاسع — خطاب هنرى ستانلي

فهرست الخرائط :

رقم	صفحة	
١	٢٨٦	خريطة لسودان وادى النيل
٢	٢٨٧	المناطق الاقليمية كما يعرفها أهل البلاد
٣	٢٨٨	السلطنات الاسلامية في اثيوبيا في القرن الثالث عشر الميلادى
٤	٢٨٩	الدويلات الاسلامية في اثيوبيا في القرن السابع عشر الميلادى
٥	٢٩٠	خريطة الديار القبلية التى تكون منها الحلف السنارى
٦	٢٩١	خريطة موقعة الزكيات (التكنية)
٧		الصراع الدولى في حوض النيل الأعلى في نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

فهرست الصور :

١٢٣	الطائفة أم قرين
١٢٨	الملك نصر الدين أبو حجل
١٢٨	الأمير أبو مدين
١٣١	الملك نمر

فهرست الوثائق المصورة :

٢٦١	كتاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦١	كتاب سلطان الفور محمد الفضل
٢٦٧	كتاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان
٢٦٩	كتاب السلطان محمد بادى عجيب
٢٨٣	كتاب هنرى استافلى
٢٩٥ — ٣٠٨	مصادر البحث
IV-X	مقدمة بالانجليزية

« تصويب »

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٥	٤	تطور	تطور
١٦	٢٥	قوات	قوات
١٨	٢٧	بنقاراس	نيكواس
٢٤	١٠	دراقور	دارفور
٢٥	٢	هذف	هذا
	١١	اريجي	اريجي
	١٤	الوادي	الرأي
	٢٦		يضاف الى هامش ٦٢ (الطر للحق الثالث)
٢٩	١٩		انكس ٧٩ في آخر السطر
٤٠	٢٦	خريطة نمرة ٥	خريطة نمرة ١
٤٦	٨	شمعون	شمعون
	١١	تاريخ العرب	تاريخ العرب
٤٧	٢٥	كرئيس	كرئيس
٥٦	١٠	حنكه	حرر كه
٨٥		هامش ٢٣ ، ملحقين نمرة ٨ و ٧	ملحقين ٤ و ٧
٨٧	٢١	الذهبية	الماذهبية
١١١	٢	الوعي	الرعي
١١٢	١٩	مجاته	مجاته
١١٦	٥	الرب	الغرب
	١٧	تقلب	تلقب
١٧٢	١٤	جورج سينتور	ادوارد شينتزور
٢٢٣	١٤	ارتباط	ارتباط

الكتاب الأول

السلطنة السنارية

في

موطنها الأول

تمهيد

١ - الوضع الإقليمي :

بلاد السودان (١) ، أو «سودان وادي النيل» على وجه التحقيق والتحديد ، يحتل في حدوده الادارية ما يقرب من ألف ألف من الاميال المربعة ، وهو في ذلك يعادل مجموع مساحة ثمان دول أوربية هي : السويد ، النرويج ، الدانمرك ، الجزر البريطانية ، إيطاليا ، اسبانيا ، فرنسا والبرتغال . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين بين حدوده ما يقرب من الأربعمئة والالف من الاميال طولاً ، وما يقرب من المائتين والالف من الاميال عرضاً . وتبدأ حدوده الجنوبية من شمال خط الاستواء ، وتنتهى في الشمال عند منطقة وادي حلفا . وتقع على حدوده الجنوبية ، أوغندا والكنغو البلجيكي ، وشرقاً أثيوبيا والارتيريا ، والبحر الاحمر . وغرباً أفريقيا الاستوائية الفرنسية وليبيا . وشمالاً القطر المصري ، الذي يسكون الشطر الشمالى لوادي النيل . ويجرى النهر مختزفاً مناطق متباينة . وكان من نتيجة هذا التباين تكوين مجموعات من السكان ، خضعت كل منها وتكيفت حياتها بما تتطلبه البيئة الخاصة بكل منها . ويقسم السودان بين أهله إلى قطاعات ، لكل منها مميزات الخاصة وهذه القطاعات هي : —

(١) « دار صباح » (مشرق الشمس) وتشمل البحر الاحمر ومنطقة البطانة وتنتهى جنوباً عند حوض نهر الوهد والدندر .

(٢) « الصعيد » وتشمل المنطقة الواقعة جنوب شرق الخرطوم (حوض النيل الازرق) والجزء الشرقى من النيل الأبيض شمالى كوستى .

(٣) « الجنوب » ويشمل البلاد الواقعة جنوبي بلدة كوستى على النيل الأبيض ويكون القسم الاول من هذه المنطقة ، وهو « كوستى حتى الملكال » على طول النيل الأبيض - المعمر أو المدخل إلى الجنوب الرئيسى ، الذى يشمل حوض بحر الغزال والروافد التى تنصب في مجرى النيل في تلك المنطقة .

(٤) « دار غرب » (مغرب الشمس) وتشمل ثلاث مناطق ، أولها

(١) هذا الاسم يشمل أصلاً البلاد من ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً . وعرف به القسم المسكون لجنوب وادي النيل في الفترة الحديثة كما عرف السودان الغربى بالسودان الفرنسى . وكلمة السودان التى يقصد بها بلاد السودان كلمة غير واضحة الحدود .

كردفان ، وثانيتها دارفور ، وثالثتها جبال تفل والنار وغيرها من مجموعة جبال النوبا ، وتعرف عالياً بالجبال .

(٥) ، السافل ، وتشمل جميع المناطق الممتدة على جانبي النيل شمال الخرطوم إلى وادي حلفا .

وتسكن هذه المناطق مجموعات من القبائل والبطون عرفت مواطنها بأسم القبيلة الكبرى صاحبة النفوذ والنفوق مثل دار الشايقية ، دار المحس ، دار الميرقاب ، دار جعل (٢) ، الدشا (البجة) لشكرية ، وغير ذلك مما ستعرض له تفصيلاً في موضعه من هذه الدراسة .

• • •

وإذا رجعنا إلى خريطة عامة عليها أفريقيا ، شمال خط الاستواء ومعها ذلك الجزء من آسيا غربي صحراء غربي والخليج الفارسي وحوض الدجلة والفرات كذا حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإنه يتبين لنا حوض النيل في شطريه الشمالي والجنوبي (مصر والسودان) ويربط عن يمينه حوض البحر الأحمر . الأمر الذي ازدادت معه أهمية حوض وادي النيل من الناحية الاستراتيجية العامة ، فوادي النيل حلقة متصلة بموارد المياه ومواطن الحصب في القارة الأفريقية ، ويربط البحر الأحمر بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، الذي يخرج إلى المحيط الأطلسي ، وبعبارة أخرى فإن حوض النيل يحتل مركزاً يلتقي عنده الشرق والغرب ، في تجارته كما أنه مفتاح القارة الأفريقية ، وكان طبيعياً أن تربط بين شطري الوادي مصلحة مشتركة لذات حوض النيل ، وهما الحارسان على هذا المدخل الطبيعي ، وإذا رجعنا إلى هجرات المجموعات البشرية ، في داخلية المنطقة بين صحراء غربي والمحيط الأطلسي شمال خط الاستواء ومنها من دخل أفريقيا ، أو خرج منها سواء كان ذلك عن طريق القرن الأفريقي (بوغاز باب المندب وما حواليه) ، أو عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق برزخ السويس ، فالتا نجد الكثير من المجموعات ، التي تكونت منها الهجرات ، قد دخلت رحلتها في حوض وادي النيل ، وفيه بقيت لعشرات من الزمن تفاوت أجلها بالقدر الذي كانت تمليه الظروف المحلية ، ولا نريد ونحن في هذا المقام أن نتعرض

(٢) الجليليون - الذبح تقول نسبهم لهم يسمون إلى إبراهيم اجعل - فقد تكون هناك جماعات تنسب إلى هذا القبلي وهذا لا يغير من حقيقة الواقعة حيث - ومع ان هذه المنطقة تسكنها جماعات تنتمي إلى أكثر من مجموعة ليس بينها رابط مع - إبراهيم عمل - المقصود من نسبهم شجرة الأنساب التي تحتفظ بها القبيلة .

إلى تفصيلات تلك الهجرات ، وما إلى ذلك من امتداد الحضارة والمدنية ، وفتح أسواق جديدة . وهذه المسألة الخاصة ، تتطلب بحثاً يقوم به اختصاصي وحتى بعد تقدم المواصلات في أفريقيا ، وفتح شواطئها المختلفة للتجارة الأوروبية ، فإن وادي النيل ما زالت له أهميته وخطورته الاستراتيجية في أفريقيا . فهو اليوم ملق المواصلات المختلفة والمستودع الذي تدخل عن طريقه المؤن والعتاد ، في حالة الحرب التي تشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط .

٢ - تعريف أقليمي :

١ - الأقليم :

عرّفت بلاد السودان قديماً بأرض كوش . وقد ورد هذا الاسم في قراءات متعددة في ألواح تل العمارنة ، (التي كتبت في القرن السابع عشر قبل الميلاد) فقد ورد هذا الاسم في تلك الألواح كاشو (Kasho) كاشا (Kasha) كاشا (Kashsha) كاسي (Kasi) كاشي (Kashshi) ، (٣) وقد وردت في لوحة الملك عزانه . نجاشي اثيوبيا ، كسو (Kasu) وفي اللغة المروية . ن س ، أو ، ق ص ، . وهذه أقرب في نطقها إلى قصي وقد كتبت هذه الكلمة في صور أخرى منها . كرما (Kersa) ، كرسى (Kersi) ، كرتينا الخ الخ (٤) . وقد حاول الكتاب القدامى ربط هذه الكلمة بـ كوش ، من أحفاد نوح عليه السلام . وليست هذه إلا محاولة خاطئة ، لأنها تقوم على توزيع سكان الأرض بالنسبة إلى أبناء وأحفاد سيدنا نوح ، ولا يستند هذا التوزيع إلى أساس علمي . وإذا رجعنا إلى التوراة (٥) ، نجد أن كوش التي وردت فيه ، قد اقترنت مع صور ، في موضع ، ودلت في مواضع أخرى على مناطق بعيدة كل البعد عن المنطقة جنوبي الشلال الأول ، فهناك منطقة كيش (٦) في العراق وعرفت بهذا الاسم في صورة أو أخرى ، متأثرة باللهجات المحلية جماعات سكنت بابل

(٣) بندج ٣ ، جزء أول ، ص ٢ - حوالي ص ٥٧٠

(٤) بورخارد ص ٥٠١ . ابن حوقل ، ٥٧

(٥) كوش الابن الأول لواءه حام - التكوين ، الأصحاح العاشر آية ٦ ، أشعيا اصحاح

عشرون ، آية ٤ وما بعدها - مزايير ، المزبور السابع والثمانون آية ٤

(٦) جواد علي ، أول ، ص ٢٠٦ وما بعدها - قام فريد بدراسة هذه المنطقة وكتب عنها

أيضاً كبرس .

كما عرفت بها جماعات في اليمن قيس ، ومن الصعوبة يمكن تحديد العلاقات والصلات ، التي تربط بين هذه المجموعات ، التي قامت في أجزاء متباعدة في آسيا وأفريقيا ، وتحقيق هذه المسألة يتطلب دراسة منظمة .

وقد كان الكتاب من العرب ، أكثر تدقيقاً من الاغريق في تحديد المنطقة جنوبي الشلال الاول ، وتعريف مناطقها بأسمائها القريبة من الصحة ، ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن كوش أو ، كاسو ، ألخ التي عرفت بها البلاد جنوبي الشلال الاول لم يكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعدداً والمعروف أن هذه القبيلة قد سكنت حوض النيل الأزرق و قبيلة - ديجون ، (٧) في حوض نهر العطربة - و قبيلة المقرة (الماكورة) قد سكنت منطقة دنقلة ، و قبيلة توب (التوبه) ، في المنطقة بين الشلالين الاول والثاني ، وقد شاركت هذه القبائل في مواطنها بعض الجماعات الصغيرة التي بلغ بعضها مرتبة من القوة والكثرة العددية . الأمر الذي جعل تفوقه وانتزاع النسبة للدار التي يقطنونها ، كما أن بعض هذه المجموعات الصغيرة ، قد اختفى باعتصامه في البيئة المحلية الغالبة ، أو بالهجرة تحت ضغط الظروف المحلية .

٢ - الشلال :

وقد استطاعت هذه القبائل ، بعد هجرتها من شمال الوادي دفع السكان القدامى (٨) تدريجياً نحو الجنوب ، حتى شملت منطقة نفوذهم رقعة من الأرض من الشلال الاول ، حتى حوض النيل الأزرق ، ومن هنالك أخذت في الانتشار ، في شكل مروحة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمال شرق نحو اثيوبيا والبحر الاحمر . وحملت معها أسس الحضارة المصرية ، وتأثرت هذه القبائل بعض الشيء بالبيئة المحلية ، وذلك بدخول عادات وتقاليد محلية - انطبعت بالطابع الفرعوني .

وقامت في البلاد أكثر من زعامة ، في حدود المناطق الإقليمية التي يتكون منها الجزء الأوسط من حوض وادي النيل (السودان) ، وسيطرت على هذه الزعامات أمره اتخذت مدينة ، نوب تاء ، عاصمة لها . وفي عهد هذه الأسرة هاجرت إلى

(٧) مكمل تاريخ العرب في السودان ص ١٧١ جزء أول .

(٨) أركل نبذة عن تاريخ السودان .

الجنوب جنود إسماتيك^(٩) . البالغ عددهم حوالى الربع مليون ، وقد أقطعوا منطقة النيل الأزرق . وانتقل الحكم من نوب تا ، الى « مرو » فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب امتداد النفوذ الرومانى إلى مصر ومنها إلى شاطئ البحر الأحمر جنوبى سواكن للسيطرة على طرق القوافل والتجارة مع الشرق . واستمر الحكم فى « مرو » حتى هجوم عيزانا ملك أثيوبيا ، على حوض نهر العظيمة وتخريب ملكه « مرو » فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، وقامت بعد ذلك ملكة علوة^(١٠) ، وقوامها من المصريين أحفاد جنود إسماتيك .

وانتقلت البلاد من الوثنية المسيحية ، فى صورة ما ، واحتفظت زعامتها بالطابع التجارى ، الذى تميزت به طوال الأحقاب الماضية ، واستمرت هذه الزعامة تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى الحكم السنارى ، ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الزعامة التجارية ، قد قامت فى مختلف أطوارها فى زاوية معينة . وهى نقل التجارة عن طريق الحصول على عمولة الوسيط ، أو الحصول على رسوم حماية التجارة فى طرق القوافل الخ . ولم تكن هذه الزعامات ، فى وقت من الأوقات بقيام صناعات محلية . أو غلات للتصدير على صورة كبيرة - وبقت المسيحية بتجاهلها المذهبات الملكاني واليعقوبى حتى ظهور رسالة الاسلام فى وادى النيل ، وعند ذلك أخذت الأحوال فى التطور التدريجى كما سنبينه فيما بعد .

٣ - الإسلام ووادى النيل الأوسط :

جاء الإسلام إلى الجزء الأوسط ، من حوض وادى النيل (السودان) ، عن طريق مدخاين هامين أولهما وفق الترتيب التاريخى ، أثيوبيا ، وثانيهما شمال الوادى (مصر) . وجاءت عن طريق أثيوبيا جماعات قليلة العدد ، بينما عبرت مصر إلى السودان مجموعات متلاحقة فى أعداد وفيرة ، كما سنعرض له فيما بعد . جاء الإسلام فى السنوات القليلة التى تلت وصول الهجرات الإسلامية إلى أثيوبيا فى عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من هجرات أخرى بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة فى البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانئ العربية ، إلى اختلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب

(٩) الشاطر بصلى و النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق ... الخ

(١٠) المصدر آتى الذكر

الغربي للبحر الأحمر ، لحاية المصالح التجارية ، من عدوان سكان الجانب الأفريقي (١١) ومن هذه المحطات وغيرها ، التي امتدت على طول الشاطئ الأفريقي ، حتى بحر الزنج (١٢) ، أخذت الجماعات الإسلامية في التغلغل داخل البلاد ، في الحضبة الأنثيوبية وحوض وادي النيل الأوسط ، كما تمكنوا (١٣) من إنشاء ولايات إسلامية في نطاق الوطن الأنثيبي (١٤) .

وفي الوقت الذي أخذت فيه الجماعات الإسلامية ، في الانتشار على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، الذي عرفه العرب منذ أقدم العصور كان المسلمون قد دخلوا شمال الوادي (مصر) ، وأخذوا في العمل على امتداد نفوذهم نحو البلاد ، جنوبي الشلال الأول ، ومن الملاحظ أن تلك البلاد ، لم تكن في اعتبار المسلمين أرض جهاد ، بوصفها من بلاد الحبشة ، التي وجدت فيها أولى الهجرات الإسلامية ، خير رعاية من النجاشي (١٥) وبهذا السبب نأثر مسلك المسلمين في تلك المنطقة الشرقية من السودان ، وكان لذلك المسلك طابعه السلي المتراعى الانجهاات ، والذي انتهى إلى

(١١) قام الفراسة من أهل الجانب الأفريقي للبحر الأحمر بهجوم على « بناء جدة وخريبوها » وكان ذلك في عام ٧٠٢ م وخشى المسلمون أن تتهدد الفراسة إلى الباخل فوصل إلى الأماكن المقدسة . لذلك عمدوا إلى احتلال مجموعة جزائر دهلك (تتسكون هذه المجموعة من جزائر كثيرة وأهم السكون منها دهل ، حران ، كيارى ، دركة ، ديقاربخ ، نوره ، نقره ، وبطلق اسم دهلك على جميع الجزر .

(١٢) أنشأ العرب محطاتهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر في سواكن ، باضع ، أو تاسي ، دهلك ، زياح ، بربره ، مقديشو ، سرخه ، براوه ، محيا - عزانيا (زنزابر) وقد بادلت عيذاب مع سواكن المركز التجاري .

(١٣) عثر بعض الأنجليز في عام ١٩٠٥ م على قبر لعربي في « رودسيا » وغايه مادل على على اسم صاحبه « سلام للتوفى في عام ٩٥ هجرية (٧٠٤ م) كما وجدت آثار عربية في مختلف البقاع الأفريقية (الرواد لغواد صروف ص ٨٧) .

(١٤) إنشاء المسلمون سبعة ولايات إسلامية في أنثيوبيا وهي أودت - دواو - اريبي - أو عريبي أصلها آويين - حديه - سرخه - أو سررك - بلي - دارا (أنظر الخريطة لمر ٣) .

(١٥) أحمد النجاشي كما جاء في الرواية العربية بيننا نجد أن الروايات الأنثيوبية وغيرها قد التزمت الصمت عن هذه الواقعة ، وفي هذا النجاشي موجود بين فريقين حوزين وألمبي . وقد زاره الامام أحمد القرن في النصف الأول من القرون السدس عشر الميلادي . وقد قام مؤخرأ بتجديد بناء الضريح الحاج (إزماع محمد عبده من أهالي عدوه كما ورد في كتاب أنثيوبيا - عمر محمد على ص ١٤٢ - طبع القاهرة ١٩٥٤

قيام الولايات الاسلامية في أنيوبيا ، وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة ، بين داخلية البلاد الأنيوبية وحوض وادي النيل الأوسط وما وراء ذلك من البلدان الأفريقية من جهة ، وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى .

ويجمل بنا أن تعرض بعض الشيء إلى مجريات الحوادث في البلاد الأنيوبية ، خلال الفترة التي سبقت قيام البيت الساري في حوض النيل الأزرق ، وذلك لتمكن من تتبع التطورات وأثرها ، في حوض النيل الأوسط ، وبما لاشك فيه أن « أنيوبيا » عنصر له خطره ، في دراسة المنطقة الشمالية الشرقية لأفريقيا بسبب موقعها على القرن الأفريقي ، وساحل البحر الأحمر ، ومنها يخرج النيل الأزرق وروافد النيل الأخرى ومن شاطئها المطل على البحر الأحمر والزنج ، أخذ النشاط العربي الاسلامي في الازدياد ، حتى تم للسليدين عزل أنيوبيا عزلا تاما عن العالم الخارجي بخاصة بعد استيلائهم على ميناء زولا (١٦) نهر أكسوم ، ومخرج أنيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر فاقطعت علاقات أنيوبيا مع البلدان الأجنبية ، حتى قال جين ، لقد رقدت أنيوبيا في سبات عميق زهاء الألف عام . تسوا قيا العالم الذي تساهم (١٧) . وقد سببت هذه العزلة تدهور حالة البلاد الداخلية ، وقامت ولايات متطاحنة فيما بينها ، لتولى الزعامة كما ضعفت العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية . وقد مكنت هذه الحالة المتدهورة من قيام جماعة من الفلاشة (١٨) بثورة في أواخر القرن العاشر الميلادي ، انتقل معها زمام الحكم إلى أميرة يهودية ، اسمها امتر أو اسات ، وقد حاربت هذه الماركة الديانة المسيحية ، وخربت الكنائس . وقد استنجد النجاشي بملك النوبة جرجس ، دون جدوى . ونقل مؤرخ عربي عاجاء في كتاب النجاشي لملك النوبة ، حيث يقول : « هو امرأه ملكة على بني الحموية ثارت عليه ، وعلى ثورته . وسببت منها خلق كثير ، وأحرقت مدن كثيرة ، وأخربت البيع ، وطرده من مكان إلى مكان ، بنى الحموية دين الحموية الحموية . ملكة على دين اليهودية ، أزال أمر الأمراء ، التي قامت عليهم (هوان) . وكان اسم الملك في ذلك الزمان ، لالماسه ابن شنو (١٩) ، وهو تفسيرها أسد واسم امرته مسقل كبرى الذي تفسيره عظيم هو الصليب (٢٠) ..

(١٦) تقع « زولا » أو « أدولس » في منتصف الجانب الغربي من خليج « أرقي » وهو القسم الجنوبي من خليج « أنلي » الذي تقع عليه مدوح وفيه مجموعة جزائر دهاك .

(١٧) جيون ، الفصل السابع عشر .

(١٨) الفلاشة يطلق على اليهود . القاضين في أنيوبيا وهم من الين .

(١٩) شنو سحبتا شنو معناها أسد .

(٢٠) جويدي في مجلة الأسبيرة الإيطالية س ١٨١/١٦٤ ، دج ٣ ، جزء أول ص ٢١٤

وحكمت أسرة هذه الملكة حتى عام ١١٢٧ م حيث انتقل الحكم إلى البيت الذي عرف بالزغوى . وقد اوتد الكثيرون عن مسيحياتهم إلى اليهودية والوثنية وذلك لأن المسيحية لم تكن قد رسخت كعقيدة يؤمنون بها . وبينما كان البيت الأول (أسرة الملكة أستر) على دين الموسوية - يضطهد المسيحيين ويتعقيم قان البيت الزغوى قد أحسن معاملة المسيحيين . وقد استطاع المسلمون في الفترة التي قضاها هذان البيتان في الحكم ، من التوسع في بسط نفوذهم الاقتصادي ، وامتداد رسالتهم إلى جزيرة ، مرو^(٢١) ، ويعتقد أن البيت الزغوى قد دان بالمسيحية ، وهذا أمر مشكوك فيه ، لأن بطارقة الكنيسة الأرثوذكسية لم يتعاونوا مع هذا البيت . عند اعتلائه الحكم وأظهروا معارضتهم^(٢٢) ، الأمر الذي جعل بعض ملوك هذه الأسرة يحاولون بدعائهم صرف الأهلالي عن الكنيسة التي يرأسها المطران القبطي ، والاتجاه إلى المكنائس التي بنوها تحت رعايتهم . وذلك لتخفيف مقاومة المطران ، غير أن هذا الاتجاه في الواقع قد ساعد على توسيع شقة الخلاف ، التي أضغمت من نفوذ البيت الزغوى . لأن السكان وهم من البدائيين المفرقين في البداوة ، يصعب جداً أن لم يكن من المستحيل صرفهم عن معتمد على هذه الصورة . وتبع ذلك أن سلطة الملوك لم يكن معترفا بها إلا في مناطق محدودة ، واشتد التوتر والتدمير ، لفصل الكنيسة عن الدولة مما مهد لانتقال الحكم إلى البيت السليمانى .

٤ - تطور المعرفات بين البيت السليمانى والمسلمين :

لقد كان من أثر استعادة هذا البيت للحكم ، في أعقاب الأسرة الزغوية ، تبدل في العلاقات . الأمر الذى أخذ مظاهر وألوان متباينة ، من الاضطهاد والعدوانية ، والنجاحات كان في خشية من قيام المسلمين بتدمير ، لإقصاء أسرته عن الحكم وإرجاع البيت الزغوى ، الذى حكم البلاد زهاء أربعة قرون . وقد وجد النجاشى أن المسلمين يسيطرون سيطرة كاملة على التجارة ، بين موانئ البحر الأحمر وداخلية البلاد الأفريقية بعامة ، وحوض النيل وأثيوبيا بخاصة . وكانت الموانئ واقعة في أيدي المسلمين . الأمر الذى جعل موارد أثيوبيا وعلاقتها مع خارج البلاد ، في قبضة

وما بعدها - روسبي ، جزء أول ص ٢٨٥ - ٢٨٦ - ديج ٢ ، جزء أول ص ٢٢٣ / ٢٢٤

(٢١) ديج ٣ ، الجزء أول ، ص ٢٨٤

(٢٢) يحتمل أن تكون معارضة الكنيسة الأرثوذكسية لغلالات مذهبها كما يحتمل أن يكون هذا البيت قد حاول أن يحيي تقاليد اللوروة في ظل الكنيسة المسيحية .

المسلمين وكانت من نتائج ذلك ، اختفاء المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة بالتجارة في الماضي ، ومنها مدينة «أكسوم» التي فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربي على ساحل البحر الأحمر . وأصبحت البلاد بأزمات اقتصادية ، بسبب ما حدث من جذب وقحط تولدت عنه المجاعات . وخلق هذه المشاكل المتاعب للبيت السلياني الذي رأى العمل على الحد من نشاط المسلمين ، ومن سيظفهم على مرافق التجارة . وطرق القوافل ، وأول خطوة قام بها النجاشي ، كانت محاولته عقد اتفاقات مع الولايات الإسلامية ، في الوطن الأثيوبي . يعترف فيها المسلمون بالسيادة المطلقة للنجاشي ، مقابل ضم بعض المناطق إلى هذه الولايات . وقد كان من نتائج هذا المرض أنسب أضعف من حدة الحركة ، التي أراد القيسام بها رجل من رجال الدين يدعى «محمد أبو عبد الله» الذي تراءى له أنه مبعوث العناية الإلهية المكلف بفتح بلاد أثيوبيا . وقد جمع حوله الكثير من الرجال من قبائل الجبال والصومال . وأعدهم للجهاد . وكانت هذه الجماعات من الجبال والصومال ، من المجموعات البدائية المفردة في البداوة ، التي جعلت إقادتهم من تعاليم الدين وتنظيماته للمجتمع غير ذات أثر . فقد كان الأمر بالعكس ، فأنهم استطاعوا أن يكتفوا التعاليم الدينية ، بما يتماشى مع عاداتهم وتقاليدهم القبلية . وكان من الهين إثارة أمثال هؤلاء وحشدهم ، في عراك يجحدون فيه إشباعاً لروحهم القبلية ، وكسباً مادياً مما سينالهم من الغنائم ، واستطاعت هذه المجموعات أن تخلق من الزعامة الدينية قوى منافسة للسلطين الذين كان هدفهم من الحكم ، هو المصلحة التجارية فقط . ولم تكن هنالك روابط تجمع بين سلطين الولايات الإسلامية التي قامت في الوطن الأثيوبي . وتسبب عن ذلك تغلب النجاشي على الولايات الواحدة تلو الأخرى وإخضاعها لسلطانه .

استمرت الحروب الداخلية ، بين المسلمين والأثيوبيين ، حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وقد بدأها أول ملك من البيت السلياني ، «يكون أملاك» ، (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وخلفه يقبه صبيون (١٢٨٥ - ١٢٩٤) ، الذي شن حرباً عدوانية سافرة ضد المسلمين . وقد حاول النجاشي إخفاء أهدافه السياسية وذلك باستغلال الأزمات ، التي كانت تحدث بينه ومصر بسبب المطران المصري في كرمي أثيوبيا (٢٣) ، أو بسبب ما كان يبلغه من اضطهاد سلطان مصر الأقباط . وقد يتبادر

(٢٣) حاول النجاشي «يكون أملاك» أول ملك في البيت السلياني بعد الأميرة X

إلى الذهن أن أسباباً دينية ، هي التي دفعت إلى هذا العدوان من جانب النجاشي على الولايات الإسلامية ، وهذا غير صحيح على الأقل في مراحل الصراع الأولى ، التي استمرت أكثر من قرنين ، والتي دفع إليها التنافس الاقتصادي ، الذي كان في قبضة العرب ، الأمر الذي جعل أثيوبيا تعاني الضيق .

انتهز النجاشي عامه صهيون (١٣١٤ - ١٣٤٤ م) (٢٤) اضطهاد السلطان الناصر محمد قلاوون للقط ، بأن أرسل بعثة إلى مصر لوقف الاضطهاد ، مهدداً باتخاذ إجراءات بمائلة مع مسلمي أثيوبيا ، وتحويل عرى مياه النيل . لاهلاكه سكان وادي النيل ، ودفعت هذه التطورات حق الدين سلطات أوقات إلى الاستعداد للاغارة على النجاشي ، وقد انتهت هذه الحركة بانتصار الاتيوبين وجعل ولايتي أوقات وفتحجار سلطنة واحدة ، تدين باليافة الاتيوبية وتولي أمرها السلطان خير الدين أخ . حق الدين ، الذي وقع في الأسر . وطلب سلطان أوقات من سلطان مصر الناصر محمد التدخل لإصلاح ذات البين ولتسوية مشاكلهم مع النجاشي .

وبينما كانت الحرب تستمر ثارة وتحمّد ثارة أخرى بين المسلمين والمسيحيين في أثيوبيا ، كان خان المغول أرغون بن أيفا . الذي كان يزوج إلى التصرايمية . قد أرسل الوفود إلى البابا ، مستهضاً الهمم للاشتراك في حملة صليبية . لإخراج المسلمين واحتلال القطر المصري ، وكانت ذلك بعد فشل الحملة الصليبية السادسة على مصر وإخراج الصليبيين من الشام ، غير أن البابا لم يستجب لرغبة الخان ، لانهماكة في مشاكله الأوروبية . وعند ذلك وجه أرغون رساله إلى الملك فيليب الجميل ملك فرنسا ، للقيام بالدعوة لتنفيذ هذه الخطة . والتي كان ضمن مشروعاتها مهاجمة مصر عن طريق بحر الفلزم ، وذلك بإرسال أسطول له من الخليج الفارسي ، وأن تدبر حملة ثانية لغزو مصر أيضاً عن طريق البر ، وكان لزاماً أن تتحد أثيوبيا مع الفرنجة . لتسكون أرضها قاعدة لتلك التجهيزات ، وقد حدث فعلاً أن أرسل النجاشي وودام أراعد ،

— الزغوية (عام ١٢٧٥ م) انتاع السلطان ركن خنن بيبرس عن طريق وساطة سلطان المين لتهين مطران للكنيسة الأثيوبية في الكرسي الذي بقى شاغراً منذ سنة ١٢٥٠ م (مفضل س ٢١٩/٢١٣) وقد عمل هذا النجاشي على الأخذ بسياسة التفرع بمخاطب البربر للعدوان على المسلمين ومن ذلك قيامه بتعزيز حدوده مع أوقات (أنظر مقال بروسي عن البيت الزغوي من مجلة R.R.A.L. عدده مجلد ٤ س ٤١٤) وكان أن رفض السلطان بيبرس أن يستعمل لطلب هذا النجاشي بشأن المطران .

(٢٤) أرسل مسلمو « أوقات » بعثة إلى سلطان مصر الناصر محمد وذلك في الفترة بين سنة ١٢٣٢ وسنة ١٢٣٨ وكان على رأس هذه البعثة عبد الله الزيلعي (أنظر العمري س ٢-٢)

(١٢٩٩ - ١٣١٤ م) رسله إلى البابا كلنت الخامس. وحاول المبشر جوردارت كاتالاً مبشر يملأ ، أحياء الفكرة في عام ١٣٢٤م إلا أن الشقاق بين ملوك أوروبا والباباوات جعل التفكير في هذا الموضوع أمراً مستحيلاً. غير أن الفكرة لم تمت ، وبقيت معلقة تتأثر بتغيرات الظروف^(٢٥) ، في الوطن الأثيوبي كنتيجة للصراع بين المسلمين والنجاشي ، وقد وصل ذلك العراق نقطة التحول عندما انهزمت جيوش النجاشي ، التي أرسلها لغزو عدال في ١٤٧٣ / ١٤٧٤ م . وحاول السلطان محمد ابن أظهر الدين ، الذي حكم ولاية عدال في الفترة ١٤٨٨ / ١٥١٨ م ، أن ينجح إلى السلم مع الولايات المسيحية غير أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الغزوات التي قام بها أمير هرر^(٢٦) . وكانت العادة أن لكل أمير السلطة التي تخوله شن الحرب والصالح وان الجنود في الإمارات التي تضمها الولاية تابعون للأمير وليس للسلطان من الأمر شيئاً غير الحصول على حصته من الضرائب^(٢٧) ، وهذا هو نفس النظام اتبعته السلطنة السنارية .

وحاولت المملكة هيلانة ، التي تولت وصاية ابنها الملك ، لبناء دنقل ، (١٥٠٨ - ١٥٤٠) ، أن توطن العلاقات مع عدال ، لفتح طرق التجارة، وأرسلت لذلك البعث إلى البلدان التي يهما الأمر . ومنها مصر غير أن هذه المراسل من جانب المملكة هيلانة^(٢٨) قد فشلت ، ولهذا اتجهت نحو الدول المسيحية بإرسال مبعوثها متى الأرمني إلى ملك البرتغال^(٢٩) ، للتعاضد على طرد المسلمين والإتراك الذين بدأ خطرهم في الزيادة وبخاصة بعد فتح القسطنطينية ، والتوسع بضم غربي آسيا ومصر

(٢٥) ذكر ابن تيمرير في حكاية النجوم الزاهرة « عن الحملة المصرية » على جزيرة فرس (في ١٤٢٥/١٤٢٦ م) وفي سياق حديثه أشار إلى « الحاج نور الدين علي » الذي كان رسول النجاشي إلى الفرنجة .

(٢٦) الفاروزي كتابه ص ٣٠٥ - ٢١٠

(٢٧) نوح الخيشة ص ١٢

(٢٨) أمراء دولة أنبوسا وأحدى الزوجات الأربع للنجاشي - صريح وهي ابنة الجراد أيون - سلطان مقاطعة دوارو الإسلامية وقد تنصرت وتزوجها النجاشي المذكور ، وقد فرض هذه العادة النجاشي زوراً يقوب (الذي حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨ م) عندما قلب على ولاية حدية الإسلامية (٢٩) المقريري « الأسام بأخبار من يلوح أحيث من ملوك الاسلام » (مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥م) حيث يقول في ص ٥ . . . ثم كتب إلى ملوك الأفرنج يحثهم على ملاقاته لازالة المسلمين . . .)

والسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط وشمال البحر الاحمر ، وطلبت أثيوبيا
تقسيم مناطق النفوذ في البحر الاحمر للعمل المشترك ضد المسلمين والأتراك كإثيوبيا.

ملك فرنسا = يحتفظ بقوة عسكرية في سواكن .

ملك ألبانيا = يحتل زيلع .

ملك البرتغال = يتخذ مع مصوغ قاعدة لقواته .

وأن تعمل هذه الجيوش ومعها قوات أثيوبيا ، على غزو جزيرة العرب مـ.
الاسلام . وطرده الأتراك والمسلمين من مصر وغيرها .

وأخذت العلاقات بين المسلمين والنجاشي في الفترة التالية في التطور السريع نحو
مرحلة فاصلة ، وبخاصة بعد دخول عناصر أجنبية لنصرة أثيوبيا في صراعها مع
المسلمين ، الأمر الذي صبغ الحرب . بالصيغة الدينية ، وما كان لها أن تتخذ هذه
الصيغة ، لولا تدخل الدول المسيحية الأوروبية ، وبمجر سلاطين الولايات الإسلامية
عن تسوية مشاكلهم مع النجاشي ، ويرجع ذلك العجز إلى فقدانهم السيطرة الكاملة
على ولايتهم لضعف جهاز الحكم ، الذي استأثر بجانب كبير منه رجال الدين ، وصارت
مقاييد الأمور الفعلية تنقل من هذا الجانب إلى ذاك وهكذا دواليك ، حتى يطغى
الافوى ويحرف الجانب الثاني ، وكان طبعاً أن يكون الافوى هو جانب رجل
الدين لما له من سلطان روحي . في بيئة حديثة عهد بالاسلام ، ومفرقة في البداوة كما
سبق أن أوضحنا ، وهذه هي الحالة وما وصلت اليه في المناطق الإسلامية ، وهذا
أيضاً هو ما دفع الملكة هيلانة المسلة أصلاً . أن تنفذ الأمل في قيام حسن جوار
ومودة بين المسلمين والمسيحيين في أثيوبيا ولذلك لجأت إلى طلب المعاونة مع الفرنج .

وأخذت الأمور في التطور السريع ، في القرن السادس عشر ، وكان لتدخل البرتغال
نصيبه ، في تبدل الموقف ورجحان كفة المسيحية في أثيوبيا ، واستشهاد الامام احمد
القرين (٣٠) ، وانتقل الصراع من الوطن الأثيوبي ، إلى حوض البحر الاحمر بامتداد
السيطرة العثمانية ، وبخاصة بعد نزول قطع بحرية عثمانية في مياه ذلك البحر في عام
١٥٣٨ م . كما أثار مطامع البرتغال في الوطن الأثيوبي ، مشاعر أهله (٣١) فطردوهم

(٣٠) الامام احمد بن ابراهيم النازي وكنته « القرن » أي الأشول بدأ حياته في عراك مع
السلطان أبو بكر واستولى على الملك . وقاد حملة الجهاد في أثيوبيا حتى استشهد في عام ١٥٤٣ م
أنظر تفصيلات حروبه . في كتاب عرب قتيه « دوح الحبشة » نضرة ربنه باسيه في جزئين .

(٣١) لودلفس - ص ٣٦٦/٣٥٠

من البلاد ، بعد أن تقبّوهم بالتعذيب والتقتيل، وطلب النجاشي من باشوات سواكن ومصوغ المساعدة ، في منع هؤلاء القرنجة من دخول الأراضي الأثيوبية .

٥ - تطور الصراع وأثره في السودان

أوضحنا مراحل العلاقات ، بين المسلمين والمسيحيين ، في الوطن الأثيوبي ، وتطور تلك العلاقات ، في الفترة التي سبقت المرحلة الفاصلة ، التي انتهت بهزيمة المسلمين بعد مقتل الامام احمد القرني في السنوات العشر الأخيرة في النصف الأول من القرن السادس عشر . ونجده لازما علينا أن نذكر في شيء من الأسهاب بعض التفصيلات لينمكن القارىء من تكوين فكرة عن التيارات ، التي مهدت لما حدث في السودان ، من تطوّر في نظام الحكم .

فقد كان للصراع الذي وقع بين الفريقين المتحاربين في أثيوبيا، أثره في المجموعات العربية ، التي نزلت في حوض وادي النيل الأوسط (السودان) . فقد اتخذت كل مجموعة منهما رقعة من الأرض ، للتوطن بها وذلك بعد أن قام هؤلاء بكشف البلاد (٣٢) ، للتعرف على مدى صلاحيتها لقبول النازحين ، الذين حافظ بعضهم على حياتهم البدوية ، ونزل البعض الآخر على ضفاف النيل ، وهناك اختلط بالسكان المحليين ، وكونت كل قبيلة دارها الخاصة بها ، وخضعت للبيئة الإقليمية ، التي دفعت مظاهرها الطبيعية، إلى قيام وحدات إقليمية وحدت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة، ولو أنه لم يكن لتلك المصالح المشتركة من أثر في توجيه حياة المجتمع ، فانها لم تحد من الصراع الحثي بين النازحين والسكان الأصليين ، وهكذا بقيت الحياة غير مستقرة ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن الذي تلاه . ففي تلك الفترة أخذ الصراع في أثيوبيا ، بتصيبه في إدخال نظم جديدة على حياة المجتمع في مختلف المشيخات في السودان . وقد كان لمجريات الأحوال في شمال أثيوبيا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، أثرها المباشر في قيام سلطان في سنار ، واجتمع بين المشيخات في وحدة ، تزعمها البيت السناري ، في سيادة رمزية حددتها المصلحة التجارية . ولم يربط بين تلك المشيخات وبين السكان ولاء ، على الطراز الذي كان في الاقطاع الغربي .

(٣٢) مخطوطة الشيخ أبو دلق - الملحق الأول .

أما الإمام أحمد بن إبراهيم الغازي ، (المكنى بالقرين أي الأشول) ، فقد بدأ حياته الأولى ، في المنطقة الواقعة بين قلديسي وهررة ، وتزوج من ابنة الإمام محفوظ أمير زيلع ، وكانت العداوة قائمة بين القرين والسلطان أبو بكر ، بسبب قبل الأخير للجراد أبون في زيلع . لذلك نجد أن القرين ، قد أمضى سنواته الأولى في محاربة السلطان أبو بكر ، حتى تغلب عليه وقتله ، وأقام عمر دين سلطانا بدلا من أخيه أبو بكر ، الذي قتل ، وبعد هذا النصر ، وجد أن في قدرته أن يمتنع عن دفع الجزية للنجاشي ، الذي أرسل حملة بقيادة حاكم بالي في ١٥٢٧ م ، لاختطاع القرين الذي انتصر على هذه الحملة ، بعدها أن كبدها هزيمة منكرة . وأسرع القرين إلى إعلان الجهاد ، وبخاصة وأن الأحوال في حوض البحر الأحمر ، قد أخذت في التطور بسبب المنافسة بين الأتراك والبرتغاليين ، على السيادة على طرق التجارة البحرية بين البحر الأحمر والخليج الفارسي - والتف الاتباع من الصومال وغيرهم ، حول القرين الذي أكفح الجيوش الاتيوية ، الواحدة تلو الأخرى وصار النجاشي ، لبنا دنقل ، طريداً ، ينتقل من جبل إلى جبل . وأخذت الرقعة التي يحكمها المسلمون ، في الازدياد شيئا فشيئا حتى عام ١٥٤١ م ، عندما وصلت المساعدة البرتغالية التي طلبتها المملكة هيلانة وكانت وصول هذه الامدادات مفاجأة للمسلمين ، لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار هذه الحملة ، قد أوقدت حماس الاتيويين ، الذين اشتدت عزيمتهم . وكانت الموقعة الأولى بين الإمام وأعدائه ، في المنطقة الواقعة بين أميا آلاجي وبحيرة الشانجي ، وذلك في عام ١٥٤٢ م ، وقد جرح في هذه الموقعة القرين ونجا من الأمر . وأرسل القرين إلى الباشا التركي ، في زبيد طالبا منه نجدة من الجنود والأسلحة ، وقد أرسل إليه الباشا تسعائة من حملة البنادق و عشر مدافع . وقد مكنت هذه النجدة من أحرار انتصار على البرتغاليين ، وقتل زعيمهم خريستوفو دي جاما ، ونشريد رجاله ، الأمر الذي حمل القرين على الاعتقاد ، بأن الحال قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن وصلت قواته حتى شمال بحيرة تانا ، حيث أقام معسكر قيادته . واشتبك بعد ذلك مع النجاشي فلابوديوس وحلفائه من البرتغال ، وانتصر عليهم في نهاية عام ١٥٤٢ م ، وتفرقت قوات القرين في أوائل عام ١٥٤٣ م ، ويسدوان من أسباب تفرق الجنود ، وغالبيتهم من أهل صحارى الصومال والذناقل ، أزدیاد المقاومة السلبية من الأهالي ، في المنطقة شمال بحيرة تانا .

وقد جاء في الجزء الأول ، من كتاب تحفة الزمان (٣٣) الذي دون فيه مؤلفه التفصيلات عن حروب المسلمين في أنيوليا قبل استشهاده الامام ، ما يدل على اتساع رقعة الصراع ، ان الامام أحد الثرين قد خرج من بقي مدر (٣٤) إلى مزجه (٣٥) ، في رمضان سنة واحدة وأربعين وقسماته هجرية (١٥٣٥ ميلادية) ، ومنها إلى أرض سمين (٣٦) ومن ثم إلى وقره (٣٧) ، ثم إلى بلاد الدنيا (٣٨) ، التي يقول عنها انها ، بذر الذهب ، عليها بلدان كثيرة بلاد التوبة ، التي يخرج منها الذهب ، فرتب فيها ، واتخذها مسكناً ، وأصلحها جميعاً ... وأعطي ثمر تاركه ، (٣٩) وهو بلاد الهمج (٤٠)

(٣٣) تحفة الزمان لمؤلفه شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان من جيزات . المعروف برب فقيه وقد نفي الجزء الأول من هذا الكتاب وعلق عليه في ترجمة فرنسية وبنه باسميه . وما يوسف له أمت الجزء الثاني من هذا الكتاب مازال مقوداً وإفان أن نسخة منه موجودة في مكتبة أمم أمين .

أنظر أيضاً كتاب الاسلام في الخبشة لمرنجهام ومقال شيروي من ١٠١/٣٩

(٣٤) بقي مدر Begameder . Midra أنظر الخريطة ٤ .

(٣٥) مزجه Mazaga وتنطلق الجيم كالجيم التي ينطلق بها أهل القاهرة .

(٣٦) سمين Samen بلاد عميرة ذات حصون مائة وجبال شائعة لم يمكن للغيل فيها من سبيل ولم يكن في بلاد أنيوليا أعسر منها (فتوح الخبشة ص ٣٤١) راجع الخريطة مرة ٤ .

(٣٧) وقره Wagura أنظر الخريطة مرة ٤ .

(٣٨) بلاد الدنيا . المنطقة المجاورة لبحيرة تانا التي تعرف أيضاً باسم تانا أودميه .

(٣٩) ثمر تاركه هي كسلا ، المقصود من ثمراتها البلد التي تقع مباشرة قبل ولاية أخرى أي عند مدخلها .

(٤٠) ورد ذكر « الهمج » في أكثر من موضع في كتاب «فتوح الحبشة» ، عن اشتراكهم في الحروب في جانب الشرقيين ، ونجد هنا تحديداً واضحاً عن دار « الهمج » ، التي أعلى ترها للوزير عباس ، ونجد أن جماعة عرفت باسم « الهمج » قد لعبت دورها الهام في تاريخ السلطنة النارية ، عندما تمكن الشيخ محمد أبو السكيك ، وهو من الهمج ، من انتزاع الحكم من سلاطين ستر . في حوالي عام ١٧٦٢ ميلادية ، وانقرض هذا الشيخ وخلفاؤه من أقربائه ، من بعده بنصيب الوزارة ، وبتمصريف شئون السلطنة ، حتى الثورات القليلة التي سبقت انداد الحكم المصري وكانت كلهم من العلما يملكون السلاطين ويولونهم دون حقهم ، وهناك أيضاً قول تعرف « بالهمج » في « دار فنج » (المنطقة جنوب ستر على النيل الأزرق) (أنظر سلجمان ص ٤١٥ و ٤١٦ و ٤٢٠) وهذه القول أخذت طريقها نحو الاختفاء كوحدة اجتماعية بسبب غلبة المؤثرات المحلية وتواجد في المنطقة شمالي وجنوبي مدينة « بربر » بيوت من « الهماق » فإلى إذن العلاقات التي تربط أولاً « همج » ثم تاركه الذين شملت دارهم مواضع الجمران بالقرب من كسلا (الكاكة القديمة) وثانياً همج الوزارة النارية والقبول التي ترحلت جنوباً نحو دار فنج حيث اختلطت بالأهلين المحليين وثالثاً « هماق » منطقة بربر . لقد كانت هذه الشكلة موضع دراسته خاصة لسنوات عديدة خرجت منها بأن « همج » الوزارة النارية هم « همج » كتاب فتوح الحبشة وهم بطن من قبيلة =

للوزير عباس (٤١٠) واستراحت المسلمين (٤٢٠) . ومن هذا ينضح لنا أن مسرح القتال قد شمل الجزء الشمالي لبلاد اتيوبيا ، جنوبي الرقعة التي قامت فيها ولايات إسلامية ،

الحجران (منتج الحاء والميم) ويتطابق البعض هذه الكلمة يضم الحاء وسكون الميم وقد عثر أفرادها بالشجاعة وركوب المخاطر وسعة الحيلة وهذه الصفات هي التي مكنت شيخ محمد أبو التكتيك من التويزة بعد انتصاره في كردغان في السنوات الأولى من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي التي مكنت « رابع نبل الله » وهو من أخصى من إنشاء مملكته في سوادات القرنين حد تركه - إيمان الزبير التي لم يستمع لنصحه وقد طرد رابع القرنين حتى خسر صرباً مستشهداً في حرب الاستعمار الأوروبية . ترحلت هذه الجماعة من الحامق في أعقاب انتقال السلطان الساري إلى حوض النيل الأزرق ويحتمل أن يكون المداويع التي حملت على انتقال البيت الساري هي التي أثرت بدورها في هجرة «الهمج» حيث أن موطنها الأول واحد ولا يعلم على وجه التحقيق الطريق التي سلكته هذه الجماعة في أوجها الثلاثة . سكن بعضهم في سنار واشترك في معرك الحباة ومكثهم مقامهم الحامق من الوصول إلى الوزارة ، ذهب البعض نحو دارفج ، لب أو آخر واختلطوا بالسكان المحليين وكانوا بلا شك فئة تمثل طبقاً ما كانه قدمت طابعها الحامق بمرور الزمن وكان للأهم المحلية أثرها القوي في هذا التحول بعد زوال الحكم . أما تلك البيوت التي أُنشدها اليوم في منطقته بربر (وخاصة في بلدة البيدية) فقد انصرفوا عن حياتهم الأولى وانخرطوا في حياة المجتمع الجديد إلى حد كبير . واحتفظوا بقدر من صفاتهم المميزة التي ورثوها عن أجدادهم الأوائل بسبب الأم التي لمجددها في هذه المنطقة من البيلة نفسها .

وسأله أخرى لاقل أهمية عن موضوع العلاقات التي ربطت بين «الهمج» الذين نزلوا في مختلف الأماكن . وهذه هي كلمة «همج» التي عرفت بها مجموعات الناكه وسنار ودارفج ومنطقته بربر ويتطابق الاسم في المنطقة الأخيرة «حامق» وقد تبين أن الاسم كما ينطق به في منطقة بربر هو الصحيح ونجد أن الاختلاف بين الكلمتين قد حصل في الحرف الأخير حيث كتب الحليم بدل القاف الصغيدة وإذا رجعنا إلى الكلمات التي جاءت في (عرب نقيه) وحرف الحليم جزء منها نجد أن المؤاخذة تشمل هذا الحرف فعلا تصوير صوت القاف التي ينطق أهلها القاف الصغيدة في صورة «جيم» أهل القارة وقد عمل هذا الرسم الحامق على خلق كثير من المحاولات لارجاعها إلى مصدر يتفق مع كلمة «همج» ومن ذلك أن القوافل قد استبدلوا «الهمج» وهكذا لعب الحامق في التصوير الصوتي دوره الحامق .

وذكر «نيقولس» في كتابه الثاني ص ٧ أن مجموعة من البشارين تسكن في الصحراء شرق أرتو وتعرف باسم (Hamok) وعاشقنا نجدان هذه الصلة بين الحامق وبين البشارين ترجع إلى أنهم من شرق الوادي .

(٤١) حاول الوزير عباس بعد استشهاده الإمام أحمد القرين أن يوجد بين الولايات الإسلامية دوارو وفاتحار وبلي تجاربة التجاشي الذي انتصر عليه في عام ١٥٤٥ ميلادية (أقلتر كوتز نالت ص ٢٣ - ٢٥ من المقدمة) -

(٤٢) فتوح الحبشة ص ٢٤٤

سيطرت على طرق القوافل بين الساحل وداخلية البلاد الاثيوبية وسودان وادي النيل وكان لزاماً أن يفكر جماعة من أصحاب المصالح الاقتصادية ، سواء كانوا أسرة حاكمة ، أو من كبار المشتغلين بالقوافل ، في الهجرة من موطن القتال إلى ملجأ يحدون فيه أمناً ، ورعاية لمصالحهم ، لذلك لم يكن بد من الانتقال إلى حوض النيل ، بعد أن اشتد القتال بين الاثيوبيين من المسلمين والمسيحيين ، كما اشتد التطاحن بين القبائل في الشمال من أثيوبيا . ولم يتعرض الامام للولايات الاسلامية ، التي قامت في أقصى الشمال والشمال الغربي من أثيوبيا ، بل تركها وشأنها واهتم بتوسيع فتوحاته ، التي وصلت حتى منطقة بحيرة تانا . وكانت في أقصى الشمال مملكة البلي أو البيلو ، وقد هبطت عليها مجموعة من الحباب ، واجتاحت المنطقة بين خور أنسبا والبحر الأحمر ، واشتبكوا مع البلي ، وحدوا من سيطرتهم ، وكان ذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وحدث في نهاية العشرين عاماً الأولى من ذلك القرن . أن اقتد نفوذ الأتراك إلى سواكن ، بعد احتلالهم لمصر في عام ١٥١٧م . ودخول الكشف من قبل العثمانيين إلى منطقة النوبة السفلى والمحس . أما ما كان من أمر المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا . فتذكر الروايات المتواترة بين سكان شرق السودان أن قتالا قد حدث بين القونج ، وبين قوة مشتركة من البلي والارنيغة . وذلك في السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادي (٤٣) . وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة البلي ، والارنيغة ، ويشير النفرير الذي نشره روسيني ، عن حفرياته في خور بركة ، أن حرباً قد حصلت في تلك المنطقة ، بين القونج والقبائل ، وأصيب القونج فيها بهزيمة منكرة فروا بسببها ، إلى حوض النيل الأزرق . ويبدو أن هذه الحرب قد وقعت بعد زيارة داود روبيني ، الذي زار المنطقة في أوائل عام ١٥٢٢ ميلادية ، فقد وصل هذا الرحالة ميناء سواكن في ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها بعد شهرين من إقامته فيها ، وسافر مع قافلة تجارية كبيرة إلى أرض كوش . وقد سلكت هذه القافلة الطريق الساحلي ، حتى منطقة مصوع . ومنها نحو الغرب إلى منطقة الملم ، ، متفرقة حوض التكاوي ويذكر روبيني أنه قد قابل السلطان عميرة ، في عاصمته في تلك المنطقة والتي تقع بالقرب من منبع نهر النيل (رافد التكاوي) ، ويقول أن سيطرة عميرة قد شملت البلدان ، الواقعة على نيل مصر (٤٤) ، وهذا يعني أن سلطان عميرة قد امتد

(٤٣) بول ص ٧٦ / ٧٧

(٤٤) رحلة روبيني في : - (١) أدلر (٢) جرابتر (٣) بيرفلت (٤) نيواور (٥) هالسن - مدونات المجلد السادس عشر .

على البلاد النوبية ، التي شملت حوض النيل الأوسط ، حتى حدود المحس شمالاً ، وهذه المنطقة لم يتدخل في أمرها الإمام أحمد القرن ، وجاء في كتاب «فوح الحبشة» . . . ودخل أشراف إلى عند الامام من عند الدينيا ، أربعون فارساً ، كلهم أشراف مع شيخهم شرف الدين بن علي ، والشريف عبد الرحمن ، وتقبلهم الامام وأعطاهم أرض أطراف بلدان إلى طرف بلاد النوبة ، واصطلحت جميع الدينيا إلى بلاد النوبة (٤٥) . وقد أعطى الامام ، كما سبق أن أشرنا ، فقر تاكدة - نجر الحمج (الحمق) إلى الوزير عباس ، ولا يعلم على وجه التحقيق ، موقع هذا النجر ، الذي أعطاه الامام للوزير عباس ، ويبدو أنه على الحدود الاتيوبية الشمالية الغربية ، على المدخل إلى منطقة التاكدة (كلا) ، كما لا تعلم العلاقة بين هؤلاء الأشراف ، الذين وفدوا على الامام في الدينيا ، وما لاشك فيه أنب دار هؤلاء الأشراف كانت قائمة في الرقعة الواقعة بعد حدود الدينيا مباشرة - من ناحية التاكدة أو الارتيا ، التي لم تكن خاضعة للسلطان الساري . كما أننا لانعلم على وجه التحديد العلاقة بين هؤلاء الأشراف والسلطان الساري الذي كان في كرسي الحكم في سنار ، وهو السلطان عبد القادر ابن السلطان عميرة (٤٦) .

٦ - الوطن الاول لعزرة السارية :

ونجده لزماً علينا ، أنب نحاول التعرف على التطورات ، التي حدثت في القسم الشمالي والشمالي الغربي لاتيوبيا ، وما كان لها من أثر في السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التي قامت في سنار ، في القرن السادس عشر الميلادي . ونجد من الضروري أن نرجع إلى ما قبل ذلك التاريخ . فقد تعرضت هذه المناطق لموجات ، من الهجرات القبلية المتباعدة ، وكان من نتيجة الاضطراب القبلي ، دخول تعديلات كثيرة ، على الأوضاع الإقليمية ، فحدثت اختفت وأخرى نشأت . وقامت مدن على أنقاض غيرها ، بأسماء جديدة أو مصحفة عن القديم ، لذلك نجده من العسير أن نصل في يسر ، إلى تحديد مواقع المدن ، التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية ، والروايات

(٤٥) فوح الحبشة ص ٢٤٦ / ٢٤٧

(٤٦) اتفقت الروايات على أنه قد حكم عشرة أعوام بعد وفاة والده السلطان عميرة ، عدايوس الذي قال أنه حكم ثمان سنوات ، وهناك رواية تقول أن أخيه تاييل قد تولى الحكم بعد وفاة والده وهذه شائعة .

عن الفترات المتعاقبة . وعما يضاعف الصعوبات ، أن ما جاء في المصادر وغيرها ، قد نقل عن أفواه رجال القوافل ، من غير أهل البلاد ولهؤلاء لهجاتهم الخاصة ، وأثرها ظاهر بصفة خاصة ، في حرفي الجيم والقاف ، ومثال ذلك كلمة : الحمق ، وقافها تنطق كالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية ، فالكاتب نقلها في أقرب حرف ، وهو الجيم في لهجته المحلية (٤٧) .

وفد كانت الجزء التالي . من أثيوبيا موضع اهتمام المسلمين ، نسبة لموقعه الاستراتيجي ، على طرق القوافل ، بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الاثيوبية ، وحوض النيل . فقد ذكر اليعقوبي ، في كتابه عن هذه المنطقة ، التي عرفها باسم مملكة البجة (٤٨) ، وهم بين النيل والبحر ، ولهم عدة ممالك ، في كل بلد ملك منفرد . فأول مملكة البجة من حد أسوان ، وهي آخر عمل المسلمين ، من التيس بين الشرق والغرب إلى حد بركات (٤٩) . وهم الجنس الذي يقال لهم نقيس ، ومدينة المملكة يقال لها حجر (٥٠) ، ولهم قبائل وبطون . كما تكون للعرب ، فمنهم الحدرات وحجاب (٥١) والعمائر (٥٢) ، وكفر (٥٣) ، ومناسه (٥٤) ، ورسة (٥٥) ، وغريبة (٥٦) ، والزناج . وفي بلادهم المعادن . من الثبر الجوهر ، والزمرد ، وهم مالون ، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن .

والمملكة الثانية من البجة . مملكة يقال لها ، بقلين ، ، كثيرة المدن واسعة ، يضارعون في دينهم المجوس الثوبية : يسمون الله عز وجل الزبحر الأعلى . ويسمون الشيطان ، صحح حرافة (٥٧) . . وهم الذين يفتنون لحامهم . ويقتلون ثنائياهم ، ويختفنون وبلادهم بلاد مطر .

ثم المملكة الثالثة ، يقال لها بازين . وهم يتاخون علوة من الزوبة ، ويتاخون

(٤٧) أنظر هامش ٤٠

(٤٨) تاريخ اليعقوبي (احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٨٧٢ : تقريباً) من ٢١٧ - ٢١٨ .

(٤٩) خور بركة .

(٥٠) أنظر الخريطة رقم ٣ .

(٥١) الحدرات والمياب .

(٥٢) الأم مرأر (٥٣) غير معروفة (٥٤) منه . ما زالت موجودة (٥٥) و (٥٦) غير معروفة . (٥٧) يقول روسيني في كتابه تاريخ أثيوبيا من ٢٧٢ وما بعدها ما يفيد بأن هذه الكلمة تجريه .

بقلين من البجة ، وبحاربون هؤلاء ، وذرعههم الذى يأكلونه (دخن) ، وهو طعامهم والبن .

والمملكة الرابعة يقال لها جارين . ولهم ملك خطير . وملكه ما بين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الاعظم . إلى حد بركات ، من ملكه بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقطعون ثيابهم .

المملكة الخامسة — قطعة من باضع إلى فيكون :

المملكة السادسة — ملكة النجاشى .

وجاء فى موضع آخر من كتاب اليعقوبى ، ان « هجر » عاصمة البجة الحدارب ، وتقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من بلدة العلاق ، (على النيل جنوب الشلال الاول) ، ويضيف اليعقوبى أنها كانت محطة ، يتخلف إليها التجار من المسلمين .

وقد ورد اسم مدينة « هجر » فى « عقد الأمان » . الذى أعطاه عبد الله ابن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البجة فى عام ٥٢١٦ (٨٣١) ، والذى احتفظ فيه بشروط ، منها ، وذلك أن يكون سبل بلدك وجبلها ، من متهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع . ملكا للأماون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله (٥٨) . . . ومن هذه الشروط — فيما عدا ما يختص بمعاملة المسلمين والذميين وحق الإقامة — ما جاء بخصوص المساجد ، حيث قال : وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد . التى أبقنا المسلمين بهنجه (٥٩) ، وهجر . وبساتر بلادكم طولا وعرضا ، فإن فعلتم شيئاً من ذلك ، فلا عهد لكم ولا ذمة .

(٥٨) المترزى — ص ١٧٣ وما بعدها .

(٥٩) يقول مونريت دى فيلارد ص ١٠٢ ان نسخة هذه من مستكان « التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بورت سوادان والمطيرة وكانت فيما مضى محطة لما أهميتها على مفرق طرق القوافل من مختلف المناطق وتقع فى نيب القضاة الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة بمضى عقد الأمان . ويحتمل أن يكون لاختلاف الملاحظات أثره فى النصيب الذى أصاب الفساد والجيم الذين تحولوا إلى سيد وكاف . ويحتمل كثيراً أن الاسم « سنج » قد قصد به المكان الحرب « سنج ديب » الوجود شمال شرق كالا . وهذه الكلمة تتكون من « سنج » أو « سنج » التى هى اسم لأحدى بطون قبيلة الدجون التى كانت تسكن حوض المطيرة و « ديب » بحرفة عن الكلمة النوبية القديمة « دف » أى « الهجور » أو « الحرب » ولا نعلم بالضبط أى المكاين قد سبق الآخر ويتوقف تحقيق ذلك على القيام بدراسة اركيولوجية =

وعما جاء في كتاب اليعقوبي ، عن مالك الحسن ، والذي كتبه بعد ٧٨٢ ميلادية ، أى بعد حوالي أكثر من أربعين عاما من الامان آتف الذكر - يدور أن مملكة نفيس في حدودها ، التي أوغتها اليعقوبي . هي التي قامت في النطاق ، الذي اشترط الأمير ملكيته . وتدخل فيه مناجم المعادن كما تشقه الطارق التجارية مع ساحل البحر الارثيري عند باضع ، وفي هذا تمهيد لسيطرة العرب على التجارة ، إلى داخلية حوض وادي النيل ، وبالتالي امتداد نفوذهم غربا ، إلى حوض النيل الأعلى ، وجنوبا نحو بلاد أنيوبيا .

ذكر المقرئ أن هجر ، يمكنها رئيس ، يرجع إليه جميع رؤسائهم (البجة) إلى حكمه ، وهي أقصى جزيرة البجة (٦٠) ، وقد حاول روسيني (٦١) أن يربط هذا الاسم مع أباي نجران ، ويقول منسجر أنها على خط عرض ١٦٣٧ ، وتعرف باسم « هجر » ، وبها كنيسة قديمة مغربية . تعرف باسم آخر نجران . (Agre Nejran) ، وأنها واقعة على طريق الحجاج ، من أنيوبيا ، إلى بيت المقدس . وإذا رجعنا إلى ما ذكره اليعقوبي ، فإن هذه البلدة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من العلاق ، وأن التجار من المسلمين يتخلفون إليها . وإلى قول المقرئ أن : بلدة هجر تقع في أقصى جزيرة البجة ، . فلا يسعنا والحالة هذه . إلا أن نرفض التفسيرين ، اللذين تقدم بهما روسيني ومنسجر وغيرهما .

أولا — لأن أقصى جزيرة البجة لا يكون إلا في موضع نحر الغرب ، من جزيرة دهلك (مصوع) .

ثانياً — أن مسيرة خمسة وعشرين يوما من العلاق ، توصلنا إلى وادي النكازي . سقيت ، وفي هذا تأييد لما كتبه روسيني في رحلته .

ثالثاً — لم تكن للتجار من المسلمين من مصلحة ، إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية . وكل هذه مجتمعة تحدد اقليم (ظلم) ، وتشير إلى بلدة أم حجار (أوام هجر ، في اللهجة المحلية) ، وقد عرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روسيني ، وذلك لمركزها التجاري وسيطرتها ، على طرق القوافل . بين داخلية البلاد الاثيوبية وحوض النيل ، وبين موانئ البحر الارثيري . وهذا الموقع على الرافد تسكازي - سقيت ، قد أكسب البلدة موقعا في أقصى الجزيرة البجة ، ومركزاً تجاريا للقوافل .

(٦٠) المقرئ ص ٢٦٨

(٦١) روسيني — مقال ص ٦٢٥

وتتميز هذا الموقع الاقليمي بقيامه على المدخل بين حوض النيل وأتيوبيا ، الأمر الذي جعل القوافل تتخذ منغذاً لها ، بين تلك البلاد وساحل البحر الأرتيري ، في مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن ... الخ . كما اتخذته الهجرات المختلفة ، معبراً لها نحو مهاجرها .

• • •

٧ — وبمنا بعد أن أوضحنا ما كانت عليه المنطقة الشمالية الغربية لآتيوبيا من أهمية إقليمية ، أن ننتقل إلى عرض الآراء المختلفة ، عن أصل السلطنة السنارية ، فإن هذه الآراء تقول أن هذه الاسرة ترجع إلى : —

(١) أنهم من قبيلة الشلك ، التي كانت تسكن على شاطئ النيل الأبيض جنوبي اللبس (بالقرب من السكوه) .

(٢) أنهم من الغرب — من دراقور في رأي ومن يرنو في رأي آخر .

(٣) أنهم قد جاؤا من الحبشة .

وقبل أن تناقش هذه الآراء ، يجمل بنا أن نوضح بقدر ما لدينا من معلومات عن الفونج ، وهل هم البيت ، أم الشعب الذي حكته هذه الاسرة .

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التي أطلقت على سلطنة سنار . فالبعض يقول أنها ترجع إلى كلمة بون (Bwon) ، في لغة الشاك ، والبعض الآخر يقول أنها من كلمة فون (Fon) ، في لغة النوير ورأي ثالث يرددها إلى كلمة بونج (Bunj) ، وهذه قريبة من كلمة فونجي (Foni) ، وجميع هذه الكلمات معناها الغريب ، أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ، ليحل أحدها محل الآخر ، فأمره وجوده في جميع اللغات وبالأخص الباء والفاء في لغتي النوبة والشلك ، عرف البيت السناري بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر آل فنج ، ومرادفاتهما ،

استعملت لتعريف بطيعة البيت الحاكم ، وتوسع البعض في استعمال هذه الكلمة حتى شملت ضمناً الشعب ، الذي حكمه البيت السناري حكماً مباشراً ، والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب ، مسألة لا تتفق مع حقيقة الأمر . فابن سليم الاسواني الذي زار مملكة علوة في أواخر القرن العاشر الميلادي ، في بعثة جوهر الصقلي لأمرام السودان ، يقول أن أرض الجزيرة السنارية حكمتها قبيلة عرفت باسم كرتينا ، أو كرسنة أو كرما ، أو كاسو . كما أن اسم القبيلة ، ورد ذكرها مع قبيلة الفنج . بوصف أن

هانين القبلتين جزيرة سنار وذلك في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما زار البلاد رسول السلطان قلاوون ، ومن هذه يبدو أن اسم الفنج (Fung) وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادي ، وهناك احتمال بأن هذا الاسم قد جاء مع جماعات من البيت الزغوي ، بعد سقوط سلطانهم في الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطهادهم ، وقد تكون هؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين في بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت (Barth) ، بأنهم حكموا دارفور في القرن العاشر الهجري ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغاوي ، كما أنه يقول باحتمال أن ، وطنهم كان في جبال فازو غلي ، جنوب سنار ، ويقول الداجو عن أنفسهم أنهم فنجا (Fininga) ، فإذا سمحت هذه الدعاوى ، فيمكن أن هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس خطأ ، بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم في موقعة بالقرب من أريجي (٦٢) غير أن هذه الرواية أصابها بعض التصحيف كما سنبينه فيما بعد . وبقي اسم الفونج مشتركاً بعد ذهاب أهله ، ونجد اسم ، فونج في صورة أو أخرى منشراً ، في أكثر من منطقة من بحيرة فكتوريا والكنغو .

الوادي الأول :

ان هذه الأسرة من قبيلة الشلك .

ترجع الشلك في أصلها ، إلى قبيلة لو (Luo) التي يعتقد أنها كانت تسكن في منطقة بحيرة ، فكتوريا نيانزا ، ، وذلك قبل هجرتها إلى السودان ، ومن الدراسات التي قام القس هفمير اندسوي ، نجد أن قبيلة ، لو ، القليلة العدد في الوقت الحاضر ، والتي تسكن في منطقة بحر الغزال . كانت في الماضي القبيلة الكبرى التي تفرعت منها الشلك وذلك حين قادها ملكها الأول نياكنج (Nyakang) إلى مواطن جديدة ، امتدت في العصر الحديث إلى شمالي الكوه (على النيل الأبيض) ، وبينما نجد أن القبائل الوثنية الأخرى ، تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التي تتفق اتفاقاً كلياً مع مثيلاتها في العهد الفرعوني . فإن أثر ذلك في قبيلة الشلك ، يدل على أن هجرتها إلى جنوب السودان (٦٣) ، حدثت في عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس (٦٤) الذي زار سنار حوالي عام ١٧٧٢ ميلادية ،

(٦٢) بروس جزء دابع من ٥٤٨ وما بعدها .

(٦٣) يقول وستمان أنهم قد وصلوا إلى موطنهم الحالي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

(٦٤) سلجان من ٤٢٤ .

ان مملكة سنار قامت فجأة ، باستيلاء مؤسس ذلك البيت . على حوض النيل الأزرق بعد غزوة خاطفة ، وتفصيل ذلك على حد روايته ، ان قبيلة من السود غير معروفة ، كانت تسكن على الجانب الغربي للنيل الأبيض (خط عرض ١٣ شمالاً) وانها قامت في جموع عديدة ، مستخدمة عدداً من القوارب في هجومها على المدن العربية ، وان ذلك الجيش من الفونج يعرف في وطنه باسم الشلك . وعند تأييد ذلك الحكم ، كان الشلك عبيد أوثان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامي . لغرض التجارة مع القاهرة واتخذوا الفونج ، اسما لهم . وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية ، في مملكة سنار ، أولاها ، اللبس ، (٦٥) عاصمة الاقليم ، الذي جاءت منه الشلك ، وتغلبت على ود عجيب شيخ العرب ، في معركة فاصلة . بالقرب من أرجمي ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ، ويتصلحون على نصف الماشية . يعطى للشلك ، ويقولون تقديم جعل سنوي ، من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام . وتعد ود عجيب ، بالقيام بتأديب القبائل العربية الاخرى البعيدة ، التي تسول نفسها ، بالمعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك ، وقد دافع عن هذا الرأي كثيرون ، منهم الأستاذ ا . م . كين (A. H. Keane) الذي اعتبر أن الشلك هم اصل الفونج ملوك سنار . وانهم اختلطوا بالعرب اختلاطاً وثيقاً . ويعارض هذا الرأي ، روميلي جسي باشا ، في كتابه سبع سنوات في السودان ، (٦٦) ناعياً على صاحبه وأشياءه بعبارات التفريع والسخرية متسانلاً ، كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشايع العريض ، الذي استمر عدة قرون ناشراً لوائه على أكثر الرقعة التي نعرفها اليوم بالسودان . الشلك في يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السناري . ويقول الشلك انهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الاسلامية كلها منحت لهم الفرص بذلك . ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فونج أو فونجي لا تخرج عن كونها تعريف لطيفة حاكمة معينة ، حكمت في دار الفونج ومركزها سنار كما أبدى شكوكه في أن أحداً ، من علماء الاجناس ، قد كتب رأياً صريحاً يرجع البيت السناري إلى الشلك (٦٧) ويقول بأن وسترمان له رأي أورده في كتابه (٦٨) ولكنه لم يقل صراحة بأن الفونج من الشلك في زمن مضي أو

(٦٥) اللبس شمال السودان على النيل الأبيض .

(٦٦) جسي م ١٥١/١٥٢

(٦٧) إيفانز برتشارد مقال م ١٥٧

(٦٨) وسترمان

حاضر. ولكنه يعتقد بأنه هنالك أدلة على وجود الشلك في دار الفونج ، في عدد يجعل من السهل إشتراكهم بنصيب في تكوين الطبقة الحاكمة (٦٩).

ذكر وستمان في كتابه عن الشلك ، بعض المفردات الخفقارية في لغة الشلك عن كلمة فونج ويحاول رداسم ، عمارة ، (٧٠) السلطانت الأول للأسرة في سنار إلى ، عمارو ، أو ، عماكرا ، المستعملة في لغة الشلك ، كما ذكر أن قول السلاطين بأنهم من الفونج يجعل المرء يظن أن اختيارهم ابن أمية يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك ، أمري ، Nyakang (Omoi) جد الشلك المباشر (٧١)

وقد أثار موضوع أصل الفونج وصلتهم بالشلك جدلاً كبيراً على صفحات مجلة السودان في رسائل ومدونات ، وقف فيها شناوى ونولدر (٧٢) في جانب الرأي القائل بأن الفونج لا يمتون بصلة إلى الشلك ، كما دافع آركل (٧٣) عن رأي بروس .

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية ، الألوان ، في تمييز الأجناس ومقدار رقيها وأخطاها حيث يقول ، ان ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة العربية الشريفة ، وهي بنى أمية ، لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الثن جالا (Shangalei) التي اسمها (الشلك) (٧٤) ، وان هذه النظرية هي الآن في طريق الزوال لاعتمادها على أسس غير مبنية .

الرأي الثاني :

ان هذه الأسرة جاءت من الغرب .

١ — من دارفور .

٢ — من برنو .

حاول آركل (٧٥) تقديم رأي جديد وحشد لدعمه المعلومات ، التي جمعها خلال المدة التي قضاها في دارفور والتي جمعها بالمر والتي جاء فيها ما جعل آركل يستخلص أن

(٦٩) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق

(٧٠) صحته عميره كما جاء في الوثائق

(٧١) شناوى ونولدر — مقال من ٢٤٧ - ٢٥٨ - ٦١ - ٦٦ - ١١١ - ١١٧ .

(٧٢) في مدونات الأجزاء الثالث عشر والرابع عشر والسابع عشر على التوالي

(٧٣) آركل مقال المدونات الجزء الخامس عشر من ٢٥٠/٢٠١

(٧٤) مري من ٤١٨/٤١٧ - بروس الجزء السابع من ٩١/٩٠

(٧٥) آركل ، مقال من ٢٥٠/٢٠١ في الجزء الخامس عشر من المدونات كذا من ٩٧/٨٧

من الجزء السابع والعشرين من المدونات

البيت السنارى ، أسسه الملك عثمان الذى طرد من برنوعام ١٤٨٦ م ويبدو مما كتبه آركل في مقاله الذى نشر في كتاب الزراعة في السودان انه يتبعك بهذا الرأى بأعماله الاشارة إلى الرأى القائل بأن الاسرة النارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك كما أهل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثالث:

إنها جاءت من الحبشة وينقسم ثلاث آراء فرعية .

١ - السلطنة من أصل عبرى .

٢ - السلطنة من بنى أمية .

٣ - السلطنة من هلاله .

يفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهناك ، وفيها تنوّر الوثائق التى تلى الضوء مؤيدة هجرة السلطان الاول من شمال غرب الحبشة وقيام ملكه في حوض النيل الأزرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت قائمة بين الحبشة وحوض النيل الأزرق . فضلا عن توضيحها دعاوى الاحباش بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوض الدندر والهد والقاش وجزء من نهر العظيرة بما ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى في شكل مطالب محددة في حالات قيام حكومات ضعيفة في الجانب السودانى - وأهم المراجع .

١ - رحلة داود روبينى الذى زار السلطان عميرة في عاصمته . لملم ، وذلك قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ - ما جاء في كتاب تاريخ لانيوبيسا لمؤلفه لود لفس (طبع عام ١٦٨٤ م طبعة ثانية) .

٣ - خطاب من السلطان بحبيب .

٤ - الروايات المحلية السودانية المتداولة .

٥ - مذكرات الضابط الايطالى تلبتى التى حققها ونشرها روسيني العالم الايطالى .

٦ - رحلة أوليا شاي .

(٧٦)

رحلة داود روبينى

أوضحنا فيما سبق ان هذا الرحالة قد هبط ميناء سواكن في ديسمبر سنة ١٥٢١

ميلادية ، وغادرها في قافلة كبيرة تزعمها أبو كامل ، وقد اخترقت هذه القافلة الطريق الساحلى إلى منطقة مصوع ومنها إلى المنطقة التى أسمّاها « لخم » ، والى قابل فيها السلطان عميرة ، الذى امتد سلطانه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط . ويصف هذا الأقليم بأنه بلادا بها مروج وغابات وجبال وصحراوات ويقول انه بعد تركه عاصمة السلطان عميرة فى طريقه إلى سنار، انه قد عبر انهارا كثيرة وان أرضها رخوة لدرجة أن الخيل التى كان يستخدمها قد غاصت فيها حتى البطن . وقد جاء ما يؤيده هذه الرواية فى كتاب فتوح الحبشة (٧٧)

وبعد مسيرة ثمانية أيام وصل إلى سنار، حيث قابل أمين بيت المال المدعو العبيده ولا شك فى ان هذه الرحلة قد حدثت فى أكتوبر - نوفمبر أو حواله من عام ١٥٢٢ ميلادية أى بعد انتهاء فصل الأمطار فى الحصبة الحبشية مباشرة .

ب - لودافس فى كتابه تاريخ حديث لاتيوييا :

يقول هذا المؤلف « وفى الجنوب مملكة سنار أو الفند (يقصد الفنج) وبحكمها سلطان شديد اليأس وقد كان فيها مضى يدين بالولاء للحبشة . أما اليوم فهو مستقل يسطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة (٧٨) .

ج - كتاب السلطان محمد يادى عجيب :

جاء فى هذا الكتاب الذى أرسله السلطان إلى بنوامة (كذا فى نصه) الساكنين دار حنقله (دنقله) استبدلت الدال بالضاد وتنطق القاف كالفاف الصعيدية أو كالجم الفاهرية) وقد بين فى هذه الرسالة نسب الأسرة السنارية وصلتها بالأمويين وقد كان هذا السلطان كما ورد فى رسالته السلطان العاشر من البيت السنارى .

د - الروايات المحلية المتداولة :

١ - تقول مخطوطة تاريخ سنار ... ابتدأ أمر الفنج كانوا يحمل يعرف بلول بتفخيم اللامين ... فصل فى ذكر نسب الفنج قيل أنهم البنى أميه لما انتزع منهم الملك وهرتهم البنى العباسى جاء منهم رجلان إلى هذا المحل (يشير إلى لول) استولدوا النسا وأن الفنج من سلالتهم وقيل أنهم بلى هلاله (...) (٨٠) .

(٧٧) فتوح الحبشة ص ٣٠١ - وكروفرود صفحة ٢٣٩٥

(٧٨) لودافس ص ٨٧

(٧٩) راجع الملحق الرابع

(٨٠) مخطوطة تاريخ سنار ص ٤/٣ المخطوطة بالمكتبة الأهلية بجنينا

٢ - تقول الروايات المتداولة في شرق السودان ، ان القونج قد أرسلوا قواتهم لقتال البلي والارتيقة وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي وأسفر القتال عن هزيمة البلي والارتيقة . ويبدو أن التطاحن لم يمتد ناره ويشير روسيني أن قتالا قد تشب بين هذه المجموعات وانتهى بهزيمة القونج وهربهم من شرق السودان (٨١) .

٣ - مذكرات الضابط الايطالي لويجي تلتني :

قام كوتني روسيني بدراسة المذكرات التي كتبها الضابط لويجي تلتني والتي شملت ملاحظاته عن المفابر التي وجدها في طريقه في خور بركة في شهر يولييه سنة ١٩٠٢ ميلادية وقد نشر روسيني مقاله الذي جاء فيه :-

٤ - مقابر الفنج (٨٢) - يجده المرء مقابر عديدة على طول وادي الرافد انقريب وخور بركة وبعض هذه المقابر في مجموعات متراصة أو متباعدة - وهذه هي مقابر الفنج الذين أسسوا مملكة في سنار في القرن الخامس عشر الميلادي . وينهى مقاله بأن مقابر عديدة موجودة في ديرة طه Daura Taha ويذكر أنه قد علم أن الفنج قد هزموا هزيمة منكرة على حد قول الرواة الذين يقولون أن الفدين Al Gheden الموجودين الآن في أرتيريا يمتنون بصله القريب إلى الفنج وأنهم هربوا إلى موطنهم الحالي (سنار) بعد الهزيمة المنكرة (٨٣) .

٥ - رحلة أوليا شلي (٨٤) :

زار هذا الرحالة النماني السودان في ١٦٧٢ ميلادية وقد سجل في رحلته أغنية شعبية (دوبيت) سمعها عند السلطان في سنار وهي في لغة سكان الجزء الغربي من الارتيريا . وقد ذكر ترجمة تركية مع النص المحلي - وتحتوى هذه الأغنية على غزل وحب وهذه الأغنية جديدة بالتحقيق والدراسة المقارنة فالادب الشعبي السوداني قد تأثر كثيراً في مناطفه الشرقية بالادب الشعبي لقبائل آديويسا وغيرها عن طريق الهجرات من جنوبي غرب الجزيرة العربية .

(٨١) بول ص ٧٦/٧٧

(٨٢) مقال روسيني في المصنف

(٨٣) ذكر روسيني في رسالة خاصة لمؤلف انه قد استقى هذه المعلومات من الأهالي .

(٨٤) أنظر رحلة أوليا شلي (بالتركية) الجزء العاشر ص ٨٩٦ وقد أعدت ترجمة عربية

للقسم الخامس رحلة السودان والمحبشة .

ز - ذكر روسيني في مقاله له (٨٥) ، ان هنالك قصة متواترة تقول انه قد كانت للفتيح محلة في ربالاف بالقرب من ريبا الواقعة على وادي أقره (Agra) .

وذكر متسنجر ، انه قد ورد في سلسلة من النساب قبيلة ، منه ، ان الاسم الثالث لأحد بطونها التي تسكن جنوبي الحباب هو فنجاى (Fungiai) وهنالك بلدة تعرف باسم عد فنجاى التي تقع على ثلاثين ميلا من خور أقوردا .

لقد استعرضنا فيما سبق مختلف الآراء عن أصل الأسرة السنارية وما يستند اليه كل رأى من تلك الآراء . ولا شك ان الرأى القائل (٨٦) بأن الموطن الأول للسلطنة قبل انتقالها إلى السودان كان في منطقة الملم في جنوب غربى ارتيريا ونستطيع ان نحدد ان العاصمة قد كانت في ، أوم حجر ، المعروفة الآن بام حجار وسواء كانت تلك الأسرة من بنى أمية أو من البلى فهي عريضة الأصل على أى حال . أما الآراء الأخرى فلم تستطع أن تنف مع الرأى الأول .

٨ - هجرة السلطنة إلى موطنها الجديد

أوضحنا تطورات الأحوال في المناطق التي قامت فيها الولايات الإسلامية في شمال أبيوبيا ، والمذى الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والأثيوبيين من جهة وبين القبائل الإسلامية وبعضها ، فمكل هذا قد دفع بالسلطان عميرة إلى الانتقال إلى حوض النيل الأزرق ، متخذاً فيه عاصمته الجديدة بعد ، الملم ، وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التي كانت قائمه في حوض وادي النيل الأوسط ، محتفظاً لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية .

ويرجع اختيار مدينة ، سناره (٨٧) كمقر للحكم ، لأكثر من سبب في مقدمتها

(٨٥) مقال روسيني في مجلة الجمعية الأسيوية الإحيائية جلد ٢٢ عام ١٩٠٢ ص ٧٢

(٨٦) عاضرة المؤلف بعنوان « على أطلال مدينة سنار » التي ألقت بشادى الموظفين بواد مدنى - طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٨٧) مدينة ، سنار ، على النيل الأزرق (في شرق جنوب الشرق لخرطوم) - وهي مدينة عريقة في القدم ويقول البعض ان هذا الاسم يرجع إلى ساحرة اسمها سن النار كانت تسكن في هذه البقعة وان ثوراً من - شية عميرة كان يتدلى برعى في تلك القصابة إبلا ويأتى في ليته فتبعوه في بعض الأيام لراوا دواها ونهرها فزفوا من مويه وقطع أشجارها الملك عميرة دوقس (أنظر مخطوطة تاريخ سنار دار الكتب المصرية رقم ١٨ م) وهذا نسج من الخيال الخصب لتعليل مصدر الاسم . عرفت هذه المدينة قديماً باسم (جزيرة الماء أو الأخت) (بصلى - قال) .

موقعها الأقليمي الاستراتيجي في قلب القطاع ، الذي يكون المجال الحيوي الطبيعي لامتداد سيطرة البيت الحاكم قبل تركه لملم بسبب الظروف المتغيرة . وبسيطر موقع هذه المدينة على الطرق النيلية والقوافل الأمر الذي أضحى عليها أهمية كبرى كمرکز تلتقي فيه مختلف الطرق التجارية ، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة ومن مصر ومن الشرق الأقصى عبر سواكن ومصروع واثيوبيا .

وبجمل بنا قبل أن ننقل مع السلطة إلى مركزها الجديد في حوض النيل الأزرق ، أن نحدد التاريخ الذي هجرت فيه عاصمتها في منطقة «لملم» وأن نستعرض العوامل التي خلقت الاتحاد بين المشيخات القائمة حينذاك في بلاد السودان وبين السلطان .

فقيام السلطان في عاصمته «سنار» لم يكن حادثاً فجائياً كما جاء في الروايات المحلية (٨٨) بل سببته عوامل داخلية تولدت من مظاهر حياة المجتمع ، الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد ، وقد كانت هنالك عوامل خارجية في مقدمتها امتداد النفوذ العثماني إلى حوض البحر الأحمر وما تبع ذلك من وصول قطع من الأسطول العثماني إلى ميناء ذلك البحر لتعزيز سلطانها والحفاظة على سلامة موانئ جانبي البحر الأحمر (الاسيوي والأفريقي) التي بسط عليها العثمانيون سيطرتهم ومطاردة البرتغاليين الذين أخذ نشاطهم في الازدياد لبسط نفوذهم على اثيوبيا ، وقد مكن النفوذ العثماني في حوض البحر الأحمر من سيطرة المسلمين سكان الساحل الأفريقي للبحر الأحمر على مرافق التجارة بين الساحل والمناطق الأفريقية الداخلية بما في ذلك اثيوبيا (٨٩) .

تقول المصادر السودانية التي جمعت من الروايات الشفوية وغيرها وكتبته في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي وفي مقدمتها كتاب الطبقات لود صنف الله وتاريخ مدينة سنار للكاتب الشونة (٩٠) ان السلطان السناري قد أنشأ

وهناك استعانة مادية في امكانيات منطقة جبل مريا على إيواء جوع من الجنود وغيرهم بسبب قلة الماء وهنا عامل مهم وتالياً أن المنطقة لا تخرج عن كونها جبلية وأرضها الصالحة للزراعة لا تخرج إلا فصل الحريف (بالأطار) وما يفت النظر ان ما جاء بالخطوطة آفة الذكر يدل على ان الجنود تجمعت حول الملك عميرة في منطقة جرداء دون أن تحظى إلى وجود بحري الثمر حتى دلفا عليه الثور !!

(٨٨) تاريخ مدينة سنار مخطوطة في دار الكتب المصرية ص ١٠

(٨٩) أنظر لود نفس ص ٧٣ / ٧٤

(٩٠) نشر كتابه الطبقات لأول مرة في عام ١٩٣٠ ميلادية في طبعين إحداهما علق عليها عليها الشيخ إبراهيم صديق والثانية طبعها داود مندبل اما كتاب تاريخ سنار فما زال مخطوطاً ومنه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

عاصمته في السنة العاشرة من القرن العاشر الهجري (السنة الرابعة بعد الخمسمائة و آلاف ميلادية)، وهذا لا يتفق مع ما كتبه الرحالة داود رويني، الذي زار السلطان في عاصمته في منطقة الملم في عام ١٥٢٢ ميلادية، حيث أمضى هذا الرحالة نحو العشرة شهور، وافق فيها السلطان في رحلاته الدورية التي كان من عادته أن يقوم بها مرة في كل شهر للاحية من نواحي مملكته . وقد سقطت تفاصيل تلك الرحلات من مدونة داود رويني غير أن الرحالة قد أوضح بما لا يقبل الشك أن زيارات السلطان المشار إليها قد شملت القطاع الممتد من منطقة الملم حتى حوض النيل (٩١) . ونجد سنداً لما ذكره داود رويني في الروايات التي جمعها رويني (٩٢) وفيما كتبه لودلفس (٩٣) عن علاقته السلطنة مع النجاشي وكذلك ما كتبه فرنسكو أمارز (٩٤)، الذي زار الحبشة في حوالي ١٥٢٠ ميلادية ونقل في كتابه ما سمعه عن حنا المرياقي عن أحوال بلاد علوة ولم يذكر شيئاً عن وجود سلطان في سنار في ذلك الوقت .

ويبدو أن تدهور العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات في النوبة وبين المماليك في مصر، وقيام الكشاف أو الغز، الذين أرسلهم السلطان سليم بزعمامة حسن قوسى (٩٥) لحكم البلاد بين الشلالين الأول والثالث قد جعلت البلاد جنوبي الشلال الثالث في عزلة اقتصادية، الأمر الذي دفع المشيخات إلى الانجذاب نحو ساحل البحر الأحمر، والاتصال بالسلطان عبرة الذي كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذي شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأزرق ومراكز تجمع التجارة فيه . وهكذا دفعت الظروف إلى قيام الاتحاد .

(٩١) كتاب الرحالة اليهود لناشره السكان تانان ادلر طبع لندن ١٩٣٠ ص ٢٥٧ حيث يقول ان مملكة الجمل (المجملين) يحكمها الملك أبو عنارب وهو خاضع للسلطان عميرة . ويرجع سبب إهمال بعض التفاصيل ان الرحالة لم يكتب يومياته كاملة بل أملاها من ذاكرته

(٩٢) الملحق الثاني

(٩٣) أظهر هامش ٧٠

(٩٤) الفارز ص ٣٥٢

(٩٥) استجندت قبيلة النوبة التي سكنت أرض المحس بالسلطان سليم بعد الفتح الثاني لمصر ليعينها على رد عدوان قبيلة الجوابرة التي كانت تنفصرة في النوبة وقد استجاب السلطان لهذا النداء بأرسال حملة بقيادة حسن قوسى الذي تمكن من طرد الجوابرة إلى منطقة دقلا . وحديث ان ابن جنبلان الذي خلف حسن قوسى بعد وفاته قد استقبل مع القبائل التي تسكن شمالي منطقة دقلا في مولاة فاصلة عند ذلك . حيث أقيمت قبة ضمت القتلى واعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين حكم الكشاف . والبلاد الجنوبية .

وقد اتصل السلطان عميرة ومركزه في منطقة لم بالسلطان العثماني سليم (الذي حكم من ١٥١١ - ١٥٢٠م وذلك بأن أرسل إليه كتابا أعده الشيخ السمرقندي ، موضحاً به أنساب العرب أهالي السودان ، وطلب منه أن لا يغزو البلاد وسكانه من المسلمين ، الذين لا يجوز شرعاً فتح بلادهم بالسيف . وهو الخطاب الذي ذكره نعيم شقير (٩٦) خطأ أنه أرسل إلى السلطان سليم . ووجه الخطأ أن السلطان سليم لم يصل إلى سواكن ولم يحتلها بشخصه ، وإنما احتلها الياشا العثماني في أعقاب الفتح العثماني لمصر في سنة ١٥١٧ ميلادية ، وأتينا بخلاف هذا الرأي القائل بأن السلطان قد جاء إلى سواكن لغزو السودان ، فالأصح أن يكون السلطان عميرة قد أرسل ذلك الكتاب (حوالي عام ١٥١٧م أي بعد ضم مصر إلى تركيا) ، وكان عميرة يهدف من ذلك أن يعمل السلطان العثماني على وقف التمدد الذي وقع على الحدود الشمالية من السودان ، بين قبيلتي الغربية والجوابة وهما من البربر الذين نزحوا إلى مصر فالتوبة السفلى . وقد دفع وصول الكشاف إلى بلاد المحس إلى توثيق عرى الاتحاد بين المشيخات في السودان والسلطان عميرة وعاصمته في لم . ونرجح أن هجرة السلطان إلى حوض النيل الأزرق قد سبقتها محاولات استطلاعية مهدت لسيطرته على ذلك القطاع . والمعروف أن ملكه علوه قد زالت في السنوات القليلة من أول القرن السادس عشر الميلادي ، ويستخلص مما جاء في رحلة رويني أن السلطان عميرة لم ينتقل من عاصمته أسرته في منطقة لم إلا بعد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي أو قبيل ذلك بعام أو عامين على أكثر تقدير ، أعني في سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٥ ميلادية . ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الروايات المحلية في شرق السودان عن القتال الذي حدث بين الفونج من جهة والارتيفة واليلي من جهة أخرى ، كما أشرنا إليه من قبل . ونرى أن هذا الصراع قد دفع بالسلطان إلى الانتقال إلى موطنه الجديد في حوض النيل الأزرق . ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الحفية كانت مليئة بالأحداث والتطورات . فبناء سواكن صارت عثمانية في سنة ١٥٢٠م وكانت المراكب البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر لمنازلة الاتراك وأن هذه المراكب قد بقيت فترة من الزمن في خليج مصوع ، التي صارت عثمانية في سنة ١٥٢٧ ميلادية . وأغارت السفن البرتغالية على ميناء السويس في ١٥٤٠م غير أنها قد فشلت .

وننتقل الآن إلى بيان المجموعات الاقليمية التي كانت قائمة عند قيام الاتحاد بين المشيخات والطان . ومن ثم إلى المجتمع في بنيتهم ومظاهر نشاطه ونظم الحكم والاقتصاد . وإنما بذلك نحاول أن نصور أثر ذلك في تطور نظم الحكم في مختلف المراحل .

توزيع السكان في حوض النيل الأوسط

ينقسم السودان سبع مناطق تأثرت كل منها بالحياة الاقليمية الخاصة وهي :-

١ - السلاطنة المستقلة بالزراعة والتجارة في السودان :

١ - المجموعة الاقليمية الاولى :

اتمت هذه المنطقة بعد شلالات حنك شمالا وجنوبى الشلال الرابع جنوباً ، وهي الرقعة من الارض التي عرفت بمملكة المقررة التي سقطت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد حياة ناهزت العشرين قرناً ، شاركت في خلالها مصر في المدنية والثقافة كما شاركت مصر في عنائها بسبب دخول الفرس والروم الخ . . . وقد حافظ أهلها على لغتهم وأسس مجتمعاتهم ، ومن أقسامها :-

١ - دار الجوابرة وحدودها من شلالات حنك شمالا حتى حلة تبيق ، جنوباً وبها مشيخات أرقو وجزيرة مقاصر والحناق .

وتسكن هذه المنطقة الجوابرة والنوبة وهما الغالبية وقليل من المهاجرين المصريين وبعض العرب الذين يرجعون في أصلهم إلى البشاش (البجة) وتصدر زعامة هذه المشيخات ملك أرقو الذى بسط نفوذه على المشايخ الآخرين ويسكن هذه المنطقة جماعة من الهامق وهم في الصحراء شرق جزيرة أرقو (٩٧) .

٢ - دار البديرية وتبدأ من حلة تبيق حتى جبل دافر (حد دار الشايقية) وبها مشيخات الحندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنفس وأبكر والدفار ويتزعم هذه المشيخات ملك دنقلا العجوز .

وأسكن البديرية والثوبة في هذه الرقعة عدا قطاعي كورقي وأمبقول حيث تسكن
بجموعة الطريفية التي تنتمي إلى البديرية .

٣ - دار الشايقية وتقع بين جبل دافر حتى الشلال الرابع وبها مشيخات حنك
وقوشاني ومروي والعمرى .

وسكانها من الشايقية الذين يكتونون الغالية العظمى وجماعات قليلة من الثوبة
الذين يعيشون في درجة الموالي للشايقية .

وتميزت دار الشايقية بأنها وهي منقسمة أربع مشيخات كما أوضحنا، إلا أنها
كانت تستجمع كلها وتوحد قواتها في جهة واحدة لمقاومة العدو الذي يتهدى على
إحداها ، بينما نجد أن سكان دار الجوابرة ودار البديرية متفرقو الكلمة لا يفتأون
عن مناوأة بعضهم البعض .

وتحتل دار الشايقية مركزاً استراتيجياً على طرق القوافل ، بين ذلك الجزء من
وادي النيل والغرب (دافور وفزان والمغرب الأقصى) وبين وادي النيل ، وساحل
البحر الأحمر ومصر عبر صحراء العظمور ، وكانت العلاقات مع الغرب زاهرة
وخاصة بعد قيام سلطنة الفور . وكان لهذه العلاقات أثرها في قيام الشايقية بالانفصال
عن الاتحاد السناري كما سنبينه في موضعه فيما بعد .

ب - المجموعة الاقليمية الثانية :

تحتل هذه المجموعة رقعة من الأرض تبدأ من الشلال الرابع حتى رأس الوادي
(عند مصب العطبرة بالنيل) ، وسكان هذه المجموعة أقل عدداً من المجموعة الاقليمية
الأولى ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم الصخرية القاحلة ، وبخاصة في القسم الغربي ببلدة
أبو حمد ، وتنقسم هذه المجموعة إلى : -

(١) دار المناصير - من الشلال الرابع حتى غرب أبو حمد - تميزت هذه المنطقة
بأن أراضيها الصالحة للزراعة تنحصر على شاطئ النيل الصخري بسبب طغيان الرمال
على الأراضي الخصبة ، وقد دفعت هذه الحالة من الجذب إلى فقر السكان واحترافهم
السطور على القوافل ، وقد عرفت هذه المنطقة في الزمن القديم باسم « شنقير » ومعناها
« تمرد » أو « مال » ، وكانت هذه البلاد معروفة بهذا الاسم قديماً لوقوعها على الطريق
إلى مناجم المعادن في صحراء العظمور .

(٢) دار الرباطاب - تبدأ من حلة الشياخية (غرب أوجرد بنحو خمسين كيلومتراً) حتى الشلال الخامس (شمالى بلدة العبيدية)، وهذه منطقة أكثر يسراً من دار المناصير وتتألف القبيلة التى تسكن هذه البلاد من شعب كثيرة منها الكبير فى مجموعته ومنها القليل وكانت لهم زعامتان إحداهما فى الشمال والثانية فى الجنوب .

(٣) دار الميرقاب - تبدأ من الشلال الخامس حتى رأس الوادى وفيها زعامة هذه المجموعة الاقليمية، ومركزها مدينة برير الشهيرة بمركزها التجارى حيث تلتقى فيها الطرق التجارية بين مختلف البلاد، عن طريق النيل جنوباً إلى الخرطوم وما بعدها وتتصل عن طريق القوافل بموانئ البحر الأحمر .

وطفيان الرمال على الاراضى الخصبة فى هذه المنطقة واضح الاثر .

والملاقات بين المجموعتين الاولى والثانية وثيقة العرى فى مختلف نواحي النشاط. وما زالت هذه المنطقة بمجولة تماماً من الناحية الاثرية (الاركيولوجية) وقد ورد ذكر بعض بلدان من جنوب هذه المجموعة فى لوحة ملك أكسوم عيزانا الذى غزا بلاد مرو (بين نهر العظيرة والنيلين الأزرق والرئيسى) .

اللغة السائدة هى العربية العامة متأثرة باللهجات الخاصة بالبلون كل فى منطقته وما زالت اللغة محتفظة بالكثير من السمات النوية القديمة كما احتفظت بعض الاماكن بأسمائها القديمة مع بعض التصحيف .

ج - المجموعة الاقليمية الثالثة :

تبدأ من الجانب الأيسر لنهر العظيرة حتى شمالى أربيجى ، وأرضها أكثر خصباً وإنتاجاً من سابقتها وشملت : —

١ - الدامر - وقامت فيها زعامة بيت المجاذيب الديفية .

٢ - دار الجميلين - ومركزها شندى حيث يقم الملك وضمت بعض المشيخات الصغيرة وحدث فيها بعد قيام أكثر من زعامة للجميلين خضعت لسلطان العبد اللاب المباشر .

٣ - دار العبد اللاب - من جنوب شندى حتى شمالى بلدة أربيجى وضمت هذه بعض المشيخات المنفرقة على حوض النيل وفى شمال الجزيرة ومركزها فى بلدة قري، حيث أقام عبداؤه جماع ، الذى مارس سلطانه المباشرة على هذه المجموعة وقد امتدت

سلطانه على هذه المجموعات الأخرى بأسم السلطان السنارى . واحتفظت دار العبد
اللاب فى حدودها على ما كانت عليه ، علوه .

د — المجموعة الاقليمية الرابعة :

احتلت هذه المجموعة قطاع الحكم السنارى الذى شمل أرض الجزيرة من مدينة
« أريجى » شمالا حتى دار فتح جنوبا وفيها مشيخات خشم البحر ، فازوغلى ، كنجاراء ،
ومن ناحية الشمال فقد امتد القطاع عبر البطانة متخذاً طريقاً شمالياً شرقياً ، للحفاظة
على طرق القوافل بين داخلية البلاد وموانى البحر الارترى وشمل هذا القسم من
القطاع مشيخة رأس الفيل والجزء الجنوبي من وثقايت وتعرضت أطراف هذا
القطاع لمنازعات بين ملوك أمبوييا وسلاطين سنار .

* * *

٢ — مناطق الرعى والزراعة البرائية :

المجموعة الاقليمية الخامسة :

قامت هذه المجموعة فى أرض البطانة التى تحده جنوباً بالنيل الأزرق ورافد الزهد
شرقا ، وتعدى حدودها الشمالية حوض المطيرة وتفصل بين هذه المنطقة والنيل الرئيسى
(بين المطيرة والخرطوم) المدن والأراضى الزراعية القائمة على النيل . وقد قامت
فى هذه المنطقة أكثر من ولاية ، عصفت بها الحروب الداخلية وغزو الاثيوبيين مما
ساعد على طغيان الرمال بطبقات كثيفة بفعل الرياح الموسمية التى تعرف بالهبوب .
ففقدت بذلك الأرض خصائصها وهجرها أهلها وتحول من بقى منهم الى حياة الرعى ،

المجموعة الاقليمية السادسة :

تحتل هذه المجموعة المنطقة رقعة الصحراء الشرقية التى تبدأ من جنوبي أسوان
حتى دهلك (مصوع) ، وتكاد أن تكون هذه المنطقة صورة لما كانت عليه مملكة
نقيس التى ذكرها اليعقوبى والتي تكلمنا عنها فيما سبق .

ولم تكن هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة السلطنة السنارية المباشرة، وبخاصة الجزء الجنوبي منها، الذي تعرض فيه سلطان الفنج للامتداد والانكماش، متأثراً بالعلاقات مع البشا والأتوبيين، وبخاصة بعد القتال المرير الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي^(٩٨)، كما حدثت نزاعات وقتال بين سنار وأتوبيا بسبب الحدود.

المجموعة الاقليمية السابعة:

احتلت هذه المجموعة الصحراء غرب النيل من دنقلا شمالا حتى تقلى جنوبا، وتعرضت هذه الرقعة لاعتداء سلاطين السودان الغربي والفور. وكانت القوافل التجارية بين مختلف البلدان الافريقية وحوض النيل تخترق هذه المنطقة، في نقل السلع المتبادلة بين حوض النيل وواقى البحر الازرقى من ناحية وداخلية افريقيا من ناحية أخرى. وإلى هذا يرجع اهتمام سلاطين السودان الغربي والفور بالعمل على امتداد نفوذهم إلى هذه المنطقة.

ولم تكن ولاية تقلى من القوة بمكان عند قيام السلطان السنارى فى حوض النيل الأزرق، وبقيت على هذا الحال حتى اشتداد المنافسة بين سنار والفور. فى القرن السابع عشر الميلادى.

• تطورات الوضع السياسى :

يحمل بنا قبل أن نتعرض لحياة المجتمع فى مختلف مظاهر نشاطها، أن نتعرف على الوضع السياسى وتطوراتها، كما نتعرف على العلاقات والروابط التى كانت قائمة بين شطرى الوادى (مصر والسودان) ، بخاصة والعلاقات مع دارالاسلام بعامة ، وذلك فى الفترة التى سبقت انتقال السلطنة الزرقاء^(٩٩) إلى حوض النيل الأزرق . ولا شك فى أن التعرف على العلاقات والروابط ، التى أشرنا إليها سوف يفسر لنا تطور حياة المجتمع ، كما تصور لنا سلوك الافراد فى هذا المجال الذى تأثر بالآراء التى نقلت إليه ، وما ترتب على ذلك من تقدم .

(٩٨) أخطر الملحق الثانى لمذكرات المصايط الايطال تالا موت .

(٩٩) عرفت السلطنة السنارية بالزرقاء وسلطنة الفور بالحضراء ومصر بالسلطنة الحمراء .

فقد قامت في البلاد دويلات ومشيخات إسلامية على أنقاض ما كان قائماً من دويلات مسيحية أو شبه مسيحية ووثنية ، وكان لزاماً بعد أن استكملت تلك الدويلات والمشيخات الإسلامية مراحل تطورها، أن تتطلع إلى سلطة مركزية تجمع في صورة ما ، بين تلك الدويلات والمشيخات (١٠٠) استجابة لدوافع الفخو الطبيعي .

كانت البلاد أصلاً بحكومة بلوك مؤهلين ، وكان كل شيء ملكاً لهؤلاء المؤهلين ، وكان طبعياً أن تتغير تلك النظم بدخول المسلمين إلى البلاد ، في هجرات جماعية متلاحقة ، وكان شأن تلك الهجرات العربية في صدر الإسلام مختلفاً كل الاختلاف عما عرفته البلاد في علاقاتها وصلاتها من العرب قبيل الرسالة المحمدية ، فقد كانت تلك العلاقات والصلات محصورة في نطاق التبادل التجاري ، وما إلى ذلك من معاملات . أما في العهد الإسلامي فقد خرج العرب من بلدهم في أخطر تجربة وأقساها هدفها بناء (أمة) إسلامية لها قوميتها الموحدة ، تضم المواطن التي امتدت إليها رسالة الدين الجديد . وكان طبعياً أن تظهر مشاكل كثيرة بعد التوسع الإسلامي ، الذي شمل مناطق متباعدة من النواحي الاجتماعية . وقد أحتلت هذه المشاكل اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، الذي أخذ بمعاونة مستشاريه في وضع دستور للدولة الإسلامية الكبرى ، إلا أن المنية قد عاجلته ولعبت بعد ذلك الفتن والقلاقل دورها ، والتي كان من أبرز نتائجها تعطيل الحركة التهذيبية التي جاءت مع رسالة الإسلام ، وتغلب الخصائص والمميزات الشخصية لمختلف الشعوب ، التي امتد إليها سلطان المسلمين . دفع الوضع الإقليمي للسودان إلى الدخول في روابط اقتصادية مع البلدان الإسلامية ، الواقعة خلف حدوده ، كما اتصل مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، أما عن العلاقات بين شطري الوادي (مصر والسودان) فإنها قد كانت أعمق أسساً عما كانت عليه مع البلدان الأخرى من دار الإسلام وغيرها ، ومرجع ذلك إلى أن شطري الوادي يطلان على منفذين إلى المحيطات ، وهما البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، كما أنهما يحتلان المدخل الأول إلى قلب القارة الأفريقية (١٠١) ، الأمر الذي

(١٠٠) أنظر نهاية الفصل السابق حيث أوضحنا الدويلات والمشيخات التي كانت قائمة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) والتي دخلت في حلف مع السلطات الساناري .
(١٠١) راجع خريطة نمرة ٥

وجهود موحدة ، للإفادة من هذا الوضع الاستراتيجي ، بما فيه مصلحة البلدين ، ولا نريد أن نذهب بعيداً في توضيح الصلات البعيدة العمق ، وبهنا أن نحدد العلاقات في بحر الإسلام وفي السنوات التي تلت ذلك (١٠٢) .

• • •

ورد ذكر النوبة لأول مرة في وثيقة إسلامية هي عهد الأمان الذي أعطاه عمرو ابن العاص لأهل مصر ، ونصه كالآتي كما ذكره الطبري (١٠٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ومالهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (مفرد ما صليب) وبرم وبحرم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم التوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصالح وانتهت زيادة نهرم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصونهم ، فإن أبي أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا من أبي بريئة وأن نقص نهرم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب قله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبي واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، وأخرج من سلطانتنا عليهم ما عليهم ، أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمهم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يمينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا قرساً على أن لا يفزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناء وكتب وردان وحضر . . وذكر النوبة في هذه الوثيقة إن دل على شيء فهو يدل على ما كان عليه النوبة من نفوذ اقتصادي بالنسبة للتجارة الواردة والصادرة عبر بلادهم . ثم أن الأمور لم تكند تستقر في مصر بعض

(١٠٢) راجع المجلد العاشر من موسوعة « مصر القديمة » للدكتور سليم حن

(١٠٣) الطبري طبعة غوي ، القسم الأول صفحة ٢٥٨٨ / ٢٥٨٩ - نشرها استاذي ابن بول في أعمال الأكاديمية الايرلندية الملكية مجلد ٢٤ من ٢٢٧ / ٢٣١ .

الشيء ، حتى أرسل عمرو ابن العاص حلتين إلى الحدود الجنوبية لوقف التعدي من القبائل القاطنة في جنوبي أسوان وثلاثين الحدود ولفتحها التجارة ، وكانت حملة تحت أمره عقبة ابن نافع ابن عبد القيس الفهري (أخ عمر ولامه) وأخرى بقيادة عبدالله ابن سعد بن أبي سرح ولا يعلم بالضبط أي الحلتين قد سبقت الأخرى ، وقد ذكر البلاذري (١٠٤) أن حملة عقبة بن نافع الفهري قد أرسلها عمرو ابن العاص بعد فتحه لمصر ، وأن هذه الحملة قد انصرفت بجراحات كثيرة ، والمؤكد على أي حال أن حملة عبدالله بن سعد بن أبي سرح قد أرسلت في سنة عشرين أو في إحدى وعشرين من الهجرة ، وأنها اشتبكت مع النوبة في قتال انتهت إلى مصالحة هدنة ، تقرر فيها تبادل بعض المعونة والهدايا فكان على النوبة أن يقدموا إلى المسلمين ثلاثمائة وستين رأساً الخ الخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المصالحة قد جاء فيها ، وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم (يشير إلى النوبة) ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان ، وقد عرفت مصالحة الهدنة هذه بالبط (١٠٥) . وقد أصدر عبدالله بن سرح عهده هذا عقب حملته الثانية، التي دخلت بلاد النوبة حتى مدينة دنقلة، وذلك في العام الحادي

(١٠٤) البلاذري ف ٢٣٨ وما بعدها .

(١٠٥) البط ما كان يؤخذ من النوبة في كل عام في قرية النصر التي تقع جنوبي مدينة أسوان بما يقرب من الخمسة أميال ويرجم هذا الاصطلاح إلى الأصل الرومي، حيث يعرف هذا النوع من الاتفاقات بـ (baclum) ومعناها (Pact) وتدل هذه المصاحفة لحسم خلاف بين دول لا غالب ولا مغلوب بل أن الطرفين أو أكثر متعاقدين على قدم المساواة وهي أقرب شيء، في تفسيرها إلى أنها عربون صدافة متبادلة أما البط الذي اصطلح عليه العرب عقب غزوة عبدالله بن سعد بن أبي سرح عام عشرين أو واحد وعشرين هجرية هو ثلثائة وخمس وستين رأساً من الرقيق ليبت مال المسلمين وللامير بمصر غير ما ذكر أربعمائة رأساً وثلثائة وخمس وستين رأساً من الرقيق ليبت مال عمرو بن أبي سرح وللعالم القبط بأسماء أسوان قبض البط خمسة رؤوس ولائى عشر شاهداً عدولاً من أهالي أسوان يحضرون مع الحاكم قبض البط اثني عشر رأساً من الرقيق وكانت النوبة قد دفعت إلى عمرو ابن العاص أربعمائة رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردها إلى كبير البط الذي اشترى بشئها جهازاً وخرأ وأرسله الملك النوبة وبنت عبدالله بن أبي سرح ما وعد النوبة به من الجيوب فمعا وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً ثم تناول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البط في كل سنة وصارت الأربعمائة رأساً التي أهديت أسلاً إلى عمرو ابن العاص يأخذها إلى مصر (أنظر القفري في المواعظ والاعتبار ص ٢٨٩ / ٢٩٩ الجزء الثالث - نشر في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة سنة ١٩٢٢) .

والثلاثين من الهجرة عند ما نكثت النوبة العهد السابق ، وذلك بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ظناً منهم ، كما هي عادتهم التي تميزوا بها في مختلف العصور أنهم في في نكثهم للعهد الذي قطعوه على أنفسهم في ولاية خليفة سابق، قد يصل بهم إلى تخفيف ما اصططح عليه أصلاً . وهذه الظاهرة ما زالت قائمة في المجتمع، وبعد استسلام ملك النوبة فيلدروت تقرر الصلح على ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ، ووعد عبد الله بن سعد بدية سنوية من حبوب وملابس الخ وكتب عبد الله بن سعد أماناً، اشترط لقيامه أن يؤدي النوبة في نهاية كل عام عدداً من الرقيق تحددت أوصافه . كما اشترط عدم التعرض للمسلمين من إقامة شعائهم الدينية وحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقله وغير ذلك ، ولم يشر الجانب العربي إلى ما وعد به عبد الله بن سعد من حبوب وملابس الخ (١٠٦) . وقد وفي الجانبان العربي والنوبي بالتزاماتهما حفظاً للعلاقات الوثيقة، الأمر الذي استمر نافذاً أكثر من ستة قرون، حتى حدثت تطورات في العلاقات السياسية بين شطري الوادي في القرن السابع الهجري كان من نتيجتها قيام حلف جديد ربط بين شطري الوادي وسوف نتعرض لهذه التطورات فيما بعد .

هذا ما كان من العلاقة مع البلاد النوبة التي على حوض النيل الأوسط . أما العلاقات مع البشا (البجة) فقد تحددت في عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البشا في عام ٢١٦ هجرية (٨٣١ ميلادية) وقد سبق أن أوضحنا ما جاء في ذلك العقد (١٠٧) من امتيازات منها أيلولة ملكية القطاع من جنوب أسوان حتى جنوب دهلك (مصوح) للخليفة .

وحدث في عهد المماليك البحرية تدهور في العلاقات بين المماليك ، الذين ألت إليهم مقاليد الحكم وبين العرب والعربان المسلمين في القطر المصري . وكان ذلك مدعاة لقيام العربان بأثارة الفتن والفلاقل ، وكانت البلاد مهيأة لتلك الاحداث لسبب ما نقل

(١٠٦) أنظر القريري ص ٢٩٦ جزء ثالث .

(١٠٧) راجع عقد الأمان في صفحة ٢٢ ومماش ٥٨

حدث أن قض البشا عهدهم بيزو صيد مر الأعلى حتى بلدة اسنا وذلك في عام ٢٤١ هجرية (٨٥٥ ميلادية) في عهد الخليفة جعفر المتوكل وأرسلت حملة لتأديبهم واضطر كبير البشا إلى التسليم فأحسن العرب معاملته وأرسل مكرماً ليطأ بساط أمير المؤمنين في بغداد . وكانت هذه الجلة تحت أمرة محمد بن عبد الله الفقي .

في المجتمع المصري من آراء وأساليب جديدة من العهود السابقة ، وقد قتل في هذه
القتال ألوف من العربان فقدوا ماشيتهم وممتلكاتهم ، وذهب الكثيرون منهم صوب
شطر الوادي الجنوبي هرباً من انتقام الماليك ، وتوالت حملات الماليك نحو الجنوب ،
حيث كثرت المشاحنات والحروب الداخلية ، التي عطلت الحياة وهددت البلدان
الواقعة شمال الشمال الأول . وانتهت الحملات التي أرسلها الماليك على النوبة بأن
أجلس شكند (١٠٨) على كرسي الملك في دنقله في عام خمس وسبعين وستائة هجرية
(١٢٧٦ م) ، ولما نصبوه خلفه بأن يكون نائباً للسلطان وجرى قسبه كالأق ، والله
والله والله وحق الثالث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور
والمعمودية ، والأنبياء والرسل الخواريين والقديسين والشهداء والأبرار ، وإلا
أجحد المسيح كما جحد ديوس وأقول فيه ما تقوله اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ،
وإلا أكون ديوس ، وأطعن المسيح بالحربة ، كما طعنوه اليهود ، اتى أخلاصت نيتي
وطوبى من وقى هذا وساعنى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الطاهر ركن الدنيا
والدين بيبرس خلد الله ملكه واتى أبذل جهدى وطاقتي في تحصيل مرضاته ، واتى
ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على في كل سنة تمضى ، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى
على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المنحصل
لمولانا السلطان مخلص في كل فن (حق) ، والنصف الآخر مرصداً لعبارة البلاد
وحفظها (حفظها) من عدو يطرقها ، وأن يكون على في كل سنة من الألفيلة الثلاثة
ومن الزرافات ثلاثة ومن الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الإبقار الجيدة
أربع مائة رأس ، واتى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدي في البلاد من
المقلاء البالغين ديناراً عيناً ، وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولاخوه (أخيه)
شكوا ولامه ولاقاريه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى
الأبواب العالية ، واتى لا أترك شيئاً منه قل ولاجل ولا أخفيه ، ولا أمكن أحداً من
اخفائه ، ومتى خرجت عن شيء مما قرر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ومن السيدة
الطاهرة ، وأخير دين النصرانية ، وأصلى لغير الشرق وأصكفر بالصليب ، وأعتقد
ما يعتقدونه اليهود ، ثم أتى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً ،
ومن وجدته احتطت عليه ، وأرسلته إلى الأبواب العالية ، واتى مهما سمعته من الأخبار
الضارة والنافعة طالعت لمولانا السلطان في وقته واتى لا أنفرد بشيء من الأشياء

واننى عبد مولانا السلطان عز نصره وغرس صنائعه وسيفه المنتصور ، وأنا ولي من والاه ، وعدو من عاداه ، والله على ما أقول وكيل وشهيد .

وأقسم شكندة يميناً ثانية : اتى متى ورد على مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه إلى الابواب الشريفة يحضر لوقته وساعته ، ولا يتأخر بوجه من الوجوه ، إلا بمقدار ما يدير ما يحتاج اليه من أمور السفر (١٠٩) . ومن هذا يتضح لنا أن شطر الوادى الجنوبى قد صار وفق ما جاء فى هذه المواثيق التعهدية «دار الصلح» . ولم يمض طویل وقت حتى كانت الهجرات العربية الجماعية قد تغلغلت فى بلاد النوبة والبشا ، وكوتت عنصراً خطيراً وخاصة بعد مصاهرة المهاجرين للأسرات الحاكمة ، الأمر الذى مكن أبناء العرب من مقاليد الحكم بفضل التغاليد المحلية التى تمنح ابن الأخت وابن البنت حق الوراثة دون ولد الصلب ويقولون انب ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح ، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال (١١٠) .

وكان من أثر هذا العهد الذى قطعه شكندة ، امتداد سيطرة سلطان شمال الوادى المباشرة على المنطقة السفلى للنوبة المعروفة بالمريس ، وهى الواقعة بين الشلال الأول وبلدة كرسكو ، التى تبعد عن شمالى وادى حلفا بحوالى الستين ميلاً ، وصارت المقررات المعتادة من الضرائب على البالح والقطن وغير ذلك من المحصولات تدفع للسلطان ، كما كانت تجب الجزية من المواطنين الذين يحتفظون بغير الاسلام ديناً وذلك بواقع دينار واحد عن كل ذكر بالغ . وبعد وفاة السلطان بيبرس تولى الحكم قلاوون وفى عهده قتل شكندة واستولى على كرمى الملك (Berek) الذى لاقى حتفه على يد بعض المماليك ، وقام شمعون بأعباء الحكم ، ولم تكن علاقات هذا الملك طيبة مع أمير (الابواب) الواقعة على حوض النيل جنوبى مصب نهر العظيرة ، وقد أرسل هذا الأمير بعثة إلى السلطان شاكيًا (شمعون) لتعرضه للطريق التجارى بين الابواب

(١٠٩) معضل ج ٢ ص ٢٣٩ وتاريخ هذا القسم ٢٤ مايو سنة ١٢٧٧ م وجاء فى المقربرى (ص ٢٩٨ جزء ثالث) عن تقسيم بلاد النوبة « أن تكون بلاد النوبة تصفين نصفها لسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجبال فانها سملها للسلطان لفرها من بلاد أسوان وتكون نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على الصراية ويدفع كل بالغ منهم فى السنة ديناراً عيناً . . والتزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود وأهل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع اليقط القديم » .

(١١٠) المقربرى ص ٢٦٧ و ٢٦٨

وشمال الوادي . وحاول شمعون أن يضعف من أمر هذه الشكوى ، بإرساله وفدا إلى السلطان ليكسب ثقته ، غير أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء إلى الإمارات الواقعة جنوبي مملكة دنقلة (١١١) ، كما أرسل مندوبا إلى شمعون ، وقد استطاع أمراء الأبواب والبصرة (والأخيرة واقعة بين النيل وكلا جنوب شرق سندي) من تدعيم شكائهم من ملك النوبة ، ولهذا أرسل قلاوون حملة عسكرية لتأديب ملكها ، وانتهت هذه الحملة بهرب شمعون وتولية ابن اخته ملكا ، وبعد عودة الحملة عاد شمعون ، واستولى على الحكم ، فأرسلت قوة كبيرة في عام ١٢٨٩ م وقد صحبها اثنان من الأمراء التوبيين ، واستطاع شمعون أن يهرب ثانية ، ونصب ابن أخت الملك داود ملكا على دنقلة . وتكررت المأساة بعد عودة الحملة بظهور شمعون ، وذلك في ١٢٩٠ م واعتصامه بالحكم بعد أن قتل الملك وبعض حكام الأقاليم الشمالية لمعاونتهم للسلطان ، وكتب شمعون إلى قلاوون معلنا ولاءه ، واستعداده لدفع الجزية المقررة ، وبقي على عهده الذي قطعه فترة من الزمن ، دون أن يقوم بتعزيز العلاقات ، وحدث ثورة قام بها الأمير آني من حكام الجنوب ، وثوى الملك برديما (Boudima) الذي كان في مصر الحكم في دنقلة بدلا من شمعون . وفي عهد السلطان الناصر محمد قلاوون أرسل عز الدين الأقرم على رأس حملة إلى الأبواب ، التي كان ملكها في مطاردة الأمير الناصر آني .

وأخذت الأحوال في الجنوب تسير في خطى سريعة نحو النهاية ففي عام ١٢٩٩ أصيب المماليك بهزيمة في حمص الشام في حربهم مع المغول . وقد كانت هذه الهزيمة فرصة استغلها العربان في مصر في عام ١٣٠٢ ميلادية ، بإحداث قلاقل دفعوا ثمنها غالبا في الرجال والمال ، وشرذ من بق منهم على قيد الحياة فالتجأ الكثيرون منهم إلى بلاد النوبة ، هربا من الاضطهاد وتعقب المماليك لهم ، وأرسل السلطان حملتين في عامي ١٣١٣ و ١٣١٦ ميلادية إلى بلاد النوبة ، التي كان يحكمها الملك كرنيس . وقد صحب الحملة الثانية الأمير النوبي عبد الله برشنيو (١١٢)

(١١١) جاء في مخطوط تاريخ قلاوون ٩ إلى صاحب باره وإلى صاحب الناكه وإلى صاحب كبروا وإلى صاحب ديفوا وإلى صاحب أري وإلى صاحب صفال وإلى صاحب سائج وإلى صاحب كوسه (١١٢) تربى هذا الأمير في القاهرة تربية إسلامية وقد احتلط اسم هذا الأمير على « ماك ميكل » الذي ذكر في كتابه تاريخ العربي الوفاة أن اسمه عبد بن « سنبو » وقال أنه زعيم بسبب اسم والده « سنبو » والحقيقة أن الاسم « برشنيو » « ساه » « ابن الأسد » وكان النوبة يعملون إلى استخدام أسماء الحيوانات حريا على عادة شمال الوادي (أنظر كتيب النوفد اليوناني في حوض النيل الأزرق) للمؤلف .

ابن أخت الملك داود . وقد أسندت إلى هذا الأمير مقاليد الحكم في دنفله بعد أمر ملكها كرتيس (١١٣) وقريبه ابراهام اللذين نقلوا إلى القاهرة . وانتهت بعزله كرتيس الدولة النوبية المسيحية الشمالية . وسادت البلاد قلاقل ومطاحنات ، بين الجالس على كرسى الحكم والنفر من المخاضرين الذين تطلعون لانتزاع السلطة . فقد حدث بعد عودة الحملة أن قتل كنز الدولة الملك عيناقة واستولى على الحكم ، فأرسل السلطان حملة معها ابراهام الذي وعده السلطان بولاية الملك إذا تغلب على كنز الدولة وقد تم له ذلك ، غير أنه لم يعيش طويلا فتوفي عام ١٢٢٣ . وظهر كنز الدولة ونادى بنفسه ملكا على كرسى دنفله . وأرسل السلطان حملة معها كرتيس للتخلص من كنز الدولة وأعادت الحلقة المفرغة دورتها بعد عودة الحملة بظهور كنز الدولة واغتصابه مقاليد الحكم . واشتدت الاضطرابات الداخلية ، التي تخطتها جهود الجيوش العربية التي دخلت البلاد لتكوين ديارها التي أوضحناها قريبا سبق ، واستمرت هذه الحالة أكثر من قرن كان فيها كل من شمال الوادي وجنوبه في عزلة ، بسبب هذه الاضطرابات الداخلية في كل منهما . وانتهت هذه الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الإقليمية في اتحاد تزعمه السلطان السناري الذي انتقل إلى عاصمته الجديدة في قطاعة الإقليمية الذي شمل حوض النيل الأزرق جنوبي مدينة أربيجي . واستمر السلطان السناري في ممارسة سلطانه من عاصمته ، سنار ، التي أعاد بناؤها .

وكان قيام هذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السناري أمراً قرره الاستجابة لمرآة حياة مجتمع في صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الحثي بين المجموعات العربية التي دخلت البلاد في طرف وبين السكان من أهالي البلاد في طرف آخر ، وقد صهر هذا التزاوج المجتمع الجديد في قالب تغلبت فيه مميزات البيئة المحلية التي اتخذت من أنساب تربطها بالعرب مدارج ارتقت بها إلى القول بانحدارها من بيوت الاشراف من العباسيين الذين دخلوا البلاد في أعقاب مختلف الهجرات العربية . وهناك مجموعات من الوطنيين المستضعفين بقيت محتفظة بمركزها الاجتماعي المتواضع

(١١٣) ورد اسم كرتيس في وثيقة « دير سمعان » التي جاء فيها - كما حققه مارجليوت على نسخة بوديان - ان كرتيس تولى الحكم في عام ١٢١٢ م (٧١١ هجرية) بعد مقتل أخيه الذي لم يعرف اسمه وكان ذلك في العام الثاني من ولاية السلطان الناصر الذي أرسل حملة في عام ١٢١٥ م إلى دنفله وانتهت بتنصيب عبد الله برشينو ابن أخت الملك داود (أنظر مقال جريفت « وثائق مسيحية من النوبة التي نشر في عاشر الأكاديمية البريطانية الجزء الرابع عشر عام ١٩٢٨ »).

وتغير علاقاتها مع أصحاب الاقطاعات سواء كانت قبلية أو فردية عما كانت عليه في سابق العهود، بل بقيت هذه العلاقات على سابق عهدها المتوارث وبخاصة في مناطق المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك فئات مستضعفة في المناطق الاخرى، بل كانت هنالك جماعات من السكان الاصليين تحكم فيهم القائمون على الامر، كما هو الحال في المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة. وأن هذه الجماعات على استضعافها لم تكن موضع تعسف أو اضطهاد، بل كانوا يعاملون كطبقة خاصة، ترتفع في متواها الاجتماعى على الرقيق، فهم يملكون حرية ممارسة العمل كما يرغبون، ولا يدخلون في المعاملة بالبيع والشراء وكل ما في الامر إمكانية نقلهم من سيد إلى سيد، ولا تربطهم باليد إلا بعض التقاليد مثل اصطناعهم للحرب وتقديم بعض الهدايا في المناسبات (كالزواج - الولادة، الطهور الخ الخ)، وقد أخذت هذه التقاليد في الاختفاء السريع.

وهكذا سارت الحياة على أطراف متناقضة استغل بعضها الرؤساء الروحيين، الذين سلكوا بها منهجاً خاصاً أملت عليهم نظرياتهم الخاصة. وسار في الجانب الاخر أصحاب السلطان ولم يكن بين هذه الجماعات ما يربط بينها نحو أهداف معينة. فكل من المعسكرين اتخذ طريقه نحو تحقيق مصلحته الذاتية. وكان طبعياً والحالة هذه أن تتعطل الحياة وأن تنتهى إلى ما وصلت إليه من تعطيل الشعور عند الافراد بضرورة التطور الذى يتمشى مع طبيعة الاشياء. ومكن فقدان التوازن بين المعسكرين الروسى والمدنى من تمديد الطريق وتعبيده للجماعات القوية لتستولى على الحكم كلما سنحت الفرص التى يضعف فيها رجال الصدارة من هذا الفريق أو ذاك.

٥ - المجمع :

١ () ييشته - حياته - مظاهر نشاطه الاجتماعى:

جاء المهاجرون كما سبق أن أوردنا في جموعهم التى بدأت في قلة بعد فتح مصر (١١٤) ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادى وذلك في القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع

(١١٤) لقد حد العهد الذى أعظمه عيد الله بن سعد بن أبي سرح من الهجرة إلى البلاد جنوبى الشمال الأول واتخاذها مولداً غير أن هذا الحظر قد أهمل بعد أن استعاد سكان الوادى ما بينهم من قدم الصلات والروابط .

عشر الميلادي) ، ويرجع تطور الخروج من شمال الوادي في موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان من الممالك الذين تملكوا زمام الحكم في مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلاً والذين نظر إليهم الممالك ، وبخاصة الممالك البحرية ، كمصدر غير مرغوب في بقائه في البلد الذي آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لحوف الممالك وقلقهم من قيام العرب والعربان باشاعة الفتن والثورات ، في كفاح لاسترداد سلطانهم المقتصب . ولم يكن هناك من طريق غير هجرة العرب للخلاص بما حاق بهم بسبب ما حدث في مصر من تغيرات ، بانزعاج أداة الحكم وانتقال السلطان من أيدي العباسيين إلى الطولونيين الاخشيديين ثم إلى الفاطميين فالأيوبيين والمماليك .

وجاءت إلى جنوب الوادي في ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية وبخاصة مع اتباع الفاطميين من جند وغيرهم (١١٥) . وقد بلغ النزاع أشده في أوائل القرن السابع الهجري عندما أنزل المماليك بالعربان أفدح الخسائر (١١٦) ، الأمر الذي بلغت معه موجات الفرار ذروتها في طريقها صوب جنوب الوادي حيث الملاجأ الطبيعي .

جاءت هذه المجموع ولها من القوة الروحية ، المستمدة من الخاس للرسالة الدينية الجديدة ما جعلها تتغلغل في سرعة فائقة في المجتمع المحلي ، وتكتسح أسسه التي قامت في ظل نوع من العبادات لم يكن راسخ الأركان بل كان طابعه الغالب تلك البقايا من المعتقدات القديمة التي ورثوها من عهود الوثنية الصحيحة في قديمها والمتعددة المعبودات وكان يسيراً على المهاجرين العرب تفويض جهاز الملكية التي مارسها رجال مؤلفون من رجال الكهنوت . وقد وجد المهاجرون عوناً على ذلك عن طريق المصاهرة ، كما تمكنوا من إنشاء مشيخات وملكيات ، يحكمها زعماء القبائل التي اختار كل فريق منها المنطقة التي تناسب مع بيئته ، بالقدر الذي قدمته الظروف المحلية في الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية في تكوين ديارها التي أخذت في التوسع بانضمام المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانِب في حي هذه القبيلة أو تلك . وتمكنت الزعامات العربية من السيطرة الكاملة على مصر الوطن الجديد في مختلف مناطقه

(١١٥) جاءت مع هؤلاء المذاهب الشيعة التي انتشرت في صورة أخرى غير ان مدي انتشارها ضيق جداً وهذا الموضوع جدير بالدراسة واناها ما زالت باقية إلى اليوم
(١١٦) القرطبي البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب

الاقليمية في البادية وفي الحضر وفي الريف - ولم يحارل المهاجرون انزعاج السلطان من الاسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف بل تركوا الامر لياخذ طريقه العادي ، وشغلوا انفسهم بتوطيد اقدامهم في الارض الجديدة موضعاً موضعاً ، فتم من اشتغل بالزراعة وبنجارة الحرف في المدن وفي مواطن الحصب ، واختلط بذلك مع السكان اختلاطاً كاملاً ، وشاركهم في حياتهم ومظاهر نشاطهم ، ومنهم من ضرب في مسالك الصحراء يخط بجمل حياته بين خطى بعيره ومضارب خيابه ، يردد أناشيده وأشعاره التقليدية ، عازفاً بزمزومه منتقلاً من واد إلى وادى ، طلباً للمواطن المرعى في مختلف مواسمها . وكان اختلاط هؤلاء بأهل المدن في أضيق الحدود . ومن المهاجرين أيضاً من اشتغل بنقل التجارة على ظهور الإبل على الطرق الصحراوية بين النيل وموانئ البحر الأحمر وشمال الوادى والمناطق المجاورة ، كما اشتغلت جماعات في استخراج المعدن (١١٧) . وكان اختلاط هؤلاء بالقبائل التي سكنت ساحل البحر الأحمر .

واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تنابع الهجرات المتلاحقة ، والتي كانت تحمل دائماً في ركابها دماً عربياً جديداً ، الأمر الذي حال دون غلبة التقاليد واللغات المحلية غلبة كاملة كما كان متوقفاً أن يحدث بين جماعات اتخذت الزوجات والسراري من أهل الوطن الجديد ، الأمر الذي تحيا معه الحياة الشعبية المحلية بامتناس الوافدين ، وتكييفهم بعد صهرهم في قالب الحياة المحلية فتدخل لغة الوافدين وتقاليدهم في صراع مع منافساتها من المحليات . غير أن هذا الانتصار الذي كسبه العرب في الجولة الأولى من صراعهم السلمي ، لم تكذب له الغلبة النهائية بعد أن فُضِبَ معين الهجرات المتلاحقة ، وبعد مضي الزمن الكافي في الاصطراع الحثي بين العرب وأهل البلاد ، وكان أثر ذلك واضحاً في العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ومارسوا الحرف ، ولا شك أن دراسة عليية منظمه في مختلف المهاجر سوف تكشف الكثير عن التطورات ، التي حدثت كما تبين ما كان من روابط بين المناطق وبعضها ودراسة اللهجات المحلية وما أصابها من تغيير وتبدل سواء كانت عربية خالصة أو محلية ، سوف يزيل الستار عن مراحل الصراع في البيئات الاقليمية المتباينة .

(١١٧) يقول المقرئ من ٢٧٧ هـ وقدم عليهم مشيراً إلى الباشا « أبو عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحميد العمري بعد عمارته النوبة في سنة خسة وخمسين ومائتين ومعد ريسه وجهينه وغيرهم من العرب فكثرت بهم العبارة في البجة (الباشا) حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم إلى عيذاب .

أحدثت الهجرات في مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا تطورات في نظم الحكم ، وفي حياة المجتمع ومظاهر نشاطه الاقتصادية والسياسية فقد أزلت ما كان قائماً من فوارق بين الراعى والرعية ، وما بينهما من عبودية مطلقة واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد القبلية العربية بعد أن كانت مقاليد الحكم تنقل إلى ابن الأخ أو ابن البنت ، وصارت الأرض ملكاً للجماعة القبلية متمثلة في شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكاً خاصاً لرئيس الدولة أو موقوفه على المعابد وكان الأهليون عبيداً لا يملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أو من ينوب عنها (١١٨) . ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التي أقامها النظام القبلي من حيث زوال قدسية الحاكم واختفاء الفوارق بين الأهالي وصاحب السلطان ، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ، ودفع الجمل المعين لشيوخ القبيلة أو زعيم الدار ، إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الإقطاعي المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده ، بعد دفع الأتاوة المعينة للزعيم الذي يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار . ولم يكن نظام توزيع الأرض الزراعية ، بين أفراد القبيلة عادلاً مطلقاً ، يقتنع به الجميع حتى لا يكون نواة للتذمر الذي يبدأ أخيراً ثم يتخذ طريقه نحو الظهور في شكل أو آخر .

جاء المهاجرون من العرب تظاهروا بقوة المنوبة المستمدة من أسس الدين الجديد ، الأمر الذي أكسب هؤلاء النوم مظهراً قوياً ، قضاءت أمامه الروح المنوبة المحلية ، وكان من اليسر أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان الذين كانوا في حالة من الانحلال والفوضى ، التي أخذت في الازدياد منذ اللحظة الأولى لدخول المسيحية في البلاد . وقد كانت ربوع السودان بعد دخول المسيحية إليها بعيدة لحد ما عن متناول السلطان الأجنبي (البطلمي والرومي) الذي سيطر على مصر . وكان لزاماً والبلد تدين بالوثنية والعبادات القديمة ، أن يعمل رجال الكهنوت عند دخول

(١١٨) القرني س ٢٨١ / ٢٨٢ جزء ثالث . وقد كان ملك النوبة استمدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم (النوبة) بوفد وفدهم إلى القضاة ذكروا عنه أناساً من أهل ملكه وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم من ياورهم من أهل أسوان وأنها ضياع القوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تلك العبيد القاصرين * وكان أن أنكر النوبة الاقرار للملك بالعبودية وطالبوا بمعاملتهم كالمسلمين في علاقتهم مع حكامهم . أنظر نفس المصدر ٢٦٣ / ٢٦٤ عن ملكة علوة حيث يقول قلا عن ابن سليم الأسواني * وملككم ينفق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا يتكروا ذلك عليه إل يسجدون له ولا يصون أمره على المكروه الواقع لهم وينادون الملك * يمين فليكن أمره * .

المسيحية ، وقد كانت مقاليد الأمور الدنيوية والدينية في يدهم ، أن يعملوا على تكيف رسالة الدين بالطابع المحلي الذي يخدم مصلحتهم الخاصة أولاً . فكان هؤلاء الكهنوت أول من تقبل الدين الجديد ، واعتنقه ليحفظ مركزه في المجتمع ليؤسس تقاليده وعقائده الموروثة في ظل الدين الجديد ، وحتى لا تفلت من أيديهم مقاليد الحكم التي توارثوها عن آباؤهم وأجدادهم ، وقد ساعد التطاحن المذهبي بين اليعقوبية والملكانية على اضمحلال مركز البعثين التبشيريين ، فقد أرسل الإمبراطور جوستنيان بعثته للتبشير بالمذهب الملكاني كما أرسلت في نفس الوقت الإمبراطورة ثيودورا زوجته بعثة أخرى للتبشير بالمذهب اليعقوبي وكان ذلك في حوالى عام ٥٤٣ ميلادية .

وحاول رجال كل من البعثين ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار ، إلى هذا المعسكر أوذاك لتساعد الكثرة على التفوق على الفريق القليل العدد ، دون اعتبار إلى رسوخ العقيدة من عدمه ، وهكذا تحولت الجهود التبشيرية لغير الغرض الذي جاءت من أجله ، باستخدامها مختلف الوسائل والدعايات للقضاء على الفريق المضاد ، وطبيعياً أن يكون ذلك على حساب الدين ، الذي جاوزوا به مبشرين وقد أفاد هذا الوضع سكان البلاد وقادتهم لتثبيت أقدامهم في ظل الرسالة الجديدة وهكذا استطاعت البلاد المحافظة على الكثير من تقاليدها في ظل المعركة التي تبادل فيها كل فريق الغلبة إلى حين ، حتى جاء الإسلام إلى مصر فكانت أن تمكنت اليعقوبية التي أزرعها العرب ، وهي دين الكنيسة المشرقية من القضاء نهائياً على الملكانية مذهب الباباوات ، الذي أبده الرومان وقد بقيت التقاليد الوثنية فالمسيحية المتوارثة في صورة أو أخرى حتى يومنا هذا . ومن تلك التقاليد الباقية « الطافية أم قرين » التي يلبسها الملوك وسوار الذهب (١١٩) ، ومراسم تقاليد الحكم للشيخات الصوفية أو الإدارية ، ومنها أيضاً ما هو متبع في استقبال إمام المسجد في أيام الجمعة في بعض المناطق يستقبل الإمام عند باب المسجد ، ويسير أمامه حامل السيف الخشبي التقليدي أو « العكاز » حتى باب المنبر حيث يسلم إلى الامام قبل صعوده المنبر (١٢٠) ومنها صليب الكحل على جبهة الطفل وعملية التغطيس في الماء (١٢١) .

(١١٩) أبو صالح الأرمي من ٢٦٠ ومقال كروفورد « الطافية أم قرين » الذي نشر في مجلة السودان في مذكرات ومدونات من ٣٣٣ / ٣٤ من المجلد السادس والعشرين (عام ١٩٤٥) وما يجدر التنبيه إليه أن « القاف » في « أم قرين » تنطق كحرف الجيم عند أهل مدينة القاهرة أو كالقاف الصعيدية .

(١٢٠) حامل السيف الخشبي « أو العكاز » هنا يمثل صورة من الصور التي ترمز إلى الوظيفة التي يحتلها « الجندي » وستعرض لهذا مراسيم تقاليد الحكم .

(١٢١) عملية التعميد .

ويرجع بقاء هذه التقاليد وعمارتها في ظل الاسلام إلى تلك الجماعات من الأشراف واضرابهم من انتشروا في دار الاسلام ، بعد ولاية عثمان رضي الله عنه للخلافة بعد أن منهم الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الهجرة ، وكان لقرآن وما تميزوا به من حرص على المال وطمع في الاستحسان منه ، وهم في ذلك إلى العقائد والرغبات التي استقرت في أعماق نفوسهم من ممارستهم التجارة قرون عديدة كانت مقاليدها في يدهم وهم سدنة البيت الحرام وقد أكتبتهم خبرة في الأعمال الاقتصادية وولايتهم للقوافل ، الحنكة والدهاء ونفاذ البصيرة كما جعلتهم أن يزدروا بالقيم التي جاء بها الدين الاسلامي ، في سبيل مصلحتهم القريبة والبعيدة ، فاستطاعوا أن يكتفوا الوضع الديني الجديد بما يتناسب مع مقاماتهم بعد أن فقدوا طريقهم إلى الولاية والسلاطن ، وجاء في مخطوطة تاريخ سنار ، ، وأيضاً في مدة خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد قدم إليه جماعة من بر السودان وهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء يعلموهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها وتناقلت منهم ذرية (١٢٢) كثيرة ، وإذ أرجعنا إلى كتاب الطبقات نجد تصويراً لحالة البلاد الفكرية والروحية ، كما تناقلتها الأجيال حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث دونها الشيخ ضيف الله في طبقاته (١٢٣) وليس من شك أن كثيراً من التعديل تغيير وتبديل قد أصاب الروايات التي أخذت سبلها عن طريق النقل الشفوي من : بل إلى جبل وقد تعددت الشقة في بعض الزايم لاكثر من ثلاثة قرون وهذه الفترة الطويلة كفيلاً بأحداث ما تجده من خوارق للعادات وكرامات أراد بها ناقلوها وهم اتباع هذا الشيخ أو ذاك أن يرفعوا من قدره بالنسبة لغيره . ويجدر بنا أن نذكر ما للبيئة المحلية والزوجات والسراري من أهالي البلاد

(١٢٢) بنصه من مخطوطة تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢ - دار الكتب المصرية (صورة شمسية نقلا عن المخطوطة المحفوظة بالكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠٦٩) .
 يدعي أن هذا المطلب قد تقدم به بعض حاشية تيرفي ابن كبير التوبة زكريا بن موسى الذي قدم على المعتصم (٢٠٨ - ٢٢٧ هـ - ٨٣٣ - ٨٤٢ م) لتدوين مشكلة البقعة المتأخر كما يبدو أن تيرفي قد سحب نقر من مسلمي دنقلة لتبديل مبعته في بغداد .

(١٢٣) قام بنشر كتاب الطبقات الأستاذ سليمان داود مندبيل في عام ١٩٣٠ كما قام الأستاذ الشيخ إبراهيم صديق بنشر طبعة أخرى في عام ١٩٣٠ م بعد أن حقق ما جاء فيها وعلق عليه وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة في مختلف توافيق الموضوع وفي مقدمتها تحقيق ما جاء في الكتاب وتنقيته مما قد يكون مضافاً إليه لفرض ما .

من أثر في تكيف الحال التي كانت تختلف باختلاف مناطق نفوذ رجال الدين ، الذين لم تكن تربطهم سياسة دقيقة موحدة بل كانت هناك منافسات بين أولئك المشايخ مصدرها التلاميذ ومن تشيع للعلماء من أنصار ومريدين .

إن هذه الظاهرة ظاهرة التشيع لأصحاب السجاجيد ، ورقعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبات واللاتيان بالمعجزات وخوارق المادات تصور لنا ما كان عليه المجتمع من تدهور في حياته المعيشية . الأمر الذي دفع أفرادَهُ إلى الانجاء إلى هؤلاء الرؤساء الروحانيين طلباً للنجدة والفرج في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرر وجلب للنفعة والخير والمثوبة عند الله تعالى وصرف للعدو ولم تكن هذه الحالة من المعتقدات في الشعوذة والسحر وما إلى ذلك (١٢٤) وليدة الهجرات العربية بل هي عريقة في القدم توارثها القوم من آباءهم وأجدادهم عن أقدم العصور الوثنية عندما تمخضت عنها حياة مجتمع ارتبط بـلفه من الفايين وغيرهم في صورة أو أخرى من التقديس والتبريك، وأخذت هذه المعتقدات تتطور مع انتقالها من عصر إلى عصر . وتمسك بأحيائها في العهد الإسلامي بعض الرجال الذين استأثروا بالتعليم الديني وورث خلفائهم عنهم القيام بهذا النشاط وقد يكون رجل الدين الأول عارفاً لرسائله قائماً بها على وجهها الصحيح غير أن الأمر قد أصابه التعديل والتبديل جيلاً بعد جيل وبخاصة أن دخول أمثال هؤلاء العلماء للبلاد لم يكن متصل الخلفات . وكان للمرأة الوطنية أثرها الحظير في تكيف الرسالة التعليمية في نطاق التقاليد والعادات المحلية التي توارثتها عن بيتها ، وقد ساعد ذلك على جعل الافادة من القرآن والعلوم الثقيلة محدودة وصار طلاب العلم يحفظون عن ظهر قلب ما يرويه مشايخهم دون المعرفة والعمل على تبسيط المعارف ونشرها لتساهل في تقويم المجتمع . وآية ذلك ان مسألة الزواج والطلاق كانت تباشر دون استكمال العدة الشرعية في الوقت الذي كان فيه علماء الدين (الفقهاء) يمارسون نشاطهم .

وسرعان ما اختفت الشخصية العربية في المناطق المنعزلة التي اختلطوا فيها

(١٢٤) يطالب موضوع « الشعوذة والسحر » دراسة دقيقة على أسس علمية في محاولة لكشف أسرارها . فهذه لا تخرج عن كونها أداة للسيطرة على عقول العامة وتضيقهم كما كان يفعل رجال الكهنوت في الوثنية والكثير من الأعمال التي يظن لأول وهلة أنها من المعجزات وخوارق المادات ومنها صناعة المطر واستخراج الذهب من بعض الزواحف بسحرها وغير ذلك مما لا يدع مجالاً للتوسع في ذكره فهذا يرجع إلى « مهارة علمية » يستخدم في إنجازها بعض العناصر التي تساعد على عملها .

بالكثرة من السكان المحليين وكان من الطبيعي أن تتأثر المقومات التي جاء بها الاسلام وتختلط بالتقاليد والعادات الموروثة كما سئفه ففما بعد ، وبهذا صار المجتمع تربة صالحة تنمو فيها الدعوات التي تبدأ مرحلتها الأولى بالتوجيه إلى الإصلاح ثم يتحكم فيها الانصار والاتباع فيفقد صاحبها سيطرته ويخضع للتيارات التي توجهه لتحقيق أهداف الجماعة أو الجماعات صاحبة المصلحة والتي كانت تصيد الفرصة المواتية لتحقيق مطامعها بتشجيع الحركات الخفية ذات الطابع القومي ونقوم على رعايتها حتى تستكمل مظاهرها وتستوى الاتباع وعند ذلك تعمل الجماعة أو الجماعات ذات المصلحة على توجيه الحركة نحو أهدافها الحقيقية ويحدد الزعيم نفسه ، وقد جرفته الحركة عاجزاً عن ملاحقتها في خطاها . ويرجع ضعف القائم على الدعوة وبجزءه عن السير بها في طريقها الذي رسمه لها إلى أسباب نفسانية فهو قد اعتكف فترة من الزمن طويلة أو قصيرة في نوع من الاستذكار والعبادة في خلوات قد تستمر لأيام وشهور على غذاء من القلة بمكان ويخرج بعد أن يشعر ببلوغه المرتبة التي تمكنه من إظهار دعوته . والفكرة أصلاً قد قامت في باطنياته ثم صهرتها فترة الاعتكاف وأعطتها الصورة المناسبة ، ولاشك أن هؤلاء بعد خروجهم من خلواتهم يكتفون في حالة عصبية مرهقة ، بسبب الاجهاد الطويل والصوم وبذلك تكون الأعصاب قد تحطمت تحطماً بالئاً فتفقد قدرتها على الاستمرار على تحمل الأعباء في نواحيها المختلفة . وإن أعرف أكثر من حالة نادى فيها أصحابها بأن أحدهم ، نبي الله عيسى ، وثان بأنه ، قطب الزمن ، الخ الخ . . وقد استطاع أهلهم حجزهم لفترة من الزمن قاموا فيها على رعايتهم وبذلك هدأت أعصابهم وعادوا إلى صوابهم .

ولهذا نجد أن البلاد لا تخلو في سنة من سني حياتها الطويلة من قيام أكثر من حركة اتخذت مظاهر مختلفة فبعضها يستشري ويحدث أثراً بعيداً يكون في الغالب معطلاً لتقدم الحياة اليومية وهذا النوع يسلك مسلك العنف في دعواه ونشرها وتلتف حوله الجماعات من المزمعين التي تجد في مثل هذه الدعوات ما يفرج عنها كربتها . وهناك دعوات لا يلجأ زعمائها إلى العنف بل تأخذ طريق اللين والمسايرة بما يتعشى والحياة اليومية وتكتب لهذا النوع الغلبة والبقاء .

وتتميز الدعوات التي تستشري وتعطل تقدم الحياة بظهورها في المناطق المنعزلة التي يغلب فيها العنصر المحلي حيث تلقى مثل هذه الدعوات من الانصار والمريدين

ما يساعد على امتداد السيطرة إلى مناطق أخرى لا تستطيع الوقوف أمام التيار أو انها تجدد في الدعوة الجديدة مخرجاً لها من حالة قائمة لا ترضاهـ .

ونذكر عن سبيل المثال لا التحديد بعض الحوادث التي حصلت في أوائل القرن الحالي .

عام ١٩٠٣ قام محمد أمين الشريف البرناوى (نسبة إلى برنو) بحركة دينية في دار جبع ، انتهت بأشقيائه مع إدارة السودان والقبض عليه وشنقه في الأبيض .

عام ١٩٠٤ ادعى محمد ود آدم بأنه « نبي الله عيسى » وقد قتل في معركة مع الجنود في سنجه .

عام ١٩٠٤ ذهب حسن ود حسونة من « أبي دليق » بالبطانة إلى كردفان وانار حنكة دينية إنتهت بالقبض عليه وعند التحقيق ظهر ان هدفه كان جمع المال كما ورد المصادر الرسمية ، وقد أفرج عنه بضمان « حسن السيد والسلوك » .

عام ١٩٠٨ اشتبك « عبد القادر ود حبوبه » في الكيفية بالجزيرة مع إدارة السودان وتقول الدوائر الرسمية ان عصبان « ود حبوبه » يرجع إلى حكم أصدره مفتش المركز لصالح عمه الشيخ عبد الله مساعد العمدة وأخيه محمد ، وذلك في منازعة عن أرض طالب ود حبوبه بردها اليه . أما الأسباب التي تحتل وراء هذه الحادثة هي ان رجال المساحة المصرية الذين عهد إليهم بالقيام بتخطيط أرض الجزيرة تمهيداً لمشروع زراعة القطن قد وضعوا أوتاداً جديدة لتحديد المناطق غير ان رجال ود حبوبه قد قاموا برفع هذه الأوتاد بسبب اعتقادهم بأن مثل هذه الأوتاد سوف يمنع المطار الموسمي الذي تقوم عليهم زراعتهم . فذهب المفتش مونكراف ومعه المأمور اليزباشي محمد شريف إلى « ود حبوبه » في قرينه وعندما قابله المفتش وجه اليه عبارات لوم قارصة إلى الحد الذي دفع بعض أنصاره أن يطعنوا المفتش طعنات أقضت إلى موته وقتل معه المأمور . وأخذت هذه الحادثة صورة خطيرة أفلقت إدارة السودان ومرجع ذلك إلى قرب عهدها بنهاية المهدي وعلاقة « ود حبوبه » بذلك النوع من الحكم . فأرسلت القوات من الجيش المصري إلى الجزيرة وقامت الدوريات التبليغية في النيل الأبيض بين الخرطوم وكوستي ظناً بأنها حركة من المهديين واسعة النطاق وانتهت الحملة بهزيمة أنصار ود حبوبه الذي قبض عليه بعد ذلك وقتل مع بعض أتباعه شنقاً وسجن آخرون وقد أقامت هذه الإجراءات ضجة في الصحف المصرية وفي العام الاسلامي .

عام ١٩٠٩ و ١٩١٧ . وهناك حوادث بين ١٩٠٩ و ١٩١٧ منها حادثة في الرماش
بجوار سنجة والثانية في كلا .

عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السحيني بدعوته في مركز نيالا وانتهت بانحاده ثورته .

• • •

وقد يبدو أن غرباً أن تظهر هذه المحاولات الانقلابية أو الحوادث العنيفة في مثل
هذا العدد في هذه الفترة القصيرة من الزمن في الوقت الذي تنعدم فيه كلية مثل هذه
الحالات من الحوادث العنيفة في عهد السلطنة السنارية وفي
الستين سنة الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أي من عام ١٨٨٠ .
ففي الثمانين من القرن الماضي (١٨٨٠ ميلادية تقريباً) بدأت الزوبعة تتجمع ولم يمض
طويل وقت حتى تمخضت عن حركة مهدى السودان في مظهرها العنيف . كما سببته
في الكتاب الثالث من هذه الدراسة . وبعد وفاة المهدي ببضعة أعوام قام أبو حمزة
بدعوته في دارفور وناصره الكثيرون ومنهم الأمير أبو الخيرات من بيت سلاطين
الغور ومطالب بالعرش (١٢٥) وكان هدف أبو حمزة أن يفزوا درمان ليقضى على
حكومة الخليفة عبد الله التمايشي لولا أن عاجلته المنية وعجز خليفته عن القيام
بتنفيذ خطة سلفه كما أن الحركة لم تأخذ مرحلتها الأولى الكافية لتمكين أبو الخيرات
من السيطرة عليها توجيهاً لتخدم مخطمعه .

وهناك حادثة أخرى حدثت في النصف الثامن من القرن السابع عشر الميلادي
وذلك عندما ذهب الشيخ حمد النحلان ابن محمد البديري المشهور ، بود الترابي ، إلى
الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك في مكة نادى بنفسه ، المهدي المنتظر ، فسلك الحجاج
بتلابييه وأوسعوه ضرباً وحبس من محبه ثم أطلق سراحه . وقد أرسل هذا الشيخ
تلميذه ، ميرف ، إلى سنار لإعلان دعوته بأنه ، المهدي المنتظر ، فأمر الملك بادي
أبو دقن بقتله وهكذا قضى على هذه الدعوة . ولما عاد الشيخ محمد النحلان إلى السودان
كان قد تخلى عن عودته وكرس حياته في العبادة (١٢٦) .

(١٢٥) ظهر أبو حمزة بدعوته الدينية في ١٨٨٨ م . وقد حدث أن استدعى الخليفة عبد الله
التمايشي الأمير زقل من دارفور تاركا يوسف ابن السلطان ابراهيم على ادارتها ولما ظهرت
اتجاهات يوسف الى الاستقلال أرسل الخليفة . عثمان جانو أمير كروفان لكبح جماحه . غير أن
يوسف قد هرب الى جبل مرة حيث نزل في ١٨٨٨ م . ونادى أخوه أبو الخيرات بنفسه سلطانا
واضم الحركة التي تزعمها أبو حمزة ولكنه قتل بعد وفاة هذا الزعيم الديني . ولم يكن خليفته من
الكفاءة بمكان .

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات ص ٦٠

وقد يبدو هذا عجيباً حقاً إلا أن هذا العجب سوف يتلاشى فيما أرى إذا رجعنا إلى ما جاء في كتاب الطبقات والروايات المحلية . فالتطبقات قد ذكرت تراجم حوالى خمسين ومائتين من الشخصيات الدينية التي كان لكثير منهم . كما أوضح الكتاب المذكور . مراتب صوفية وكرامات ظاهرة . فتم قطب الوجوده (١٢٧) و . حامل لواء أهل الاعيان . و . الأربيعين الذين وصلوا القطبانية . الخ الخ (١٢٨) وهنالك عدد كبير من الشخصيات الدينية لم يذكرها صاحب الطبقات لسبب أو آخر . سواء لعدم وصول أخبارهم إلى الشيخ ود ضيف الله أو أنهم عاشوا في زمن لاحق لكتابة الطبقات غير أن الفقهاء في مختلف المناطق في يومنا هذا يحتفظ كل منهم بسلسلة من أسماء الفقهاء من أهل له وأهل منطقته ولكل من هؤلاء روايته عن مفاخر أولئك الفقهاء وما وصلوا إليه من مراتب عالية في التصوف . ومن هذا أجد أن الفترة التي تولى فيها السلطان السنارى والشيخ عاماً من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى الفترة من حوالى ١٥٠٠ م إلى ١٨٨٠ م لم تخل سنة من سنواتها من هذا النوع من الحركات الدينية مع اختلاف واضح في مظاهرها . فبينما نجد أن الحركات التي حدثت بعد ١٨٨٠ م حتى ١٩٢١ م . قد سلكت مسلك العنف الذي فرضه الفراغ المفاجئ الذي تسبب عن الاسراف في إلغاء الرقيق وهو دعامة اقتصادية أساسية في قسوة بالغة على يد أجانِب أطلقت لهم الحرية في إدارة البلاد السودانية فأفسدوا الجهاز الإدارى وقطعت الحياة الاقتصادية وكان من نتيجة ذلك قيام الثورة المهدية التي سوف نتعرض لها في القسم الثالث الخاص بامتداد الإدارة المصرية إلى السودان . أما الحركات التي ظهرت قبل ١٨٨٠ م فقد اتخذت صورة بعيدة عن العنف فقد كان التنافس قائماً بين الفقهاء وأتباعهم كما أوضحنا من قبل وكانت العلاقات بين الزعماء الدينيين المحليين والحكام على خير ما يكون بل وصلت الأمور إلى أبعد من هذا فقد كانت هؤلاء الفقهاء الكلمة العليا فالسلطين يتقبلون وساطتهم ويستجيبون لها . كما كان السلطين والحكام يلجأون إلى الفقهاء طالبين منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم وشفاء مرضهم الخ الخ (١٢٩) ولأنك أن الفقهاء في تلك الفترة التي سبقت عام ١٨٨٠ م قد شغلوا مرتبة الرئيس الدينى في المنطقة وبحوار هذا تضاعفت سلطة

(١٢٧) المصدر أكتب الذكر من ٨ ترجمة الشيخ الزين ابن الشيخ صهيون .

(١٢٨) أنظر كتاب الطبقات ترجمة « عبد الرحمن بن جابر » ص ١١١ وتراجم تلاميذه الذين بلغوا درجة القطبانية .

(١٢٩) أنظر خطاب الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان وزير السلطان بادی آخر سلاطين الفنج إلى الشيخ أحمد بن إبراهيم الرضى . (الملحق السادس) .

الملك أو الزعيم المحلي . وقيام هذا النوع من الحكم الذي تتوزع فيه السلطات بين اثنين « رئيس ديني » و « رئيس مدني » لم يكن غريباً على المجتمع لما ورثه عن أسلافه من عادات وتقاليد قديمة الأمر الذي سقتمرص له في القسم التالي .

٥ - المجتمع :

(ب) نظام الحكم :

كانت مقابله السلطان في العهود التي سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله اضرابهم في مصر التي ورث عنها هؤلاء في الشطر الجنوبي الوادي (السودان) . فالمملوك مؤهلون يعاونهم رجال الكهنوت ، وقد انطبعت هذه النظم بالطابع المحلي الذي تأثر إلى درجة بالغة بمجريات الاحوال في الشمال وبما أصاب حياة المجتمع من دخول الجماعات الاقريقية البدائية في دائرة نفوذ حكومات جنوب الوادي . وقد بقيت هذه النظم في صورها المختلفة حتى الفترة التي بدأت فيها الهجرات العربية لشق طريقها نحو الجنوب في مجموعات متلاحقة اختلطت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيونات الحكم في المواطن التي استقرت فيها رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجياً وكان لازماً أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التي ورثتها عن بيتها في أبنائها ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم بحق وراثته أبناء الاخت أو أبناء البنت وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابهة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق في حياة المجتمع ولم يكن من اليسير أن تقتلع هذه العناصر بل قدر لها أن تصطرع في عراق خفي مع عناصر الحكم ومقوماته التي جاء بها المهاجرون .

قامت زعامة العنصر الوطني للحكم على علاقة وثيقة الارتيباط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة والتي ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه . قد تكون المراحل الأولى لاتقال الحكم لأبناء العرب أثرها في اختفاء بعض المقومات التي قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وعمارتهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية - غير أن هذا الاختفاء كان مؤقتاً فبدلاً من أن يمارسه الزعيم العربي قد قام بجانبه الفقيه الديني الذي اختص بأمور الدين والسحر والشعوذة في شكل أو آخر كما أشرنا إليه في الصفحات الأولى من هذا الباب ولم يحتفظ

الزعيم العربي إلا ببعض المظاهر التي تمت بصلة للدين والسر من خروجه في المواسم لبذر أولى البذور وغيره من الاحتفالات وفقاً للتقاليد المرعية التي يتولاها الزعيم بحكم صدارته . ولم يكن انتقال السلطان إلى العرب ومن قام بجانبهم من القهاء عاملاً على إحداث تغييرات ذات أثر في المجتمع في حياته اليومية التي استطاعت أن تكسب الغلبة وأن تبقى فالنظم العربية قد أعطت الوطنيين حقوقاً خرجت بهم من استعباد الحكام السابقين للعرب وجعلت للفرد كياناً تساوى فيه مع العرب غير أن ذلك لم يقطع صلة الوطنيين بماضى تنظييات مجتمعاتهم . ليس من السهل أن تحل نظم جديدة مكان نظم قديمة مالم تكن هذه النظم الجديدة متمشية مع التطور الطبيعي للأشياء والاحداث رد فعل بعيد الأثر في تهيئة الأرض الصالحة للانقضاء على هذه النظم الجديدة عندما تحين الفرصة لذلك . بصرف النظر عن صلاحية هذه النظم الجديدة وتفوقها على القديم الموروث فالمسألة يتحكم فيها الرأي الوطني وفق تكوينه الاجتماعي الخاص به والذي يحدد عقله هو ما يتمشى مع طاقته وحاجياته اليومية .

توارثت طبقة رجال الكهنوت الحكم في المدن الكبيرة وتولى أفراسهم وأنصارهم حكم المناطق الريفية وكان انتقال الحكم محصوراً في أبناء الأخت وأبناء البنت كما سبق أن أوضحنا . وكانت الأرض الزراعية ملكاً خاصاً لأولئك الحكام أو موقوفة على المعابد الدينية وهي في ذلك صورة لما كانت عليه في شمال الوادي مع اختلاف لا يعتد به لقيام معبودات محلية بجانب المعبودات المصرية . وقد ترك للوالمواطن العادى العمل على الأرض وفلاحتها وكان عليه أن يتقبل ما يجود به عليه مالك لأرض لاستقامة حياته التي لم تكن بأحسن منوى معيشة لرقيق الذي استخدم بكثرة في الزراعة ورعى الماشية والخدمة البيتية كما جند لخدمة الحاكم في حروبه وغاراته التي يشنها على أعدائه . وقد عملت حالة المناخ في المناطق المختلفة على الاستكثار من تملك الرقيق إلى الدرجة التي صارت معها جميع الأعمال اليدوية شاقة أو خفيفة موكولة إلى سواعد الرقيق . وقد توارث القوم هذه التنظيمات الاقطاعية التي قامت أساساً على الرقيق الذي صار حجر الزاوية في حياة المجتمع وسوف تتعرض فيما بعد إلى أثر هذا العنصر في بحريات وما حدث من ثورات وقلاقل .

وعما يجدر ذكره ان الزراعة قد احتفظت بأسسها البدائية ولم يصحبها تطور من ناحية النوع أو الاكثار من المحصول لأغراض تجارية أو من ناحية الآلات التي

كانت تستخدم في فلاحسة الأرض . وبقيت الزراعة محصورة في الأذرة (١٣٠) أنواعها الخاصة يختلف المناطق ويمتد في زراعة هذه النلة على الأمطار الموسمية التي كانت كثرتها وقلتها من موسم لآخر تتحكم في المحصول الاتاجي وقامت بجانب هذا المحصول الغذائى الرئيسى بعض الزراعات المحدودة من خضر وفاكهة لسد الحاجيات المحلية ويتم التبادل التجارى عن طريق المضايقة وكانت الرقيق والريش والعاج وبعض المصنوعات الجلدية والذهب والمذسوجات القطنية المعروفة بالدمور من السلع التي تستبدل بالتجارة الواردة مع القواغل .

كانت البلاد عند دخول الهجرات العربية الجماعية في حالة من الاعمال والتطاحن بعد ما أصاب مدينة البلاد من تدهور في أعقاب الهجوم الاتيرى الذي شنه التجاشى عيزانا على مروء في منتصف القرن الرابع الميلادى . فقد صارت البلاد منقسمة شيعاً متفرقة يحارب بعضها البعض الامر الذى جعل الروح المعنوية المحلية تنضال وتخبوا أمام الروح القومية التي حلها المهاجرون من العرب والمستعدة من الحماس الدينى الاسلامى وقد أخذ هؤلاء المهاجرون في العمل على بسط سيطرتهم التدريجية حتى آلت اليهم مقاليد الحكم وتمكنوا من إدخال التنظيمات العربية القبلية على المجتمع المحلى . وكان من تلك التنظيمات ما يتم مع التطور الطبى لنقائيد محلية وكان البعض الآخر تطوراً مفاجئاً للحالة القائمة وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الاثر في حياة الاسرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض الامر الذى قام على روابط دينية . فقد تولى شيخ القبيلة الحكم في مجموعته القبلية ومن سكن معهم - ا - في دارها من العشائر المتحالفة وصار الحكم وراثياً في بيت الشيخ . وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الاقليمية التي اتخذتها دياراً لها زعامات اقليمية تولاهها شيخ المشايخ . الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة وقد عرف هذا

(١٣٠) ورد ذكر الأذرة في كتب الرحلات كغذاء رئيسى في البلاد كما زرع القمح في المناطق الشمالية (دقلا) ويبدو ان الأذرة الشامية قد دخلت البلاد مع العرب بعد قيام السلطنة السنية وهذا النوع من الأذرة يعرف في البلاد باسم « عيش الريف » ويقصد بالريف « شمال الوادى » وتعرف أيضاً باسم « قنر » (قاف صعيدية) وهذه نوية معناها أوراق القمح ويجدر التيسام بدراسة يقصد منها التعرف على تحقيق دخول النباتات التي لم تسكن مروءة قبلا سوف تكشف عن العلاقات الاقتصادية بين البلد ومصادر انتاج الأنواع المستوردة .

اللقب في عهد السلطنة السنارية باسم الملك (١٣١) أو المانجل (١٣٢) وتستعمل كلمة «أرباب» مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع وتطلق أرباب على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسئولياته في مجلس الأجاويد وذلك في المسائل الخارجية عن سلطانه التقليدية التي يباشرها بشخصه وهذه تلخص في توزيع الأراضي الزراعية على رؤساء البيوت وأن يحافظ على حقوق القبيلة في الأراضي التي تحتلها والآبار التي تستخدمها الطرق والمغازات، (العقبات) الواقعة في حدودها الإقليمية وإذا كانت القبيلة ضاربة القبيلة في الصحراء فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام في موطن المرعى الموسمية وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها والذي يحدد عادة بأشجار مطلة على حدوده الأربعة ويفضل زراعة الأشجار عن وضع أحجار بسبب أن موجات زحف الرمال تنكسر عند الأشجار وتطفي على الأحجار وتخفي أثرها. وعلى الشيخ أن يكون عارفاً بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها في الدار وأن يكون حافظاً للأنساب وأن يقوم باستضافة الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة وفي بعض القبائل يأخذ الشيخ على عاتقه مسئولية ما يحدث في حدود دار قبيلته من حوادث يدفع التعويض ودية الدم . بهذا حق له أن يحصل على جانب من المال أو النقة ويحتفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك من العادات القائمة فالشيخ بذلك رمز القبيلة يتولى إداره شئونها الخاصة والعامة ويفض مشاكلها وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذي يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية والتي تكون عادة هينا ويرسل جزءاً منها إلى شيخ المشايخ وهذا بدوره يدفع جانباً إلى خزانة السلطنة السنارية عند قيامها على رأس اتحاد المشيخات في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) .

(١٣١) يرجع أن أصل هذه الكلمة من الأثيوبية حيث معناها عظيم كما ذكره بدج في كتابه المصري جزء ٢ ص ٢١٢ .

(١٣٢) أطلق هذا اللقب على زعماء قري (قاف صعيدية) حشم البحر الدندر - النصارف - يلا - دقلا - الكيل - وامتد في زمن لاحق إلى زعماء القضايا (ينطق القاف أحياناً قينا) والبديرية من قبائل كردقان . وتعرف هذه المناطق باسم المانجليات مفرداً مانجلي نسبة للمانجل . وهذا لقب لم يتحقق مرجعه بعد تحقيقاً يفتقر معهالك ويخبر هذا من أرفع ألقاب السلطنة السنارية أنظر هامش / ٥٢ :

فاذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التي توارثها القوم وبين ما استحدثه العرب نجد أن الوطنية . استرد شخصيته وكيانه في المجمع كما استرد حرته في أرضه التي يستغلها بزوال القوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلي المحلي المقرر من الضرائب وكان من نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد وتبعاً لذلك فتحت آفاق جديدة غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة (أولاً) بسبب من أصاب شمال الوادي من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم المماليك وكان لهذا أثره في العلاقات بين شطري الوادي وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجاري (ثانياً) ان التغييرات التي استحدثتها العرب في الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلع جذوراً بعيدة العمق في حياة المجتمع وتقاليد الدينية . ورغم أن هذا الإصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعي للتطور في فترات كافية تسمح لقبول الإصلاح الجديد والدفاع عنه .

وتأثرت بلاد جنوب الوادي (السودان) بالحالة التي قامت في شمال الوادي (مصر) وتطلعت معها التجارة فاختل الأمن وكثر التعدي بسبب الصراع الذي دفعت اليه الاطماع القبلية وكانت من نتيجة هذه المطامحات اشتداد الضيق الاقتصادي والانحلال الاجتماعي . وكان أثر هذه الحالة واضحاً في الجزء الشمالي من جنوب الوادي (النوبة السفلى) لاتصاله الوثيق بشمال الوادي حيث أخذت الأحوال في التدهور كما أوضحنا . وتأثرت المنطقة الوسطى من البلاد بالنشاط العربي على ساحل البحر الأحمر وقد امتد هذا النشاط نحو حوض النيل الأزرق وشق طريقه نحو المشيخات المتراصة فأدخل فيها روحاً جديدة من الانتعاش الاقتصادي الذي خلق العناصر المشتركة التي مهتت القيام حلف بين المشيخات مع السلطنة السنارية .

• • •

جـ) التنظيمات الاقتصادية:

قامت الحياة اليومية للفرد والمجتمع على أسس وثيقة الارتباط بالعقيدة الدينية التي كفلت مطلق التصرف للزعيم المحلي الذي يختار عادة من رجال الدين كما سبق لنا شرحه . وكانت الأرض هي الركن الأساسي الذي نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض . واخص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان

وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وكان التوزيع فى كثير من الأحوال مثار مشاكل ومصدر تدمير وقتل . فقد يعتبر الزعيم أن ما قام به توزيعاً عادلاً بينما يرى العاملون على الأرض غير ذلك . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها المجموعات العربية فى صورة تناسب مع تفاليدهم وما ألفوه فى مواطنهم الأولى وفى معابر هجراتهم وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفاً بها وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول وبين العامل على الأرض والمنفعة بها كطرف ثان هذا فيما يختص بالأراضى الزراعية وهى الواقعة عادة فى المناطق التى تجرى فيها المياه المستديمة الجريان أو الموسمية ، أما عرب البادية فكانت علاقاتهم بالأرض مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه فى الحضر . وكان من أشر حالات التدهور التى أصابت شمال الوادى وجنوبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ما ساعد على ركود العلاقات التجارية وصار كل من شطرى الوادى فى عزلة . وتوقف دفع البقط بأيلولة مقاليد الحكم للعرب فى جنوب الوادى وكان طبيعياً أن تصاب العلاقات بتوقف تام لما بين العرب فى الجنوب والممالك فى الشمال من تنازع وصراع .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مهاجرهم وقد اختلفت هذه التنظيمات بعض الشيء بين منطقة وأخرى ومرجع ذلك إلى ظروف البيئة والمناخ التى تحكم فى اعداد الأرض للدورات الموسمية وعلى هذا الأساس صار تقدير درجة تربة الأرض كما هو مبين بالملاحق رقم (٥) .

واحتفظ الزعيم بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة وعرفت هذه باسم ، العارة . وكان الزعيم أو السلطان السارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العارة من طريق الهبة خاصة للفقهاء الروحيين . وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء ووارثهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض^{١٣٢} وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة كما هو مقرر فى جداول الملاحق رقم ٥ وكانت

(١٣٢) يعرف عاليا باسم سيد السوق (Sid El Masuaqa)

هذه الضرائب بما فيها الفطرة والزكاة تدفع في غالب الأحوال عينية ، بمخاصة في الريف والبادية البعيدة عن مراكز تجارة القوافل ، ويقوم نظام التعامل بالدفع العيني على أساس المقايضة . وبالإضافة إلى هذه الجبايات ، فقد كان من حق الشيخ المحلي للدار أو القبيلة الضاربة في بطن الوادي ، أن يحصل ما يرد به المطالب التي يقوم بها بوصفه زعيماً ، كالضيافة وإقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك . وكان على الزعيم المحلي أو القبلي أن يدفع جزءاً مما يحصله لزعيم الدار الإقليمية ، وكان على زعيم الدار هذا أن يدفع نصيباً إلى خزينة السلطان السناري ، التي كما يبدو من خطاب السلطان عدلان (ملحق رقم ٤) أنها كانت قائمة في العواصم الإقليمية . ولا يفوتنا أن نذكر أن الأهالي كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين في صورة النذور أو الهدايا ، وقد كانت هذه مباشرة بين المواطن والشيخ ، ولم تكن معدة بل تركت لقدرة المواطن . وهكذا استمرت الأسس التي قامت عليها الجبايات ، وانتقلت من جبل إلى جبل ولم يكن للفرد ما يفديه منها ، بل كان يدفع ما يخصه للشيخ المحلي وهذا بدوره يدفع عن قبيلته أو داره إلى زعيم الدار الأكبر خزينة الذي يدفع المقررات إلى خزينة السلطان السناري وقد كانت مقررات السلطان السناري شكلية غير محجفة كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة لقدرة الشخصية لا على أساس فرض رسم معين ينساوى فيها الجميع . كما كان الزعيم المحلي لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطي الحال .

وبما يسترعى الالتفات أن مراكز تجمع التجارة في السودان ، التي اتخذتها القوافل محاطاً لرحالها ، كانت قليلة الأثر في النهوض بالزراعة والصناعة والتعليم - النهوض الذي من شأنه أن يحدث تطوراً اجتماعياً اقتصادياً ، ويرجع ذلك إلى أن القوافل كانت أساساً يتولى شئونها زعيم يقسم السلع من مكان إلى مكان ، ويقوم بعملية التبادل ويعرف هذا الزعيم ، بالخبير ، وهو القائم على الإبل ورجالها ، وكانت طرق القوافل تسير بعيداً عن المدن ، وتصور لنا هذه الحالة ما كان عليه الفرد والمجتمع من تأخر وركود ذهني ووجود تعليمي ، ولم تكن حياة المدن في تلك الآونة بأحسن حالا من الحياة في الريف .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء من رجال الدين وغيرهم الذين دخلوا البلاد من وقت لآخر لم يكن لهم كذلك الأثر المحسوس في بعث شعور الفرد ويقظته للسير نحو مستوى للحياة أفضل . وكان شأن أولئك العلماء شأن أمثالهم من رجال القرنين التاسع

والعاشر المجرى الذين عرف عنهم التباغض والسعى لدى الحكام وأصحاب الجاه لفضاء مصالح الناس طمعاً في عطايهم .

* * *

قدما فيما سبق صورة من العلاقات بين صاحب الأرض المعروف محلياً باسم « سيد الأسفل » سواء كان هو الزعيم القبلي أو الشيخ المحلى أو الملتزم القاسم على الأرض وقد كانت هذه نظم « الاقطاع » في الشطر الجنوبي من الوادي ، الأمر الذي لا يختلف كثيراً عن نظم الاقطاع في الأقطار الشرقية . وإذا قارنا هذه الأسس مع مثيلاتها في بلاد الفرنجة نجد أن الفارق شاسعاً بين الأهداف والغايات المرجوة من قيام الاقطاع . قام الاقطاع في بلاد الفرنجة على أساس استغلال الأرض والانتفاع بها كمصدر من مصادر الاقتصاد الطبيعي لبناء دولة . فقد منح الزعيم سواء كان ملكاً أو أميراً الأرض للأشراف والفرسان الذين كان من واجهم الأول الولاء لصاحب الأرض ، وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات بحرية تجهزاً كاملاً كما تقضيه ظروف العصر ، الذي عاشوا فيه وكانت هذه القوات مستعدة لتلبية نداء الزعيم بالاشتراك في حربه لأعدائه . وهكذا كان على الشريف أو الفارس أن يقوم بناية عن زعيمه بتكوين جيش ، يدفع له مرتباته ومكائيف تجهيزه ، ومن هذه التنظيمات نشأت فكرة قيام الدولة . بانتقال التزامات الأشراف والفرسان إلى « سلطة مركزية » وحاصرت حولها عن طريق الجبايات المختلفة . أما الاقطاع في السودان كما في غيره من البلاد الشرقية فقد قام أصلاً على أساس دفع المال لصاحب الأرض وهو الأمير صاحب الزعامة التي تستند على العلاقات الدينية والمعتقدات التقليدية من سحر وغيره . فكان الزعيم يقوم بافتتاح الموسم الزراعي بصلواته ، كما كان يمارس طرد الأرواح الشريرة بالعزائم على الأرض عند استصلاحها للزراعة لأول مرة . وكان على العامل على الأرض أن يدفع ضرائب غنية شملت الرقيق الذي كان يستخدم في العمل على الأرض وغير ذلك من الخدمات البيتية ، وكان على الزعيم القبلي أن يبعث بحجز مما يحصله من قبيلته إلى زعيم الدار وكان على الزعيم الأكبر أو السلطان السناري أو مانجل العبد لآب فيما بعد أن يكون جيشه ، ويحتفظ به في عاصمته ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض « العارة » في وقت السلم ، ويجمع أفراد هذا الجيش من الرقيق الذي تقوم الغزوات الموسمية ، التي تعرف في بعض المناطق بالهاجرة ، بصيده من مواطنه في المناطق البدائية ، وكانت هذه الغزوات مصدر كسب العيش للفتيلين بهذا الغزو ، من رجال القبائل القائمة على

حدود مواطن السكان البدائيين ، ومن هذا يتبين لنا أن المملين على الأرض والزعماء المحليين في المناطق الزراعية لم يرتبطوا مع الزعيم برباط الولاء . أما القبائل الضاربة في الصحراء فتكاد علاقاتها مع الزعيم الأول أن تكون غير قائمة ، وفي بعض الحالات التي تكون فيها دار القبيلة التي تسكن الصحراء قائمة على طريق تجارى فإن اتناوة تدفع لزعيم هذه القبيلة لتأمين لتأمين الطريق للقوافل .

ونشأت عن هذه الظروف حالة من الركود والجمود ، الذي أدى بدوره إلى فوضى ذهنية تحكم فيها الفقهاء ، كما قام صراع خفى كانت من نتيجته خلق ضيق اقتصادي ، وتدهور معاشي ، وبخاصة أن البلاد قد تعرضت إلى وقوع مجاعات دورية في كل سبع سنوات تقريباً ، وذلك لاعتماد الزراعة اعتماداً كلياً على الأمطار الموسمية التي تختلف من موسم إلى موسم . ولم تكن في البلاد نظم للري والصرف والافادة من مياه النيل وروافده .

وقد زادت الأمور تعقيداً باختلال سير القوافل بين السودان ومصر حيث كان حكم المماليك قد دخل في مرحلته الأخيرة ، قبل الفتح العثماني لمصر في عام ١٥١٧ ميلادية ، ولم يحدث هذا الفتح تحسناً كبيراً في استقرار الأحوال بالنسبة للسودان .

هذا ما كانت عليه المشيخات الإسلامية في حوض وادي النيل التي دخلت في اتحاد مع السلطان السناري وذلك حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) عندما انتقل ذلك السلطان إلى عاصمته الثانية في « سنار » وسوف تعرض لموضوع هذه الساطنة في الكتاب الثاني من هذه الدراسة .

ولم تتعرض إلى بلاد كردفان (نقلى) ودار فور ، لأنها لم تدخل في بادية الأمر في نطاق المشيخات ، التي تشكل عنها الاتحاد السناري - ولأن دخول نقلى ودار فور في محيط العلاقات السنارية لم يحدث إلا بعد تغلب العنصر الاسلامي في تلك البلاد بعد قيام الساطنة السنارية في حوض النيل الأزرق بفترات متباعدة .

الكتاب الثاني

السلطنة السنارية

في

حوض النيل الازرق

السلطنة السنارية فى حوض النيل

لقد استعرضنا مجريات الحوادث وتطورها ، فى الحقبة التى سبقت هجرة السلطان عميرة وأسرتة من منطقة «لملم» إلى حوض النيل الأزرق فى السودان ، واتخاذها مدينة «سنار» ، التى أعاد عمارتها ، لتكون عاصمة للملكة فى تنظيماة الجديدة . كما أوضحنا حياة المجتمع فى السودان ، وأثر الهجرات العربية ، وما أدخلته على مظاهر الحياة ، وما كان من أثر الصراع الحقى ، الذى نشب بين المجموعات من المهاجرين من العرب والمجتمع الوطنى . وقد كان من أثر ذلك الاضطراب بدء حياة جديدة ، لها أسسها المستمدة من اختلاط المهاجرين والوطنيين وتزاوجهم .

وقد أوضحنا الظروف التى مهدت لقيام الحلف الاتحادى ، الذى تزعمه السلطان عميرة دونقس ، أول سلطان للبيت السنارى بعد انتقاله إلى حوض النيل الأزرق ، ولانعلم على وجه التحديد الأساس الذى قام عليها ذلك الحلف ، بين مختلف المجموعات القبلية والزعماء المركزية فى سنار ، والثابت أن هذا الحلف قد تدرج فى مراحل متعددة ، لم تلبث أن أخذت صورتها النهائية ، فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى ، بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبد الله جماع شيخ العبد اللاب ، بوصفه أقوى الزعماء المحليين ، فى تلك الفترة من الزمن ، والذى دخل بدوره فى حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادى فى صورته الأخيرة . وقد كان الشيخ عبد الله جماع ومقره فى «قرى» ، الزعيم المباشر للمجموعات القبلية من قرى حتى «حنك» فى شمال دنقلة ، أما السلطان عميرة دونقس ، وهو الذى تميز بحمل اللقب «السلطان — دونقس»^(١) ، فقد احتفظ بحق اختيار المرشح لتولى المانجليية أو الشياخة^(٢) ، وقد جرت العادة بحكم الظروف القبلية المحلية ، أن يكون هذا المرشح من بين أفراد أسرة بيت الزعامة

(١) اتخذ السلطان الأول عميرة أو عمارة لقب «دونقس» وهذه كلمة اليومية معناها «دو» أصلها «DJAN» و «NEOUS» ومعناها عظيم «نقس» معناها أى نجاشى وبذلك يكون اللقب «النجاشى العظيم» .

(٢) المانجل «لقب يمنح لزعم النار وهو أرفع ألقاب السلطنة بيد السلطان وتأتى بعده مرتبة الشيخ أو الملك وهو زعيم فى جزء هذه الدار» .

القائم، ثم أن السلطان لم يكن له ليتدخل في تصريف شئون المشيخات الداخلية، وفي علاقاتها بعضها ببعض، بل اكتفى بزعامته الرمزية، وحصوله على نصيبه من الضرائب والزكاة وغيرها، التي كانت تدفع إلى خزانة السلطان المحلية^(٣)، التي أقامها السلطان في عاصمة كل دار أو إقليم، لكي تدفع إليها هذه المخصصات، ويصرف منها في الأوجه التي يأمر بها السلطان، ولم تكن هذه الخزانة المحلية إلا قرعاً من بيت المال أو الخزانة العامة لمال المسلمين، الذي صار السلاطين يتصرفون في موارده، وفق اتجاهاتهم الخاصة غير مقيدين بالتشريعات الإسلامية، الخاصة بإدارة بيت مال المسلمين، وكان على السلطان كما ذكرت روايات العبد اللاب أن يساعد قرى في حالة الحرب.

وكانت موارد السلطنة، زعيمة الخلف، كذا موارد الزعماء في مختلف المناطق، ملكاً للزعيم المحلي، وبالإضافة إلى ما كان يجمعه السلطان من منطقت، التي يسيط عليها نفوذه المباشر، فإنه يتحصل على نصيب من العثور والضرائب، التي يجمعها المشايخ من مناطقهم، كذا على نصيب من الرقيق الذي تصطاده الناهضة في المواسم، وكان للسلطان نصيب من الرسوم، التي تحصل في محطات الجمارك، وأهمها في دنقلة وقرى وتشلجة^(٤)، وكان للسلطان وكلاء في القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل أسنا ودراو وأسوان، للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل، والتي كانت للسلطان نصيب وافر في أموالها.

وكانت للسلطنة صلات وثيقة بالبasha التركي، في موانئ البحر الأحمر (سواكن ومصوع)، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن، التي كانت تستورد منها السيوف والدروع^(٥)، ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى^(٦)، عن طريق القوافل عبر كردفان ودراقور، وعن الطريق المباشر بعيداً عن دراقور فيما بعد، وذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار.

(٣) راجع للمحقق الرابع.

(٤) تشلجة (Cheiga) شمال بحيرة نانا - داخل الحدود الحبشية وهذه الحالة أقرب إلى النظام الذي أتته حكومة السودان في إنشاء قسمة تجارية في جبال داخل الحدود الحبشية على نهر بارو (السوبا) للتبادل التجاري. وكانت إيرادات تشلجة الجمرية تقسم مناسفة بين صاغان سنار ونجاشي الحبشة.

(٥) ملحق ٣ = قصة الشيخ أحمد إبراهيم الذي سافر إلى عفا باليمن واستورد سيوفاً ودروعاً.

(٦) كتاب جيس جرای جکمن ص ٢٨٢ وما بعدها.

ويتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم ، في الديار المختلفة تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية ، وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الإقليمية ، الذي تزعمه السلطان الساري بتقاليد الجمهورية التجارية ، على النحو الذي كان متعارفاً عليه في الجزيرة العربية ، مع ما دخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن المهاجرات ، قبيل انتقال البيت السلطاني إلى حوض النيل الأزرق .

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية ، الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال في مناطق معينة ، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق ، التي تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ، ومراكز التسويق لتأمين المواصلات ، وتقديم ما تحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة .

وقد قامت تنظيمات الإدارة في المشيخات ، التي دخل زعمائها في حلف مع سائر في نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ، وترك كل شيء ، عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة ، لهذا نجد أن السلطة السارية ، بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية ، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم ، على أركان ثابتة من شأنه أن يشمل جميع نواحي النشاط ، ومن شأنه أن ينطور لقيام دولة بمعنى هذه الكلمة السياسي ، ويمتد نفوذها الفعلي على مختلف المشيخات ، وتجمعها مع الزمن في وحدة كاملة ، إلا أن الأسرة السارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية ، وكانت تلك التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردي ، وما يلفت النظر أن الأسرة السارية لم تراعى في تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارية المحلية ، التي تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه الأحوال في الجزيرة العربية ، ففي حوض وادي النيل الأوسط ، المساحات الواسعة من الأراضي الزراعية ، وكانت في البلد صناعات وحرف أخذت في التدهور وأهملت السلطنة إيجاد هيئة مركزية ، لتفسيق جهود مختلف الجماعات في المشيخات نحو هدف موحد ، بل ترك كل أمر لا يتصل بالمصلحة الاقتصادية على حاله في نطاق التقاليد القديمة العهد ، التي خضعت لها توزيع الأراضي ، والتي تجعل الزعيم مالكا للأرض كما سبق أن أوضحنا ، ولم تكن العلاقة بين المستفيع والزعيم قائمة على الولاء ، وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرزقة ، وكان للشيخ المحلي أن يعلن الحرب ، على من يجاوره من زعامات ، دون الرجوع إلى السلطان . وهكذا أخضعت لإداة الحكم لنظامين متباينين بالنسبة للمجتمع ، أولهما نظام الجمهورية

التجارية ، الذي يهدف إلى استقلال موارد الشعب لخدمة الزعماء ، وثانيهما نظام الاقطاع الشرقى ، الذى يوزع الارض على السكان للعمل عليها ، ولزعم تصيب ، ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين ، وبين قيام حكم صالح ، إلا إذا أعيد تنظيم الجمهورية التجارية والاقطاع الشرقى ، بما يكفل التطور الطبيعى لخلق قومية ومشاعر ، تلقى عندها مختلف المجموعات القبلية ، أما وقد أهملت الزعامات تنظيم الحكم ، بما يتجاوب مع خلق حياة جديدة عامة ، فإن قوة الزعامات وضعفها وتدهورها وتحللها كان مرهوناً بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية ، من حيث قوة هذا العوامل أو ضعفها ، وكانت من أسباب الانحلال والتفكك ، الذى أصاب السلطة ، لتعطيله المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .

وكانت سلطة السلطان المباشرة ، محصورة فى حدود قطعة فى حوض النيل الأزرق ، ومثلت البطانة ، وهو الطريق المؤدى إلى موانئ البحر الأحمر ، وكان لمنطقة حوض النيل الأزرق مثابها الخاص الموروث ، عن مملكة علوة القديمة وعاصمتها ، سوبا (٧) ، وقد قامت هذه المملكة بعد سقوط المملكة المروية ، فى منتصف القرن الرابع الميلادى وتخربت مدنها ونشرد سكانها . وتعرضت مملكة علوة لدخول هجرات ، كانت فى الأكثر من مجموعات كبيرة من القبائل الافريقية ، ومن جماعات اثيوبية (حبشية) ، وبخاصة بعد عودة البيت السليمانى ، الذى استرد الحكم فى اثيوبيا (الحبشة) من البيت الزغوى ، فى قرابة نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (عام ١٢٧٥) وتقمب البيت السليمانى مناوئيه ومن تعاون معهم ، كما اضطهد المسلمين ، لما كان بينهم والبيت الزغوى من علاقات ، واضطروهم إلى الفرار فى جماعات كبيرة إلى حوض النيل الأزرق ، بوصفه المجال الطبيعى . وحدثت هذه الهجرات بخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى وقد اتخذت الجماعات الاثيوبية لنفسها بعد نزولها فى حوض النيل الأزرق لقب «فنج» أو «فونج» ، وتصحف «فنينجا» (٨) ، ومعناها البيت الحاكم وقد ورث البيت السنارى هذا اللقب ، وذلك عندما انتقلت السلطنة ، وعلى رأسها عميرة «دونفس» إلى سنار .

وجاءت موجات أخرى من المجموعات الافريقية والعربية من الجنوب والشمال ، واشتد تدفقهم فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ودخلت هذه المجموعات فى صراع من الجماعات الاثيوبية ، وانتهى الامر بخروجها من البلاد إلى الغرب - بلاد دارفور (٩) .

(٧) سوبا أو علوة = جنوب شرق الخرطوم مباشرة على الشاطئ الأيمن للنيل الأزرق .

(٨) مكينل ص ٧٥ .

(٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .

وقد اختلط أمر هذه الهجرات ، الاتيوبية والافريقية - العربية على بروس^(١٠) فاعتقد أنها جماعة من الثلث الذين يكتنون الشاطئ الغربي للنيل الأبيض ، والذين قاموا بغزوة في عدد خضم من الزوارق ، على المنطقة العربية في الجزيرة ، ووقعت بينها معركة فاصلة بالقرب من مدينة أريجى ، انتصر فيها الغزاة وقرضوا إرادتهم على العرب ، ويضيف بروس أن هؤلاء كانوا من الوثنيين ، واعتنقوا الاسلام فيما بعد ، بسبب العلاقات التجارية مع القاهرة ، أى أن اعتناقهم للاسلام ، قد دفعت إليه رغبتهم في المحافظة على التجارة مع مصر . والحقيقة وواقع الأمر كما سبق ، أن أوضحنا لم يكن أولئك الذين قال عنهم بروس أنهم من الثلث ، لإجماعات من البيت الزغوى الذين نزلوا في حوض النيل الأزرق .

وقد تميز القطاع السنارى ، في حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية التي تأثرت كثيراً بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة . وقال في ذلك الفارز^(١١) ، الذى نقل عن حنا السريانى ، الذى زار بلاد النوبة في السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، أنه قد رأى في بلاد علوه حوالى الحسين والمائة من الكنائس ، مزودة بصور العذراء مريم ، ومع ذلك فإن السكان في تلك البلاد (التي تشمل بصفة خاصة أرض الجزيرة) كانوا كما قال في حالة بعيدة عن اليهودية أو المسيحية أو الاسلام ، وأنهم في حاجة إلى التبشير بالدين المسيحى .

وقد ذكر جكسن حادثاً ، يدل على بقاء العادات الوثنية إلى وقت متأخر ، حيث اضطهر السلطان عبد القادر ، الذى خلف والده السلطان عميرة حوالى ١٥٣٧ م ، إلى قتال السكان المحليين في جبال موبا وسقدي^(١٢) ، لأنهم ظلوا يقدمون فناء في كل عام قرباناً للآلهة ، كي لا تمنع عنهم الأمطار^(١٣) ، وبقي الكثير من التقاليد والعادات الوثنية ، الموروثة عن المدينة المصرية القديمة . في صورة أو أخرى حتى اليوم ، وقد تركت هذه التقاليد ، أثرها في الجماعات الاسلامية التي دخلت البلاد السودانية ،

(١٠) بروس الجزء الرابع ص ٤٥٨/٤٥٩

(١١) الفارز ص ٢٥٢

(١٢) جكسن « سن النار » ص ٢١

ونجد هذه العادات عادة بالقرب للاله في جبل أوآخر منتشرة في المنطقة من هضبة اتيوبيا حتى دارفور والغرب فقد ذكر براون في كتابه « أسفار في أفريقيا » ص ٣٠٣ أن سكان الجبال يقدمون لآلهة الجبال قرابين ضحيتها ولد أو بنت تذبح في حفل رسمى ترفع فيه الطبول الكبيرة .
(١٣) مقال المؤلف « النفوذ اليوناني في حوض النيل الأزرق » الخ الخ

فأضعفت تمسكهم بالشريعة ، حتى قيل أن الرجل صار يطلق امرأته ، ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاة عدة ^{١٤} . ورغم أن هناك تضارب في الروايات المحلية ، عن هذه النقطة ، إلا أن المؤكد أن التعاليم الدينية لم تستقر في القلوب ، وأنها تأثرت بالظروف المحلية . وكانت المحاولات لنشر الدين ، متروكة لنشاط العلماء المحليين الذين لم تكن تربطهم سلطة مركزية إدارية أو روحية ، وقد تكيف وضع أولئك العلماء بحالة المجتمع ، التي سبق الكلام عنها . وكان للمجتمع أثره في بقاء الوثنية ، بعد دخول المسيحية والإسلام إلى البلاد ، وإذا نظرنا من وجهة اقليمية إلى وضع الجزيرة ، نجد أنها أكثر خصبا وأوسع رقعة ، وأن سكانها الأصليين لم يهجروا بلدم هذا حتى في أسوأ الظروف ، التي أطاحت بالملكية المروية في منتصف القرن الرابع الميلادي ، ولم يكن من السهل على بيئة كهذه ، كثيفة السكان عريقة التقاليد الوثنية ، أن تتقبل الدين الجديد قبولا حسناً ، وبخاصة أن الظروف المحلية لم تمكن العلماء من خلق أجيال تخلفهم ، ونجد دليلاً على بقاء مظاهر المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي ، فيما كتبه الفاروز الذي أشرنا إليه من قبل ، وفي بكاري (Beccari) ، الذي يقول أن اقتراحاً قد قدم إلى روما في عام ١٦٩٤ ميلادية ، لتأسيس ارسالية تبشيرية في سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك ، الذين قيل أنهم هربوا من أتوبيا ، بسبب الاضطهاد المذهبي ، وأعيد تقديم الاقتراح في يناير سنة ١٦٩٧م من الكاردينال سكرينتي (Secrapenti) الذي نجح في الحصول على موافقة البابا باعتقاد مبلغ يقرب من العشرة آلاف من الجنهات ، وفعلاً تأسست الارسالية في مدينة أخميم في صعيد مصر وذكر الرحالة العثماني أوليا شلي ، أن من بين الاسماء التي يستعملها أهالي حوض النيل الأزرق : جرجس ، وهذا اسم مسيحي .

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات في أرض الجزيرة ، وبعض المناطق من السودان وادى النيل ، التي لم يتركها أهلها القدامى ، نجد فيها دليلاً على أن مجموعات السكان المحلية قد دخلت في رعوية المشيخات ، التي أقامها العرب والتي دخلت في اتحاد مع السلطنة السنارية ، التي امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من ملكة علوة ، التي اختفت في السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي ، ولاشك أن الذي دفع السكان القدامى إلى قبول الحكم الجديد ما كانت عليه الأرض من خصوبة ، نظمت

(١) أظن تاريخ سنار مخطوطة وكتاب الطبقات .

مجتمعهم وحياتهم ، وكانت لهؤلاء تقاليدهم الدينية ، ولم تغتهم ومدنيتهم الموروثة ، وكان لازماً أن تدخل هذه العوامل مجتمعة في صراع مع ماحله السكان المجدد .

وما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية ، الذي وصل إلينا ، لم يدون إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي^{١٥} ، ولهذا نجد أن ما كتب عن السنوات الأولى ، يقتصر على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ، ولم توضح لنا الأسس التي قامت عليها السلطنة ، وعلاقاتها الداخلية والخارجية ، ولهذا كان علينا أن نتلمس الحثيوط ونتبعها هنا وهناك . في مختلف المصادر لكتابة تاريخ أقرب إلى الصحة . فالسلطنة في سنواتها الأولى ، التي جاوزت القرنين من الزمان ، قد حكمها سلاطين من أبناء الصليب للسلطان عميرة ، مؤسس البيت السنارى في عاصمته في حوض النيل الأزرق ، وانتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس ، الذي يمت للبيت السنارى بصلة الرحم ، انتزع الحمقى (المصعج) ، الذين تولوا المشيخة ، الحكم من أولئك السلاطين ، وسفين ذلك في موضعه . ولما كانت السلطنة قد أهملت بادية ذى بدء أن تقيم جهازاً لسلطانها ، يتمشى مع حالة البلاد وتطورها ، فإن الزمام قد أخذ يفلت من يد السلاطين ، عندما تأثرت التجارة بعوامل خارجية .

(١٥) المخطوطات التي دونت في أوائل القرن التاسع عشر (بعضها قد نشر) والتي وصلت إلينا هي كالآتي :-

(أ) طبقات « ودضيف الله » في خصوص الأولياء والمجاهدين والعلماء والشعراء في السودان نشرها السيد سليمان داود مندبل طبع الخرطوم ١٩٣٠ م - وطبعة أخرى أعدها وعلم عليها فضيلة الشيخ إبراهيم مديني - طبع القاهرة في ١٩٣٠ م

(ب) تاريخ « مدينة سنار » - جمعه وكتبه احمد الحاج أبو على المعروف بكاتب الشوكة . الذي كان موظفاً بالديوان في الخرطوم وبشنى تاريخه حتى عام ١٨٣٥ م . ومنها نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٨ م .

(ج) تاريخ « مدينة سنار » ويشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وهذه المخطوطة تكون القسم الأول من مخطوطة كاتب الشوكة آخيه الله ذكر - وقد نقلها عن الأصل أحد الفقهاء في الخرطوم كطلب المبصر اجنار كنوبلخر الذي أودعها في مكتبة فينا الأهلية - وهناك بعض الاختلاف بين النسختين ب . وج وليس من اليسر تحقيق ذلك إذا لم تحصل على النسخة الأصلية لكاتب الشوكة .

(د) تاريخ ملوك القوة والسودان وأقاليمه - كاتبه مجهول منقول عن النسخة ب مع تعديلات وإضافات وتنتهى في عام ١٨١٣ م - ومنها نسخة بدارالكتب المصرية (منقولة عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس) وهي تحت رقم ٢٥٤٧ .

(هـ) تاريخ مختصر بأراضي النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفتح - كاتبها مجهول - وهي أصلاً

ويجمل بها أن نستعرض تاريخ السلطنة ، ممثلاً رجالاتها من سلاطين وغيرهم ، وما وقع في قرات ولايتهم الحكم أو الزعامة ، من أحداث وهذه تصور لنا من الناحية الواقعية ، وتساعدنا من ناحية أخرى على تفسير تلك الحوادث ، ومجريات أمورهما وأثر ذلك في الحياة اليومية .

فالسultan عميرة بن عدلان (ورد في بعض الروايات « عمارة ») هو السلطان الأول للبيت السنارى ، عند قيامه في حوض النيل الأزرق ولم يحفظ في الروايات المحلية ، التي وصلت إلينا في أكثر من مخطوط ، بأكثر من تاريخ ولايته وتاريخ وفاته ، وتحالفه مع الشيخ جماع (شيخ قرى) على غزو حوض النيل الأزرق . وبقى تاريخ هذا البيت غامضاً عن الفترة التي سبقت انتقاله . وقد كان قائماً كما سبق أن أشرنا يمارس سلطانه في منطقة « لملم » على الأقل في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، واستناداً على قول روينى نجد أن قيام السلطنة في سنار لم يكن إلا امتداداً للحكم سابق لجأ أمهائه إلى حوض النيل الأزرق ، بعد أن تغيرت الظروف في الموطن السابق ، وصار الاستمرار هنالك مستحيلاً لدرجة ما ، ولم تذكر الروايات عن السلاطين الثلاث الأول ، الذين تولوا بعد عميرة أكثر من تاريخ الولاية وتاريخ الوفاة . واختلفت الروايات في الترتيب الزمني لعبد القادر ونابل ، الذين حكما بعد عميرة بالتوالى ، أو سبق أحدهما الآخر ، ويرجع هذا الاختلاف في الرواية ، الى أنها قد كتبت بعد انقضاء أكثر من ثلاثة قرون من ظهور السلطان عميرة في السودان ، ومن عهد السلطان دكين ولد نابل ، وهو الخامس بعد عميرة ، نجد أن هذه المعلومات قد أخذت في الازدياد ، فقد ذكرت الروايات عن هذا السلطان (١٦) ، أنه « ملك العادة » الذى رتب الدواوين ،

== مأخوذة عن كتاب كاتب الشونة مع تعديلات وإضافات - أهمها الملحق في إدارة أحد ممتاز باشا - وهنالك ، بجملة نعتقد أن الذى أوعز بذلك « معنى بك الشامي » الذى كان وكيلاً لمديرية الخرطوم لما كان بينه وبين ممتاز باشا من من علاقات سيئة - وقد اعتمد تقوم بك شفيق ومكيكل على هذه النسخة - وقد قل غوردون منها نسخة أودعها في المتحف البريطانى وهنالك نسخة أخرى أرسلت الى كلية الشريعة غير أنها قد فقدت ، وتوجد في مكتبة جامعة الاسكندرية نسخة من هذه المخطوطة - وقد نشرها السيد الدكتور مكي شيكة (طبع الخرطوم ١٩٤٧ م) ضمن مطبوعات كلية غوردون التذكارية بالخرطوم - تاريخ رقم (١) -

(١٦) أشار النجاشي في كتابه الذى أرسله الى سلطان سنار في ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ م الى العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين الحبشة وسنار وسلطانها دكين وقد ورد اسم هذا السلطان ==

وأجرى قوانين مربوطة ، لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رتباً ، معلوما ورتب عليه ما رتبته ، وكان دخولهم وجلوهم عنده حسب الرتب الأعلى فالأعلى ، وهذه التنظيمات الديوانية ، تكشف لنا عن تقلقل الآراء والنظم العثمانية ، وأثرها على سنار ، ولا غرو فقد كانت لباشوات سواكن (١٧) ومصوع من العثمانيين ، وكلاء تجاريين في سنار وأرجي ، (١٨) ويبدو أيضاً أن النفوذ الهندي لم يكن بأقل خطر من النفوذ العثماني ، فقد كانت للهنود جاليات من التجار البنيان ، في موانئ البحر الأحمر وفي داخلية البلاد . ونجد في الصورة التي تركها كايو ، عن السلطان بادي (آخر ملوك سنار) ، ملايه وحذاه صورة طبق الأصل عما كان يلبسه المهرجات في الهند في ذلك الزمن .

وقد سار خلفاء السلطان دكين على نهجه ، حتى ولاية السلطان عبد القادر (حكم من ١٦٠٢ - ١٦٠٦) ، ولم تذكر الروايات المحلية عنه شيئاً غير تاريخ ولايته ووفاته على حد قولها ، لكن المصادر الحبشية تلقى الضوء على حياة هذا السلطان ، الذي عزل عن الحكم بسبب طموه وخلاعه ، وقد هرب إلى تشلجه ، حيث التجأ إلى النجاشي ، الذي منحه إقامة ، تتناسب مع مركزه السابق ، وما يؤخذ على هذا السلطان ، أنه عقد اتفاقاً مع النجاشي ، اعترف فيه بتبعيته للحبشة ، وقبل « نقارة » محلاة بسلسلة ذهبية ، وتبادل الهدايا مع النجاشي ، على النحو الذي يوصي بخضوع سنار لسيطرة النجاشي وسيادته ، ويبدو أن وجود عبد القادر في بلد على الحدود الحبشية السنارية ، قد أساء إلى العلاقات بين البلدين ، فقد جاء في حوليات النجاشي « سوسليوس » ، أن عبد القادر قد أجبر على مغادرة الحبشة ، بدعوى المحافظة على العلاقات الودية مع سنار .

وتولى الحكم بعد عبد القادر ، عدلان ولد آي ، الذي أدخل تمليلات على التقاليد والمعادن المرعية ، الأمر الذي سبب قلقاً وتذمراً ، كان من نتيجته قيام

في المؤلفات الأجنبية وخاصة « بروس » جغرافياً حيث كتبه (De Kim) دي كم وفسره بأنه ملك من ملوك القبرون . وكتاب النجاشي المشار إليه قد أرسل من النجاشي تقلاً هيانوت للسلطان بادي للمباح للبعثة الفرنسية وعلى رأسها « دي رول » بالفر إلى الحبشة .

(١٧) ينم عن مخطوطة تاريخ ملوك ملوك الفونج والسودان أقاليمه - دار الكتب المصرية
نمرة ٢٥٤٧ .

(١٨) عرف بلشا سواكن بلشا سنار .

حركة تمرد وعصيان ، أخذت مظهرها في محاولة الشيخ عجيب ود عبد الله زعيم
العبداللاب ، الانفصال عن الاتحاد السناري وقد اشترك مع عدلان في معركة قاصلة
في السككول (١٩) قتل فيها الشيخ عجيب ، وقر أهله إلى دقله ، فأرسل السلطان
الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (٢٠) ، ومعه عفو السلطان وطلب من أهل عجيب ،
العودة إلى بلدهم ، قرى ، حيث أسند إلى العجيل ، أكبر أبناء عجيب ، منصب والده
وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كثير من العلماء ، من مصر والمغرب والجزيرة العربية
وغيرها إلى السودان ، ومن هؤلاء العلماء من رجال الدين ، الشيخ حسن ودحونه
الاندلسي (٢١) ، والشيخ إبراهيم جابر البولادي المصري (٢٢) ، والشيخ محمد المصري (٢٣)
وقد أدخل هؤلاء طريق الصوفية إلى البلاد .

واختلفت الروايات المحلية ، في مدة حكم هذا السلطان ، فالخطوط تقول أنه
حكم ثلاث سنوات ، انتقل بعدها إلى رحمة مولاه ، بينما تذكر الطبقات في ترجمة
الشيخ صغيرون ، أن الملك عدلان بعد ما قتل الشيخ عجيب في كركوج ، سافر
بجيوشه إلى دقله ، فلما جاء في حفير مشو ، عزله الفونج عن الملك ، وولوا بدله
بإدى سيد القوم ، وهذه مسألة جديرة بالتحقيق ، وتعوزها الوثائق وأنا نشك كثيراً
في أن عدلان هذا كان ملكاً على سنار ، ونرجح أنه كان يشغل منصب «سيد القوم» ،
وهو ، الوزير الأول ، ، والذي عليه قيادة الجيش (٢٤) ، ويحتمل أنه كانت له شخصيته
القوية ، التي حجبها السلطان ، وتولى الملك بعده السلطان بإدى سيد القوم ابن السلطان
عبد القادر ، الذي خلع وهرب إلى أتوبيا ، وقد أرسل النجاشي للسلطان بإدى
سواراً من الذهب وككراً ألخ ألخ ، ولما كانت مثل هذه الهدايا ، لا ترسل عادة إلا
من سيد إلى مسود ، الأمر الذي أغضب بإدى ، فأرسل النجاشي اثنين من الحيل الهزيلة
المرجاء العمياء ، ويهدف بذلك أن يشعر النجاشي بأن سنار لا تدبر بالولاء .

(١٩) السككول في رواية وكركوج في رواية أخرى ووله أي محارة في رواية ثالثة وهذه
جميعها واقعة في منطقة على الشاطئ الشرقي لنيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم .

(٢٠) طبقات ووضيف الله - ص ٧ - طبع القاهرة سنة ١٩٣٠ م

(٢١) المصدر نفسه ص ٦

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ وهو الشيخ محمد بن علي بن قرم السكياتي المصري

(٢٤) الفصل الثاني « الترتيب الزمني لسلطين سنار » .

الحبشة (٢٥) ، وتقدم في نفس الوقت بالشكوى ، من وجود والده عبد القادر في تشليحه ، يراول نشاطاً يتنافى مع علاقات حسن الجوار بين البلدين ، فقد تعاون مع النجاشي في حملته على المملكة صديفة ، التي كانت تحكم على المنطقة المجاورة لحدود الحبشة ، ويقلب أنها كانت في حوض نهر العظيرة . ويبدو أن تطور العلاقات واحتجاج سنار ، قد أديا إلى إخراج عبد القادر من الحبشة ، غير أن ذلك لم يحسن العلاقات كما كان مرجوا ، فقد حدث أن هرب « غالب » ، حاكم مقاطعة مزقة ، ودخل إلى السلطنة السنارية ، وقد رفض السلطان تسليحه ، أو إعادة خيل النجاشي وشارات الحكم ، التي حملها غالب معه . وأوعز السلطان إلى نايل ود عجيب ليثن غارات على منطقة بحيرة تانا . ولم يكن من المستطاع أن يتنقم النجاشي من السلطان لهديته المهيبة وما تملأها من مشاكل وذلك بسبب مشاغله الداخلية غير أنه أخذ في العمل على استماله نايل ود عجيب إلى جانبه ، ليفيد منه عندما تحين الفرصة . وانتقل الحكم بعد بادي إلى ابنه رباط ، الذي حكم أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وقد ترك له بادي تركة مثقلة بالمشاغل ، التي تصور لنا مظهراً ، من مظاهر بداءة التحول في تاريخ البيت السناري ، ولم تذكر لنا المصادر المحلية شيئاً عن تلك التطورات ، بينما تلقى المصادر الأخرى ضوءاً على مجريات الأمور في عهد السلطات رباط . فالنجاشي قد أخذ في الاستعداد ، لغزو أراضي السلطنة السنارية ، ولم يمض طویل وقت ، حتى استطاع إرسال ثلاث حملات ، واحدة منها لغزو التاكة (كسلا) ، والثانية على حوض العظيرة ، والثالثة اكتملت الحدود بين التاكة والنيل الأزرق وكان ذلك في عام ١٦١٩ ، كما ذكر بائر في تاريخه . وقد استطاع سكان التاكة ، ومنطقة الحدود ، الحرب في الوقت المناسب ، قبل وصول جنود الأحباش ، أما الحملة التي أرسلت إلى حوض العظيرة ، فقد تمكن قائدها من أسر الملكة فاطمة ، التي كانت تحكم في شرق منطقة الميرقاب ، (بين مصب العظيرة

(٢٥) حكم السلطان بادي من سنة ١٦١١ ميلادية (تقريباً) وقد ورد ذكره في المخطوطات المحلية « بادي المعروف » سيد القوم ولقب سيد القوم هذا من الألقاب التي كانت شائعة الاستعمال في أوائل عهد السلطنة السنارية فيها كان يعرف به الشيخ المتولى الوزارة فقد عرف به أيضاً القائم على شئون السلطان الخاصة - وقد أشار اليه بروس في كتابه (مجلد ٤ ص ٤٦٥) بأنه المتولى تنفيذ قتل السلطان عندما يصدر اليه الأمر بذلك واستعمل هذا اللقب أيضاً لأبناء المناخ الدين كما ورد في الطبقات - ترجمة الشيخ حسن ود حسونة - ص ٤٩ .. ختمه عبد كل واحد شابل سيفاً قبضته وإزميره ومخابيره فضة ولهم سيد قوم وجندي وعكاز كبير .

ونجد ان الأنجينا يطلقون (Sen-i Kueg) وباللرية « سيد القوم » على الشيخ المتولى شئون القرية وله صفه قيادة الحرب . والنظر في الشئون الخاصة بأهل القرية وما يعجز عن حله يرفقه إلى الملك الذي يتولى المسألة بالاشتراك مع سيد القوم والأجاويد . ووظيفة سيد القوم كما هي اليوم في الأنجينا وراثية

وبربر) ، وتعرف هذه الملكة باسم نجاشية الروم (٢٦) ويبدو كما جاء في المصادر الأثيوبية ، أن هذه الغزوات كان القصد منها التأديب والحصول على الاسلاب .

وجاء في الروايات الخاصة بتاريخ مملكة تغلي ، أن الملك « قبلي أبو قرون (حكم من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٨ م تقريباً) ، قد تزوج من « عجايب » ابنة السلطان رباط ، وقد أغفلت هذه الروايات ذكر الظروف التي عملت على التقرب بين السلطان السناري وملك تغلي بالمصاهرة ، أما تفسير ذلك من تاريخ تغلي ، خلال تلك الفترة فهو أن السلطان السناري قد لجأ إلى كسب مودة تغلي للعمل سويًا على الحد من نفوذ الفور ، وبخاصة أن تغلي بحكم موقعها الجغرافي ، بين سلطنتي سنار ودارفور ، وهي بحكم هذا الموقع ، تعتبر قلعة أمامية بالنسبة لتجارة القوافل ، من وإلى سنار ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، لأن نفوذ الفور قد أخذ في الامتداد إلى حوض النيل ، في دار الشايقية ، حيث أراد الفور أن تسير قوافلهم التجارية متجهة إلى دار الشايقية ، ومنها إلى موانئ البحر الأحمر ، بعيداً عن مناطق النفوذ السنارية . وبقيت العلاقات قائمة بين الفور والشايقية ، حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي ، كما تبينه الوثيقة رقم ٣ ، وهي التي أرسلها سلطان الفور محمد الفضل ابن عبدالرحمن (حكم من ١٨٠٠ إلى ١٨٣١ م) ، ومعها هدايا مختلفة ، ليعينين بها الفقيه محمد أبو جبة (أبو دلق) على إقامة المسجد وعمارته ، اطمام المساكين في دار الشايقية ، وبعد وفاة السلطان رباط وانتقال العرش إلى ابنه بادى أبو دلق ، وقد استمر في الحكم فترة طويلة ، بلغت السلطنة السنارية في خلالها عصرها الذهبي ، كما بدأت تتجمع الزوابع ، التي نقلت الحكم من يد خلفه الثالث إلى بيت الأونساب .

وتبين عهد السلطان بادى أبو دلق ، بعلاقاته الطيبة مع علماء الأزهر لما كان يرسل لهم من عطايا ، فنظموا القصائد في مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربي ، الذي بعث بقصيدة للسلطان بادى ، مع خبيره الشيخ أحمد علوان ، استهلها بقوله : -

أيا راكباً يسرى على متن ضامر إلى الغرب يهدي نحوه طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ويفتحم الأوعار في المهمة الففر

(٢٦) لا يعلم على وجه التحقيق مصدر هذه الكلمة - فهل هي تشير إلى الروم أي الأغريق أو هي تصحيف لكلمة أروم (Urum) في اللغة السكتية ومعناها أسود على حد قول بورخاردت ص ١٥٧

وينفض من مصر وشاطئ نيلها : وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير أن وافيت سنار قف بها وقوف محب واتهز فرصة الدهر (٢٧)

وقد بنى هذا السلطان مسجد سنار ، وقصراً للحكومة ، وجعله من خمس طبقات
فوق بعضها ، وأقام مخازن عديدة لحفظ مهمات الحكومة ، من أسلحة وغيرها ، وأقام
أيضاً حائطاً كبيراً حول القصر ، وجعل في ذلك الحائط تسعة أبواب ، خصص كل
باب منها لواحد من كبراء دولته ، وكانت كل هذه الأبواب تفتح في حائط مستقيم ،
وأمام هذه الأبواب سقيفه بعمدان ، وفيها دكة عالية تعرف بـ دكة (٢٨) من ناداك ،
تسمع فيها الشكاوى والقضايا ويصدر السلطان حكمه . وكان مجلس السلطان هذا ،
يجتمع كالعادة صباحاً ومساءً خلال أيام الأسبوع عدا أيام السبت والأربعاء ، التي
يخرج فيها السلطان وحاشيته إلى بيته الريفي في المعيرة ، الواقعة على مسافة قصيرة
من العاصمة .

وحدث في عهد هذا السلطان ، أن ذهب الفقيه حمد النحلان المعروف بـ
الترابي ، إلى الحجاز وهناك نادى بنفسه أنه : المهدي المنتظر ، فصره الحجاج
وحبسوه ، وبعد ذلك أرسل أحد تلاميذه المدعو : ميرف ، وقال امش في سنار
وقل المهدي ظهر ، فأمر الملك بأدى بقتله (٢٩) .

كما اشتد في عهد هذا السلطان ، التنافس التجاري بين سنار والفور ، الأمر الذي
اتخذت معه تقلى موقفاً ، أكثر ميلاً إلى الفور منه إلى سنار ، ولم تكن للدصاهرة التي
تمت في عهد السلطان رباط ، من أثر في تخفيف حدته ، ومرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع
في كل من تقلى ودارفور ، وأسس الحكم فيهما ، مما جعل ذلك التقرب بينهما سهلاً ،
فالحاكم في البلدين يهدف إلى نشر الرسالة الإسلامية ، بين شعبه ، وحكام الأقاليم
فيهما يدينون بالولاء الكامل للزعيم الأكبر ، وكان الأمر على عكس ذلك في الجمهورية
التجارية السنارية .

وقد تأثرت تقلى ، بحكم موقعها الأفريقي بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار
والفور ، ولما كان الفور أشد بأساً وأقوى نفوذاً من سنار ، فإن تقلى اتجهت نحو

(٢٧) أنظر مخطوطة تاريخ سنار (نسخة المكتبة الأهلية : باريس) ص ٧ وما بعدها .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٠

(٢٩) أنظر كتاب الطبقات (نشر الشيخ إبراهيم صديق) ص ٦٢

تحسين علاقاتها مع الفور ، الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى ، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادى ، على نحو ما جاء فى الروايات المحلية ، حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصديق له ، فأرسل حملة للانتقام من تقلى ، واستمر القتال بضعة أيام وانتهى بصلح ، صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار ، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى ، لأن اهتمامهم كان متجهاً نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية ، وفتح الطريق التجارى مع حوض النيل ، بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى .

ولقد كان لهذه العلاقات بين الشايقية والفور أثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث أنهم شقوا عصا الطاعة على سنار ، ودخلوا فى حرب مع العبد الاب ، واسطة الحكم السنارى ، وزعيمة المشيخات الشمالية ، المتحالفة مع سنار . وكانت تلك الحروب فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان بادى .

وقد اشتد فى عهد السلطان بادى ، أو فى السنوات القليلة التى سبقتة ، نشاط البعثات المدينية من الفرنسيكان ، ويسندهم بابا روما ، والجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ، وكل من هاتين الجماعتين تحاول بسط نفوذها فى أنيوبيا ، وبجانب ذلك يهدف لويس إلى فتح أسواق تجارية فى أنيوبيا وسنار وأخذ الفرنسيكان (٣٠) فى التردد إلى السلطان السنارى ، لسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصر إلى أنيوبيا ، بدلاً من السفر من القاهرة إلى أنيوبيا ، عن طريق عيذاب وسواكن ، بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابعت بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل ، كما فعل الرحالة العثمانى أوليا شلي فى سنة ١٦٧٢ م ، أما البعثات فقد سارت عبر الصحراء من أسبوط إلى الواحات ، ومن ثم إلى بلدة « مشو » (على النيل شمالى دنقله) ، وتخرج الفوافل من منطقة دنقله ، بحرقه صحراء البيوضة ، إلى منطقة شندى ، ومنها إلى قرى وأربحي وسنار .

وذكر أوليا شلي فى رحلته ، أنه قد شهد حرباً وقعت فى منطقة دنقله فى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٦٧٢ ميلادية وترجح أن تكون هذه الحرب ، هى التى حدثت بين الشايقية والشيخ الامين ود عجيب ، شيخ العبد لاب وزعيم المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وترجح أسباب هذا القتال إلى امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية كما أشرنا من قبل . وقويت بذلك شوكة الشايقية ، وحاولوا الانفصال عن الحلف

السنارى ، الأمر الذى دفع الشيخ الأمين إلى انتهاز الفرصة المناسبة للاستقبال مع الشايقية ، للحد من نفوذ القور وأضعاف الشايقية ، وجاءت المناسبة في اتجاه أحد الحارجين ، على هذا الزعيم إلى دار الشايقية ، فأرسل في طلبه إلى الشيخ عثمان سيد دار الشايقية ، الذى رفض تسليمه أو قتله . ولم يتوان الشيخ الأمين ود عجيب من الزحف برجاله على دار الشايقية ، وعسكر على شاطئ النيل أمام دافه (٣١) ، وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم ، في مدة لا تزيد عن خمسة أيام ، ولما كانت القوة التى تحت إمرة عثمان قليلة ، فانه قد لجأ إلى جمع الخيل ، التى أخذ في تلوين جلودها بلون لكل مرة يرسلها فيها للشرب من النيل ، على مرأى من معسكر الأمين ، الذى ظن أن عثمان سوف يهاجمه بقوة كبيرة ، فأرسل في اليوم السادس إلى عثمان ليوافيه للمفاوضة ، وجاء عثمان بمفرده لكشف الخبر ، والتحقق من نوايا الأمين ، وعندما دخل عثمان وجد الأمين يلعب بالمنقلة ، وأشار الأمين لبعض رفاقه بالحضور ، للقبض على عثمان غير أن أحد الشايقية ، من أصدقاء الأمين صرخ في عثمان ، باللهجة الاقايمة للشايقية وقال : « وحياء الرب شرك أم حبيبة في رقيبك طب » ، ومعناها : انج بنفسك قبل أن يقبض على رقيبك شرك الطير ، فأسرع عثمان إلى ظهر جواده إلى جزيرته ، وكان الماء على عمق بسيط . وجمع رجاله وحزم أمره على القيام بهجوم خاطف ، على العبد اللاب ، وفي ظلام الليل أعد جميع ما لديه من ماشية ، حمير وغنم وما عزر ، وربط على ظهر كل منها كمية من القش الجاف ، وعبر بها في صمت وسكون ، وأخذ رجاله وعندما وصل إلى مكان قريب من معسكر العبد اللاب ، أشعل النار في القش ، وطارد الحيوانات في اتجاه المعسكر ، فأحدث ذلك هرجا ومرجا بين العبد اللاب ، وأخذ رجال عثمان في قتل من يقع في يدهم ، ووجد الأمين جالسا على قروة الصلاة في انتظار الموت . ولما وصل اليه عثمان قال له وهو شاهر سيفه ، اننى أعفو ، على أن تضمن لى استقلال الشايقية ، ولم يسع الأمين إلا أن يؤمن عثمان على استقلال بلاده ، وقطع الموائيق له بذلك .

وقد لعبت المرأة الشايقية دورها التقليدى ، في تقدم المقاتلين والمباداة بالحرب واشعال الحماس في الجند للاستماتة في القتال (٣٢) .

(٣١) دافه - جزيرة جتوي بلدة مروي على مسافة تقرب من الستة وألخمين ميلا .

(٣٢) جاء في كتاب الشايقية نكولس Nicholls بالانجليزية ص ١١/١ الدور الذي لعبته ==

وكان تحديد التاريخ الذي حدثت فيه هذه المعركة بين الشايقية والعبد اللاب موضع جدل ، والغالب انها حدثت في وقت ما بين عامي ١٦٥٩ و ١٦٨٠ ميلادية ، ونرجح ان القتال الذي شهده أوليا شلي ، وهو في طريقه إلى سنار وحدد تاريخه في شهر رجب ١٠٨٣ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦٧٢) هو القتال الذي انتهى كما سبق أن أوضحنا ، باستقلال الشايقية عن الحلف الساري . وترك لنا أوليا شلي وصفاً خيالياً عن المعركة ، ولم يذكر شيئاً عن تفاصيل القتال ، أكثر من انها كانت حرباً بين هارديقان عابد النار وبربر ستان ، وأن القتال قد انتهى بهزيمة هارديقان — والمقصود بهارديقان الشايقية ، وبربر ستان العبد اللاب ، بينما حقيقة الواقع على عكس ذلك ، فالشايقية (هارديقان) قد انتصر على العبد اللاب (بربر ستان) ، وإذا راعينا ظروف أوليا شلي المختلفة ، نجد ان أخطاه وخلطه بين الاسماء والحوادث أمراً غير مستبعد .

وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيداً عن متناول الشايقية كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية ، لحمايتها من تعدى الشايقية ، وأشار إلى هذه الحالة أوليا شلي نفسه ، وبونسيه (Poncel) ، وكرمب (Krumpholtz) ، والفرانسكان ، وغيرهم من الرحالة الذين زاروا منطقة دنقله في تلك الفترة .

وبعد وفاة السلطان بادى أبو دقن ، تولى السلطان أولسه بن ناصر بن رباط ، على حد قول الروايات المحلية ، ولكن هذه الروايات على ما يبدو لنا غير صحيحة ، بل المرجح أن يكون سلطان آخر قد حكم بعد السلطان بادى أبو دقن ، وهو السلطان عدلان بن محمد . أما السلطان أولسه فيرجح أنه قد حكم بعد عدلان بن محمد ، والدليل على ذلك ، أنه يوجد خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد ، وجاء في ختام هذا الخطاب : « يا من يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفتنجة قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور ، أنه توصيت (توصية) من السلطان جمة الاموى . سنة ألفاً وأربعمائة وثمانون . (أى ١٦٧٣ / ١٦٧٤ م) (٣٣) » ، وهذا التاريخ هو تاريخ

==عديله والده الشيخ عثمان في الخروج أمام جند الشايقية وهذه نعيد إلى التذكارة الدور التي لعبته الفتاة مهيبة بنت الشيخ عبود عند ملاقاته الشايقية لحملة المصرية بقيادة اسماعيل كامل بن محمد على وقد وقعت في الأسر فأحسن إليها وأعادها إلى معسكر والدها مكرمة معززة الأمر الذي أعجب والدها وكان ان طلب الصلح مع اسماعيل التي حافظ على ايته وأكرمها .

(٣٣) أنظر الملحقين عمرة ٧ و ٨

الخطاب وليس تاريخ توصية السلطان حمزة الأموى ، والدليل على ذلك أن اسم السلطان حمزة ، قد ورد في وثيقة أخرى ، أنه تولى الحكم في الفترة السابقة لعام ١٦٠٢ ميلادية ، ورب معترض يقول أن قائمة السلاطين ، التي أعطيت إلى الرحالة بروس^(٣٤) ، ذكرت أن السلطان بادي أبو دقن توفي في ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٧٠ م (٦ ذو الحجة سنة ١٠٩١ هـ) ، فهذه القائمة قد كتبت بعد حوالى مائة عام من حكم عدلان ، ولا مفر لنا من قبول الوثيقة الخطية الأصلية ، التي صدرت عن السلطان نفسه وحدثت في عهده أو فسه ، زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان ، وكان ذلك في عام ١٦٨٣ ميلادية ، وتسبب عن تلك الزيادة أضرار جسيمة ، وغلاء شديداً جداً أكل فيه الناس لحم الكلاب ، لذلك عرفت بسنة أم لحم ، وانتشر الجدري في صورة وباء تخربت بسببه الحلال (مفردتها حلة - القرية) الكثيرة ، وصارت الحاجيات الغذائية ، وفي مقدمتها الأذرة وهي الغذاء الرئيسى ، تباع بأعلى الأثمان .

وبعد وفاة هذا السلطان ، تولى ابنه بادي الأحمر ، الذى لم يكن موثقاً في إدارته نخرج عن طاعته أهله من القونج والشيخ أمين أراذب ، وولد عجيب ، وأقاموا ملكاً آخر اسمه « أوكل » ، ونادوا بعزله ، ولكن بادي الأحمر تمكن من إخماد حركتهم . وتميزت الفترة التي قضاها السلطان بادي الأحمر في الحكم ، بدخول البعثات الأوروبية الدينية في طريقها إلى الحبشة ، وكانت « سنار » مركزاً للصراع والدسائس التي كان يحكمها كل فريق من هؤلاء المبشرين ، لتعطيل منافسه من مواصلة السفر إلى الحبشة ، ففي عهده جاء الرحالة القرنى بونسيه ، وهو من الجزويت^(٣٥) (١٦٩٨ / ١٧٠١ م) .

ودخل السودان في أعقاب بونسيه مباشرة ، رجال من الفرنسيين الذين أسسوا مركزهم التبشيري في بلدة أخميم في صعيد مصر . للعمل في بلاد القونج^(٣٦) وأتيوبيا ومن هؤلاء الفرنسيين الأب يوسف ، الذى كان في سنار سنة ١٦٩٩ م إلى ١٧٠٣ م ومن ١٧٠٥ إلى ١٧١٠ م ومعهم ياسكال ، الذى اشتغل طبيباً للسلطان السنارى بادي الأحمر ، لمدة سنتين ، وسافر إلى أتيوبيا ، وخلفه في عمله كطبيب للسلطان كرمب البافارى^(٣٧) .

(٣٤) أنظر قائمة الترتيب الزمني لولاية الحكم من ٩٨ وما بعدها

(٣٥) وهو ثالث رحالة من الذين دخلوا السودان ولهم مذكرات عن أسفارهم . أولهم داود =

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة الفرنسكان دائمة النشاط والحركة ، بين غندار (شمالى بحيرة تانا فى الحبشة) وسنار والفاهرة ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة دى مالميت (De Maillet) يعد التجهيزات لارسال بعثة إلى الحبشة ، عن طريق سنار وقد سافرت هذه البعثة من القاهرة فى ١٩ يولييه سنة ١٧٠٤م ، وعلى رأسها جاك لنوار - دى رول ، الذى كان قنصلا لفرنسا فى دمياط بالقطر المصرى ، ووصلت هذه البعثة إلى سنار فى حوالى العاشر من يولييه من العام التالى (١٧٠٥م) ، بعد أن حجزت لفترات طويلة فى بلدة مشو (شمال أرقو فى دتقله) ، وكان هدف هذه البعثة أولا إنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنسا ، لىكى تتمكن الأخيرة من فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ، وثانياً التبشير الدينى ، وتركيزه فى يد الجزويت ، وثالثاً جمع المعلومات عن الامكانيات العسكرية ، فى الممالك التى تزورها البعثة ، وكانت فرنسا تخشى أن يقلت منها سوق الحبشة ، بدخول جماعات من الصناع الأجانب لتلك البلاد ، ويتمتع الأهالى منهم صناعاتهم ، ولم يكن للفرنسكان أن يتركوا الباب مفتوحاً ، لامتداد نفوذ الجزويت ، ومن ورائهم التجارة الفرنسية ، دون إحباط هذه المصاعى الفرنسية ، التى بدأت فعلاً بالبعثة الاستطلاعية التى رأسها بونسيه .

وقد قام الفرنسكان بتنفيذ خططاً إيجابية ، فى صورة حملات من الدس لدى نجاشى الحبشة وسلطان سنار ، عن بعثة دى رول ، فأشاعوا فى سنار أن هذه البعثة سوف تعمل على تحويل بحرى النيل الأزرق ، وتخرىض النجاشى على الهجوم على الأتراك واحتلال سواكن ومصوع ، ومن سوء طالع تلك البعثة أن الفيضان فى عام ١٧٠٥م وهر العام الذى وصلت فيه إلى سنار ، كان منخفضاً ، مما أكدا لاشاعات ، التى راجت وكان أن ذهب دى رول ورجال بعثته ، ضحية لهذه الخلافات الذهبية بين البابا ومملك فرنسا ، فقد قتل وصحبه فى سنار (فى حوالى الساعة الثالثة من ظهر يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٠٥

وأوغر مقتل بعثة دى رول صدر نجاشى الحبشة تقلاً هماًتوت ، وبخاصة بعد أن أرسل رسولاً خاصاً ، يحمل كتاباً لسلطان سنار بادى الآخر ، للسماح لهذه البعثة بمتابعة سفرها إلى غندار (٣٨) ، وكان أن وصل هذا الرسول إلى سنار بعد مقتل رجال

== رويينى (١٥٢١ / ١٥٢٣ م) ثم أوليا شلى (١٦٧٢ / ١٦٧٣ م) وبعد ذلك جاء بونسيه وزملاؤه .

(٣٦) انظر صفحة ٧٥ حيث أوضحنا ان اقتراحا قدم إلى البابا لتأسيس مراكز تبشيرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك الذين قيل انهم هربوا من الحبشة بسبب الاضطهاد المذهبي .

(٣٧) انظر كتاب كرمب وقد نشر ملخصاً له كروفورد فى كتابه ص ٣١٢ - ٢١٦

البعثة ، واعتبر النجاشي نقلاً هذا الحادث مأساً بكرامته ، وأعتقد أن القاهرة هي المسؤولة عنه ، لذلك أرسل كتاباً شديد اللهجة ، يهدد فيه بتحويل مياه النيل الأزرق عن مجراه .

ويبدو أن النجاشي ، نظروفه الداخلية ، لم يتمكن من الانتقام لكرامته من سنار ، واستمر العداء والصراع المذهبي ، من جراء المنافسة بين الفرنسيين والجزويت ، وكان اعتقاد الجزويت أن أتوييا مجالهم التبشيري ، وكان الفرنسيون يرون أنهم دخلوا الحبشة من قبل ، ومن حقهم القيام بالتبشير منفردين . وأخذ الفصل الفرنسي في القاهرة دى مالتيت يتخبط في اتهاماته لمقتل رجال البعثة ، فرة يقول أن النجاشي هو الذى حرّض سلطان سنار ، على ارتكاب الجريمة ، ومرة أخرى ينهم سلطان سنار ويطلب من باشا سواكن ، عمر ، ، في كتاب له بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٠٦ م ، أن يعترف بشيخ العبد اللاب في قرى كسلطان فعلى لدولة سنار ، وأن يرسل أحد الإغوات إلى سنار ، لعزل السلطان بادی ، وأن يقطع العلاقات التجارية مع سنار ، وقد بنى مالت اتهاماته على الأخبار المتناقضة ، التي نقلها إليه بعض الخدم الذين كانوا مع دى رول (٣٩) .

وأخذت حالة التوتر بين الحبشة وسنار ، في الظهور والاختفاء طوال فترات حكم الأباطرة من الأحباش ، الذين تولى الحكم ، بعد النجاشي نقلاً هيانوت واكتفى هؤلاء بإرسال غزوات على الحدود السنارية . واستمر الحال على هذا المنوال حتى عهد للنجاشي إياسو الثاني (حكم من ١٧٣٠/١٧٥٥ م) ، وكان على سنار السلطان بادی أبو شلوخ (حكم من ١٧٢٥ إلى ١٧٦٢ م) ، فأعد يأسو جيشاً كبيراً لغزو سنار لكنه فشل ، كما سلفيه فيما بعد .

ولاشك في أن هذه الفترة التي برز فيها الصراع ، بين الفرنسيين والجزويت ، في صورة واضحة المعالم ، تتطلب دراسة وافية سوف لا يجد فيها الباحث عتاً ، لكثرة الوثائق المتصلة بتاريخها (٤٠) .

(٣٨) نص الخطاب الذى حمله المبعوث الحبشى الى سلطان سنار في كتاب الجران من ٤٧٠/٤٧٢ أيضاً في كتاب يدج - جزء أول من . .

(٣٩) وهذه المادّة وما نقله المدم عنها وتصرفات ما لیت نجد منها صورة لما حدث في مقتل اسماعيل باشا كامل ابن محمد على حرقاً في حنّدى واتهم الملك نمر استناداً على قول أحد العساكر المحليين . .

(٤٠) يلبوثيكا جزء أول وتوان ، أيقنا كروفورد ويحتوى على يلبوغرافيا وافية

وتولى بعد بادی الأحمر ، ابنه أوتنه ، وكان صاحب طمو وفساد ، فاتبع هواه كما ذكرت الروايات المحلية ، وقد استدعى ذلك عزله ، ولأسباب لم تعلم بعد ، اجتمعت كلفة أهل الرأى من القونج وزعماء الدولة ، على اختيار « نول » سلطانا ، بعد أن بقى العرش شاغراً ، من أبريل سنة ١٧١٩ إلى يونيو ١٧٢٠ م . وكان هذا الذى اختاروه ينتمى الى البيت السنارى عن طريق الرحم ، بعد أن كان ينحدر من الصلب سلاطين الاسرة السنارية ، التى حكمت حتى السلطان أوتنه . وقد ذكرت الروايات المحلية عن « نول » ، أنه سيد قوم بيت الشمس « الأوناب » (٤١) ، ، وأنه لم يحكم فى الحكم طويلا ، وانتقل الحكم الى ابنه بادی أبو شلوخ ، وهو على حد قول الروايات ، آخر ملوك الصولة والشوكة وقد حكم أكثر من خمسة وثلاثين سنة ، عاش فى نصفها الأول تقريبا ، وزيراً حكيماً اسمه « دوكة » ، وبعد وفاة هذا الوزير ، استقل السلطان بادی بإدارة شئون الدولة ، وأسرف فى الطغيان وارتكاب الجرائم ، حتى عرف « بالجهان » وأطلق يد أولاده ووطائفه فارتفعت الشكاوى لكنه تغاضى عن جرائمهم ومفاسدهم وأزل العقاب بمن يطالب بحقه المقتضب . وفى عهد هذا السلطان ، وقعت الحرب الحبشية الثانية - حدثت الحرب الأولى فى عهد السلطان واط كما أشرنا الى ذلك فى موقعه من قبل .

وترجع أسباب هذه الحرب الثانية الى أكثر من سبب ، ظاهرها الانتقام لمقتل دىرول وبعثه فى عام ١٧٠٥ م ، والتى سبق أن فصلنا أمرها فيما سبق ، لكن الحقيقة التى دفعت الى هذه الحرب بعد تسعة وثلاثين عاما تقريبا ، هى أن الأحوال الداخلية فى الحبشة قد اضطربت بعد موت النجاشى تفلأ هيأتوت ، وتنازع العرش من بعده أقارب هذا النجاشى ، وانقسمت البلد معكرين ، بعضهم يناصر ولى عهده والبعض نادى بملك آخر ، ويبدو أن الصراع المذهبى بين الفرنسيسكان والجزويت ، كان له أثره فى التطاحن الداخلى ، وبالإضافة الى ذلك فإن النجاشى أياسو الثانى قد اهتم ببناء القصور ، وأهمل أمر الرعية بما آثار الأهالى عليه ، وحتى يتخلص من استياء رعاياه وتذمرهم فإنه أعد عدته لغزو السلطنة السنارية .

جمعت الجيوش الحبشية عن طريق حوض نهر الدندر ، وأخذت فى شق طريقها حتى وصلت الى أبواب مدينة سنار ، ورأى السلطان بادی اخلاء المدينة قبل أن تعبر اليها جيوش الاحباش ، لكن الموقف قد تغير بموافقة السلطان على اقتراح تقدم به

(٤١) الأوناب هم بيت الشمس ، وينتم على السلطان السنارى أن يتخذ زوجته - السلطانة - من هذا البيت .

الأمير نخيس ، وهو من الفور الذين لجأوا إلى سنار ، وكان مقترحه أن يقود أربعة آلاف من الفرسان ، على أن ينقض هؤلاء على الجيش الحبشي الرئيسي ، من الخلف ورغمما عن أن هذه الخطة قد نقلها ، أحد زعماء القبائل من سكان شرق سنار ، إلى التجاشي الذي هرب من ملاقاته ، إلا أن نخيس قد استطاع الانقضاض على مؤخرة الجيش الرئيسي ، الذي كان بقيادة الراسي ولد لول وأنزل به هزيمة منكرة ، تشتت بعدها الجيش الحبشي وهرب التجاشي إلى بلاده ، بعد أن غنم الجيش السناري الكثير من المہبات ومنها التاج وأدوات الحكم الأخرى - ومنها ما هو ديني بالغ الأهمية ، ودفع الأحباش مبلغاً كبيراً من المال لاسترجاع هذه الأدوات ، واشترك في هذه الحرب في الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك ، الذي أخذ نجمه في الصعود واستطاع فيما بعد تولى منصب المشيخة - الوزارة ، واغتصاب السلطة الفعلية للسلطان

وكانت الموقعة الفاصلة بين سنار والحبيشة ، في السابع من إبريل سنة ١٧٤٤ ميلادية في مكان يقال له ، الزكيات ، - على نهر الدندر وراجع الخريطة رقم ٦

وبعد هذه الحرب وهذا الانتصار ، أرسل السلطان بأدى حملة إلى كردفان لقتال المسيحيات ، الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي من (٤٣) ، وقد اختلفت الروايات في أسباب هذا الغزو ، كما اختلفت هذه الروايات في أمر القوات ، التي أرسلت ، فقد جاء في مخطوطه تاريخ سنار أن جيش القونج خرج بقيادة الوزير ولد تومه (٤٣) ، وانضم إليه الشيخ عبد الله ولد عجيب (ملك قرى) ومعه أخوه شام ومعه جنودهم ، وتولى القيادة العامة الشيخ عبد الله ، وكان مع الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك وتقابل الجيشان - الجيش السناري ومعه جنود قرى - وجيش السلطان هاشم المسبماوي وحدثت الموقعة الفاصلة في الفحيف (٤٤) ، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش السناري ومقتل الشيخ عبد الله والوزير ولد تومه ، فاستطاع الشيخ محمد أبو الكيلك أن يعيد تنظيم الجيش السناري ، وأن يذكي الروح المعنوية بينهم ، ونجح في ذلك وهجم على

(٤٢) المسيحيات وسلطانها هاشم المسبماوي كانت تكن في أطراف كردفان القريبة القريبة من حدود الفور . وتربط بين السلطان هاشم وبين السلطان في دوفور سلة السمومة كما ذكر التونسي في كتابه ص ٧٨ وما بعدها . وحصلت معارك بين هاشم وسلطان الفور تيراب .

(٤٣) جاء في مخطوطه سنار ص ١١ أن ولد تومه هو من أهالي جند توت (بالقرب من شندي) وقد تولى الوزارة بعد الشيخ دوكة .

(٤٤) الفحيف سكان في غرب كردفان .

المسبعات وهزمهم^(٤٥) ، ولما وصلت أخبار القتال إلى الملك يادى أصدر أمره إلى
إلى الشيخ محمد أبو الكيلك ، بولاية قيادة الجيش ومطاردة المسبعات وإبعاد خطرهم .
وتقول رواية العبد اللاب^(٤٦) ، التي ترفع بطبيعة الحال من شأن الشيخ عبد الله
وأبنائه ، وتهبط بالسلطان السنارى إلى مرتبة أدنى ، مما كان عليه العبد اللاب ، تقول
هذه الرواية أن الحرب نشأت أصلاً بين العبد اللاب والمسبعات ، بسبب غزو
المسبعات لكردفان وتوغلهم في أراضيها ، التي لم تكن تحت سيطرتهم ، فذهب الشيخ
عبد الله ولد عجيب لطردهم ، وقتل الشيخ عبد الله في الموقعة التي نشبت بينهما ، كما
قتل معه أخوه شمام ومحمد العجيل ابن شمام ، وإن سلطان سنار لما سمع بهذه المزامم
خشى أن يقوم الشيخ سمار ابن الشيخ عبد الله ولد عجيب بحركة جنونية ، للأخذ
بشأر أهله من المسبعات ، وبهذا يدخل السلطان السنارى طرفاً ثالثاً في القتال بجانب
العبد اللاب ، تنفيذاً للمعاهدة^(٤٧) بين العبد اللاب والقونج - وحدث فعلاً توتر
بين ملك العبد اللاب والسلطان السنارى ، تدخل لاناته الشيخ أدريس الأرياب^(٤٨)
وأعد سلطان سنار حملة مشتركة بقيادة الشيخ محمد أبو الكيلك لقتال المسبعات .
وذكر جكنسن أن الأمير خميس ، الذى كان يقود القوة التي انقضت على مؤخرة
جيش الحبشة وسببت هزيمته - كان وراء الحملة إلى كردفان ، بسبب تعطشه للانتقام
من المسبعات والفور ، لأنهم تعقبوه لقتله ونجا بالنجاة إلى سنار وخيس أصلاً من
قواد الفور البارزين .

وفي الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة الرحي في كردفان ، كان السلطان يادى
غارقاً في مفاسده ولحوه ، وأكثر من الفساد ، وعندما بلغ ملك السلطان حداً غير
لائق ، قرر الزعماء إرسال الوفود إلى الشيخ محمد أبو الكيلك في كردفان ، لإبلاغه

(٤٥) ذكر جكنسن في كتابه سنن السنار ص ٥١ أن الموقعة التي انحصر فيها الشيخ محمد
أبو الكيلك كانت في مكان له ٥ شمساكنا ، وهي أيضاً في غرب كردفان .
(٤٦) نشرها المستر ١ . ١ . بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر
ص ٥٩ وما بعدها .

(٤٧) لم يصل إلينا ما يؤيد عقد معاهدة بين السلطان والعبد اللاب ، ويحتمل أن يكون
القصد من المعاهدة - الاتفاق الذى تم بموجبه الحلف بين السلطان السنارى - عميرة والشيخ
عبد الله جامع .

(٤٨) أنظر مقال المستر ١ . ١ . بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر
ص ٥٩ وما بعدها .

بما وصل اليه الحال في سنار ، من فساد وظلم واختلال بالتقاليد القائمة ، حيث أسند
 السلطان الوظائف الهامة إلى جنال من بطاقته ، وترك لهم حرية التصرف دون معقب
 فاستخفوا بالقيم وبأهل البيوتات . طلب الزعماء من الشيخ محمد أبو اللكيلك العودة
 إلى سنار لوضع حد لهذا الانحلال ، الذي شمل مختلف مظاهر الحياة ، وقد استجاب
 الشيخ محمد ، وعاد إلى سنار وبعد مفاوضات عزل السلطان ، الذي خرج متغياً إلى
 سواكن ، وفي هذا الصدد يقول الرحالة بروس ، أن هذا السلطان قد التجأ بعد عزله
 إلى الحبشة ، حيث استقبله الرأس « سهيل غنائيل » ، الذي وعده بأعادته إلى عرشه ،
 إذا وافق النجاشي على غزو المملكة السنارية ، وانتقل بادي مع الرأس ميخائيل إلى
 معسكر النجاشي ، حيث قدم بادي قروض الطاعة والتبعية ، بتفسيه الأرض في حضرة
 النجاشي ، فرحب به وطلب إليه أن يتذرع بالصبر حتى تحين فرصة مناسبة لاعادته
 إلى عرشه ، وفي الوقت نفسه أقطع النجاشي ولاية « رأس الفيل » ، ولكن بادي قد
 ذهب ضحية مؤامرة ، دبرها له بعض المماجرين من سنار ، الذين زينوا له فرصة
 السفر إلى منطقة حوض نهر العظيرة ، لأعداد جيش من أهالي تلك المنطقة ، والهجوم
 على سنار لاسترداد عرشه . وقد وقع في الفخ الذي نصب له ، وذلك بعد دخوله
 السودان ، فان الشيخ ولد حسن حاكم تيوة (بين القضارف وراقده الرهد) قبض
 عليه وقتله غيلة ، وبخلع هذا السلطان ، ونفبه على هذه الصورة ، انتقلت السلطة
 الفعلية من يد زعماء السلطنة ، إلى الشيخ محمد الذي تولى الوزارة .

وبعد عزل السلطان ، أقام الشيخ محمد أبو اللكيلك ابن السلطان المخلوع ناصر
 سلطاناً على سنار ، واحتفظ الشيخ محمد لنفسه بجميع سلطات الملك ، الذي صار
 رمزاً لا حول له ولا قوة ، وتوقف بقاؤه في كرسى الحكم على رضا الوزير ، وبهذا
 التغيير في الأوضاع أصبحت نظم الجمهورية التجارية بضرية قائمة ، تحولت معها إلى
 تنظيمات للحكم ، أقرب إلى الاقطاع في صورته الشرقية ، وكان ذلك التحول سبباً
 مباشراً في تدمير الزعماء في المناطق المتحالفة مع سنار ، وبخاصة بعد أن بدأ الشيخ
 محمد أبو اللكيلك بالزلزلة والتعيين وفقاً لرغباته ، وثبتتاً لياسته التي ترمى إلى
 الاحتفاظ بالوزارة في أسرته ، والشيخ محمد أبو اللكيلك هذا كما سبق أن أشرنا ،
 من جماعة الهمق (التي تحرفت إلى الهمج) ولا نعلم علم اليقين عن ماضيه أكثر من
 أنه كان مقدماً (قائد جماعة) على الحيلة في الجيش الساري ، الذي حارب النجاشي
 أياسو في سنة ١٧٤٤ م .

وقد أخذ الشيخ محمد بعد توليه المشيخة ، في العمل على توطيد مركزه ونشر سلطانه ، كما أخذ في تلصص الأسباب لمطاردة منافسيه والتخلص منهم ، بطريقة أو أخرى فكان أن قتل من كبار الأسرة السلطانية ، وصار يولى ويعزل كما شاءت له مصلحة الخاتمة ، حتى السلطان ناصر نفسه قد امتد إليه العزل ، وتحديد إقامته في حلة البقرة (بضم الباء وسكون القاف وفتح الراء) ، وانتهى الأمر بقتله بعد اتهامه بالآمر مع جماعة من الفونج على الفتك بالشيخ محمد^(٤٩)

ونادى الشيخ محمد أبو الشيكك بإسماعيل ابن السلطان بادي ، وأخ السلطان ناصر ملكاً على سنار ، وأصيبت البلاد في سنوات مشيخة الشيخ محمد الأخيرة بظلاء شديد وزيادة في قبضان النيل ، تسبب عنها التلف وانتشار الأمراض^(٥٠) . وبعد وفاة الشيخ محمد ، تولى منصبه الشيخ بادي ولد رجب ابن أخ الشيخ محمد . وقد حاول الفونج التخلص منه ، إلا أن مؤامرتهم انكشفت ، فكانت النتيجة عزل إسماعيل ونفيه إلى سواكن ، كما انتقم الشيخ من أعوانه ، وأخذت الفتنة تعمل في الخفاء ، فكان التناحر الداخلي بين القبائل والزعامات وقتل في هذه الفتنة الشيخ بادي ولد رجب نفسه ، وتولى رجب بن محمد . وفي أثناء غيبته في كردفان ، اشتدت حركة المقاومة والتف المناوون لوزارة الحمق بالسلطان عدلان بن إسماعيل ، الذي خلف والده بعد نفيه ، وقد زين هؤلاء للسلطان أن يضرب ضربته ، في غيبة الشيخ رجب للخلاص من الحمق ، واستنجد السلطان ببعض القبائل المناصرة له لمساعدته في حركته ، ليقتضى على الحمق ومعاونيه ، ومن بينهم الشيخ إبراهيم أخ الشيخ رجب ، كما أراد قتل الانقيب^(٥١) النعيمان ، الذي هرب إلى كردفان عندما تأكد من تدبير السلطان لقتله وبوصوله إلى معسكر الشيخ رجب ، دخل عليه وبأذنه دون أن يحجبه كما تقضى التقاليد بقوله :

« يؤاجرکم القيوم ، في حكم الی قتل الصفر الی يحوم ، الی هنا وهناك مین الی قتل محوم ، فيکم مشی والا برايا أنا أقوم ، » .

(٤٩) مخطوطة سنار ص ١٣ ب .

(٥٠) مخطوط سنار ص ١٤ .

(٥١) الانقيب هو اللقب المحلى الذى يعرف به الشاعر المحلى الذى يرافق أصحاب الجاه والسلطان يقرض لهم الشعر وينشدهم آيات المدح والتعريض على الحرب ويدخل السرور على قس سيده بالثناء والقصص .

وحملت هذه العبارة نبأ مقتل الشيخ إبراهيم أخ الشيخ رجب ، وهو الذى يشير إليه . بالصقر الى محوم ، أى الصقر الذى يرتاد ساحة الوغى ، وقوله . الى هنا وهناك ، مين الى قتل محوم ، أى أنتم الذين هنا وهناك أن الصقر قد قتل غيلة ، وطلب الانتقام لقتله فى قوله . فيكم مشى والا برايا أنا أقوم . أى هل منكم من يثار له ، والا أنا أتولى الاخذ بالثأر ، وفى هذا القول استهزاء للهمم ، واستفزازها لسرعة العمل للأخذ بالدم .

ولم يفته النعمسان من نعميه ، حتى هب الشيخ رجب فرعا مردداً ، أقتل أخى ، ونادى إلى بطاته قائلاً . دبحر ، أى دقوا النحاس (طبول الحرب) إعلاناً للخبر واستمر البكاء والحزن ثمانية أيام . وحزنت النسوة والجوارى أربعين يوماً ، لم ترفع فيها امرأة رأسها ، كما تقضى العادات والتقاليد المحلية ، فى مثل هذه الظروف ، ومنها النوم على الأرض ، وعاد الشيخ رجب بجيوشه إلى سنار ، وحصل قتال مع الجيش الذى أعده السلطان عدلان فى مكان يقال له انطرحنا فى الجزيرة ، وكان قتالا شديداً ، انتهى بهزيمة جيش السلطان ، الذى توفى مضموماً مقهوراً ، لما لحق جيشه من خذلان . واندلعت نيران الفتنة ، واشتد أوارها فأكلت اليابس والأخضر ، وانقسمت البلد معسكرات تتطاحن فى عراق مستمر ، وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد إلى يد فى فترات متقاربة ، وأخذ الزعماء ينادى بعضهم بسلطان ، بينما ينادى الفريق الثانى بسلطان ثان ، وهكذا حتى بلغ عدد من تولى فى الفترة من ١٧٨٧ حتى حكم سنار فى منتصف ١٨٢١م ، أى خلال ما يقرب من أربعة وثلاثين عاماً ، تسعة ملوك وهم أوكل الذى ولاء الشيخ ناصر ، ولم يملك إلا قليلاً ، وخلفه طبل ثم بادی ثم رباط وقد قتل هؤلاء الثلاثة فى الحلفاية (شمال الخرطوم) . فى الحروب الداخلية بين الزعماء ، وجاء بعدهم حسب ربه ثم نوار وقد قتله الشيخ لحوقه من سطوته ، وتولى بعده بادی وكان صغير السن ، وبعد قليل نادى الشيخ كتور بسلطان آخر اسمه راننى ، واشتبك الفريقان المتعارضان ، وانتهى القتال بالصلح ، على أن يعزل بادی وأن يبقى راننى ، وبعد فترة استمرت عاماً واحداً ، كان فيه العرش شاغراً ، أعيد بادی إلى العرش ، وقد حكم بادی حوالى الثمانية والعشرين عاماً ، من مجموع الأربعة وثلاثين عاماً ، التى حكم فيها تسعة ملوك ، كما أشرنا فتكون بذلك المدة التى حكم فيها الثمانية ملوك الآخرين هى ست سنوات تقريباً ، وتنقص من هذه المدة عاماً كان فيه العرش شاغراً ، وبهذا تكون مدة حكم الثمانية ملوك الآخرين خمسة سنوات تقريباً ،

ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمرافق الحياة ، وما ساد من قلق وفزع ، كثرت معه هجرات القبائل ، وبخاصة في المنطقة الوسطى من السودان ، وهي التي تشمل أرض الجزيرة والبطانة (٥٢) . وكانت هذه الحالة المتدهورة ، فرصة سانحة لازدياد نفوذ رجال الدين من الفقهاء ، وسيطرتهم على العامة ، الذين لجأوا إليهم لسؤال الله تعالى ليرفع عنهم الغمة .

• • •

وبينما كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، تغيرت الأحوال في مصر باختفاء الحكم المملوكي ، وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان ، محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة . يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور ، بما دفع الزعماء من مختلف نواحي السودان إلى الهجرة إلى مصر ، ومنهم من سافر إلى الحجاز ، حيث التقوا بمحمد علي (خلاي حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للفلاقل والحروب المحلية ، بعد أن توقفت التجارة وتمطلت الحياة الاقتصادية ، وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار .

وجاءت المعونة المصرية بعد الانتهاء من حرب الحجاز ، في صورة حملة قادها اسماعيل كامل ابن محمد علي كما سنبينه فيما بعد ، وطويت صفحة من تاريخ السودان ، بتنازل السلطان بادي آخر ملوك سنار ، عن ملكه يوم دخول الحملة إلى عاصمة البلاد ، حيث وقع السلطان الوثيقة ، التي اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثماني ، وتسليمه إدارة البلاد إلى حكم مصر ، الذي امتد إلى السودان في عام ١٨٢٠ / ١٨٢١ ميلادية .

ويحمل بنا قبل أن ننقل إلى امتداد الحكم المصري إلى السودان ، أن نستعرض تطور الأحوال في السودان ، والعوامل التي قوضت أركان السلطنة السنارية ، وسببت انحلال المملكة .

فالسلطنة ، بدأت سنواتها الأولى ، التي امتدت أكثر من قرن في رعاية التجارة ، التي أقامت على أساسها جهاز الحكم ، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، وبقيت الحال قائمة على جانب واحد ، لم تتجاوب معه مشاعر أهل البلاد ،

(٥٢) من هؤلاء المهاجرين من نزل في المنطقة شمال مدينة أسوان مباشرة (أبو الريش قبل وبحرى) وتقول الروايات المحلية ان جدهم ونس قد جاء إلى أسوان في طريقه للحجاز وفي أسوان وافته القدر المحتوم وبقي ابنه الذي كان صغيراً حتى بلغ الرشد ثم عاد إلى السودان .

وكانت موارد السلطنة والزعامات الاقليمية المتحالفة مع منار على أساس تنظيمات
الجمهورية التجارية ، ، التي كان زعمائها يقومون باحتكار التجارة ، في المنتجات
المحلية وتصريفها في الأسواق الخارجية ، واستيراد الحاجيات الأخرى من خارج
البلاد ، وبالإضافة إلى ذلك كان زعيم كل إقليم يجمع العشور والضرائب عن يد
رجاله ، وفق النظام الإقطاعي في الشرق ، وكان يدفع جزءاً من ذلك المتحصل إلى
زعيم النار ، وهذا بدوره يدفع نصيباً لحزاة السلطان ، وكان طبيعياً أن تقسرب إلى
هذا النظام مساوية ، تخرج به من حدوده المعقولة . إلى إضافة مبالغ للعمال القاعين
على الجباية ، في صورة أواخر منها حق الضيافة ، ، كما كان على المواطن أن يدفع
نصيباً من زكاته للفقير المحلي ، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية ، مما زاد العبء
على كاهل القبائل والعشائر ، مما صار يعضى الزمن حقاً مكثباً ، بصرف النظر
عن ما يصيب البلاد من كساد ، وبخاصة بعد أن اشتدت المنافسة بين العثمانيين
والفرنجية ، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ونزول الأوروبيين في
غرب أفريقيا ، وانشائهم مراكز تجارية ، أخذوا منها في توسيع نفوذهم إلى داخل القارة
الافريقية ، ولم تقو السلطنة على الاحتفاظ بمركزها ، لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من
أساليب الحكم ، ما يتماشى مع التطور الطبيعي للأشياء ، ولم تعمل على أن تجمع بين
مختلف المجموعات القبلية ، لتوحد بينهم في مصلحة عامة ، كما أنها تركت التقاليد المحلية ،
وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الأرض بالفرد والزعيم ، فلم تربط بينهم إلا وشائج بالغة
في الضعف ، ومع ما في هذا النظام من فساد عطل التطور ، وسبب الركود والجود ،
فإن اغتصاب الحق للسلطة ، وجعلهم للسلطين رمزاً ، لا قيمة لهم إدارة شئون
البلاد ، قد انعكس بنظام الجمهورية التجارية ، ، وأرجع البلاد إلى حكم إقطاعي في
أحط درجاته ، وبما زاد الأمور تعقيداً وجود الزعامات الدينية المحلية ، التي كونت
سلطة ثانية في البلاد لها نفوذها ، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين
قوة ، لها شأنها في حفظ التوازن ، مع سلطة الزعماء والسلطان ، إلا أن هذه الزعامات
الدينية قد انحرفت فيما بينها ، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء ، وعمل هؤلاء
على إشاعة روح التعصب والتنافس ، وتحول اهتمام الكثير من هؤلاء إلى كسب
المال ، عن هذا الطريق أو ذاك ، وانقسمت القبائل إلى معسكرات ، يتطاحن بعضها
بالبعض ، وعمل اليأس والقنوط الذي خيم على الحياة اليومية ، على انهيار المجتمع
وتكونت منه مجموعات مسعورة ، تعمل على السلب والنهب ، فتركت الأراضي

الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب الى أصحاب السجاجيد وخلفائهم في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرر وجلب للنفعة ، والخير والمشربة من الله تعالى ، ويكتفى دليلا ما جاء في كتاب الطيقات ، الذي يعطى لنا صورة واضحة عن الانحلال الذي أصاب البلاد وأثر خوارق العادات التي نسبت الى الفقهاء .

وكان من نتيجة اشتداد حالة القلق ، بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات ، ان حطت العاقبة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ومركز السلطة ، لاكثر من سبب وفي مقدمة تلك الاسباب : —

أولاً : نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين الصمس (٥٣) ، وبين الزوجات اللاتي ارتفعن الى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أو آخر .

ثانياً : ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف الى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية ، تنقذ البلد عن اعتمادها الكلى على التجارة المروية ، ولم تقم في البلد صناعات الخ الخ .

ثالثاً : فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التي مركزها سناو في إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالي فشلت في خلق رجال الصف الأول لتحمل المسؤوليات .

رابعاً : قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها في القيام بعمل مشترك هدفه الإصلاح .

خامساً : إسراف السلاطين في حياة الترف والملاذات ، وأوضح دليل ما كان من حالة السلطان بادى الأحمر (١٦٩٢ / ١٧١٦ ميلادية) وابنه السلطان أونسه ، الذي تولى الحكم في ١٧١٦ / ١٧١٩ ميلادية كما سبق بيانه .

(٥٣) من التقاليد المرمية أن يتزوج السلطان أو على الأقل أن تكون زوجته الشرعية الأولى من بيت عرف باسم بيت عين شمس كما جاء في مخطوطه « فنا » ويدو أن هذا البيت كان في الأوتساب التي منها السلطان « تول » وهي لا تخل في مركزها الاجتماعي عن البيت المالك وموطنها أصلاً خور « أنسا » بالأوريتريا الذي أخذت منه اسمها حيث تأثرت بشيخا بالتقاليد المصرية القديمة التي امتدت وشملت ذلك الجزء من شمال أثيوبيا — وبنت عين شمس ترجع الى العبادة الفرعونية « للشمس » وقد عرف السلطان تول بسيد قوم الشمس كما جاء في مخطوطه تاريخ مدينة سنار لسكانب الشونة .

سادساً : استخدام جماعات من الأقليات ، لتولى تصريف شؤون الدولة الأمر الذى ترتب عليه إبعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

سابعاً : الإبقاء على تقاليد توزيع الأراضي ، فى الزعامات المحلية المختلفة ، وكان هذا العامل الأساسى فى بدء بذور الفتنة والتطاحن .

ثامناً : كان حكم وزراء المهق حكاماً فردياً ، تسند القوة وهذا النوع من ولاية الحكم يقرس معه بذور الانحلال ، وتتنكس معه الظروف القائمة إلى حالة بدائية .

الترتيب الزمنى لولاية الحكم فى السلطنة السنارية

١ - هذه محاولة تهدف نحو تحقيق الترتيب الزمنى فى السلطنة السنارية ، وقد اعتمدنا فى ذلك على دراسة مقارنة استعرضنا فيها ، ما نقله بروس فى عام ١٧٧٢ م عن « سيد القوم » ، وهذا هو أقدم جدول وصل إلينا ، ثم ما كتبه ود ضيف الله فى طبقاته قبيل وفاته فى عام ١٨٠٩ ميلادية ، وما كتبه كايو فى رحلته التى نشرت فى عام ١٨٢٦ م ، ومخطوطة كاتب الشونة التى أنهاها فى عام ١٨٣٨ م ، ومنها نسخة محفوظة فى مكتبة فينا وتنتهى فى ١٨٢١ م ، وكتاب تريمو الذى نشر فى ١٨٦٢ م ، وتاريخ شقير طبع ١٩٠٤ م ^(٥٤) ، وقد روجعت المعلومات التى وردت فى هذه المصادر على بعض المستندات ^(٥٥) الخطية ، الصادرة من بعض السلاطين ، وقد حددت هذه المستندات الزمن الذى صدرت فيه ، وهذا يقدم بدوره دليلاً على أن السلطان صاحب الوثيقة كان جالساً على العرش فى ذلك الوقت .

(٥٤) راجع : بروس ، رحلة - ود ضيف الله - الطبقات ، كايو - رحلة ، مخطوطه تاريخ سنار بدار المكتبة المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٨ م ، تريمو - رحلة ، نجوم شقير - تاريخ السودان طبع القاهرة ١٩٠٤ م

(٥٥) المستندات المشار إليها (وقد نشرت فى ملاحق الكتاب) وهى :

- ١ - كتاب من السلطان محمد بادي عجيب لأهله فى دفتله .
 - ٢ - كتاب من السلطان عدلان بن محمد
 - ٣ - وهناك وثيقتان نشرهما أركل (ترجمة إنجليزية) فى مجلة السودان فى رسائل الخ
- مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠

٢ - فاذا رجعنا إلى قوائم السلاطين ، التي وردت في المصادر التي أشرنا إليها آنفاً ، نجد انها قد كتبت بعد انقضاء مدة تقرب من الثلاثة قرون ، فيما يخص بروس ، وأكثر من ثلاثة قرون للمصادر الأخرى ، ولذلك كان طبيعياً أن تكون هنالك اختلافات ، وبخاصة تاريخ سلاطين الصدر الأول للسلطنة ، وقد كان أحمد الحاج أبو علي المعروف بكتاب الثبوت وصاحب المخطوطة المشهورة باسمه هذا ، أكثر توفيقاً في التذيه إلى ذلك ، حيث يقول : « سنذكر ذلك ان شاء تعالى تفصيلاً وإجمالاً على حسب ما عرض على المسمع من غير ترتيب ، لأن لم أره مرتباً ، بل حكايات واردة ، ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير » (٥٦) .

٣ - وردت سنوات الحكم في مصادرها المحلية بالتاريخ القمري وقد اتخذ كل من بروس وكابو وغيرهما فترات الولاية ، التي أمضاها كل سلطان ، أساساً لتحديد التاريخ ، الذي اعتبره كل منهم بدء حكم البيت السناري ، وقد وصلوا إلى ذلك بأنقاص سنوات كل سلطان من العام الهجري السابق ، لوجودهم في سنار ، وأخذوا طريقهم في ترتيب تنازلي ، حتى وصلوا إلى تحديد بدء ولاية السلطان عميرة في أوائل عام ١٥٠٤ ميلادية ، لبروس وعام ١٤٨٤ م لكابو .

بحسب ما ذكره بروس قد بلغت ولاية النسيعة عشر سلطاناً ، التي سبقت ولاية اسماعيل بن بادى ، ٢٦٥ عاماً قريبا وهذه تعادل ٢٥٦ عاماً شمسياً (٥٧) ، وبحسب ما جاء في كابو بلغت ٢٣٥ عاماً قريبا للسلطنة ، من قيامها حتى نهايتها ، وهذه تعادل ٢٢٤ عاماً شمسياً ، وقد أسقط كابو من حسابه ما يزيد عن السنتين والنصف ، التي بقى فيها العرش شاغراً لسبب أواخر من المشاكل الداخلية .

٤ - أخذ بروس وكابو بهذه التقديرات ، وحدد كل منهما التاريخ الذي قامت فيه السلطنة في سنار ، وذلك بأن خصم بروس الـ ٢٦٧ عاماً قريبا من السنة السابقة ، وهي ١٧٦٩ م التي انتهى فيها حكم سلف اسماعيل أي ١٧٦٩ - ٢٦٥ = ١٥٠٤ م ، وقد

(٥٦) مخطوطة تاريخ سنار - دار الكتب المصرية ١٨ م

(٥٧) كان التاريخ الشمسي قبل نهاية عام ١٥٨٢ م (المعروف بالتاريخ الجولياني) يسبق التاريخ الجديد بعشرة أيام لهذا أعاد البابا غريغوري الثالث عشر تنظيم التاريخ وذلك بإسقاط عشرة أيام من ٤ أيلول ١٥٨٢ م وبذلك بدأ عام ١٥٨٢ م عشرة أيام سابقة لتاريخ بدئه وفق التاريخ الجولياني وكان بدء العام الهجري ٩٩١ في ٢٥ يناير سنة ١٥٨٢ م بدلا من ١٥ يناير سنة ١٥٨٢ م

قات على بروس ان ال ٢٦٥ عاماً كانت بالحساب القمري ، وقد ربط بروس هذه السنة (١٥٠٤ م) بغزوة الشك لأرض الجزيرة ، وتأسيسهم للسلطنة السارية ، بعد محالفتهم مع العرب (٥٨).

وهذا القول عن غزو الشك لأرض الجزيرة لا نصيب له من الصحة للأسباب الآتية :-

أولاً : لأن السلطان الساري الأول كان في عاصمته في منطقة لم على الأقل بعد زيارة داود روبيني في ١٥٢٢ / ١٥٢٣ م .

ثانياً : ان ملكة علوة كانت قائمة في صورة ما حتى عام ١٥٠٤ م ، وان نفوذ السلطان عميرة ، قد امتد إلى هذه المنطقة ، قبل ذلك التاريخ كما أوضحناه في موضعه .

٥ - وقد سار كايو على نفس الطريقة ، التي اتبعها بروس في تحديده تاريخ قيام السلطنة في سنار ، وذلك بأن خصم ال ٣٣٥ عاماً قرناً من العام السابق لزيارته لسنار أي ١٨١٩ - ٣٣٥ = ١٤٨٤ م ، أما كاتب الشوكة فقد كان أكثر توفيقاً منهما ، حيث ذكر أن السلطان عميرة تولى في أول القرن العاشر الموافق ١٤٩٥/١٤٩٤ ميلادية ، ويقول في مخطوطته أول عمارته بسنار أول القرن العاشر بعد التسعمائة ، وملك أربعين سنة فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة ، وهذا يوضح أن عميرة قد أنشأ سنار في ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) أي بعد ولايته الحكم بعشرة سنوات ، ومن الواضح أنه لم ينتقل إليها نهائياً إلا في حوالي ١٥٢٥ م ، وقد سبق انتقاله هذا ، امتداد نفوذه إلى حوض النيل الأزرق ، فليس هنالك إذن مجال للشك في أن عميرة قد أعاد تعمير سنار في ١٥٠٤ م ، وانتقل إليها بعد ذلك بحوالى العشرين عاماً .

٦ - ونجد في القائمة أ . المرفقة مع هذا ، بياناً عن فترات ولاية الحكم ، كما جاءت في مختلف الروايات التي لا تتفق في بياناتها في أكثر الحالات ، كما أننا لا نجد في هذه الروايات تاريخاً محدداً تحديداً دقيقاً ، بالنسبة لليوم والشهر والسنة لولاية الحكم واعتزاله ، لذلك من الصعب الوصول إلى تحديد تاريخي صحيح فالتسنوات متداخلة بعضها في البعض ، غير أن هذه الصعوبات لا تمنعنا من محاولة ترتيب السلاطين ترتيباً زمنياً لأقرب سنة ، وسوف يبقى الحال على ما هو عليه الآن ، حتى يعثر على

وثائق جديدة تلقى ضوءاً ، على فترات حكم السلاطين الذين سقطت أسماءهم من القوائم التي لدينا ، ومن هؤلاء السلطان صابر المشهور بعجيب وابنه السلطان جره ، اللذين ورد ذكرهما في خطاب السلطان محمد بادى عجيب ، الذي أوضح فيه ، ومسئول في زمنى الآن عشرة سلاطين على المنابر في دار الدنيا وأنا العاشر .

٧ — وإذا أخذنا بالقوائم الموجودة وأضفنا إليها اسم السلطان صابر المشهور بعجيب والسلطان جره ابنه ، فإن ذلك يجعل بادى سيد القوم في مكان يختلف عما هو عليه الآن ، ويبدو لنا والحالة هذه بأن بعضاً من السلاطين الذين وردت أسماءهم في القوائم ، كانت لرجال تولوا المشيخة واختلطت أسماءهم مع السلاطين ، بسبب معنى زمن طويل قبل جمع هذه المعلومات ، وقد يكون بعض هؤلاء المشايخ (الوزراء) ممن كانت لهم شخصية قوية ، حجبت السلطان الأصيل ، ومن هؤلاء السلطان عدلان ولد آى صاحب قتال كركوج ، والذي عزل في الوقت الذي كان فيه موجوداً في دققله وكان ذاك في الفترة التي كانت تعاني فيها السلطنة من الاضطراب الداخلي ، الذي أخذ مظهره في تمرد الزعماء ، ومنهم الشيخ عجيب المانجلك ، وحدث بعد ذلك التطاحن الذي انقسمت معه البلد معسكرات ، فهذا ينادى بسلطان وهذا يعزل القائم بالامر ، كما حدث في أمر رباط وأوكل وطبل وبادى ورائقى ، اللذين حكموا في أواخر عهد السلطنة .

٨ — ويلاحظ أن الفترة الذهبية للسلطنة قد استمرت ما يقرب من القرنين من الزمن تداول الحكم فيها خمسة عشر ساطاناً ، فيكون معدل السنوات التي قضاها السلطان الواحد حوالي أربعة عشر عاماً . وتجدر أن السلطان عميرة قد حكم أربعين عاماً في رأي وحوالي الثلاثين في آراء أخرى وحكم كل من رباط وبادى أبو دققل وبادى الأحمر وبادى أبو شلوخ ما يقرب من ذلك . ولاشك أن هذه المسألة جدية بالاهتمام ، والبحث عسر أن تظهر بعض المستندات المحلية ، من توثيق الأراضي والخطابات الخ الخ .

٩ — وتبين في الجداول المرفقة أسماء السلاطين ، وفترات حكمهم بما لدينا من روايات محلية وغيرها ، بعد تحقيقها كما يتبع ذلك الجدول بجدول ، يبين الترتيب الزمني لولاية الحكم ، في أقرب حدوده الزمنية .

قائمة - ١ - عن سنوات الحكم كما جاءت في الروايات المختلفة

اسم السلطان	بروس	كابو	كاتب الشونة	تريمو	شقيير
١ (عميرة	٣٠	٣٢	٤٠	٣٤	٣٠
٢ (عبد القادر	٨	١٠	١٠	١٠	١٠
٣ (نابل	١٧	١٢	١٢	١٢	١٢
٤ (عمارة أبوسكيكين	١١	٨	٨	٨	٨
٥ (دكين	١٧	١٧	١٥	١٧	١٥
٦ (دوره	٣	٨	٨	٨	—
٧ (طبل	٣	٥	٤	٥	١٢
٨ (أولسه	١٣	١٢	١٢	١٢	١٠
٩ (عبد القادر	٤	٤	٤	٤	٦
١٠ (عدلان ولد آي	٥	٥	٣	٥	٧
١١ (بادي سيد القوم	٦	٧	٧	٧	٣
١٢ (رباط	٣٠	٢٧	٢٩	٢٧	٢٨
١٣ (بادي أبو دقن	٢٨	٢٧	٢٦	٢٧	٣٥
١٤ (أولسه	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢
١٥ (بادي الاحمر	٢٥	٢٧	٢٧	٢٧	٢٦
١٦ (أولسه	٣	٣	—	٣	٣
١٧ (نول	٤	■	٤٠٨	٤	٦
١٨ (بادي أبو شلوخ	٣٩	٤٠	٤٠	٣٣	٣٨
١٩ (ناصر	٨	٨	٨	٣	٧
٢٠ (اسماعيل	٨	٨	٨	٨	٨
٢١ (عدلان	١٢	١٢	١١	١٢	١١
٢٢ (رباط			شهر	١	١
٢٣ (اوكل	٢	٢	١٠٦	٢	
٢٤ (طبل	٢	٢	١	٢	
٢٥ (بادي	٢	٢	١	٢	٢
٢٦ (حسب ربه	—	—	١	—	١
٢٧ (نوره (نوار)	١	١	١	١	١
٢٨ (بادي السادس	٦	٦	٦	٦	٨
٢٩ (رانقي	٥	٥	٥	٥	٥
العرش شاغر	١	١	١	١	
٣٠ (بادي السادس	١٥	١٥	١٤	١٥	١٦

جدول (ب)

ولاية الحكم
من الى
مىلادى
مدة الحكم

(١) السلطان عميرة بن عدلان:

٤٠	١٥٣٦	١٤٩٧	<p>ذكرت المصادر المحلية أنه قد حكم أربعين عاماً ويقول كتاب الشونة ان مدة حكمه قد انتهت في عام ٩١٠ هـ عبد القادر بن عميره نايل بن عميره عمار بن أبي سكيكين دكين دورة (لم يذكر اسمه في مخطوطة تاريخ سنار وتاريخ الفوننج) طبل أونسه صابر جمره</p>
٦٦	١٦٠٢	١٥٣٧	

لا يعلم على وجه التحقيق ترتيب هؤلاء الولاة وبالتالي
فان مدة حكمهم ما زالت غير معروفة . وقد ورد ذكر
السلطان صابر والسلطان جمرة في خطاب السلطان محمد
بادى عجيب .

عبد القادر بن أونسه

خلع عن العرش والتجأ الى أتوييا وطلب من النجاشي
حمايته - أنظر حوليات سيوسنس

٤ ١٦٠٦ ١٦٠٣

عدلان ولد آي

ورد ذكره في المؤلفات المحلية وفي الطبقات وقيل أنه
عزل عن العرش بعد سفره الى دنقلة

٥ ١٦١١ ١٦٠٧

١٠ - بادی سید القوم (محمد بادی عجیب)

١٦١٢ ورد فی خطاب السلطان محمد بادی عجیب أنه
« العاشر علی منابر الدنيا » - ويشير فی ذلك إلى ولاية
البيت النزاری للحکم . وقد يكون هذا الاسم هو الاسم
الكامل للسلطان بادی أما « سید القوم » فلا تعدو
عن أنها لقب من القاب التکریم ورفعة المكانة

رباط بن بادی

فی عهده حدثت حرب اثیویسیس الأولى فی عام
١٦١٨/١٦١٩ وحضر فی مدته الشيخ عبد الرزاق
أبو قرون (توفی ١٦٥٠ م) وغيره من الفقهاء . أنظر
الطبقات ص ١٤٢ .

بادی أبو دقن ابن رباط

تلیذ الشيخ ادريس محمد الأرباب (١٥٠٧ -
١٦٥٠ م) وقد عاش ١٤٢ سنة - أنظر الطبقات ص ١٤
زار السودان فی مدته الرسالة التركي أولیا شلي . ولم
يذكر اسمه . وكانت الزيارة فی نوفمبر - ديسمبر سنة
١٦٧٢ . وقد ذكر بروس نقلا عن القائمة التي أعطيت
له فی سنار أن بادی قد توفی فی ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ م
ويحتمل أن يكون قد تولى الحکم بعد عدلان بن محمد
أنظر الطبقات طبعة صديق ص ٦٠/٦٥ عن علاقة هذا
السلطان بالشيخ ودائري .

عدلان بن محمد

أصدر أمراً لمن يتولى حکم دنقله ليدفع هبات عينيه
أوضحها فی أمره لمسجد الشيخ احمد شنيو وينهى أمره
هذا بقوله « يأمن يتولى السلطة الزرقاء من بعدنا
الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد

المذكور أنه توصية من السلطان جرة الأموى سنة
ألفاً وأربع وثمانون (١٦٧٣/١٦٧٤ م)
وكتابة التاريخ بهذه الصورة قد تشير إلى أن السلطان
جرة قد أصدر أمراً سابقاً في عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣
م) وأن هذا السلطان عدلان بن محمد أصدر
أمره هذا تأكيداً للأمر السابق . ويرجع ترجيحنا لحكم
عدلان في هذه الفترة أن السلطنة قد بدأت تفقد نفوذها
في المنطقة الشمالية (السايقية ودنقلة) في أواخر القرن
السابع عشر الميلادي فلا بد أن يكون السلطان جرة قد
حكم في فترة سابقة من العصر الذهبي . ثانياً أن خطاب
السلطان محمد بادى عجيب الذى يذكر فيه أنه السلطان
المعاشركا أوضحنا سابقاً . وقد جاء فيه ما يشير إلى أن
السلطان صابر وابنه السلطان جرة قد سبقا بادى محمد
عجيب في الحكم .

وتدخل فترة السلطان عدلان بن محمد في مدة حكم
بادى أبودقن التى انتهت بوفاة كاذكرنا سابقاً ويحتمل
أن يكون السلطان بادى أبودقن قد اعزل الحكم في
حوالى ١٦٧١م كما يحتمل أن يكون قد حكم بعد ١٦٧٤م
وأمر تحقيق هذه النقاط متروك لمسا يحصل عليه في
المستقبل من وثائق .

أولسه ابن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط)
جاء فى قائمة بروس أنه قد تولى الحكم بعد والده
السلطان بادى أبودقن وبقي فى الحكم حوالى إحدى
عشر عاماً وبضعة أشهر .

بادى الأحمر ابن أولسه

حكم خمسة وعشرين عاماً وعزل كما جاء فى قائمة
بروس . خرج عن طاعته أهله الفرونج ومعهم الشيخ
٦ يونية
سنة ١٦٩٢

أمين أرادب وعينوا ملكا اسمه اوكل لكنه انتصر عليهم.

وصلة خطاب من النجاشي تكللا هياوت بتاريخ

٢١ يناير سنة ١٧٠٦ يطلب منه رعاية البعثة الفرنسية

التي رأسها رامول (الذي قتل في سنار في ٢٥ نوفمبر

سنة ١٧٠٥ م) وفي عهد زار سنار يونيو ١٦٩٩/٨ م

وكرمب ١٧٠٦ م والبعثات التبشيرية ١٧٠٢/١ م

أنظر أيضاً الطبقات (طبعة صديق) ص ٦٠/٦٥ عن

علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابي .

أبريل
٢٥ ١٧١٦

أونيه بن بادى :

خلف والده وعزل كما ذكره روس وبعرله انتقل

الحكم إلى خلفه نول الذى يمت إلى البيت السنارى من

صلة الحرم .

١٢ أبريل سنة
سنة ١٧١٦ ١٧١٩ ٣

وقد بقى كرسي العرش شاغراً أكثر من عام

أبريل سنة ٧ يونيو
١٧١٩ سنة ١٧٢٠ ١

نول بن بادى:

حكم أربعة أعوام

٨ يونيو
سنة ١٧٢٥ ١٧٢٠ ٤

بادى أبو شلوح ابن نول :

ذكر آركل في مقاله بمجلة السودان في رسائل ومدونات

مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠ انه قد وجدت وثيقتان نشرهما

في مقاله المذكور عن توثيق هبة أرض منحها الشيخ

رحمه الى الشيخ اليعقوباني وقد وقع السلطان على هاتين

الوثيقتين اللتين كتبنا بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٧٢٤

و٢ يونيو سنة ١٧٣٤ م وقد حدثت حرب أتوبيا

الثانية في عام ١٧٤٤ م في عهده وذكر روس انه قد

عزل عن العرش في ٢٧ مارس سنة ١٧٦٢ وأضاف

إلى ذلك ان هذا السلطان بعد عزله قد ذهب إلى أتوبيا

وطلب حماية النجاشي ولإعادته لعرشه . وقد أقطعه

٢٧ مارس
سنة ١٧٦٢ ٣٣

من الى مدة الحكم

التجاشي ولاية رأس الفيل لكنه قد استدرج إلى كين
دبره له الشيخ عدلان حاكم حوض العظيرة وقد قبض
عليه الشيخ ولد حسونة حاكم تيوى وقتله غيلة. وذكر
بروس انه قد استقى هذه المعلومات من الشيخ عدلان
نفسه .

٢٧ مارس
١٧٦٢ ٢٦

أبريل سنة

١٧٦٢ ١٧٦٩ ٨

١٧٦٩ ١٧٧٧ ٨

١٧٧٧ ١٧٨٧ ١١

ناصر بن بادي أبو شلوخ :

اسماعيل بن بادي :

عدلان بن اسماعيل :

رباط :

١٧٨٧ ١٧٨٧ ٣٠ يوما

عينه الشيخ الامين والشيخ أبو ريده منافساً لاوكل
قتل في الحلفاية

أوكل :

١٧٨٧ ١٧٨٨ ١٨ شهراً

عينه الشيخ ناصر

طبل :

١٧٨٨ ١٧٨٩ ١٧ شهراً

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

بادي الخامس :

١٧٩٠ ١٧٩٠ ١٢ شهراً

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

حسب ربه :

١٧٩١ ١٧٩١ ١٢ شهراً

١٧٩٢ ١٧٩٣/٢ ١ سنة

نوره أو توار :

١٧٩٣ ١٧٩٩ ٦ سنوات

بادي السادس ابن طبل :

رائقى :

١٨٠٠ ١٨٠٤ ٥

١٨٠٤ ١٨٠٥ ١

كلن العرش شاعراً

بادي السادس ابن طبل :

١٨٠٦ ١٨٢١ م ١٤٢٥

تنازل عن السلطنة في وثيقة كتبها في ٢ يوتيه

سنة ١٨٢١ وسلمها لقائد الحملة المصرية اسماعيل كامل .

جدول (ج)

الترتيب التابعي	الاسم	ولاية الحكم من	السنة الميلادية الى	عدد الحكم يوم شهر سنة
١	عميرة بن عدلان	١٤٩٧	١٥٣٦	٤٠
٢	عبد القادر بن عميرة	١٥٣٧	١٦٠٢	٦٦
٣	نايل بن عميرة			
٤	عمارة أبوسكيكين بن نايل			
٥	دكين			
٦	دوره			
٧	طبل	١٦٠٣	١٦٠٦	٤
٨	أونسه			
٩	صابر المشهور بعجيب	١٦٠٧	١٦١١	٥
١٠	جمرة بن صابر			
١١	عبد القادر بن أونسه	١٦١٢	١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠	٦٩
١٢	عدلان ولد آي			
١٣	يادي سيد القوم (محمد)			
١٤	يادي عجيب			
١٥	رباط			
١٦	يادي أبو دقن	١٦٨٠	سنة ١٦٩١	١٠
١٧	عدلان بن محمد			
١٨	أونسه ابن أخ يادي أبو دقن (ابن ناصر بن رباط)	١٦٩١	سنة ١٧١٦	٢٤
١٩	يادي الاحمر ابن أونسه			
٢٠	أونسه بن يادي	١٧١٦	سنة ١٧١٩	٣
٢١	العرش شاعر			
٢٢	نول بن يادي	١٧٢٠	سنة ١٧٢٥	٤
٢٣				

الترتيب التابعي	الاسم	ولاية الحكم من	الى التي لليلادية	مدة الحكم يوم شهر سنة
١٨	بادى أبو شلوخ	١٧٢٥	١٧٦٢	— — ٣٨
١٩	ناصر بن بادي	١٧٦٢	١٧٦٩	— ٩ ٧
٢٠	اسماعيل بن بادي	١٧٦٩	١٧٧٧	— — ٨
٢١	عدلان بن اسماعيل	١٧٧٧	١٧٨٧	— — ١٠
٢٢	رباط	١٧٨٧		٣٥ — —
٢٣	أوكل	١٧٨٧	١٧٨٨	— ٦ ١
٢٤	طبل	١٧٨٨	١٧٨٩	— ٥ ١
٢٥	بادى الخامس	١٧٩٠	١٧٩٠	— — ١
٢٦	حسب ربه	١٧٩١	١٧٩١	— — ١
٢٧	نوره أو توار	١٧٩٢	١٧٩٢	— — ١
٢٨	بادى السادس بن طبل	١٧٩٢	١٧٩٩	— — ٦
٢٩	راني	١٨٠٠	١٨٠٤	— — ٥
	العرش شاعر	١٨٠٤	١٨٠٥	— — ١
٣٠	بادى السادس ابن طبل (اعيد للكرسى)	١٨٠٦	يونيه ١٨٢١	— ٥ ١٤
				٢٢ ٢ ٣٢٥

التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليدها

في الحلف السنارى

١ - التنظيمات الإدارية والاجتماعية :

قامت زعامة السلطان السنارى في حوض وادى النيل الاوسط ، كما سبق أن أوضحنا ، على طراز الجمهورية النجارية . - وأشرنا في استعراضنا لتطور المجتمع في البيئة والتقاليد والعادات المحلية وما تركته من أثر في توجيه هذا الطراز الجديد من الزعامة ، بعد صراع عنيف انتصرت في نهايته المميزات الموروثة عن أقدم المصور وانطبعت معها تنظيمات الزعامة بالطابع المحلى ، ويبدوا هذا واضحاً في مغومات بناء القرية ، التي تكون الخلية الاولى في بنية المجتمع السودانى ، ثم ينتقل إلى وحدة أعلى ، وهي المدينة الصغيرة ، ثم الى ثالثة وهي المدينة الكبرى ، التي تتجمع فيها التجارة ، وبها سوق الغوافل ، التي تحط رحالها في هذه المدن الكبرى في الغدور والرواح .

فالقرية وهي المعروفة محلياً ، بالخلعة ، وقد تتكون من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة من قبيلة ، أو بطون قبائل ، متألفة مع من دخل في كنفها من السكان المحليين ، ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفي بعض الحالات بالآرباب ، إذا كانت له بالبيت الحاكم ويعاون الزعيم أكابر القرية (الأجاويد) ، وقاضى وهو فقيه ، الذى يتولى أيضاً أمر التعليم ، ويساعد الزعيم جماعة ، من أتباعه الذين يعهد إليهم بوظائف الكتابة ، والعشور والمحافظة على الأمن ، ويتأثر هؤلاء في عددهم ووظائفهم ، بمركز القرية الاقتصادى ، الأمر الذى يختلف بين منطقة وأخرى والقرية تتكون من مجموعة قبيلة من المساكن ، وتنتشر عادة المساكن بعيداً عن القرية ، وعلى طول الأراضى الزراعية التي كانت ملكاً للقبيلة ، ويقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد قبيلة ، وفق النطاق الذى يراه من ناحية قدرتهم على العمل فى الأرض ، وقد تدخلت فى التوزيع عوامل أخرى ، وقد ذكر كرمب أنه وجد البيوت والأكواخ منتشرة على طول الطريق فى منطقة «دنفله» (٦٠) ، وتقوم المساكن عادة على أطراف الأرض الزراعية ، بعيدة عن مجرى المياه من نهر النيل أو روافده ، ولا يختلف الحال كثيراً من ناحية الأسس التي قامت عليها القرية ، عن حال المدينة الصغيرة أو

(٦٠) رحلة كرمب فى كتابه مملكة الفونج فى ستار لكرنفورد بالانكليزية ص ٢١٥

الكبيرة ، فالقرية تسيطر على عدد من الحلال ، التي تنتشرها هنا وهناك على أطراف الأراضي الزراعية أو مواطن الرعي ، ويتولى شئونها الشيخ وجماعته الصغيرة من قاضي وعمال ، وتسيطر المدينة على مجموعة من القرى ، ويتولى شئونها مانجل أو ملك ، أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى طرق القوافل ، وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة ، وما يقبعا من قرى وحلال ، ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالأرباب . وولاية السلطنة للشيخ والملك والمانجل وراثية . يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون إليه .

وتقام في المدن الصغرى والكبرى الأسواق الأسبوعية (يتخار يوم معين لكل منطقة ليتناسب مع المصاحبة العامة للسكان لكي يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق) ، في هذه الأسواق يتبادل الأهالي مختلف منتجاتهم المحلية ، وكان التبادل غالباً عن طريق المقايضة في القرى والمدن الصغرى ، أما في المدن الكبيرة فكانت تستخدم بعض العملات الأسبانية وغيرها .

ويحصل المانجل أو الملك على نصيبه من الدخوليات ، ومن المكوس على القوافل التي تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى . ويدفع الزعيم المحلى جزءاً من حصيلته ، العينية والنقدية إلى خزينة السلطان السناري ، وكانت هنالك ثلاث مراكز جمركية في السودان هامة الأول في دنقلة ، والثاني في قرى ، والثالث في تشليج .

وتميزت العلاقات بين الأهالي والزعيم المحلى بالطابع الدينى ، الذى لا يختلف عما كانت عليه حال القرية في عصور الفراعنة ، التي تركت رواسبها وكيفت نفسها في الغالب الجديد ، لتتمشى مع الدعوة الإسلامية ، التي أزال الفوارق الطبقيّة ، وهدمت أركان الاقطاع النديم ، بإشراك الفرد ليبنى نصيباً من تعب ، ليستمتع بحياة مناسبة رفعت من أغلال العبودية إلى مستوى إنسانى ، وبدأت البلاد في الاتجاه نحو بناء جديد في الاقتصاد والاجتماع .

ونجد الطابع الدينى واضحاً ، كل الوضوح في الطفوس التي تتبع في تقليد ولاية الملك للسلطان ، بصفة خاصة كما ستعرض له فيما يلى :

٢ - تقاليد الحكم :

تصور لنا طفوس ومراسيم ولاية الحكم ، في السلطنة السنارية مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر ، تصور مدى ما أحرزت التقاليد الموروثة من

انتصار ، في صراعها مع تقاليد العرب والمسلمين ، فإذا رجعنا إلى الماضي البعيد نجد أن الحاكم كانت له شخصيته ، التي استمدت قدسيته من الدين ، وكان عليه قبل أن يباشر سلطانه أن يتدرج في طقوس ومراسيم ، ليتطهر جسده وترتقي به عن مستوى البشر ، وكانت له مطلق التصرف في رعيته واستعبادهم ، وإذا أراد أمراً قالوا له « فلتكن مشيئتك » ، واستمرت هذه التقاليد في عهد المسيحية في صورة لم تتأثر بتعاليم الدين الجديد ، وعندما دخل الاسلام السودان ، تفاعل مع هذه التقاليد ونشأت صور جديدة ، لها مظاهرها من الأوضاع القديمة والحضارة الجديدة ، واستطاع الاسلام إذن أن يدخل بعض التعديلات التي لم تغير من طبيعة التقاليد ، فانفلقت النواة وتقايسها الحاكم والفقير .

فالسultan لا يصل إلى كرسي الحكم ، إلا بعد أن يخضع لمراسيم ترفع من شخصيته ، عن مستوى الرعية وتؤهله للقيام بأعبائه التقليدية ، ومنها رمي البذور الأولى في موسم الزراعة ، وافتتاحه لدورة الحصاد ، ولهذا ارتباطه بالعقيدة الموروثة ، التي لا تتم أركانها إلا بعد قيام الحاكم بهذه التقاليد ، لضمان الخير والبركة ، التي سوف تجعل المحصول وفيراً لا يتعرض للأفات الزراعية ، أو أى مؤثر آخر يقلل من غلته ، كما كان على السultan أن يتولى تكريس الزعماء المحليين ، وأعطاهم البركة ، قبل ممارسة مهام مراكزهم ، أما الفقيه فعليه أن يؤدي الصلوات للاستسقاء وغير ذلك من التوجه إلى الله تعالى ، لدفع الأذى والضرر والاكثار من الخير والبركات ، كما كان على الفقيه أن يقوم بشكريس من يفتخب للنيابة عنه ، في تولى أمر مجاهدته في المناطق البعيدة ، عن مركز سجاده الرئيسى .

وليس هذه التقاليد في شطريها ، ما يمارسه السultan وما يمارسه الفقيه ، إلا صورة مما كانت عليه في العهد الفرعونى ، وهذه التقاليد منتشرة في السودان وفي المناطق المجاورة وتجدها في صورة واضحة في مناطق الغزلة في السودان .

وبهنا قبل أن ننقل إلى استعراض هذه الطقوس والمراسيم التقليدية ، أن نحاول التعرف على الأسباب التي عملت على الإبقاء على هذه الحضارة في صورة أو أخرى ، طوال هذه العصور ، ومن دراستنا السابقة عن دخول الاسلام السودان ، ظهر لنا أن المجتمع كان في حالة ركود وجود من أثر الانحلال ، الذى أصابه في الفترات التي سبقت دخول الاسلام ، ولم يمكن للواقدين من العرب والمسلمين ، أن يدخلوا على

المجتمع السوداني ما يعرضه لمزات فكرية عنيفة ، أو تغيير ذي شأن في مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية ، لأن دخوله كان هادئا ، يحمله التجار والدعاة ، وبعض العلماء الذين صهرهم المجتمع ، وحوّلهم إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية ، لذلك أهملوا تكوين أجيال ، تحمل من بعدهم رسالتهم الدنيوية في صورتها الصحيحة ، وتسربت دعوتهم الدنيوية في سر أبقى على كثير من الأوضاع ، التي كانت تعيش في ظلها القبائل ، وساعد هذا الحال على إيجاد انطباعات جديدة من صور الماضي .

٣ - طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم

جاء في مخطوطة تاريخ سنار ، حين يملكون لهم ملكا جديدا يزوجه من نسل تلك المرأة ، ويسمون ابنة عين الشمس ، ويحملونها على عنقريب من خشب السرطان (٦١) إلى حوش الجندي ويجلسوه (يجلسونها) به سبعة أيام ، ثم يخرجوا به (السلطان المنتخب) إلى محل معروف لهم ، فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفألون (يتفألون) بها يخرجها ويتشاورون (يقشاهمون) ، بعدد ما وهي بأقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم ، وهذه أول عبارة صريحة تشير إلى طقوس تقليد السلطات في صورة عامة ، وفي نفس الوقت تكشف لنا عن بقايا الميراث القديمة ، التي أخذت تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى وصلت إلينا في صورها الحاضرة ، وقد سجل ديزني (٦٢) ما شاهده من طقوس ، أتبعته عند تنويع ملك الفونج في فازوغلي واسمه « حميد رجب بدير » ، وذلك في فبراير سنة ١٩٤٤ م - وذكر في مقاله أن بعض رجال العمدة ، قد أقبلوا وأخذوا من الجندي قطعة من القماش الأبيض ، كان متعطقا بها ، وظلوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس ، حتى لا يتعرض لها ، قبل اتمام التقاليد المرسومة لولاية الحكم ، وبعد ذلك تقدم بعض الرجال مقشاهكي الأيدي ، لحيثوا مقعداً لجل الملك إلى حوش الجندي ، الذي يبقى فيه حتى المساء ، ومن ثم ينقل إلى منزل خاص متعزل ، يجلس فيه ومعه عذراء (٦٣) تشاركه بحبسه ، الذي تصل

(٦١) أنظر مخطوطة تاريخ سنار ٤ كاتب المخطوطة أحمد ابن الحاج أبو علي المشهور بكاتب الشوكة كما هو وارد ضمننا في المتن . والنسخة التي اعتمدنا عليها هي النسخة المحفوظة في المكتبة الأهلية في فينا (النمسا) . وهذه العبارة الخاصة بالطقوس لم ترد في مخطوطة تاريخ سنار المحفوظة بدار الكتب المصرية وهي مكتوبة بقلم يختلف عن نسخة فينا .

(٦٢) مقال ديزني في مجلة الموهان في مذكرات ومدونات س ٢٧ - ٤٢ مجلد ٢٦ تحت عنوان « تنويع ملك الفونج في فازوغلي » .

(٦٣) يشترط أن تكون العذراء من نسل بيت عين الشمس .

مدته إلى سبعة أيام ، وفي نهاية هذه الفترة قد يختارها زوجة له أو غير ذلك ، ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندي ، لمنح الاتصال الخارجي ، كما لا يسمح لأحد بالبقاء في المنزل ، إلا لعجوز تقوم بتدليك الحبيسين ، وتطيبهما بالعطور المختلفة الأراكيب أما الغذاء فإن الجندي ينقله إليهما ، بعد أعداده في الخارج ، ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس ، حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد^(٦٤) ، تؤدي إلى حرمانه من العرش والانتقام منه .

وعلى ذلك فإن الملك لا يقبل مقاليد الحكم ، قبل اتمام مراحل ثلاث ، تبدأ بمرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش ، وهم في غالبية الحالات ، من الصق الأقرباء بالحكم السابق ، الأبناء ، الأخوة ، الأعمام ، أبناء الأخ ، أبناء العم ، أبناء الأخت ، وأخيراً الأقارب من الرحم ، كما حدث في اختيار السلطان نول ، ويقوم بعملية الاختيار مجلس من أكابر الدولة ، من أعضاء البيت السناري ، ويجتمع هذا المجلس عندما يشرف القائم على العرش على الوفاة ، أو يقرر المجلس عزله لسبب أو آخر ، وعندما يتم الاختيار يؤخذ المنتخب إلى محبسه في حراسة الجندي ، ومعه العسكراء كما ذكرنا قبلاً ، وبعد نهاية فترة الاعتكاف التي فصلناها فيما سبق ، يقوم الجندي بمرافقة الحاكم المنتخب من محبسه إلى ساحة التويج ، التي يجتمع فيها الأمراء وأكابر الدولة والأهالي ، وفي هذه الساحة يقام الككر تحت شجرة كبيرة الظل ، وعند وصوله إليها يقوم الجندي ، بخلع قفطان الحاكم ويحلق شعره ثم يتقدم أكبر رجال الدولة من البيت السناري ، ومعه قفطان جديد وعباءة ليلبسها الحاكم وتوضع على رأسه الطاقية أم قرين^(٦٥) ، ويسلم إليه السيف ، وبعد اتمام ذلك يجلس على الككر ، ويتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشايخ وغيرهم لبيعة الحاكم الجديد ومحيطه ، وللتحية

(٦٤) العوائد هي Taboo - العادات المحرمة .

(٦٥) الككر (Kakar) وهو كرسي الملك - أنظر مقال أركل ص ٢٢٧ مجلة السودان في مدونات ومذكرات المجلد الخامس عشر .

(٦٦) الطاقية أم قرين - أو أم قرن - هي إحدى شارات الملك وهي عادة قديعة العهد أنظر مقال كروفورد في مجلة السودان في مدونات ومذكرات ص ٣٣٣ / ٣٣٤ المجلد السادس والعشرين .

تقاليدها الخاصة وذلك أن ينمطق الزعيم بثوبه (٦٧) عندما يتقدم لتأدية التحية، ويقبض كل من الحاكم الجديد والزعيم بكلتا يديه على يد الآخر، وتدفق أثناء ذلك موسيقى تصدر أنغامها من النفخ في القرون، بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية.

وبعد الانتهاء من قبول مراسيم التهانى، يذهب الحاكم ومعه الجندى وبعض أكابر الدولة إلى مكان معين، ينتظرون فيه خروج عوائد (٦٨) يتفاهلون بخروجها ويتشائمون باختفائها وينقل هذا الموكب بعد ذلك إلى مجرى النيل، حيث يدخل الحاكم الماء حتى يصل إلى رقبته فيغسل رأسه، وبهذا تنتهى الطقوس والتقاليد ويستكمل الحاكم مراسيم تسلطه الشرعية.

وذكر بروس وكايو (٦٩) أن من عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعى، عند رمي الثفاوى، وعند جمع المحصول، وذكر يونس أن السلطان فى سار لا يظهر أمام العامة سافر الوجه، بل يلتزم بغطاء من الحرير الملون (٧٠)، ويستخدم هذا النوع من الحجاب، بصفة عامة بين الملوك الزعماء فى المنطقة من الحبشة شرقاً إلى تيجريا غرباً، وهى المنطقة التى يتحتم فيها على الزعيم المنتخب أن يمضى فترة من الزمن، تبلغ الستة أيام، يعتزل فيها الحياة العامة. وقد تختلف مراسيم ولاية الحكم بعض الشيء بين منطقة وأخرى، ومراجع ذلك الاختلاف إلى البيئة المختلفة لكل إقليم.

فى أتوبيا نجد أن النجاحى يستكمل تتويجه فى المعبد، ومن ثم يخرج فى طريقه

(٦٧) الثوب مقلعة من القماش الأبيض يلتحف بها الرجال فى شكل يختلف عن استعمال النسوة اللاتي يستعملن نوعاً من القماش الملون يعرف بقرن عليل، والمصادة أن يربط طرفا الثوب حول الوسط عند الدخول على شخصية عمره سواء كانت ديفيسة أو مدنية - وهذا النوع من اللباس منتشر فى الحبشة والسودان يقل تدريجياً كلما جدت المسافة غرباً (أنظر كتاب يرتون ص ٣٧) . الثوب عادة يتكون من عريض من القماش متلاصق بالحقاك . وكل نصف منهما يعرف بالشفقة (Shuqua) .

(٦٨) الدوائد كما يبدو كلمة شملت التقاليد المتوارثة فى مختلف صورها، ومن فى هذا الوضع بالذات يقصد منها انقطار خروج « دابة الأرض » وتحتاج هذه الظاهرة إلى تفسير وإلى تحديد علاقتها مع ماورد فى سورة النمل « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض نكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يربون » (آية ٨٢) .

(٦٩) أنظر بروس فى رحلته جزء ٤ ص ٤٦٦ وكايو جزء ٢ ص ٢٧٧

(٧٠) يونس فى كتاب البحر الأحمر والممالك المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ص ١٠٤

إلى مخيمه فتعرضه عذارى أكسوم ، اللاتي يقفلن الطريق بحبل من الحرير ، ولا يسمحن له وصحبه بالمرور ، إلا بعد أن يؤكد لهم أنه النجاشي لمملكة صيون ، وهذا الاعتراض نجده في السودان في طريق المريس عند ذهابه لعروسته ، فيمنعه من الوصول إليها بشئ الوسائل حتى يدفع لمن يهدياه وتمرف به الشعيقية ، وفي الرب نجد ان قبيلة الجكون (٧١) . في نيجريا ، وبطونها المنتشرة في مختلف المناطق ومنها الميوم تتبع تقاليد وطقوس ولاية الحكم تتفق في كلياتها وتفصيلاتها مع ما هو متبع عند سلاطين سنار ، وأنهم يحرمون على الأمير أن يتخطى الماء ، كما انهم لا يسمحون ببقاء أثر قدمي (٧٢) الأمير على الأرض ، لذلك يسير خلفه خادم ، في يده قوام لتسريع بها الأثر ، أولا بأول وتذكرنا هذه بما كان من أمر السامري ، قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضه من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى ، (سورة طه آية ٩٤ و ٩٥) ويعرف الشخص الذى يتولى تهيئة الزعيم المنتخب في قبيلة الجكون باسم كندشيوخ وهذه أصلا ، جندى ، شيوخ ، والتصنيف ظاهر كنتيجة اللهجة المحلية .

وفي دارفور يبقى السلطان ، الذى تم تعيينه سبعة أيام في منزله ، قبل أن يباشر سلطانه ، وقد خالف هذه العادة السلطان عبد الرحمن (٧٣) (حكم إلى دفور ١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .

أما في مملكة تنفى فانت ولاية الحكم والزول عنه موكولة ، إلى امرأة تنقب به الأرتية (٧٤) (Artiyz) وهى عريفة في حشبا ونسبا ، وهى من صفوة سلاله ملوك

(٧١) الجكون موضوع كتاب الأستاذ بك المسمى (مملكة سودانية) ومؤلا كانوا يسكنون حوض نهر المطيرة وهم إحدى القبائل الكبرى التى هجرت موطنها ، في حوض النيل وفرت إلى غرب أفريقيا (حوض نهر النيجر والكمرون وسيراليون) وقد ورد ذكر هذه القبيلة في كتاب المخطط للمقرئ باسم ديجون (بورنارد س ٤٩٨) وذكر في كاترمير « ديجون » ومنهم بقايا قليلة في جنوب سنار ويعرفون باسم « جكون أب جريد » وموضوع هجرة قبائل حوض النيل الأول - ط يهب هجوم النجاشي غير أنه في منتصف القرن الرابع الميلادي جذيرة بالبحث والتعقيق

(٧٢) أنظر كتاب الادارة الأعلى في نيجريا مؤلفته ميجرى برهام س ١٤٢

(٧٣) أنظر التونسي ٩٦/٦٤

(٧٤) أرتي (Arti) كله نوبه متاما السكام - ساح المطر ويطلقها البعض على لفظ الجلالة (أنظر تاموس مقارن لنوبيه والانجليزيه مؤلفه ج . و. مري G. W. Muray) وكتاب Alkmvist عن اللغة النوبيه وتطلق Arti في اللغة السكتريه على الجزيرة Island .

تقلى ، ولهذا الا مراة مكاتها الروحية ، وقامها فى تقلى أعظم من « أيا باسى » كبيرة الميارم فى بلاد القور ، وتقضى تقاليد تقلى أن يحكون لها القول الفصل فى ولاية الحكم وعزل القائم عليه ، وهى تحتفظ بأدوات الحكم من تاج ونحاس وسيف الخ . لكنها لا تتفرد بأصدار أوامرها ، إلا بعد أن تجتمع كلمة المشايخ المحليين (المكوك) ، وكشروط متمم لولاية الحكم الذهاب إلى مغارة عميقة ، فى إحدى الجبال تسكنها حبة تعرف بإسم « حيدة أم كا أبيض » ، ويسألون عن المستقبل ويسمعون صوتاً يخاطبهم بوضوح تام ، عن الحوادث المتظرة وما يتوقع حدوثه فى عهد الحاكم الجديد ، من رخاء وغلاء وسلام وحرب ، وقد ذكر أوليا شليلى فى رحلته انه عند وصوله إلى سفح جبل سنداسى ذهبت سبعة جهال وسبعة خرفان وسبعة ماعز وسبعة ديوك وسبعة نمابين . . . ، ولوث الجميع أيديهم فى هذا الدم ومسحوها فى الصخرة ، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له ان هذا هو الظلم لفتح باب القار الذى دخل منه كبار القوم ، وسمعوا صوتاً بالترحيب . وبعد ذلك أخذ كل منهم فى سؤال الصوت الخفى ، عن مقصده فكانت تأتية الاجابة « مسموعة واضحة باللغة التى يعرفها وهى التركية . » والمذى يهمننا من هذه القصة ان التقاليد المرعية فى تقلى وهى استشارة الحبة لها مصدرها الحبشى . ولا يخفى ان للحبة فى تاريخ الحبشة أثر كبير .

مراسيم تقليد المشيخة - للزعيم المحلى

وننتقل إلى المراسيم الخاصة بإسناد المشيخة أو المكوكية (٧٥) ، فقد ذكر نعوم شقير (٧٦) « وكانوا إذا توفى شيخهم اختاروا شيخاً آخر ، وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده كما كان مشايخ العبد اللاب يؤيدون المشايخ والملوك ، الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان إذا مات هؤلاء ملك ، اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم ملكاً يولونه عليهم ، وأتوا به إلى الشيخ ، فيحلق الشيخ رأسه ويلبسه طافية ذات قرنين ،

(٧٥) مكون مفرداً مك وهو الشيخ المحلى .

(٧٦) يخمس السلطان السنارى بأجراء التعيينات المختلفة فى قضاة أما فى المناطق للجددة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الزعامة . كما أن السلطان يعين القضاة « المرعين » أنظر الطبقات ترجمة دفين غاضى المبدالة ص ٩٠ والقضاة الآخرين عبد الله العركى ص ١١٢ وعبد الرحمن ابن مشيخ التويرى ص ١١٤ وبقندوش ابن سرور ص ٤٤ . ويقوم الشيخ المحلى بتعيين من هم دونه مرتبة دون الرجوع إلى السلطان .

محشوة قطناً ويجلسه على كرسي يسمى بالككر ، ثم يخاطبه بلقب مك أى « ملك » ويقول له « مبارك عليك » ، فيقبل الملك يده وتدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب النحاس ، اشارةً لتأييده ملكاً على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله ، فيسلمون عليه بالاحترام الذى سلم به على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب « أرباب » ثم يقولون جملك الله مباركا علينا ، ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك ، فيقول لهم « الله يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاك » .

وذكر كرمب انه قد حضر أثناء زيارته لبلدة قري ، مراسيم تولية شيخ لاحدى القرى التابعة لشيخ قري ، ويقول ان الشيخ المعين قد أحضر إلى اجتماع فى البلدة ، لسمع بعض الأدعية ، التى يقوم بها الفقهاء ، وبعد ذلك يقدم له الشيخ قبضاً حريراً وعمامة ويسله سيفاً كرمز لولايته سلطاته ، وعند ذلك يتقدم الحاضرون بالنحية للشيخ الجديد ، وذلك بالانحناء أمامه حتى تلمس جباهم الأرض ما يقرب من الثلاثين مرة — ويرقص الشيخ الجديد ، شاهراً السيف الذى قلده فى يده ويفنى مادام شيخ قري (٧٧)

وفى بلاد المحس فى شمال السودان ، التى كانت تحت حكم الكشاف ، فان تنويج الشيخ يتم بجلوسه على حجر فى مكان معين ، وفى بلاد المحس أيضاً نجد ان رجلاً يحمل عصاه أو سيفاً من الخشب يستقبل به الامام عند باب المسجد ، عند حضوره لصلاة الجمعة ويسير أمام الامام حتى باب المنبر فيسله المعصاة أو السيف وبهذا يستكمل الامام صلاحياته ، للامامة ويصعد على المنبر للخطبة ، ولهذا العادة أثر فى صعيد مصر .

مراسيم الاستقبال عند السلاطين

ذكر بوتسيه أنه قد ذهب فى اليوم التالى ، لوصوله إلى مدينة سنار ، لمقابلة السلطان فى ديوانه الرسمى ، وأوضح المراسيم التى تراعى فى مثل هذه المناسبات ، وذلك بأن يخلع الداخل حذاه عند باب ديوان مقبح ، اصطفت على جوانبه جنود من حملة الرماح ، ويقف الداخل عند حجر ، بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس

(٧٧) أنظر رحلة كرمب فى كتاب محكمة القنج فى سنار مؤلفه كروفورد من ٢٢٢ وما بعدها

فيه ، لمقابلة البعثات الأجنبية ، وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة ، وهي الركوع وتقبيل الأرض ، ينقل الوزير ، الواقف بالقرب من السلطان ، التحية ويحمل رد السلطان عليها ، ويقول بونسيه ان السلطان كان جالاً على سرير فاخر ، ويرتدى معطفاً موشاً بالذهب ، ومتمطقاً بحزام من قماش ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وحوله عشرون من كبار رجال الدولة .

وبعد أن حمل الوزير تحية السلطان ، قدم بونسيه الهدايا التي أحضرها معه ، وهي عبارة عن مصنوعات زجاجية أوروبية ، وقد أظهر السلطان إعجابه بها ، وبعد حديث تناول الاجابة على الاسئلة التي وجهها إليه ، سأله عن سبب رحلته واستمرت المقابلة زهاء ساعة من الزمن ، انتهى بعدها الاستقبال وانحجب الزائر ومن معه إلى الخاف ، وأعادوا الركوع وتقبيل الأرض ثلاثاً - وأمر السلطان الحراس بمرافقتهم إلى منازلهم وأرسل إليهم أفداح السن والعمل والمأكولات الأخرى وعجلين وخروفين .

مراسيم تقبيل الخلافة الدينية

يختار الفقيه صاحب السجادة (الطريقة الدينية) كالتأدية وغيرها - من يصلح من تلاميذه بعد أن يستكمل مرحلة العلم - ليشغل مركز خليفة الفقيه في المكان الذي يختاره ، لنشر دعوته وتلقين المريدين تعاليم الطريق ، ويتم التعيين لمركز والخليفة ، في حفل يقام أمام بيت الفقيه ، يجلس الطالب على كرسي وتلف على رأسه عمامته ، ويطوفون حوله عدة مرات ، قد تكون سبعاً ، ثم يتلو الفقيه بعض الأدعية ، وبعدها يباركه ويسله ركوة وفروة وعكاز وسبحة ، تكون في بعض الحالات مكونة من ألف حبة ، وتذبح الذبائح ، وتقام بعد ذلك الأذكار ، وينشد المداحون وينتهي الحفل ، عادة بعد صلاة العشاء بالدعاء والفتحة .

مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلي

روى كرمب ٧٨ ان الأهالي عندما يزورون الزعيم في « قري » يتقدمهم رجل يحمل عصاً طويلة ، ويتبعه القوم في صف واحد ، يحجي كل منهم الشيخ بقوله « يا ما نجل » أنا فلان ، ويرد عليه الشيخ مكرراً الاسم ، وبعد الانتهاء من المستقبلين يقيم الشيخ عرضاً لجنوده ، يقومون بمشيل موقعة صورية ، تدق خلالها للطبول ، وتستمر الحال حوالي النصف ساعة ، يتصرف بعدها القوم إلى بيوتهم .

(٧٨) أنظر كتاب مملكة الفونج في سنار لمؤلفة كروفورد ص ٢٢٢

تقاليد الاستقبال عند الفقهاء

جاء في كتاب الطبقات (٧٩) .. ان الفقيه عبد الصادق ولد حبيب أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه ، ولما وصل الشيخ إلى حلة الفقيه ، وجده غائبا فانتظره إياما وفي يوم عودته ، علت التهايل والزغاريد ، وذهب الفقيه إلى الحوش (منزله) ولما زالت الشمس ضربت الطبول . وفرشت دكة الديوان ، ثم جاء الفقيه لابسا قبضا عاليا كبيرا وجلس على الدكة وقامت العبيد يحملون العكاكيز (مفردتها عكاز) ، للسلام ويقول الواحد منهم : أنا فلان ، ويكرر الفقيه الاسم فيرد عليه هذا فلان ، سيدى ، فلما فرغوا قامت الفقراء فسلبت ، ثم قام أرباب الحاجات فسلبوا وتكلموا وانتهى الاستقبال .

أما فيما يخص مختلف الوظائف الأخرى ، في السلطنة وفي الأقاليم المتعاقبة ، فاننا لانجد ما يشير إلى ذلك تفصيلا ، من حيث الرواتب التي تدفع للوظفين من كبار رجال الدولة إلى أدنى الدرجات ، وهل هي كانت تدفع وفق مقررات مدنية ، أو كانت متروكة لهم لأخذ نصيبهم ، مما يحصلونه من عسور وضرائب الخ . ويبدو فيما يخص الوظائف الرئيسية أن أصحابها كانوا يحصلون على معيشتهم من أرزاق الأقطاعات ، التي تمنح لهم كما هو الحال في دارفور .

وتجد تنظيمات في دارفنج (جنوبي سنار إلى الرصيرص) أخذ بعضها في الاختفاء في العهد الحديث ، وقد يكون من المفيد أن نسجلها لصالح البحوث المستقبلية .
وهذه التنظيمات هي كالآتي :-

١ - وور AUR :

هذا هو لقب الزعيم المحلي ويقابله « ملك » ، المستعمل بين المجموعات في السودان الأوسط ، ولهذا الزعيم السلطات المدنية والدينية في منطقته ، وعليه أن يقوم بدور رئيسي في إقامة الشعائر الدينية .

ويتخذ هذا الزعيم مكانه في كوخ يعرف باسم واتل (We - ei - tel) ومعناها « كوخ الشمس » ، ويعتبر هذا الكوخ مركز الشعائر الدينية ، ويحفظ الزعيم فيه

بمقعد خشبي ، ينتقل عند وفاة الزعيم إلى خلفه ، وهذه الوظيفة وراثية يرثها الابن عن الأب ، ولا يخرج هذا الزعيم إلى الحرب .

ويفصل هذا الزعيم في المشاكل التي تعرض عليه . كما أن من واجبه أن يرعى مصلحة منطقته المعيشية ، ويعاونه في ذلك موظفون كما هو موضح بعد .

٢ - سن أى كنج (بضم الكاف) (Sen - i - Kung) :

وصاحب هذا اللقب هو قائد الحرب ، ويقابله في سائر سيد القوم ، وهو منوط برعاية الأحوال اليومية وترفع إليه الشكاوى للفصل فيها أما المشاكل الهامة فيقدمها إلى الور (Aur) الذي يفصل فيها باستشارة الأجاويد وسيد القوم .
والوظيفة وراثية .

٣ - كاي كاي (Kai) :

ويقوم هذا بممارسة علاج المرضى بالسحر أو غيره .

٤ - سن أى توك (Sen-i-tuk) :

وهو قائد الماشية ، ولكل حلة (قرية) قائد ماشيتها ، ومن اختصاصه أن يفود الحيوانات إلى موطن الرعى ، عقب انتهاء فصل الأمطار ، وعليه أن يصدر أوامره إلى الرعاة لتغيير موطن الرعى ، عندما تتطلب الظروف ، كما عليه أن يأمر بأقامة الزرائب في المواضع المختارة في موطن الرعى ، والزرائب تقام عادة في شكل دائرة تحيط بجوانبها أشجار شوكية .

٥ - سن أى سرم (Sen - i - Serm) :

وهو ناخب البوق (والبوق - النغير - من قرون الحيوانات) ويتولى حامل البوق ، ولكل قرية حاملها - دعوة السكان للخروج للصيد ، وهو الذي يتصرف فيما يجمعون ، وعليه أن يقوم بدوره السحري ، في عملية الصيد .

٦ - سن أى ساك (Sen-i-Sak) :

وهذا هو زعيم المريسة (الشراب المحلى) ، ويمارس وظيفته عندما يتقدم إليه شخص بطلب استخدام عدد كبير من العمال ، وفي هذه الحالة يقوم هذا الزعيم بأعداد

المريسة المطلوبة ، ويطلب من الخدم أن يعين متدوبا عن عماله لاستلام المريسة وتوزيعها على رجاله .

والمريسة تستخرج من خمير العيش وتستعمل في بعض المناطق كغذاء رئيسي .

٧ — القطاش Gatash :

وهو الذي يعرف مسالك الجبال والطرق ، ويرشد الغريب إلى الطريق ، وإذا حدث خلاف بين الأهالي في منطقة الجبال والافتقار ، فأنهم يذهبون إليه في الجبل الذي يسكنه ومعهم خروف لذبحه وإقامة حفل للمصلح .

ونجد في هذه المراسم والطقوس مظاهر بارزة ، تتطلب بحثاً دقيقاً في دراسة مقارنة لمعرفة مصادرها وتطوراتها ، ومن هذه المظاهر حبس السلطان المنتخب أسبعة أيام ، والزمام بأن يتمتع كلية خلال لك المدة من التعرض لضوء الشمس ، ثم ذهابه إلى المكان المعين انتظاراً لخروج الدوائد ، وأخيراً دخوله الماء وغسله فيه ، ويشرف على هذه الإجراءات الجندي ، الذي تبدأ مهمته من الساعة التي يتم فيها انتخاب السلطان الجديد ، وهذه المظاهر إن دأت على شيء ، فإنها تدل على قدسية شخصية السلطان ، لذلك يتمتع عليه قبل أن يتسلم مقاليد الحكم ، أن يعتزل المجتمع للعدة المعنية تتبعها مباشرة مراسيم تقايده السلطنة ، وليس اعتزاله المجتمع إلا لكي يظهر ويرتقى ، من مرتبة البشر إلى مصاف أنصاف الآلهة . وأن عملية التديك التي تقوم بها العجوز في فترة الاعتكاف ، ليست إلا مصدراً من مصادر منح السلطان القوة .

وتكشف لنا هذه التقاليد والطقوس ، عن مدى أثر المديسة المصرية القديمة وعباداتها ، وبخاصة عبادة الشمس ، التي نجد طقوسها بارزة في شكل أو آخر ، في حفلات التتويج ، ونجد أيضاً أنه من الضروري ، أن يتزوج السلطان في سنار من بنت عين الشمس ، كما يعرف الزعيم في بعض قبائل نيجيريا بابن عين الشمس (٨٠) ، وبدراسة هذه التقاليد والطقوس ، كما يمارسها بقايا الفونج في فاروغلي (التي ذكره ديرزني في مقاله آنف الذكر) ، وما هو متبع في المناطق المجاورة للسودان ، في نفس الزمن الذي سجل فيه ديرزني مشاهداته . ومقارنة ذلك مع ما كانت عليه في العصور القديمة ، يتبين لنا ما أدخل عليها من تعديلات وما أصابها من تطورات ، تتناسب

(٨٠) أنظر كتاب دراسات قبلية في شمال نيجيريا (بالانكليزية مؤلفه مك من ٣٥٦/٣٥٠)

مع البيئة المحلية الخاصة ، وما يسترعى الالتفات أن هذه التقاليد والطقوس في مختلف العهود ، التي مرت عليها لم يحدث تغيير في الأسس ، التي قامت عليها أصلا ويرجع ذلك الاستمساك بتلك الأسس إلى طبيعة الحضارة المصرية (٨١) .

والجندي هذا يقوم بدور رئيسي في مراسم التتويج ، ويكون عادة من رجال الدين ، فقد جاء في الطبقات ما قاله الملك عمارة أبو سيكين للشيخ « ادريس بن محمد الأرباب » أنت في السابق كنت جندينا ، ثم بقيت جنديا لله ، وحات الملك أن كان ما عاقبت أمي ، أردك إلى جنديتك (٨٢) . - وهذا المنصب يقابله في العصرين الفرعوني والمسيحي ، منصب « السكاكن » الذي يتولى تكريس الزعيم لتسلم مقاليد الحكم .



(٨١) من تلك البقايا التي ما زالت باقية :

١ - عادة التخطيب بالثناء ورسم علامة القوس الشمسي في أسفل السكف .

٢ - تكرار النسوة في حلقات الرقص كلمة حاك (Haqi)

(٨٢) طبقات ودضيف الله - نشرها الشيخ ابراهيم صديق ص ٨/٧ والقصود من « حات الملك » أي قضا حياة الملك .

الكتاب الثالث

من امتداد الادارة المصرية إلى السودان
إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى

السلطنة السنارية في سنواتها الأخيرة

تميزت السنوات الستة عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي باستداد الصراع بين إنجلترا وفرنسا، وبخاصة بعد أن قضت الدولة الفرنسية في سيط نفوذها القوى في هولندا أمام النشاط البريطاني، وكان هذا القتل من أبرز الأسباب التي دفعت فرنسا إلى الانتقال بمسرح الصراع إلى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث نزلت الحملة الفرنسية في أرض مصر في عام ١٧٩٨ م، لأهميتها الاستراتيجية على مركز إنجلترا وعلى خطوط التجارة^(١)، بين الشرق والغرب وداخلية أفريقيا. وقد أحدثت هذه التطورات تغيير نظام الحكم في مصر، واهتم قائد الحملة نابليون بمحاولة إعادة فتح طريق التجارة، بين مصر وبين الفجر وسنار، بعد أن أسوأ أهلها المماليك، الذين وجهوا اهتمامهم نحو التجارة عبر البحر الأحمر إلى السويس، ومنها بطريق البر إلى شاطئ البحر الأبيض، وتركوا السودان في عزلة اقتصادية تكاد أن تكون تامة، ولم يكن لبريطانيا أن تهتم بالتنافس والتطاحن، الذي كان قائماً فيما بين زعماء المماليك بسبب التجارة عبر مصر، طالما أن ذلك الصراع لا يؤثر على شريان مصالحها في الشرقين الأدنى والأقصى، إلا أن زول القوات الفرنسية في مصر قد أيقظ اهتمام الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا، التي كانت تحرص الحرص كله على بقاء هذه المنطقة منطقة الشرق الأوسط - بعيدة عن السيطرة لدولة أو أخرى، لما يخلق لها ذلك متاعب، تعطل معها مصالحها الاقتصادية، وعلاقاتها مع الهند إلى مستعمراتها أفياوراء ذلك وبذلك بريطانيا جهودها لإخراج الفرنسيين من مصر، الأمر الذي تم لها في عام ١٨٠١ م، وبعد خروج الفرنسيين أقام الباب العالي ولاية في مصر، لم يكتب لهم التوفيق في إدارة البلاد، حتى انتزع الشعب المصري، الذي سلم مقاليد أموره إلى محمد علي، واستخدم هذا الوالي عدداً من لثة ثارين الفرنسيين لمساعدته في تنظيماته الجديدة، كما أنه نشط في مطاردة المماليك والخلع منهم، لما كانوا يقيمونه من عراقيل ومشاكل لمحمد علي، وقد امتد نشاط المماليك إلى السودان حيث دخلت إليه بعض الجماعات منهم هرباً من محمد علي.

وكان لهذه التطورات في الشمال أصداها في الجنوب (السودان)، حيث أيقظت الوعي، وأخذ زعماءه يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على تجدة مصر، للخلع عما حل بهم من تطاحن قبلي وحروب دخلية، زادت بها تعقيداً هجرة المماليك^(٢) إلى البلاد، ومحاولتهم السيطرة على دنقله، والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب، حتى تم لهم الزعامة الكاملة، كما حاول أولئك المماليك الدخول إلى كردفان وبلاد الفجر، حيث ذهب محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك، واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك في مخرجهم بالاتصال بالوهابيين، في الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف.

(١) كواين - السفر والبعثات العربية - لندن ١٩٥٤ - روز - جزء أول ص ١٦١.

وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أنجوليا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشئ في هذا الجزء من وادي النيل مشيخات وزعامات تخضع في عبودية أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون في شكل ما مع دولة أوروبية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية . وكان إلى مصر يرقب تطور الأحوال في جنوب الوادي بعين الحيلة والحذر والعمل على مواجهة ما قد ينتج من تطورات بخاصة بعد رحلة هنري صولت (٣) في صحبة اللورد فلنشيا في عام ١٧٠٥/١٨٠٦ ورحلته الثانية في ١٨٠٩/١٨١٠ (وبين ١٨٠٥ و١٨١٠م جاءت إلى مصر حملة فريرز التي فشلت) . وقد كان في رحلته الأولى مع اللورد فلنشيا التي أرسلتها الحكومة البريطانية إلى نجاشي أتيوبيا للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة بحرية في أرض الدناكل يمكن استخدامها لغزو مصر إذا قامت قوات فرنسية بقفل البحر الأبيض المتوسط لاحتلال مصر مرة أخرى أو إذا وقعت مصر تحت نفوذ دولة قوية تخشى انبجاثا منافستها . وفي الرحلة الثانية التي كانت أيضاً بأمر الحكومة البريطانية لتوثيق الروابط الدينية المسيحية . وهذه من أولى مراحل التوسع الأوروبي الذي اتخذ بادي ذي بدء الدين كوسيلة لاهدافه . وقد اهتمت مصر بنشاط هنري صولت في حوض البحر الأحمر وأتيوبيا الأمر الذي تبولت عنه مكاتبات (٤) . ولم يتوان محمد علي في اتخاذ خطوات مضادة لمرقلة الحركات المعادية التي تهدف إلى إقامة قوى منافسة . تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها . وذلك بأرساله وقدراً رسمياً إلى السلطان الساري في عام ١٨١٣م مطالبا العمل على مقاومة النفوذ المملوكي (٥) كما أرسلت بعثة ثانية إلى غندار بأتيوبيا لنفس الغرض مقاومة للنشاط المملوكي . وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التي حدثت بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية . وفرد من السودان على رأس كل منها زعيم من كبار الشخصيات ومنهم أبو مدين المطالب بعرش دارفور والملك أديس ود ناصر من البيت الساري ومعه زعماء من فازو على كما جاء الملك نصر الدين أبو حجل زعيم الميرقاب وفي الوقت الذي جاءت فيه هذه الوفود إلى مصر كان الوالي غارقاً في مشاكله الخاصة بشمال الوادي (مصر) ، غير أن تلك المشاكل لم تمنع عن مصر التيارات

(٢) أنظر مقال الأمير عمر طوسون « نهاية المماليك » في مجلة الحجم المصري مجلد ١٥ ص ٢٠٥/١٨٧ - أنظر أيضاً كتاب التوفسي « تشييد الأذهان » .

(٣) شغل هنري ، منصب المقتصل الإنجليزي في مصر ١٨١٥/١٨٢٧م وكان مهتماً بالآثار الرحلات كما كان وكيلاً لشركة الهند الشرقية وله علاقات مباشرة مع وكلاء هذه الشركة في غنا (اليمين) ومالطة .

(٤) أنظر أدوار هنري في كتابه بناء أبرافورية محمد علي ص ٣٠٤

(٥) قابل الرحالة بورخارد هذه البعثة في شندي (أنظر كتاب ص ٣٠٨)



١- الملك نصر الدين طغتكين - في القبر

↑
عن مؤسس
الملك
نصر الدين
طغتكين

↓
(عن مؤسس)
نصر الدين
طغتكين



٢- أبو محمد بن الططاب بنعمرش الفور

الحقبة التي كانت تعمل في مهارة لتثبيت أقدامها في جنوب الوادي كما أشرنا آنفاً. وقد أخذ الوالي في إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لاعادة الأمن واستنابه في البلاد وذلك بعد أن تجمعت لديه المعلومات الضرورية وأهمها ما جاءت به البعثتان المصريتان من سنار وغندار ومما نقله زعماء الوفود السودانية . وقد حانت الفرصة لارسال أولى قواته تحت أمرة ابنه اسماعيل كامل بعد الانتهاء من الحرب في الجزيرة العربية. وأرسل الوالي قبيل سفر جنوده المهندس محمد خسرو بك المعروف بالدفتردار لكشف الطريق بين أسوان وحدود نقلة ، التي كانت تحت سيطرة الكشاف ، وجمع المعلومات عن نشاط المماليك في دار الشايقة وجنوبها (٦).

قامت الحملة بقيادة اسماعيل كامل أصغر أبناء محمد علي ، وبصحبه جماعة من كبار علماء الدين منهم القاضي محمد الأسيرطي ، والسيد احمد افندي اللاوي مفتي السادة المالكية ، والسيد احمد البقلي مفتي السادة الشافعية ، وكانت مبعثة هؤلاء العلماء القيام بأرشاد الاهالي وتبصيرهم بأهداف الحملة التي ترمى إلى إرساء أسس جديدة لاعادة الطمأنينة والاستقرار للبلاد ، والتخلص من المماليك . وقد روعي في اختيار هؤلاء العلماء تمثيل المذاهب التي تعتنقها غالبية سكان السودان الشمالي ، فالأكثريّة تنبسط المذهب المالكي ، وقلة منهم على المذهب الشافعي ، وجماعات أقل على المذهب الحنفي ولم تكن التجريدة في واقع الامر أكثر من قوة بوليسية أرسلت لاعادة النظام وتوطيد العلاقات بين شطري الوادي بعد أن تعطلت هذه الروابط بسبب قيام حكومة متنافرة من المماليك وقبيل منهم من اهتم بأمر الجنوب ، وكانت من نتيجة تلك المعزلة كساد الحياة الاقتصادية وتطاحن الزعماء المحليين واشتباكهم في حروب داخلية أكلت الاخضر واليابس ، واشتدت حركة العصابات للسطو والنهب وقطع الطرق وكان لزاما على مصر أن تعمل على إعادة الاستقرار والأمن وإرجاع الحياة اليومية إلى مجاريها ، بعيدة عن السيطرة الأجنبية التي برزت في صورة محاولة المماليك في السيطرة على ذلك الجزء من وادي النيل ، وفي تلك السيطرة ما فيها من خطر على مصر نفسها .

ولم تجد التجريدة المصرية مقاومة يعد اشتباكها مع الشايقية الذين رفضوا ترك أعمال التعدي وقطع الطرق ، وقد طلب إليهم اسماعيل أن يركنوا إلى الزراعة وحياة

(٦) مقال الأبر عمر موسون آتف الذكر من ٢٠٥/١٧٨

الاستقرار والعمل على إعادة بناء الحياة اليومية ، وحدث في إحدى المعارك انت
وقعت في الأمر ابنة زعيم الشايقية العذراء مهيرة (٧) ، التي كانت في مقدمة المحاربين
من أهلها كما قصت العادات والتقاليد القبلية ، وقد أحسن القائد المصري معاملتها
وبالغ في إكرامها بإعادتها محملة بالهدايا ، الأمر الذي دفع والدها أن يتوقف عن محاربة
من حافظ على شرف ابنته ، وطلب الصلح معه .

وسارت الحملة من دار الشايقية إلى دار الميرقاب ، وفي بربر حضر الملك تمر
(ملك شندى) وحاشيته ، مرحباً بمقدم الحملة ومعلنًا استسلامه وخضوع إقليعه
للإدارة المصرية ، فأحسن قائد الحملة معاملته وإكرامه خلال الأيام الثلاث التي
قضاها الملك في معسكر الحملة في بربر ، وعمل هذا الملك بعد عودته إلى منطقته على
تأمين طريق الحملة عبر بلاده ، كما أحبط محاولة الملك المساعد الذي أراد أن يجمع رجاله
ومن ورائه فلول من المالك ، لمحاربة الحملة وعرقلة سيرها ، وحاول الملك المساعد
أن يستميل إلى جانبه الملك شاويش وقمرسانه من الشايقية إلى جانبه إلا أنه لم ينجح
في محاولته هذه ، وانضم الملك شاويش ورجاله إلى الحملة ومنح رتبة السنجق .

ورافق الملك تمر الحملة المصرية من شندى إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته
في المسائل المحلية التي يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية (٨) ، وحدث في يوم
وصول الحملة إلى سنار عاصمة السلطنة السنارية انت وقع السلطان بادی الوثيقة التي
اعترف فيها بقبيلته للسلطان العثماني وتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر (٩) ، وقد قابل
السلطان بادی الحملة المصرية في واد مدني ، معلناً ترحيبه واستسلامه . وبما يجدر
ذكره أن وزير السلطنة السنارية لما علم بقيام الحملة المصرية سارع بإرسال خطاب إلى
المقيم إبراهيم القرصی (بفتح الصاد والراء وكسر الضاد) طالباً منه سؤال الله تعالى
ليبطل مجيء الحملة (١٠) ، وهذه تبين لنا تغفل المعتمدات في أصحاب السجديد .

٢ - الملك تمر والنصر بإسماعيل بيه محمد علي

لأنه في قليل أو كثير أن تتعرض لمراحل القتال الذي انتهى بامتداد الإرادة

(٧) هذه عادة قديمة - أنظر هامش ٢٢ من الكتاب الثاني .

(٨) كتاب رحلة إلى دنقة وسنار لجورج انجلش طبع بوسطن سنة ١٨٢٢ ص ١٥٨

(٩) المصدر آف الذكر ص ١٦٩

(١٠) سورة الخطاب في الملحق السابع .

المصرية حتى شملت أجزاء السلطنة النارية ، وتطهير البلاد من خطر المالك واستئصال شأفتهم ، لكننا لانريد أن نهمل ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته اسماعيل وصحبه فى شندى . وبينما تتفق مختلف الروايات على أن الموت قد حدث بسبب الاختناق فإن هذه الروايات تختلف فى عناصرها عن العوامل التى دفعت الى ارتكاب الجريمة . ويبدو أن المعلومات التى تجمعت حينذاك عن ملايات القضية قد بنيت على بيانات لم يبدل فى تحقيقها أدنى جهد . وما كان لهذه المسألة أن تعالج على هذا النحو الذى ترك أثره العميق فى المجتمع السودانى ، وسواء أكانت هذه الأخبار قد نشرت فى صورتها الخاطئة عن حسن نية أو عكس ذلك ، فإن الأمر الذى لا شك فيه أنها خلقت جواً من التشكيك فى الادارة المصرية للسودان ، كما أيقظت الشائعات المفرضة وتعطلت مرحلة البناء . وفى هذا التشكيك وما ينجم عنه من إهانة للأفكار فى السودان وغير



الملك نمر - ملك شندى

السودان مصلحة للتريصين من الفرنجة من أصحاب المطامع السياسية ، التي لم تأخذ في ذلك الوقت صورتها البارزة الواضحة المعالم . ولم يفت هؤلاء الفرنجة استغلال الحادث في صورة أو أخرى كما فعل القنصل الفرنسي في القاهرة مالت في قضية مقتل دي رول رئيس البثة الفرنسية الى الخيثة الذي قتل وصحبه في سنار في ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥ م كما سبق أن أوضحنا ظروف ذلك الحادث .

مات اسماعيل بن محمد علي ورجال حاشيته الصغيرة اختناقاً بدخان القش الذي وضع في دار الضيافة التي أعدها الملك نمر (زعيم شندى) لزول ضيفه وحاشيته وذلك خلال فترة وجودهم في شندى وهم في طريقهم الى مصر بسبب مرض اسماعيل وقد حدث هذا الحريق في ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٨ هـ (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢) واتهم الملك نمر والملك المساعد وألنيت عليهما المسؤولية عن تدبير المؤامرة والاشتراك في تنفيذها وقال البعض أن الملك نمر هو المسئول عن الحريق ويقول هؤلاء أن الباشا قد أغلظ في القول فملك نمر وطلب منه أن يقدم له ألفاً من الرقيق في خلال يومين (١١) . وجاءت في رواية لينان دي بلفون (١٢) أن اسماعيل طلب من نمر أن يدفع له ثلاثة آلاف ريال أبو طيره وستة آلاف من الرقيق . ونقل روبنسون (١٣) أن اسماعيل قرض على نمر أن يقدم من المال والمواشي الخيول والجبال والغلال والرقيق ما يزيد قيمته عن العشرين ألفاً من الجنيهات . وتضيف الرواية التي نقلها روبنسون أن الملك نمر أوضح لاسماعيل أن رجال قبيلته لا يملكون شيئاً يساعد على الاستجابة لمطالبه وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ ما طلب منه . فكان الأمير إلا أن ضرب نمر بالشبك وحاول نمر أن يرد الاهانة بالسيف لكن الملك المساعد منعه من ذلك وبعد الاعتذار وعده بتقديم المطلوب في اليوم التالي !! وهو يضمن الانتقام لما لحقه من اهانة.

(١١) روبل في كتابه ص ٣٠٠ وما بعدها والمؤلف معروف بكرامته للصيرين .

(١٢) دوان في السودان المصري ص ٢٨٧ وما بعدها .

(١٣) مقال روبنسون في مجلة السودان في رسائل ومدونات المجلد الثامن ص ١١٨/١٠٥ وقد ذكر لي الأستاذ محمد عبد الرحيم أن الباشا موسى ود تركاب وموسى ود تميم وموسى ود حرة والشيخ محمد الحاج فضل الله صهر الملك نمر وموسى ود هلال قد أخذوا جثث اسماعيل الى بيت أحدهم واحتفلوا بتشييع جنازته في جمع عظيم ودخوه عند قبعة حاج فراج أمام تكنتات السوارى بشندى - وذكر لي أيضاً أنه سمع من الأمير اسماعيل أحمد بن الخليفة عبد الله التعايشي أنه لما كان في الأسر في سباط حدثت وفاة أخيه الأمير محمود وتقدم نخبة من أعيان البلد وهم عبد النعم بك ، والاوزى بك ، وعبد الرازق بك ، الشيخ عبد السلام الملايلى ، ومصطفى بك الدرسي ، واحتفلوا بدفن الأمير في موكب كبير سار فيه العلماء والأعيان وكبار البلد وتقبلوا التعزية وأقاموا سرادقا لاستقبال المعزين كان ذلك كما ذكر لي سيادته في إبريل سنة ١٩٠٤ م .

ومما لاشك فيه أن هذه التقديرات خيالية ، لم يراع فيها صاحبها الامكانيات الاقتصادية لمنطقة شندى ، التي لم تكن ، كما ذكر بورخارد ، أكثر من سوق تجارية تتجمع فيها السلع ، وبخاصة الحبوب التي تصل اليها يومياً على ظهر الابل من منطقة النيل الأزرق ، وأوضح هذا الرحالة أن منطقة شندى فقيرة الى حد كبير ، ولم يكن هذا الوضع الاقتصادي لشندى خافياً على اسماعيل ، وأن عملية حياوية بسيطة تمكش لنا عن أن هذه الروايات قد اختلفت ، لتخفى وراءها أمرار الحقيقة الدامغة .

وقد كان اسماعيل حريصاً الحرص كله على أن لا يحصل ما يسبب المتاعب للأهالى من جنوده ، وكان يتردد اليهم بشقي الوسائل ليدخل الطائفة الى قلوبهم ، وذكر انجلش ، الذى رافق الحملة ، أن بعض الخدم والجنود قد سلكوا مسلكاً مخالفاً لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالى ، فأقول بهم العقاب الصارم (١٤) ، ودفع للأهالى تعويضاً عما أخذه منهم أولئك الأفراد ، وكان أن أمر اسماعيل بتخفيض الأموال التي قدرها دفع الله الأرباب وديوان افندى والمعلم حنا الطويل (١٥) .

ويجعل بنا أن نحاول استعراض ظروف الحادث ، وملاباته للكشف عن ما أخفته الروايات عن مسؤولية ارتكاب الجريمة .

١ (تتفق الروايات ، في صورة اجماعية ، على أن المؤامرة قد نفذت بتكديس القش حول المنزل ، الذى أعد لزول الضيوف ومن ثم أشعلت النار التي أوجدت سبباً كثيفة من الدخان لفترة مستمرة تكفى لاحداث الموت اختناقاً للنازلين في دار الضيافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار إلى نظام تخطيط المساكن في شندى كما في غيرها من بلاد السودان نجد أن المنزل قد أحاط به حوش كبير وهذا يتطلب مقادير هائلة جداً من القش يحتاج نقلها وتكديسها - إذا فرضنا جدلاً توفر هذه الكميات في بلد محدود الموارد الزراعية مثل شندى - إلى استخدام الآلاف من الجال والعامل في مدة تزيد عن الأسابيع ولا يفوتنا أن نذكر ان الزمن الذى حدثت فيه الحريق كان في نهاية شهر أكتوبر ، وهذا يقع في نهاية الفترة الفاصلة بين نهاية فصل الحريف (الأمطار) وبداية الشتاء وعند ذلك تتحول الرياح من جتوبية الى شمالية ، ونرجح أن كمية من أشجار السنط كانت في داخل الحوش ، وفي بعض الحجرات ، وهذه هي التي

(١٤) انجلش في كتابه حلة دقة وسنار من ١٠٩/٤٠/١٤٢

(١٥) عظمه تاريخ سنار من ٢٨ - الف

أشعلت فيها النار وأوجدت ستاراً كشيء من الدخان تسبب عنه الموت اختناقاً - ومما يسترعى الانتفات أن استخدام مثل هذه الخطة للانتقام من اسماعيل ورجاله لم يكن معروفاً في السودان - ومن هذا يتبين أن مدير الخطة لم يكن من أهالي البلاد وإذا ربطنا هذه الخطة مع هدفها وهو الانتقام من اسماعيل فإن التهمة تنجح نحو صاحب المصلحة في ذلك ولم يكن في السودان غير « الممالك » والعلاقة بينهم والعلاقة بينهم ومحمد علي لا تحتاج إلى بيان ، وقد كان من الأسباب الهامة لدخول الحملة المصرية إلى السودان مطاردة الممالك وإخراجهم من البلاد قبل تثبيت أقدامهم فيها وإنشاء دولة يتولون إدارتها . وذكر أنجليس أن جماعة من الممالك كانت في شندى وهربت منها إلى منطقة النيل الأبيض بعد أو رفضوا شروط الباشا التي عرضها عليهم في شندى ديوان أفندي مبعوث اسماعيل للاستسلام . وفي الوقت هرب فيه الممالك إلى منطقة النيل الأبيض أعان الملك نمر ولاءه وخضوعه ، الأمر الذي أغضب الملك المساعد وهو ابن عم الملك نمر ويحكم على الجانب الغربي للنيل تجاه شندى . وكان عدواً لدوداً لنمر لما بينها نأراً كما سنذكره فيما بعد . وحاول المساعد أن يتعاون مع الملك شاويش (زعيم الشايكية الذين فروا أمام الحملة) على عرقلة سير الحملة بشن الغارات عليها وهي في طريقها في منطقة شندى نحو الجزيرة . وقد أفسد هذه الخطة الملك نمر بما أقامه من حراسة على طول الطريق . واستسلم الملك شاويش ورجاله وانضم للحملة في ١٦ شعبان سنة ١٢٣٦ هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٢١ م) وبعد أن دخلت الحملة أرض الجزيرة في طريقها إلى سنار عاد الممالك من منطقة النيل الأبيض إلى شندى - وكان الملك نمر في محبة اسماعيل للاستئناس برأيه في المسائل المحلية التي تتطلب خبرة بالعادات والتقاليد المحلية - وكانت فرصة غيبته من شندى قد سهلت على الممالك أحكام الخطة وتدميرها وفي جانبهم الملك المساعد وعلاقته مع الملك نمر علاقة « نأراً الدم » يطالبه به نمر .

ب) لم تكن العلاقة في يوم من الأيام على شيء من التفاهم بين الملك نمر والملك المساعد لما كان بينهما من « نأراً » وقد حدثت بينهما قبيل وصول الحملة المصرية بسنوات قتال عرف بحرب « العواليب » وكان الملك نمر قد استنجد بسلطان سنار لرد طغيان المساعد وقبيل وصول التجارة السنارية تخرج مركز نمر إلى الحد الذي جعله يفكر في الحرب والالتجاء إلى المجاذيب في الدامر وفعلوا أخذ في تنفيذ خطته هذه وعند وصوله إلى « جبيل أم علي » اجتمع قادة جيش نمر وتداولوا أمرهم واستقر رأيهم

على الاستعانة بالأنقيب (شاعر الملك) ليشير حماس الملك نمر وشقيقه عن عزمه والعودة إلى محاربة الملك المساعد خوفاً من عار الحرب ، ودخل الأنقيب على نمر الذي كان مستلقياً على سريريه وأنشده قائلاً .

متعدد تقول سوترية (١٦) ورايط لك قلباً ينط الحرباً
الميتة ومات التربة (١٧) أفضل من تقيع القرية (١٨)

وقال أيضاً .

ما شفت أبوك يركب على المتورى ينتر هنا وحسه فى قوز برى (١٩)
أما أركب كاس وقل للخيال أنتى وأما أقعد فكى وود مرتضالكى برى (٢٠)
خاطب والأنقيب الأرباب إدريس عم الملك نمر منشداً .

إدريس يا عريس أضمرت بالرق إدريس مدقع الباشا إلى ذخيرته تبق
أمرق نحاسك شمس ودق
فمدر الله يطيح حتى أن دخل فى حق

وكان أن دفعت الطبول للحرب وعاد نمر وجيشه واشتبك مع المساعد وأسفرت المعركة عن انتصار نمر وعودته إلى شندى . الأمر الذى زادت معه الضغائن بين نمر والمساعد وصار الأخير يتربص الدوائر للنار من نمر الذى اشتهر بتفواه وخوفه من الله وبعده عن اللهو والطرب كمادة زعماء القبائل فى ذلك الزمان ، وكان نمر يكره الحرب والغزو كما جرت العادة بين القبائل .

وقد هرب الملك نمر بعد موت اسماعيل وتحمل المسؤولية لأن التقاليد والعادات القبلية تجعل من زعيم الدار مسئولاً عما يحدث فى داره من أهله أو من يساكنهم (٢١)

(١٦) سوترية : جبل أسوتريا الواقع غرب ميناء بور سودان .

(١٧) الميتة ومات التربة : نموت وتجمدة القبور .

(١٨) أفضل من تقيع القرية : فذلك أفضل من أن تعيش غرباء .

(١٩) المتورى : تصغير المتورى - وهو الحصان العالى - ومعنى هذا أما رأيت فقد كان أبوك يركب الخيل المألبة التى يسمعون صهيلها من قوز برى (قوز برى حلة بيضاء عن شندى) .

(٢٠) الكاس : الحصان الثقال - أنتى : أهجى ومعنى هذا الجزء . أركب الخيل الأصيل وقل لما أهجى وإلا فافسد كالفقيه ولد مرفعى لتعليم الأولاد الفرامنة والكتابة .

(٢١) حدث أن على البربر من الميطانيين قد قتل الشيخ حامد أبو سن فى عام ١٨١٨م فى بلدة الصقية وهرب إلى شندى حيث احتمى بالملك نمر الذى رفض تسليمه للشكيرة الذين زحفوا على شندى وابطأوا بالقرب منها لأخذ الفاتل عنوة . فتدخل التجاذيب للصالح وفى خلال ذلك هرب على البربر فغطت عنه حاية النمر . واقتلت الشكيرة والميطانيين .

وهكذا كان لزاماً على نمر أن يتقبل التبعة ويترك موطنه حتى لا يُلطخ اسمه بالعار
إذا سلم المستولين عن الحادث وقد اختار اخف الضررين وهو الهجرة من بلدة إلى
مكان بعيد عن تناول الحكومة .

مات اسماعيل ورفاقه ، وهرب الملك نمر ورهطه ، وبقي المساعد بعض الوقت ،
يرقب اندلاع الفتنة والثورة الشاملة في البلاد ، حتى تأقأ أكلها بالقضاء على الإدارة
المصرية ، فيحقق أحلامه بأن يقيم شخصه زعيماً على دار الجعليين على الأقل . لكن
الدفتردار قد عاجله بزحفه السريع ، نحو شندى ولتمة موطن الفتنة ، وهناك أراد
أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتبوسين رماه بحربة محاولاً قتله ، غير أنهم لم
تصبه ، فاختلط الأمر وحدثت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء . وهرب المساعد
نحو البطانة قبيل وصول الدفتردار إلى شندى ، الذى سار فى مطاردته واشتبك مع
المهاجرين إلا أنهم تمكنوا من الفرار نحو الحبشة .

وكان لهذه الفتنة أثرها فى المناطق الأخرى ، فى بربر وفى الجزيرة ، وهجر السكان
وبخاصة فى الجزيرة بلادهم ، واعتصموا بمناطق بعيدة عن تناول الحكومة ، وتعطلت
الزراعة وتوقفت الحياة اليومية ، ولم يكن من الميسور تحصيل الأموال الأميرية ،
وبذلك كانت المهمة شاقفة جداً أمام الإدارة الجديدة ، وهى فى أول عهدها للعمل على
إعادة الطمأنينة والاستقرار ، وكان علاج الموقف يتطلب بعض الوقت .

وهذه القضية التاريخية الهامة جديرة بالبحث والتحقيق على ضوء ما قد يظهر من
وثائق جديدة (٢٢) .

(٢٢) أفظر رويل

أفظر مجلة السودان فى مدونات ومذكرات .

أفظر الوثائق بالمحفوظات بالقصر الجمهورى (عابدين سابقاً) .

- ١ - وثيقة رقم ٢٧١ دفتر ١٤ مئة تركى بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٢٣٦ هـ
- ٢ - وثيقة تركية رقم ٨٩ محفظة رقم ٨ بتاريخ ٣ ربيع الأول / ١٢٣٨ هـ
- ٣ - وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ مئة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ
- ٤ - وثيقة رقم ٥١٢ من الدفتر رقم ١٠ مئة بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٨ هـ
- ٥ - وثيقة رقم ١٣ صفحة / ٤٠ دفتر ١٤ مئة تركى بتاريخ رجب / ١٢٣٨ هـ
- ٦ - وثيقة تركية رقم ٢٥ دفتر ١٤ مئة تركى بتاريخ ٢٥ رجب رقم ١٢٣٨ هـ
- ٧ - وثيقة رقم ٥ من الدفتر رقم ١٦ مئة بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٣٨ هـ
- ٨ - مكاتبة رقم ١٠٦ دفتر / ١٤ مئة تركى بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٣٨ هـ
- ٩ - مكاتبة تركية رقم ١٨٩ دفتر رقم ١٤ مئة تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ

٣- تنظيمات الإدارة المصرية :

انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الإدارة المصرية في اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨٢١ م ، وذلك بتنازل السلطان بادي آخر ملوك سنار . وقد شمل امتداد الإدارة المصرية جميع الأجزاء التي كانت في حلف مع سنار ، عدا المنطقة التي تكون مثلثاً قاعدته حوض الدندر والرهد ، شرق سنار ، (ضلعيه ، يمتد على خط يتجه شمال شمالاً شرقياً ليتصل بالحدود الحبشية جنوبى سواكن ، ودخلت في هذا القطاع عطيش (حوض الدندر والرهد) والقصارف (البطانة) ، ويرجع السبب في ترك هذا المثلث إلى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحشة ، في نوع من العلاقات وقد بقي هذا الاعتقاد الخاطئ حتى أوائل ولاية خورشيد أغا (٢٣) .

وأخذت الإدارة الجديدة في وضع الأسس اللازمة لسير العمل ، ويبدو أن الحملة المصرية لم تمكن قد أعدت لها بادية ذي يده خطة مرسومة كاملة التنظيم ، قائمة على دراسات تفصيلية لمختلف المشاكل . لتواجه تطورات الظروف ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر مما فعلت في ذلك الحين ، لأن امتداد الإدارة المصرية ليشمل شطرى الوادى كان أول تجربة من نوعها وانها قد أفادت فعلا من أخطائها - والدليل على ذلك المرسوم الأول الذى الذى أصدره سعيد باشا عند زيارته للسودان (١٨٥٦/١٨٥٧ م) .

ومما يدل على أن الحملة لم تكن مزودة بخطة واضحة انها قد تركت الامر فى المناطق التي تسلمت ولايتها وهى فى طريقها إلى سنار فى يد المشايخ المحليين والكشاف

- ١٠- مكتبة تركية رقم ١٩٠ دفتر ١٤/ تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١١- وثيقة رقم ١٩٤ ترجمة دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٢- مكتبة ٢٥٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٣- مكتبة رقم ١٦٤ سجل رقم ١١ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٤- وثيقة تركية رقم ١٢١ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٥- وثيقة تركية رقم ١١٧ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٦- مكتبة تركية رقم ١٨٥ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٧- مكتبة رقم ٢٧٧ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٣٩ هـ
- (٢٣) أنظر ترجمة صورة مجلس الثورة (عقد فى ١٢ أغسطس سنة ١٨١٦) فى كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٢٣١

والقوانين (القوانين مفردتها قواس) ، وبعض الجنود من المرتقة (الباشوزق) في المدن الرئيسية ، وفي هذا ما فيه من تجزئة للمسئولية الادارية ، وبخاصة في بلاد واسعة الأرجاء كالسودان ، لا تربط بينها مواصلات سريعة . وكان من أثر هذه التنظيمات أحياء التقاليد القديمة ، بشأن تحصيل الضرائب عما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلي .

١ - التنظيمات الضريبية:

بدأت الحملة بعد تنازل السلطان باي مباشرة ، بتكوين لجنة من ديوان أمضى والمعلم حنا الطويل بالاشتراك مع الأرباب دفع الله ولد حمد في وضع التنظيمات الضريبية ، وقد فتحت هذه اللجنة دفتار الحراج وأرسلتها إلى القاهرة فيبيل عودة قائد الحملة اسماعيل كامل ، من حملته على المناطق جنوبي منجه ، وكانت التقديرات التي وصلت إليها هذه اللجنة ، على حد قول المعلم حنا الطويل أمام مجلس المشورة (١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦ م) ، وزعناه (المال) على حسب قدرة كل واحد منهم (أهل القرى ألغ) وعلى حسب الموجود . ويبان هذه التقديرات كالآتي : -

كيسة

١١١٠٠

سنار

٢٩٤

حلفا

٢١٤

العرب بحمة النيل الأبيض

الجملة ١١٧٠٨ أو ٥٨٥٤٠ جنيناً (الكيسة = جنينات) (٢٤)

وبعد ذلك بعام تقريباً فتحت دفتار « الفردة » ديسمبر سنة ١٨٢٢ م) وعمد أمر تحصيل هذه للضرائب إلى الجهاز الإداري المحلي لكل منطقة والذي تكون كما سبق أن أوضحنا من الشيخ والكاشف والقواس والجنود ولم يزود هؤلاء بالعدد الكافي من الكتاب للقيام بعمليات القيد بل ترك الأمر في يد أولئك المحصين وفي ظل هذا النظام أخذت فيه التقاليد والعادات مكانها حيث كان على دافع الضرائب أن يدفع مبالغ إضافية تشمل حق الضيافة وواجب الشيخ والكاشف وهكذا إلى الحاكم الأعلى ، مما ارتفع بالتحصيل إلى أضعاف مضاعفة .

(٢٤) انظر ترجمة صورة مجلس الدورة في كتاب المسح العمرى في السودان للدكتور محمد

نؤاد شكرى ص ٢٢٨

ما للنظام الذى اتبع بشأن تحصيل المال من البدو وغيرهم من الصابرين فى المناطق الصحراوية فإن مبالغ معينة قد فرضت على زعيم كل قبيلة أو شعبة وروعى فى ذلك التقدير حالتها الاقتصادية بما تملكه من ماشية النخ أو ما تقوم من نشاط فى تجارة القوافل . وترك للزعيم أن يجمع المال من أفراد قبيلته على طريقته الخاصة فيأخذ من زيد مثلاً مائة قرش ومن عمرو عشرة قروش . ويأخذ الزعيم فى تقديره الفردة أن تكون حصيلته أكثر مما هو مقدر عليه فعلاً لدفعه لخزينة الحكومة . وهذا الفرق بين المتحصل فعلاً وبين المقدّر أصلاً كجباية على قبيلته يشمل حق الضيافة وحق الكشاف وغيره من رجال الحكومة . وقد ذكر موسى الكشاف أمام مجلس المشورة أن فى مقدمة الأكالين هناك هو الرعسكر ثم الكشاف ويأتى القاتمون فى الصف الثانى والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يلهم يأكلون (٢٥) ، سواء كانت هذه الأموال الإضافية تصل إلى أولئك أو لم تصل فإنها كانت تجمع فعلاً .

وتطورت التنظيمات الضريبية مع الزمن فشملت نواحي النشاط الاقتصادى المختلفة ومن ذلك العشور على الدواقي ، النخيل ، الزراعة ، وعوائد الأملاك ألخ الخ والويركو على أصحاب الحرف والصناعة والجارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظام الالتزام (٢٦) . وهكذا نجد أن النظام الضريبى قد قام على طريقتين الأولى التى استحدثتها الإدارة المصرية والثانى ما أخذته من المتوارث القديم وهذا المزيج من الأسس كان مصدراً لخلق بيئة صالحة لانتشار جريمة الفساد التى كان لها أبعاد الأثر فيما حدث فى السودان من تطورات وبخاصة أن أمر التحصيل للمال قد ترك فى أيدي الزعامات المحلية يعاونها الكشاف وبعض القواسين والجنود من الباشبوزق .

وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثر فيها التعدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الحيلة والجنود المشاة لحفظ الأمن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم إما كاملاً أو مناصفة .

(٢٥) نفس المصدر ص ٢٢٥ وكان موسى الكشاف هذا أحد معاونى خورشيد باشا وقد توفى فى جبال الصمد (أعلى النيل الأزرق) فى سنة ١٨٢٧ م .
(٢٦) أنظر مكانة محمد على بن سرعسكر السودان اسماعيل باشا التى يأمره فيها بأن يعطى كردفان لأحد الكوكك المحليين نظير جعله أمين يدفع سنوياً غير أن الدفتر دار قد عارض هذه الفكرة - أنظر وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ مائة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ميلادية) ودفتر ١٤ مائة ثركى وثيقة ١٣ صفحة ٤ بتاريخ رجب ١٢٢٨ ونفس الدفتر مكانة ١٠٦ بتاريخ ١٥ شوال ١٢٢٨ هـ .

ونبين فيما يلي مقارنة بين التقديرات الضريبية في مختلف أنواعها كما بدأت في عام ١٨٢١/١٨٢٢م وما وصلت اليه من عام ١٨٦٩م حتى عام ١٨٧٩م ونوضح البيانات عن فترتين منفصلتين أولاها من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤م والثانية من ١٨٧٥ إلى ١٨٧٩م وهذه الفترة الأخيرة هي التي كان فيها غوردون باشا حاكما للسودان وأقاليمه. وما يجدر توجيه النظر إليه ان الميزانية كانت تبدأ سنتها المالية من سبتمبر في سنة إلى سبتمبر من العام التالي، وقد استمر هذا النظام معمولاً به حتى سبتمبر ١٨٧٥م وتعدلت ميزانية ١٨٧٥/١٨٧٦م وشملت المدة من سبتمبر سنة ١٨٧٥ حتى ديسمبر ١٨٧٦م أي ان تلك السنة كانت خمسة عشر شهرا. وصارت السنة المالية بعد ذلك تبدأ من يناير إلى ديسمبر من كل عام.

تقديرات المتحصل فعلا			
جيه	جيه		
٣١٥٤٩١	٣٧٨٥٨٤	١٨٧٠	من سبتمبر سنة ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٠
٢٥٧٣٧٣	٣٥٩٦٦١	١٨٧١	• • • ١٨٧٠
٢٤٠٣٣٩	٣٥٦٩٩٤	١٨٧٢	• • • ١٨٧١
٣٠١٢٢٧	٣٦٣٠٠٣	١٨٧٣	• • • ١٨٧٢
٣١٩٢٩٢	٣٦٩٣٣٦	١٨٧٤	• • • ١٨٧٣
١٤٢٣٧٢٢	١٨٢٧٥٧٨	الجملة	
٠٢٩٣٨٥٦		المعجز	

تقديرات المتحصل فعلا			
جيه	جيه		
٢٢١٧٦٧	٣٧٠٨٦٥	١٨٧٤	سبتمبر ١٨٧٤ إلى سبتمبر ١٨٧٥
٣٦٣٨١٨	٤٨٢٩٨٥	١٨٧٦	سبتمبر ١٨٧٥ ديسمبر ١٨٧٦
٢٧١٨٧٣	٣٦٢٧٤٤	١٨٧٧	يناير - ديسمبر سنة ١٨٧٧
٢٨٣٨٢٢	٣٩٢٤٩٨	١٨٧٨	• •
٢٨٧٧٠٥	٤٠٢٥٩٥	١٨٧٩	• •
١٥٣٨٩٨٥	٢٠١٢٥٩٧	الجملة	
٤٨٣٦١٢		المعجز	

وكان المعجز في الفترة الأولى ٣٩٣٨٥٦ أي بمعدل ٧٩٠٠٠ سنويا
وفي الفترة الثانية ٤٨٣٦١٢ • ٩٧٠٠٠ •

ويلاحظ من الأرقام الخاصة بالفترة الأولى (من سبتمبر ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤ م) ان العجز في السنين من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ قد بلغ حوالى ٢١٩٠٠٠ ج و يرجع ذلك إلى التعديلات التي أدخلت بتخفيض الضرائب لتشجيع الزراعة ، (وقد بلغ العجز في ١٨٨٢ م ١٠٣٠٠٠ ج تقريباً ولا يشمل هذا الرقم المال المخصص في الميزانية للمعاشات) ، ولذا لا نستطيع تحليل الأرقام ومقارنتها وترك هذه المسألة لدراسة خاصة تتجمع عناصرها من الوثائق وتحقيق الظروف المحلية عن حالة الفيضان والأمطار وإلى ماغير ذلك من العوامل التي كان لها أثرها في الاقتصاد القومى .

ولما كانت البلاد تعتمد اعتماداً كلياً على محصولها الزراعى ورعى الماشية والقائمين عليها من الرقيق فان الميزانية العامة كانت دائماً مصدر متاعب للخزانة المركزية لنفطية العجز .

وبالإضافة إلى عبء الضرائب الذى قد يرتفع في بعض الحالات إلى أضعاف مضاعفة كما أوضحنا من قبل فقد كان على المواطن العادى أن يدفع جانباً من دخله الخاص إلى الفقيه المحلي الذى يرتبط معه برباط روحى وقد خلقت هذه شعور قلق وبخاصة عندما تقل غلة الأرض أو تنفق الماشية لسبب أو آخر (قلة المطر الموسمية هبوط الفيضان عن مستواه في بعض السنوات والآفات الزراعية وأمراض الماشية) .

ب - الإعفاءات الضريبية :

وقد أعذقت العطايا والامتيازات على رجال الدين والفقهاء والاعيان وشملت امتيازات الفقهاء القائمين عليها للتعليم الدينى الاعفاء من الضرائب التي تجبى عن الأرض التي يزرعونها^(٢٧) غير أن تلك الطمأنينة وذلك العمل على تعمير البلاد وقيام حكومة مركزية تتعامل مع الأفراد في مختلف البيئات الاقليمية لم يكن الأمر الذى يتقبله المجتمع في مرحلته التي كان عليها عند امتداد الإدارة المصرية ، فالبلاد كما سبق أن أوضحنا قد وصلت إلى أدنى مراتب التدهور والاضلال وتفرق أهلها إلى مجموعات قبلية يناصب بعضها البعض العداء والبغض وقد فقدوا شعورهم بالحاجة إلى حياة استقرارية تهدف إلى توحيد الصفوف وتمثيلها لتمكين البلاد من السير في ركب الحضارة والتقدم كما كانت تبغى السياسة التي جاء بها امتداد الحكم المصرى . فالمواطن العادى كان يزرع الأرض ليستنبت منها حاجته من الغلال ولم تكن عليه التزامات

(٢٧) الدكتور عيد العزيز عبد المجيد - كتاب التربة في السودان جنوباً ص ١٧ .

محددة نحو زعيمه القبلي في الصورة التي فرضتها الإدارة الجديدة . وقد أوجد هذا شعوراً خفياً نحو نظام الحكم المستحدث وبخاصة عندما يرى المواطن العادي أن الأعيان وغيرهم قد منحوا اعفاءات وعطايا الأمر الذي ألقى بعبء دفع الضرائب وغيرها على الفرد . وقد كان لهذه الحالة أثرها في المجتمع مما جعل الاستفادة من التنظيمات الجديدة بعيداً عن المساهمة في تثبيت أركان الحياة المستقرة وإرساء قواعدها لتقف أمام العواصف وما كان لها أن تنعم بذلك النوع من الحياة الذي ينشده الحكم والتوسع الأوروبي يرقب تطور الأحوال ، وبالإضافة إلى هذه الاعفاءات التي منحت لفريق من أهل المدن فإن هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما أزرى روح الحسد والتباغض بين القبائل .

وتوضح فيما يلي الجبايات التي كانت مقررة على المشايخ الضاربين في البادية وذلك قبل عام ١٨٨١م ولو أخذنا بسين الاعتبار عند تقدير مال الحكومة عدد أفراد القبيلة وقدرتهم المالية فيما يملكون من حيوانات وموارد أخرى لوجدنا تفاوتاً كبيراً في تلك التقديرات .

أقل مبلغ جيه	أعلى مبلغ جيه		
٤١٠	١٦٣٢٧	مديرية الخرطوم	قبيلة الشكرية
١٢	٦٨١	بربر	الكيلاب
٦٥	١٨٩	دنقلة	القراريش
١٩	١١٠٢٣	الثاكة	الضبابية
١٣١٦	٩٠٢٣	سنار وفازو على	رفاعة الهوى
٣٩	٢٠٠٠	سواكن	هباب
		مصوع	عرب رحل شياخة
٦	٣٣٦	علي عامر	حسنيين وحسين
٥٥	٨٤٧٢	كردفان	الزبادية
٢٥	٣٩٢٠	دارا	الرزيقات
٠٠	٦٠٠	كبكيه	الفلاحة
١٠٨	٢٥٠٠	دراهور	الزبادية
			بشير

ج - التنظيمات الإدارية :

وعندما اندلعت نيران الفتنة بعد القدر ياسماعيل وصحبه في شندى وما تلى ذلك

من فرار الاهالى إلى دار عطيش والقضارف وغيرها من المناطق البعيدة عن متناول الحكومة « صار تحصيل المال مستحيلا . ولهذا فان مهمة خلفه عثمان بك جركرس كانت في غاية من الصعوبة وبقي الحال على هذا المنوال حتى أوائل عهد خورشيد آغا (تولى منصب الحكمدارية من يونيو ١٨٢٦ حتى نهاية عام ١٨٢٨ م) .

وإذا رجعنا إلى إجابة موسى الكاشف أمام مجلس المشورة (٢٨) حيث يقول : « أما الحكام الذين كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لفاية الآن فلم يبحثوا عن شيء ما ولم يقوموا بأي عمل - فلم تعمرو البلاد وظلت أخذة في الخراب - أعني ذلك أنه عند انفصال أى حاكم وتعيين آخر يبدلا منه لم تكن تجري محاسبة بينهما ، ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه - فإذا كان المأمور الذى يأتى يسأل ويفحص أولا طبق أصول الديوان ثم يدخل الامور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمره فاننا نجد في هذا ما يشير في صورة أو أخرى أن الامور كانت متروكة كلية في يد الشايخ ومعاونيه .

وأضاف موسى الكاشف : ولذلك قد طلب استخدام كتاب فاذا تم هذا التفتيش كما يريد مولانا فان الكتاب المرسلين الى تلك الديار سيوزعون على الاعمال التي تحتاج اليهم لاحتياج البلاد الى أمثالهم لان الاقليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملا في العهد القديم - وقد طلبنا الآن كتابا للحاجة الماسة بهم ونضبط أمور الديوان (٢٩) وقد عمل خورشيد آغا على بث روح الطمأنينة والاستقرار لانه اش البلاد بعودة الفارين الذين آمنهم وازالة غلوفهم ، وأخذت البلاد تمارس تدريجياً حياتها اليومية في ظل أحوال مستقرة وأمن مستتب، وأدخلت زراعات وصناعات جديدة وأصلحت مساحات واسعة من الاراضي التي كانت مهجورة بسبب فرار أهلها بسبب الفتن ، التي حدثت عند مقتل اسماعيل في شندى ، وانتظمت الحياة الاقتصادية، وبدأ التحسن في مستوى المعيشة ، واكتسب المجتمع حياة ماثوا النشاط ، وكان تطور الاحوال المضطرد ماثرا اعجاب وتقدير الرحالة ، الذين زاروا السودان في تلك الفترة من الزمن. واستمرت السياسة الاصلاحية ، التي بدأها خورشيد آغا ، طوال عهد خلفه احمد باشا جركرس الذي اشتهر في السودان باسم « احمد باشا أبا أدان » (أبو أدان)

(٢٨) دكتور شكرى ص ٣٢٤

(٢٩) نفس المصدر السابق ص ٣٢٤

لضخامة أذنيه ، كما أطلق عليه احمد باشا الجزائر وتميزت شخصية أبو ودان بتوطيد العلاقات الودية مع زعماء البلاد كما كان يتبادل معهم قرض الدويبة ومن ذلك ما قاله مادحا الشيخ إدريس (٣٠) .

ادريس وداعة اليد الزيلية الاسد المشية الضولعية
قر سيفين مالوش تحية يريد يوم الكتال واشبكة (٣١)

واهتم احمد باشا بالتوسع الزراعي وإنشاء مصانع في الخندق والمتمه والكاملين وغيرها واستخدم فيها عدداً من العمالي ولسبب لم يعلم بعد تمرد هؤلاء وأضربوا عن العمل في يوم واحد شغل جميع المصانع . وهرب الكثير منهم إلى ديارهم في الجبال جنوبي كردفان ، يعتقدان هؤلاء كانوا من الرفيق الذي أدخل الجندية ، ويرجع هربهم إلى ما كان يلاقه اخوانهم من زعماء القبائل الذي ألحقوا بخدمتهم لتحصيل المال غير أن هؤلاء قد استخدموهم في الخدمة البيتية وأغلظوا في الاساءة اليهم .

وزار السودان في مدة حكمه محمد علي وتفقد أحواله ونظر في شؤنه لتدعيم حياته الاقتصادية وتحسين موارده .

وتوفي احمد باشا في سبتمبر عام ١٨٤٣ م واختلفت الروايات المحلية في أمر موته فمنهم من يقول انه قد جنح إلى الاستقلال بالسودان عن مصر ، على أن يكون تابعاً للباب العالي مباشرة ويقول البعض ان أحد زعماء السودان عرض على أحمد باشا أمراً أصدره السلطان سليم في حوالي ١٥٢٠ م بأن يكون السودان ولاية تابعة للسلطان العثماني مباشرة . وان احمد باشا أرسل كتاباً إلى الصدر الاعظم في هذا الشأن . وقد أغضب ذلك محمد علي الذي أرسل قوة من مصر بقيادة السنجق ، داموس أغا ، للقبض عليه . وما بلغ ذلك احمد باشا تناول السم وكانت وفاته بالخرطوم ودفن في القبة الشرقية .

ويبدو أن هذه الإشاعات كان لها أثرها من حيث إدخال تعديلات على التفسيرات الإدارية في السودان وعلاقتها المباشرة مع القاهرة وسببت هذه التغييرات والتعديلات

(٣٠) الشيخ إدريس ود ناصر خال الشيخ عبد الرحمن البدوي الأزهرى ال عيسى .

(٣١) ومعنى هذا « ادريس الذي أودعته البيدة الزيلية كرايتها . كالأسد في مشجته القوية - وكأنه قمر سيفين ليست له تحية - يريد اليوم للقتال والتدخين (التباك) التارجيله » فقلت عن الشيخ شمس الدين الخنفي في وادي مدني عام ١٩٤٣

اضطراباً في الاداة الإدارية وانعدمت المسئولية لقيام سلطين أحدهما الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان . وثانيتها رجوع حكام الأقاليم فى الكثير من شئونهم المالية وغيرها إلى النظارات فى القاهرة . وزادت المشاكل تعقيداً بالازمات السياسية التى قامت بين الباب العالى من جهة وبين عباس الاول من جهة أخرى .

وجاء من بعد أحمد باشا أبوردان واحد باشا المنكلى ، ولم يبق فى السودان إلا فترة قصيرة وتلاه خمسة عشر حاكماً للسودان فى وظيفة الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان ألخ . وذلك حتى فبراير ١٨٧٧ م عندما تقلد الحكمدارية الجنرال غوردون باشا . وهذا يعنى ان الخمسة عشر حاكماً قد أمضوا فى الحكم ما يقرب من الواحد والثلاثين عاماً أى بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل منهم وأطول فترة وهى خمسة سنوات تقريباً أمضاها جعفر باشا مظهر وستة منهم أمضى كل منهم سنة واحدة تقريباً . وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على ان هذه الفترات لم تسمح بالوقت الكافى لدراسة الأحوال والعمل على علاجها . وهذا أيضاً مما جعل الحكام فى السودان يعملون دون سابق خبرة وتجربة كما تتطلبه الادارة الجديدة من دراية خاصة لتصريف المعاملات اليومية مع الجماعات المتباينة فى نطاق سياسة عامة بعيدة المدى تهدف إلى الربط بين مختلف المجموعات القبلية ، الأمر الذى لم يكن موضوع إدارة جهاز حكومى عادى بل هو بالعكس أعنف من ذلك غوراً فهو فترة لانتقال شعوب قصصت القرون العديدة فى حالة متأخرة عن ركب الحضارة ، وكان من الضرورى العمل على تنسيق الجهود بما يتمشى مع الظروف الواقعة محلياً للأخذ بيدها تدريجياً نحو مستوى رفيع .

لا شك فى ان امتداد الإدارة المصرية إلى السودان قد حملت فى ركبها أكثر من فكرة ورأى جديد واستخدمت وسائل منظمة للنقل ، وفتحت دور التعليم وأرسل عدد من أهالى البلاد إلى شمال الوادى (مصر لثلى المعرفة والتدريب على الزراعة وكثير المال المتداول فى الأيدى وأخذت الطريقة القديمة طريقة التعامل بالمقايضة فى الاختفاء ، وديت الحياة فى المدن والقرى التى بدأت تحتل مكائنها فى اقتصاديات البلد لأول مرة بعد أن كانت فى عهد السلطنة السنارية تدار على صورة الجمهورية التجارية لمصلحة فئة قليلة ، واكتسب الفرد شخصيته وحرية فى التعامل فيما ينتج وشملت سياسة التعمير والإتشاء مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين ، الذين أرسلوا من مصر إلى السودان للمساهمة فى تقدم البناء والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية . كما أرسلت مصر إلى السودان الإعانات المالية والحبوب لتفريج الضائقات التى أصابت البلاد

سنة بعد أخرى لسبب قلة الأمطار الموسمية وتكاد أن تكون السنوات المجذبة في حلقات دورية في حدود السبع سنوات .

* * *

وكانت لزيارقي محمد علي وسعيد للسودان الأثر في رفع معنوية الأهالي وبخاصة بعد أن أصدر سعيد في عام ١٨٥٧ م الأربعة مراسيم ، ويعتبر المرسوم الأول الذي وجه إلى المديرين كلائحة تأسيسية لارساء جهاز الإدارة في السودان على أسس سليمة يشترك أهالي البلاد في إدارة شئونهم وتقدير الضرائب وغير ذلك عن طريق المجالس المحلية وجمعيات ذات صلاحيات واسعة .

وقد حاول سعيد باشا أن يصلح الاختطام الإداري بإقامة منظمات محددة الخطوط يشترك فيها الزعماء والسكان من أهل السودان في صورة مجالس محلية لها دورها البارز في إدارة البلاد (٢٢) إلا أن المشاكل الكثيرة ذات الأهمية البالغة قد عطلت جزئياً وكلاً تلك المشروعات الإصلاحية وساعدت على تفاقم الحال واضطرابه فيما بعد السبب استغلالها في إسناد مراكز المسؤولية بطبقة خاصة .

وأخذ الولاة الذين حكموا البلاد في الاهتمام بالمسائل السودانية وارساء قواعد حياة المجتمع مستقر وبذلت الجهود لترغيب المجموعات الضاربة في البادية لسكنى مواطن الزراعة والإفادة من مياه الروافد . ولقد بذل الحكمداريون جهوداً صادقة في سبيل تحقيق ذلك رغم الصعاب التي نجمت عن التغيرات المتتالية في الحكمدارين والتي كان من شأنها أضعاف مقدرة الحكمدار على العمل وتصريف الشئون وفق خبرته المحلية . كما أن هذه التغيرات الكثيرة عرضت الحكمدارين إلى الشائعات المغرضة التي تربت عليها الاسماء إلى الإدارة المصرية في السودان . ونذكر من هؤلاء أحمد ممتاز باشا (٢٣) الذي نعتقد أن التاريخ لم ينصفه الانصاف الكامل بما يتفق مع سيرته الحسنة في السودان . بل بالعكس لقد لقي ممتاز أفسى ما يلقيه إنسان من ظلم أخيه

(٢٢) كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٢٤٥/٢٥٤

(٢٣) تولى أحمد ممتاز باشا إدارة مديرية عموم في السودان من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٢ م ودبرته له الشكاوى التي وقعت إلى الحاسوب وتحققها ظهر فيها بعد حبه في القلة بالقاهرة زهاء ما يترب من الشهر وقد مات مغموماً بعد عودته إلى الخرطوم حيث دفن . وأشاع أعداؤه في السودان ومصر من أهل القاد ما أساء إلى مسمعته - أنظر الملحق الثامن حيث تعرض لدرجة حياة أحمد ممتاز باشا .

الانسان - عمل ممتاز خلال خدمته في السودان على التوسع الزراعي وخاصة القطن وزراعته على نطاق واسع في دلتا خور بركة وفي حوض القاش ونهر العظيرة كما عمل على اصلاح أراضي دنفله وشق القنوات في تلك المنطقة لتوسيع رقعة الارض الصالحة للزراعة وإنشاء بعض الصناعات بما يتناسب والحال في كل اقليم . و فكر في إنشاء الخطوط الحديدية لربط البلاد ومخارجها في الشمال والشرق وتعميد الطرق وتنظيم المواصلات البرية والمائية والبريد والمواصلات السلكية (٣٤) .

وقد كانت الفرصة مواتية للافاضة من زراعة القطن في تلك الحقبة من الزمن بسبب الحرب الأمريكية وذهب ممتاز ضحية الدس والكيد من اسماعيل المفتش الذي كان يخشى من تقرب ممتاز من الخديو الذي بدأ في الأخذ بمقترحاته وقد تعاون معنى بك الشامي اسماعيل المفتش بتقديم الشكاوى ضد ممتاز (٣٥) وتحريض الاهالي على مثل ذلك .

وقد تأثر مجرى الامور في السودان بالاحداث التي آلت بعصر خاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ م مما هيا للسياسة البريطانية فرصة الانقلاب من موقف الانتظار ومراقبة تطور الظروف الى العمل الجدى . ولعبت السياسة الدولية دورها الامر الذي افادت منه بريطانيا التي عمل الخديو على إرضائها والاستجابة لمطالبها ، وبخاصة عن الرقيق ، وقد تعين صمويل بيكر لإدارة خط الاستواء للقضاء على النخاسة وقد حارب التجار ونكل بهم وامدت قوته الى الاهلين فزاد بعمله هذا كراهية الاهالي للحكومة وقصدوا ثقتهم بها وترتب على ذلك ان فقدت الحكومة نفوذها وصارت القبائل تربع برجال الادارة للفتك بهم ، وهكذا نجح صمويل بيكر في نشر روح التدمير بين الاهالين الذين صاروا يترقبون الفرص للخلاص من نيرها ، واحتفى الكثيرون منهم بتجار الرقيق الذي أنشأوا محطاتهم كما أسلفنا بعيداً عن سلطان الحكومة . عاد صمويل بيكر الى بلاده وعين غردون مكانه ليصلح من اخطاء سلفه في أعالي النيل ، وطلب اليه الخديو أن يحرص على الحصول على رضا الاهالي ومحبتهم والابتعاد عما يسبب عداوتهم للحكومة . وقد حدد الخديو الغرض من تعيين غردون في ثلاث نقاط أولها استتباب الأمن والسلام وثانيهما القضاء على تجارة

(٣٤) أنظر كتاب المواصلات في السودان وادى النيل لشاطر بصلي عبد الجليل

(٣٥) اسماعيل سرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٢ - ١٣ هـ

الرقيق وثالثها فتح البلاد الشاسعة للتجارة . ولكن غردون ولو أنه نجح في بعض الشيء إلا أنه لم يكن موفقاً في الاجراء الذي اتخذه لوقف نشاط تجار الرقيق ومحاربة هذه التجارة ، ونعني بذلك اعلانه احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة (مارس سنة ١٨٧٤) (٣٦) ، حيث نجح ذلك اغلاق النيل الأبيض للملاحة وتمطيل التجارة ، فازداد بذلك تدمير النجار من الحكومة التي سلطت عليهم رجالها وغالبيتهم من الاوروبيين المغامرين وخولت لهم سلطات واسعة لتنفيذ السياسة في نطاق ماحدده الحديود عن مهمة غوردون التي أشرنا إليها سابقاً .

وتابعت المشاكل وتشابكت أطرافها فنوبار يذهب إلى انجلترا ناصحاً بفرض الحماية البريطانية على مصر لمواجهة التقدم الروسي في البلقان وفي آسيا الصغرى (٣٧) . وألمانيا تقترح على بريطانيا على لسان مستشارها بسمرك مثل ذلك تحقيقاً لأهدافها السياسية نحو روسيا وفرنسا وكان لهذه الجهود أثرها في خلق الارتباك المالية في مصر وتمطيل حركة الانشاء والتعمير التي رستها مصر للسودان . وسادت حالة الركود ، وجاءت معدات الرقيق في ١٨٧٧ م وتعتبر الصرامة التي اتبعت في تنفيذها في السودان العامل المباشر في تكتيل حركات التدمير ضد الحكومة ، ثم استحكمت الازمة المالية واستنفذ اسماعيل جهوده لانقاذ الموقف ، ونصحه الدول بالزول عن الحكم فلما رفض سم - الدول لدى الباب العالي لعزله وتم لها ما أرادت ، وبدأت من ثم التطورات التي انتهت في عهد خلفه بالاحتلال البريطاني ، وقد سبقته المذكرة المعروفة بمذكرة غيبثا (المذكرة المشتركة) للاحتفاظ بتوفيق في الحكم . كضمان لتقوم مصر ووقايتها ، وقد اشتركت في هذه المذكرة فرنسا وانجلترا عندما أحسنا بأن الوطنيين المصريين سوف ينادون بخلع توفيق الذي كان مرتبياً في أحضانها .

• • •

وقد أفاد امتداد الحكم المصري إلى خط الاستواء تقدم الكشف الجغرافي وعلوم الأجناس والنبات والحيوان كما تمكنت الادارة المصرية من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق بعد أن سيطرت على منافذها على البحر الأحمر ومواطنها في الداخل . فقد تنازل الباب العالي لمصر عن مصوع وسواكن (عام ١٨٦٥ م) واستولت

(٣٦) أنظر كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٧٧ / ١٨٩
(٣٧) أنظر أدوارد ديسي في كتابه انجلترا ومصر ص ١٩ - ٢٠ لندن ١٨٨١ وقصة الحديوية ص ١٦٦ أيضاً معاديات نوبار والغير الأتالي كما أشار إليه لاهر ص ٢٥٩

مصر على موافق شاطئ البحر الأحمر الأفريقي . بربره وزيلع وتاجورة واستولت في الداخل على هرر (١٨٧٢ - ١٨٧٥) وفي الغرب تسلمت دارفور (١٨٧٤ م) فأحكمت بذلك الحصار في مخارج تجارة الرقيق . وبقي متنفذ جنوبى في منطقته نهر الجوبا ، غير أن الحكومة البريطانية عارضت في امتلاك مصر لتلك الجهة يدعى أن هذه المنطقة واقعة تحت سيادة سيد برغش سلطان زنجبار (٢٨) ، جرى كل هذا على أطراف البلاد السودانية ، أما في داخلية البلاد فإن الأحوال أخذت في شق طريقها الطبيعي نحو الاستقرار كما أخذ المجتمع في تكييف مقوماته وتوجيهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويوحد كلمتها لنشأة أمة سودانية الأمر الذى عملت الإدارة المصرية منذ امتدادها إلى السودان على تحقيقه .

٤ - أزمة الحكم ومشكلاتها

حاولت الإدارة المصرية في النيف والثلاثين عاما الأولى من امتداد الحكم المصرى إلى السودان ، أن تقيم جهازاً للحكم ، استمد خطوطه العامة من التنظيمات التى كانت متبعة في شمال الوادى (مصر) مع الأخذ ببعض التقاليد المحلية المتوارثة ، وقد اشركت الزعماء المحليين من مشايخ وغيرهم في تحصيل الجبايات المختلفة في نطاق التنظيمات الجديدة . وقد نقلت في نفس الوقت السلطات التنفيذية الفعلية التى كان يمارسها هؤلاء الزعماء إلى أيدي الكشاف والمأمورين والقواسين وغيرهم يعاونهم بعض الجنود ، وكان الأخذ بهذا النظام مصدر الخطر على الاستقرار الذى كانت تهدف اليه السياسة المصرية التى امتدت إلى السودان لتطهيره من عناصر الغرضى والاضطراب . ففى في تطبيقها ذلك النظام إنما قد أغفلت أن تراعى بعين الاعتبار حالة الفلق التى كان عليها المجتمع ، الأمر الذى يتطلب العمل التدريجى للأخذ بيد المجتمع حتى يصل إلى مرحلة يتجاوب فيها ويتعاون مع التنظيمات الجديدة .

فالمرحلة كانت مرحلة انتقال حضارى ، تحل فيها حضارة جديدة محل حضارة بائدة ، لا تتمشى مع روح العصر ، وبخاصة أن السودان قد أمضى أكثر من ثلاثة قرون في نطاق السلطنة السنارية والمشيخات المتعالفة معها ، والتي كانت نظمها كما سبق أن أشرنا ، تستمد أسسها من الجمهورية التجارية ، لذلك نجد في واقع الأمر أن

(٢٨) أرسل الخديو اسماعيل حملة من السويس في ١٩ - سبتمبر سنة ١٨٧٥ م إلى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق مع خط الاستواء لمكافحة تجارة الرقيق تنفيذاً لتوصية غوردون .

الاصلاحات التي شملت ترقية الزراعة والتوسع في إعداد المساحات من الارض الصالحة للزراعة وتحسين وسائل الري والاكثر من الغلات وتنوعها وإنشاء صناعات جديدة ، ونشر التعليم في مناهجه التي تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه الخلاوى (مفرداً خلوة - الكتاب) التي قصرت جهودها نحو التعليم الديني المنقول ، كما أدخلت الادارة الجديدة تحسينات شملت مختلف نواحي النشاط ، من استنباط الامن وتسهيل المواصلات وتعبيد الطرق ، وقد دفع ذلك بالبلاد كثيراً نحو التقدم ، فان تلك الجهود الانشائية كانت بالنسبة لحالة المجتمع حالة انتقال مفاجيء لم يمد له باناحة الفرصة الكافية من الزمن للتدرج حتى يصل المجتمع إلى المستوى الذي تسكيف معه حالة البلاد وتأخذ الامور مجراها الطبيعي . وكانت الاحوال تتعرض لهذه الفتنة أو ذلك القلق الذي يصور حالة المجتمع النفسية ، ولم يكن رجال الادارة في السودان من ذوي الخبرة فالعهد بهم قريب منذ قيام حكم في مصر له طابعه الجديد بعد أن طويت صفحة الادارة المملوكية - وبعد دراسة المشاكل التي اعترضت سير الحكم خلال فترة زادت عن خمسة وثلاثين عاماً ، أصدر سعيد باشا مراسيمه خلال زيارته للسودان في عام ١٨٥٧م وكان في تلك المراسيم العلاج السريع للقضاء على عناصر التخلف ، وبالرغم من أن هذه الاصلاحات قد جاءت في وقت أخذت فيه المشاكل السياسية بالنسبة لمصر في الازدياد ، فانها أثمرت لحد ما في إرساء أسس جديدة لاشراك الزعماء والمواطنين إثمراً كافيلاً مباشراً في إدارة أمورهم وتصريفها وفي تحمل المسؤولية ، ولو قدر لتلك الاصلاحات أن تأخذ طريقها نحو التنفيذ في نطاق سياسة تقليدية يربها الخاف عن الساف ، ولم تتعرض للتيارات الاجنبية الخفية ، لسكانت نتائجها بلا شك أعمق رسوخاً في المجتمع ، وفي إرساء قواعد على أسس سليمة تتماشى مع طبائع الاشياء ، وبالرغم من تلك التيارات الخفية فان الاصلاحات قد أوقدت جذوة الوعي القومي ، الذي سار في اتجاهات متراخية تحركت من الزمن في اتجاهات مختلفة .

١ - مشكلة الرقيق :

وبينما كان المجتمع يعالج مشاكله ليتخلص منها وتستقر أسسه ، إذا به يفاجيء بمشكلة أخرى أشد تشكيلاً وأبعد أثراً ، ألا وهي مسألة أبطال الرقيق ، وهي عماد الاقتصاد القومي وحجر الزاوية في بنائه منذ آلاف السنين فقد أخذت بريطانيا في الضغط بطريقة أو أخرى لمنع « النخاسة » ، وتذرع في خطتها هذه بأن هذه مسألة إنسانية

وصورت الرقيق في الصورة التي اعتاد الأوروبي أو الأمريكي أن يراها وتجول في خاطره من استخدام أولئك المساكين المثقلين بالأغلال والأصفاد المسوقين بضرب السياط التي تلهب ظهورهم ولا يكاد غذاؤهم يكفي لسد رمقهم ، ويعيشون في أمكنة مظلمة ، وتناست أن الرقيق في الشرق يختلف اختلافاً كلياً في معاملته عن أولئك المساكين الذين وقعوا في قبضة الأوروبيين والأمريكيين ، وهذه الطريقة استطاعت إنجلترا أن تستثير مشاعر الغربيين حتى حصلت على توصية الدول في مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥م بالأخذ بمنع النخاسة وتجديد الرقيق .

وكان أن أصدر محمد علي أمره إلى خورشيد أغا حاكم دار السودان (١٨٢٦-١٨٣٧م) لمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهضة الموسمية . وجاء في أحد أوامره : انني لأريد تجارة لا تشرقي وإلى لعل استعداد لبذل كل تضحية اذا تطلب القيام هذه التجارة أية من تضحيات من جانبي^(٢٩) ، ويهدف محمد علي أن لا يلحق العار بشخصه في نظر جميع الشعوب المتقدمة وبخاصة في نظر الحكومة الانكليزية التي تقوم بينه وبينها علاقات ود وصداقة ، وقد أخذت مسألة الرقيق في مضاءعاتها حتى صارت مصدراً شديداً للخطر تمنحضت عنه الاحداث والفن في السودان ، فكانت كالمارد الذي خرج في غفلة من قمعه .

ويجمل بنا أن نتوقف قليلاً لنعرض تطورات مسألة الرقيق النخاسة وأثرها في المجال الدولي والمقارنة بين ذلك الوضع مع ما كان عليه في دار الاسلام .

ب - أصول تجارة النخاسة في العصر الحديث :

بدأت تجارة الرقيق في صورتها الواسعة على يد الأوروبيين الذين اتخذوا من هذه السلعة عنصراً اقتصادياً هاماً يشبع أطماعهم ، وقد أنشأوا البيوتات التجارية الكبيرة بروس أموال أوروبية دخلت معها أموال أمريكية في نهاية القرن الثامن عشر لمزاولة تجارة الرقيق ، وكانت السفن البريطانية تنقل أكثر من خمسين في المائة من شحنات النخاسة من السواحل الاريقية الى المستعمرات ، وكان الرقيق ينقل في شحنات تسكدس فيها الأجساد البشرية في العنابر دون أدنى اعتبار لانسانياتهم ، ناهيك

(٢٩) أنظر كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد نؤاد شكرى ص ١٦٣

عن الأمراض التي كانت تفتك بهم خلال الرحلات الطويلة الشاقة ، والتي تستغرق ما يقرب من الستة أسابيع ، يموت خلالها ما يقرب من الربع من العدد المنقول على السفن ، ولم يستيقظ الضمير الانساني وهو في سباته العميق بسبب الأرباح الوفيرة التي كانت تدرها هذه التجارة التي تتنافى مع القيم الانسانية ، ويبدو أن هذه القيم قد صقلها حب المال وسخرها في ركابه واستطاعت بريطانيا وهي صاحبة المصلحة المادية الكبيرة من هذه التجارة أن تزعم حركة المطالبة بإبطائها ، ولاشك في أن هذا التحول في اتجاه انجلترا وما ترتب عليه من تفضيحات مادية لم يكن بالأمر اليسير .

فإذا رجعنا الى تطورات العلاقات الدولية في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر نجد أن ثلاثة عشر ولاية أمريكية قد أعلنت انفصالها عن التاج البريطاني في ٤ يولييه سنة ١٧٧٦م وأخذت في استرداد حريتها في دخول السفن الامريكية في مياه المحيطات بعد أن كانت التجارة البحرية تحتكرها السفن البريطانية في بعض المحيطات .

واستطاعت بريطانيا أن تتولى زعامة الحركة المطالبة بتحرير الرقيق وتحريمه بعد أن أخذت بوادر كراهية هذه التجارة المخالفة للانسانية في بعض الممالك الأوروبية وفي انجلترا بالذات حيث اقترنت هذه الكراهية بالقلق والخوف بسبب تفشي عادة استخدام الرقيق في الاعمال البيتية وقد بلغ عددهم حوالى العشرة آلاف جاء بهم أصحاب المزارع من الانكليز من المستعمرات وكان الخوف من ازدياد استخدام الرقيق في صورة تصبح فيها عادة متوطنة لما خطر لها على الانكليز وبخاصة عندما كثر بين الطبقات السكادحة ، والاختلاط في مختلف صوره مع الرقيق يخشى منه أن يفقد الدم الانكليزي نقاءه ، الامر الذي يؤدي في نظرهم الى انحطاط الحضارة البريطانية ، وتزعم حركة المطالبة بتحرير وتحريم استخدام الرقيق « جرانفيل شارب » الذي استطاع أن يصنع حركته بالدعوة الانسانية ، وقدمت شكاوى للحاكم ، وصدر أول أحكامها عن رئيس القضاة « مانسفيلد » الذي قرر أن وجود الرقيق في أراضي انجلترا عمل غير شرعى ، وتلت ذلك أحكام أخرى من محاكم المناطق المختلفة في الجزيرة البريطانية ، إلا أن هذه الأحكام لم يشمل الرقيق الذي كان يستخدم في الزراعة في المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار ، فقد أبقى على هؤلاء حتى يتسنى استغلال الارض بتكاليف رخيصة فيمكن أن تنافس المنتجات الزراعية من قصب وشاي وتبغ الخ ، المنتجات الاجنبية في الاسواق الأوروبية وغيرها . وكانت الامراض في المناطق الاستوائية لا تسمح للأوروبي بالعمل الشاق في تلك المزارع .

ح - تطور مسألة الرقيق :

وأخذت مسألة الرقيق تتطور في صورة أو أخرى حتى صارت أداة من أدوات الاستعمار في صراعه الخفي بين الدول وبخاصة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا في أفريقية وبين بريطانيا وروسيا في آسيا . وقد أخذ هذا الصراع مظهره في مطالبة بريطانيا بإلغاء الرقيق الذي صورته في صورة ما كان يلاقيه هؤلاء النساء على أيدي أصحاب المزارع في المستعمرات وبذلك استطاعت بريطانيا أن تكسب الرأي العام إلى جانبها بعد أن أصدرت تشريعات اعتبرت النخاسة عملاً من أعمال القرصنة وذلك في عام ١٨٠٧ م واستطاعت أن تكثر أن تحصل على توصيات مؤتمرها في عام ١٨١٥ م بتحريمه كما ذكرنا من قبل .

ونشطت بريطانيا في مرافقة الشاطئ الغربي لأفريقيا لمنع نقل الرقيق إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) التي تارت على إنجلترا واستطاعت أن تفوز باستقلالها عن الإمبراطورية البريطانية . ومن ذلك الحين صارت هذه الولايات عنصراً جديداً له خطره في مجال المنافسة التجارية الدولية ، ومن هنا يقين لنا أن التحول الذي طرأ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، على ممالك بريطانيا نجما الرقيق وجعلها تدخل تعديلات جوهرية على علاقاتها الخارجية كما أملته سياستها الأساسية وهي الاحتفاظ بالسيادة البحرية ، الأمر الذي قد دفعها في بعض الأحوال إلى وسائل عنيفة لأضعاف منافسيها .

ودفعت بريطانيا تعويضاً مالياً بلغ حوالي العشرين مليوناً من الجنيهات لرعاياها من الإنجليز الذين يستخدمون لرقيق في مزارعهم فيما وراء البحار مقابل تحرير الرقيق (٤٠) ، عملت بريطانيا كل ذلك في عام ١٨٢٩ م لتحرير المستعبدين ، فهل كانت لتلك الجهود نتائج عملية بحيث اكتسب الرقيق حقوقه الإنسانية وتركزت له الحرية في التنقل طلباً للرزق وفق مشيئته وبالأجور التي يقبلها ، الواقع ان مسألة تحرير الرقيق لم تكن إلا إجراء سوريا ، فقد ألغى الرقيق في المعنى وليس في الروح فقد كانت في مزارع الإنكليز في المستعمرات أكثر من ثمانمائة ألف من الرقيق يعملون في الزراعة في نهاية القرن الثامن عشر وكانت في المزارع الأمريكية أعداد وفيرة من الرقيق . وعلى الرغم من أن مجلس الكونغرس الأمريكي قد أصدر تشريعاً بمنع توريد

(٤٠) مذكرة الميد هنرغوردون (شقيق غوردون باشا) بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤ م
قلا عن كتاب المهدي والسودان المصري « مؤلفه ونجت من ٥٥٤ / ٥٥٥

الرقيق إلى الولايات الأمريكية في ١٨٠٧ م على أن يسرى مفعول هذا التشريع ابتداء من أول يناير سنة ١٨٠٨ م فإن بريطانيا كانت تهدف إلى تحرير الموجود منه فعلا في المزارع الأمريكية تحت ستار العاطفة الإنسانية لحاق متاعب للأمريكان بزيادة تكاليف الانتاج في بلادهم حتى يعجزوا عن منافسة التجارة البريطانية .

د - النخاسة في الصراع الدولي:

وأخذت بريطانيا في مراقبة الشاطئ الغربي لأفريقيا بدعوى منع الرقيق إلى أمريكا ومضايقة السفن الأمريكية لمنعها من الدخول من ذلك الشاطئ . ولكن هذا الاجراء في غرب أفريقيا قد أوجد بحالا للسفن الأمريكية في شرق أفريقيا والخليج الفارسي ونحول إلى هذه المنطقة النشاط التجاري ، كما قامت السفن الفرنسية والاسبانية والبرتغالية في نقل الرقيق ، ورفضت هذه الدول الاذعان للرقابة البريطانية . وأخذ النفوذ الأمريكي في العمل على انتشار تجارته في هذه المنطقة من المحيط الهندي ، وأحسست بريطانيا بخطر هذا النفوذ على مصالحها الاستراتيجية في هذه الرقعة وبخاصة بعد أن عقدت الولايات المتحدة مع السيد سعيد في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، والتي حصلت بموجبها الولايات المتحدة على امتيازات اقتصادية وتسهيلات للبشرين الأمريكيين واستطاعت بريطانيا بطرقها الخاصة أن تقبض على ناصية الامر ، وبعد صراع طويل استطاعت بريطانيا من بسط حمايتها على السيد سعيد ومن بعده ابنه وذلك تحت ستار منع الرقيق (٤١) . وتمكنت بذلك بحاجتها من إزال خطرية قوية على التجارة الأمريكية كما يصوره لنا الجدول الآتي : (٤٢)

١) قبل الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٥٥	سنة ١٨٥٦	سنة ٨٥٧	سنة ١٨٥٨	سنة ١٨٥٩
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن
٩١٤٢ ٢٨	٧٢١٥ ٢٤	١١٤٨١ ٢٥	٩٩٦٢ ٢٢	١٠٨٩٠ ٢٥
٤٠٩ ٢	١١٦٧ ٢	٧٧٠ ٣	١١٦٩ ٤	٤٩٣ ١
٣٩٨٩ ١٥	٦٠٣٨ ٢٠	٥٩٠٧ ٢٢	٧٢٧٠ ٢٦	٤٤٢٨ ١٧
٥٥٢٣ ١٣	١٠٠٧٩ ٢٢	٨٢١٩ ٢٤	٦١٨٦ ١٨	٣٠٦٦ ١٢
١٨٧٦٣ ٥٨	٢٤٤٩٩ ٦٨	٢٦٤٧٧ ٨٥	٢٤٥٨٤ ٨٠	١٨٨٧٧ ٦٥

(٤١) أنظر « الاستعمار والتجارة » بالانجليزية مؤلفه لينارد ونف من ٣٢٠ وما بعدها .

(٤٢) أنظر مقال شرق أفريقيا وأمريكا بقلم الديرجون جراي في مجلة تجايفاق رسائل =

ومعلومات (بالانجليزية) عدد ديسمبر ١٩٤٦ من ٥٥ / ٨٦ .

ب) بعد الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٧٩	سنة ١٨٧٧	سنة ١٨٧١	سنة ١٨٦٦	
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	
٥٢٨٣ ١٠	٥٣٥٢ ١٠	٤٢٥٠ ٧	٢٥١٥ ٥	الولايات المتحدة
١٦٢٦٥ ٦٩	٤٢٤٨٧ ٤٨	١٠٤٥٩ ١٧	٦٥٦٨ ١٩	بريطانيا
٥٩٤٠ ١٣	٤٦٥٣ ١٥	٧٤٦٧ ١٧	٥٢٨٢ ١٦	ألمانيا
١٩٧٥ ٤	٣٢٥٩ ٥	٥٤٥٠ ١١	٣٧٧٢ ١٦	فرنسا
٨٩٤٦٣ ٩٦	٥٥٧٥١ ٧٧	٢٧٦٢٦ ٥٣	١٨١٦٧ ٥٦	جمله

الفترة ١٨٧٩/١٨٦٦	الفترة ١٨٥٩/١٨٥٥		
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن
١٩١٠٠٧	٢٨٢	١١٣٢٠٠	٣٥٨
٧٥٨٠٩	١٥٣	٤٠٠٥	١٢
% ٣٩	% ٥١	% ٣	% ٥

٥ - الرقيق في دار الاسلام

أما في دار الاسلام وبخاصة في مصر والسودان فقد كان الرقيق في حال أحسن كثيراً مما كانت عليه حالته في الغرب ومرجع ذلك إلى تعاليم الدين الاسلامي التي أوصت بالمعاملة الطيبة كما شجعت على تحرير الرقيق لما في ذلك ثواب، وقد ذكر أمير علي أن الرقيق كان شائعاً في الجاهلية وقد تسامح الاسلام بالإبقاء المؤقت على هذه العادة، والقرآن في نفس الوقت والواقع قد عمل على إلغائها (٤٣) تدريجياً وأبطل الاحتفاظ برقيق جديد، الأمر الذي يتمشى مع رسالة الدين التي قامت أساساً على المساواة والحرية.

وقد ذكرنا من قبل أن المجتمع السوداني، كما في مناطق أخرى من دار الاسلام، قد احتفظ بالكثير من العادات والتقاليد القديمة، وهكذا بقي الرقيق وتغلغل في كيان السودان الاقتصادي، وصار دعامة النشاط في حياته اليومية، ومع ذلك فقد استغلت بريطانيا الناحية الانسانية، التي استندت في أساسها على مسألة الرقيق، حتى تضغط على محمد علي لمنع الاتجار في الرقيق، ولتحرير الموجود منه في خدمة الأهالي. وارتكبت بريطانيا من الاجرامات العنيفة الصارمة، في تنفيذ هذا المنع للنخاسة

(٤٣) أمير علي ص ٢٦٢

وتحرير الموجود منه في خدمة الأهالي في السودان ، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في تطورات الأحوال في وادي النيل .

وأخذت مسألة الرقيق في مصر والسودان في التطور السريع ، وبخاصة ان إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ما يجري في حوض النيل ، بعد أن تبطلت الإدارة المصرية في السودان ، وبدأت في بسط نفوذها على المناطق في أقصى الجنوب ، وكانت بريطانيا تحتل قوام قوة من شأنها أن تخلق خطراً يتعارض مع المصلحة البريطانية في هذه المنطقة ، فقد حذرت الدول الأوروبية محمد علي من غزو الحبشة ، حتى لا تمتد السيطرة المصرية إلى القرن الأفريقي (المنطقة جنوب الهضبة الحبشية إلى نهر الجوبا) وتطل منه على المحيط الهندي (٤٤) ، وتقل في ركابها أراء جديدة ، يتطور ، مما الوعي القومي ، في المناطق الواقعة على المحيط الهندي ، الذي يكون منطقة استراتيجية بالنسبة لإنجلترا ، وقد ازداد قلق الدول الأوروبية من التقدم الذي وصلت اليه مصر بعد ظهور الجيش المصري وبحريته في حرب المورة لمساعدة الباب العالي على إخماد ثورة اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ، وبدأ بعد ذلك التاريخ صراع الدول الأوروبية للتوسع في حوض البحر الأبيض المتوسط في شاطئه الأفريقي ، فأزالت فرنسا جنودها في الجزائر في عام ١٨٣٠ م ، لتعيد الطريق لبسط سيطرتها على إفريقيا الصغرى (تونس مراكش والمغرب الأقصى) ، وتكون لها في هذه المطانة قاعدة ، تخرج منها صوب الجنوب نحو قلب أفريقيا الاستوائية .

و - الرقيق وسيلة للضغط السياسي :

وبالفت الدولتان الإنجليزية والفرنسية في التردد إلى مصر ، وذلك بالدور الذي لعبته في المشاكل ، التي قامت بين الباب العالي ومحمد علي في أزمة عام ١٨٣٢ (حرب الشام الأولى) ، من ناحية واشتد الضغط على مصر من ناحية أخرى بشأن الرقيق ، وكان من العسير حقاً أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق في السودان دفعة واحدة بأوامر تفرض على الشعب ، دون أن تعطى الفرصة الكافية للجمع ، ليكيف نفسه

(٤٤) كتاب السياسة الخارجية في عهد المرستون جزء أول ص ٢٧٦ وقد حدث أن أوصل الخديو اسماعيل حلة إلى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح المارقي التجاري بين خط الاستواء والمحيط الهندي ولكساحة الرقيق عبر هذا الطريق . فعارضت بريطانيا في إرسال هذه الحلة باسم السيد برغش سلطان زنجبار . وكانت بريطانيا تنق تحت سنار امم السيد برغش اهتمامها بوقف التوسع المصري على الساحل الأفريقي للمحيط الهندي والسيطرة على الموانئ الاستراتيجية .

مع الزمن لهذا الاجراء ، وأن تترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخل على المجتمع من تغيير في سلوكه اليومي ، نتيجة لما دخل البلاد من تطورات اقتصادية واجتماعية في ركاب الادارة المصرية ، وقد ذكر محمد علي إلى ريتشارد مادن ، يعظم سروري إذا ألغيت الرق إلغاء تاما ، ولكن من الواجب على الانسان أن يهيئ للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم ، لأن مسألة الرق في هذه البلاد من أشق المسائل وأشدّها صعوبة ، على خلاف الحال في بلادكم ، ذلك أن الناس اعتادوا أن يستخدموا الأرقاء لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى على نحو ما فعلوا سابقاً عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق في سنار (٤٥)

وكان للتيارات الخفية التي تحركها الدول الاستعمارية ، أثرها في عرقلة جهود مصر لوقف تجارة الرقيق ، التي زادت تعقيداً بدخول عناصر أجنبية ، وذلك بدخول الليفانتينيين والأوروبيين إلى السودان ، ومارستهم لصيد القبلة وجمع العاج ثم صيد الرقيق ، وأنشأوا الزرائب والمحطات التي اتخذوا منها قواعد لعملياتهم المسلحة لصيد الرقيق ، وقد احتفى هؤلاء الأجانب بالامتيازات الأجنبية التي تستمتع بها دولهم في مصر ، فصارت أعلامهم ترفع على مراكزهم ومحطاتهم ، حتى لا تتدخل السلطات الحكومية في أعمالهم والحد من نشاطهم ، وقد واجهت مصر هذه التطورات بأن طالبت قناصل الدول ذات الشأن ، بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجار المشتغلين بصيد الرقيق وتجارته ، وأن يكون للحكومة المصرية الرقابة القوية على تصدير الأسلحة والدخيرة ، وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة في مواطنها في السودان واضطر التجار الأجانب أمام مطالبة مصر للقناصل بالتدخل ، إلى بيع مؤسساتهم للحكومة التي قامت بالاستيلاء على الزرائب وتعويض أصحابها ، وتبع ذلك امتداد الادارة المصرية نحو الجنوب ، وكان أن رحل بعض التجار من المشتغلين بالرقيق إلى مناطق بعيدة عن سلطان الحكومة ، حيث وحدوا نشاطهم بتشكيل قوالبانية (أى شركة) وأنشأوا محطاتهم في مملكة افيرور ، كما سيطر الزبير رحمت على بحر الفزال ومملكة كهرة ، واتخذوا بلدة داية، ديم الزبير (٤٦) مركزاً لنشاطهم ، وتحالف مع الرزيقات ، ثم اشتبك معهم ومع سلطانه الفور في حروب ، انتهت بضم درافور

(٤٥) كتاب المحكم المصرى في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٤

(٤٦) نسبة إلى الزبير النيفاي وهو غير الزبير رحمت .

إلى إدارة السودان المركزية، وترجع أسباب حرب الزبير مع الفور الى عوامل اقتصادية بحتة، وذلك أن الفور كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال، كمجال حيوى لهم لاصيد الرقيق وجمع العاج، ووجدوا أن سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه تابعاً لهم، سوف تحرمهم من مصادر تجارتهم الرئيسية، فكان لا مخلص من الاشتباك بينهم.

وكانت سيطرة الزبير على تلك المناطق، قد أوجدت، بجبالاً حيوية، خارجاً عن سلطان الحكومة، فى الجانب الجنوبي الغربى للسودان، ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين والتجار من الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان، حيث اشتدت موجة التشكيل بالاهالى على يد الموظفين من الاجانب وعملاتهم تنفيذاً لمعاهدة الرقيق. تنفيذاً صارماً دون أن تراعى فى ذلك مصلحة الاهالى، الذين يعتمدون اعتماداً كلياً، بحكم العادات الموروثة، على خدمة الرقيق، وكانت هذه الجيوب التى تسيطر عليها الزبير بجبالاً، وجد فيه المهاجرون متنفساً لكربتهم. ولو ترك الامر للزبير أن يعمل وفق طريقته الخاصة، ولم تقم فى وجهه العرافيل، ولم تندر حكومة غوردون بأنه لا استطاع الزبير منع تجارة الرقيق، فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية، والتوسع الاقتصادى الى المستوى الذى يلتقل فيه الرقيق الى مركز يتردد فيه حريته فى العمل كما يشاء، وبالأجر الذى يرتضيه، مادام المال متوفراً لمواجهة ذلك التطور.

ز - الرقيق - فى الدعاية المقرضة

وفى هذا العرض ما يبين لنا مدى محاولة مصر للأخذ بيد السودان نحو التقدم والسير فى ركب الحضارة وأنها لم تحاول أن تحد من حرية أهله من عارسة حقوقهم الطبيعية واشترائهم امثراً كاعلياً فى إدارة شئون بلادهم. ومرجع ذلك الى أن مصر لم تكن لها معتقدات أو رغبات، على الصورة التى تمارسها الدول الاستعمارية. ويتبين لنا مما سبق ذكره أن مصر لم تذهب الى السودان لاستعباد أهله وتسخيرهم لمصلحتها كما جاء فى أقوال الفرنيجة عن أهداف امتداد الادارة المصرية الى السودان، وأنها لا تنكر أنه كانت هناك بعض الأخطاء التى بولغ كثيراً فى تصويرها للتأثير على رأى العام الأوروبى. ولا تنكر أيضاً أن امتداد ادارة مصر الى السودان كان أول تجارتها بعد أن ذهبت لوضع حد لحالة الفوضى والحروب الأهلية التى اشتد أوارها بين

الزعامات القبلية ، ولكي تمنع من تثبيت أقدام قلوب المالك التي دخلت البلاد للسيطرة عليها ، وكان وراهم التوسع الأوربي ، الذي حاول جاهداً مساعدتهم على إقامة حكومة في السودان في صورة ماتحقق معها مطالبهم .

وبما جاء في أقوال الفرجة أن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الرقيق وأن الواقع يدحض هذا القول . فإن الرقيق وهو كما أوضحنا عميق الأثر في اقتصاديات البلاد كان يدفع ضمن الجبايات المطلوبة للإدارة ، إلا أن تلك الإدارة لم تستخدمهم في مزارعها أو أنها حددت لهم مناطق للإقامة والعمل في داخها ومنعهم من الانتقال من هذا السيد أو ذاك فهي قد جندتهم في الجيش للخدمة في بلدهم وكانت تعاملهم على قدم المساواة وفق القوانين التي كانت تسرى على غيرهم من رجال الجندية . وبعد انتهاء خدمته كان له الخيار في الذهاب أين شاء وأن يعمل في حرية مطلقة بما يمشي مع رغباته الخاصة . وفي هذا المسلك الطريق الأمثل نحو إنهاء هذه التجارة تدريجياً في نطاق تطور المجتمع . وباحتلها التي اتخذت من الرقيق أداة من أدوات الاستعمار لتعطيل التقدم في السودان لم تحاول في مفاوضاتها مع وكلاء الامام المهدي التعرض لهذه المسألة . مسألة أبطال الرقيق - على نفس الطريقة التي انتهجتها للاضغاط على مصر . كما أن تجارة الرقيق والسبي كانت قائمة في فترة الحركة المهدية ، وطلب كذشرفي مذكرته التي أصدرها بعد إقامة الإدارة الجديدة في ١٨٩٨م بأن لا يتدخل الحكام في أمر الرقيق الذي في خدمة أهله ما لم يطلب منهم الرقيق ذلك .

أما القول بأن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الذهب - فلم يكن من المعقول أن تقوم إدارة جديدة دون أن تبحث في موارد البلاد الطبيعية لاستغلالها - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت تدفع من خزائنها الأموال اللازمة لسد العجز في إيرادات السودان ولو قدر للإدارة المصرية أن تسير على الخطى التي رسمتها بعد تجاربها ولم يتدخل الاستعمار لسكان السودان غيره اليوم حيث كانت قد توفرت له امكانياته الاقتصادية واستغلالها منذ قرابة المائة عام .

وقد أرادت مصر باستخدامها الأجانب في مراكز ذات مسئولية في السودان لتظهر حسن نيتها واستعدادها لإلغاء الرقيق - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت في حاجة إلى إدخال الطمأنينة في قلوب الأجانب لما كانت واقعة فيه من مشاكل مالية . إلا أن أولئك الأجانب أساموا إلى مصر بتصرفاتهم وسلوكهم الشاذ وهذا مانفر الأهالي وجعلهم ينظرون إلى مصر بعين الشك والريبة ، وصار مصيرهم معلقاً في كف

القدر . فبينما كانت مأمورية صمويل بيكر في خط الاستواء لإدخال الوسائل المشروعة للتجارة ونشر الحضارة والاستقرار في المناطق النائية ، فإنه قد اعتبر مهمته عسكرية لحرب الأهالي والتكامل بهم ؟ وسلك خلفه غوردون في الجنوب مسلحاً قديكون مختلفاً في وسائله عما كان عليه ذلك بيكر إلا أن النتيجة كانت واحدة من حيث تنفير الأهالي من الحكومة في الخرطوم والفاهرة ، التي اعتبروها مسئولة عن كل الكوارث التي حلت بهم بسبب مكافحة الرقيق .

ح - دخول مسألة الرقيق في المعاهدات

وكانت الحكومة الانجليزية قد أخذت في التفاهم مع الباب العالي بشأن الرقيق وقد أصدر السلطان العثماني تنظيماته بمنع الرقيق الأبيض في أكتوبر عام ١٨٥٤م والرقيق الأسود في فبراير سنة ١٨٥٧م وكانت هذه التنظيمات تشمل ضمناً مصر بوصفها أمانة عثمانية ، وأخذت بريطانيا في محاولاتها مع مصر منذ عام ١٨٧٢م لإبرام معاهدة بشأن إلغاء تجارة الرقيق في مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر وبينما كانت المفاوضات دائرة حول هذه المسألة أصدر الباب العالي دستور ١٨٧٦م الذي منح جميع الرعايا الحقوق والحريات المتساوية وبعد ذلك بعام أي في سنة ١٨٧٧م تم الاتفاق على الصياغة النهائية للاتفاق ووقعت عليه الدولتان المصرية والانجليزية في الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م .

وهناك مسألتان لها أثرهما في هذا الموقف، أولهما التنظيمات السلطانية التي صدرت في عام ١٨٥٨ بشأن الرقيق الأسود وهو يشمل جميع الإمبراطورية العثمانية ومنها مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر ، ويبدو أن هذا كان سبباً لملك بيكر في إدارته لخط الاستواء في السنوات ١٨٦٩/١٨٧٢ وغوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٦م بالإضافة إلى الأوامر التي أصدرها ولاية مصر حتى ذلك الحين والتي كانت تهدف إلى تنظيم اللائق . والثانية أن الأزمة المالية المصرية قد برزت وجاء سقيف كيف من رجال الخزنة البريطانية ليبحث الحالة المصرية وتقديم تقرير عنها لحكومته . وفي هذه الفترة بالذات ، وبالرغم من الأزمة المالية التي صورت في صورة بعثت على الفلق ، كانت مصر قد شقت طريقها نحو النمو الاقتصادي كما تتضح هذه الحقيقة من ملاحظة الأقطار في زيادة عدد السكان من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥م وزيادة النشاط التجاري في حركتي الوارد والصادر .

عدد السكان	سنة ١٨٦٣	سنة ١٨٧٥	الزيادة
الواردات	٤٨٣٣٠٠٠	٥٥١٨٠٠٠	٦٨٥٠٠٠ نفساً
الصادرات	١٩٩١٠٠٠	٥٤١٠٠٠٠	٣٤١٩٠٠٠ جنساً
	٤٤٥٤٠٠٠	١٣٨١٠٠٠٠	٩٣٥٦٠٠٠ جنساً

وإذا رجعنا إلى معاهدة الرقيق ، التي أبرمت في الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، وإلى الذكريتو الخديوي الصادر في نفس التاريخ ، فإننا نجد أن الاتفاق قد قام على أسس ليس من شأنها أن تؤدى إلى نتيجة إيجابية عملية لالغاء الرقيق لالغاء تدريجياً في خلال الفترة المعينة لالغائه ، وهي سبعة سنوات لمصر واثنى عشر سنة في السودان ، حتى تنح الفرصة للمجتمع في البلدين أن يكيف وضعه بما يتسنى والاتفاق الجديد ، في الفترة التي تعددت لكل من مصر والسودان على التوالي .

وقد صيغت هذه المعاهدة على الشكل الآتي : —

الديباچه — تعبر من أقصى أمانى الدولتين - بريطانيا ومصر - للتعاون في إبطال الرقيق بالسكينة .

البند الأول — تعهد الحكومة المصرية بأن تمنع منعاً كلياً من الآن فصاعداً إدخال الأرقاء وتفرض بأشد العقوبات على المخالفين .

البند الثاني — تعتبر المتعاملين بالنخاسة أو المشتركين في عملياتها بمنزلة السارقين الفاتلين ويحاكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أو المجالس المختصة .

البند الثالث — عن معاملة الرقيق المنزوعين من المتجرين به .

البند الرابع — تمنع مصر بقدر ماتحت يدها من سيطرة ونفوذ غزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القتاتلين .

البند الخامس — تصدر الحكومة المصرية أمراً يرفق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كلية في أرض مصر والسودان من ابتداء تاريخ يعين في الأمر ، وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك .

البند السادس — تسمح مصر للسفن البريطانية بأجراء التفتيش في مياه البحر الأحمر على المراكب للبحث عن الرقيق وبين هذا البند طريقة التصرف في هذه الحالات .

البند السابع — تشير إلى أن العمل بمقتضى هذه المعاهدة يبدأ بعد مضي ثلاثة شهور من توقيعها .

والمعاهدة ذيل عن إنشاء قلم مخصوص فى كل من محافظتى القاهرة والاسكندرية للتصرف فى حالات الرقيق المختلفة .

معاهدات الرقيق لكسب مقوق

ووقعت الحكومتان المصرية والبريطانية معاهدة ثانية فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن سواحل السومال . واهتمت بريطانيا بأن تحصل فى هذه المعاهدة على تعهد مصر ، بأن لا تعطى أى احتكار ، أو التزام أو ترخيص باعطاء أى قطعة أرض فى الحاضر والمستقبل لأية دولة أجنبية ، وأن لاتأخذ مصر عوائد جمركية تزيد عن الخمسة فى المائة ، وأن تتمتع بريطانيا وتجارتها ، بالمعاملة كدولة ممتازة فى جميع البلاد ، التى تمتد إليها سلطة مصر . وأن يكون الحق لانكترا فى تعيين مأمورى قنصليات ، فى جميع الموانئ والجهات ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الامتيازات والمساواة وسائر المزايا الممنوعة ، التى تعطى إلى سائر مأمورى القنصليات التابعين لأى دولة ممتازة ، واشترطت انكترا ان لايعين فى وظيفة مأمورى القنصليات من أهالى تلك البلاد ، أو البلاد المجاورة لها ، والتزمت مصر فى البند الرابع بمنع تصدير الرقيق ومنع تجارته وقبلت مصر أن يكون للسفن الانكليزية حق مراقبة تجارة الرقيق ، ومنعها وأن تضبط وترسل إلى المجالس المختصة ، السفن التى تتعاطى أو يشبه فى أنها تتعاطى الرقيق وتحقيقاً لصلاحيه هذه المعاهدة من الوجهة القانونية ، وتنفيذها قضت على وجوب أن يعطى السلطان العثمانى ، الذى تتبع له مصر تعهداً رسمياً بأن لايعطى فى أية صورة إلى أية حكومة أجنبية ، قطعة من - ساحل السومال ومن سائر البلاد التى دخلت أو تدخل فى حوزة مصر .

فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق

وقد قام غوردون خلال حكمه داريته من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ م بارتكاب أقصى أنواع التنكيل والتعذيب بالأهالي - قتل وتشريد ومصادرة الممتلكات - بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير ملكة التعسف ، ولذا رجعنا إلى ما ذكره غوردون بقوله : أن بيضة الثورة الحالية (يقصد الحركة المهدية) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التي أتبع لي فيها أن أحكم السودان على مبادئ غير المبادئ التركية (٤٧) (يقصد بالتركية الإدارة المصرية ونسبها إلى الأتراك لم يكن إلا مغالطة واقتراء على واقع الأمر وحقيقته) وبهذا القول قد كشف غوردون عن حقيقة أهدافه التي حققها عن طريق ذلك المسلك الارهابي (٤٨) ، الذي أحدث أثره العميق في المجتمع المحلي (٤٩) ودفع به إلى الثورة في وجه إدارة البلاد . وفي الحقيقة وواقع الأمر أن الفترة من الزمن من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ م التي تولى فيها بيكر مديرية خط الاستواء من ١٨٦٩ / ١٨٧٤ وخلفه غوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٧ م وولاية الأخير لحكمه دارية السودان لم تكن إلا فترة متابعة نفذت فيها سياسة موحدة الأهداف وإن كانت الأساليب قد اختلفت بعض الشيء . وقد ذكر صمويل بيكر ، أن اهتمامي الأول كان لخدمة مصر ، وفي نفس الوقت كان على أن أساعد على نشر نفوذ إنجلترا وقد تحمس غوردون لنفس الغرض وضحى بحياته أملاً في وصول إنكلترا إلى الخرطوم (٥٠) . وقد يبدو أن هذا المسلك من بيكر وغوردون كان غريباً بالنسبة لمصر لأنه يتناقض مع أبسط قواعد الواجب الذي يحتم ولاهما لمصر التي أسندت إليهما مركزهما للعمل على تقدم البلاد ورعاية الأهالي . إلا أننا إذا رجعنا إلى روح العصر الذي عاشا فيه وماتركة من انطباعات في عقليهما نجد تفسيراً لمسلكهما . ويذكر أن زميلهما استانلي الذي التحق بخدمة الملك ليوبولد في الكونغو الحرة كان يعتقد أن تلك المنطقة سوف تنتقل إلى الأملاك البريطانية .

ومعاهدة الرقيق التي ذكرناها آنفاً ، والتي كانت مصدر القلق والتذمر في البلاد ، لم تكن واضحة المعالم بما جعل تفسيرها متناقضاً التناقض كله فيدها غوردون

(٤٧) صبري ص ٨٩ هامش ١

(٤٨) النتن ص ٣٥٤ إلى ص ١٤٠

(٤٩) استراشي ص ٢٤٣ .

(٥٠) دوجلاس مري وسلفا هويت ص ٣٥٣ - قلا عن مكي عباس ص ٤٢

قد أخذ في تنفيذها بشدة وصرامة في فترة ولايته حكمدارية السودان ١٨٧٧-١٨٧٩ م واستعان بالآوروبيين الذين عينهم في المراكز الرئيسية بدلا من المصريين والسودانيين - وقد عين أربعة عشر موظفاً أوروبياً في شهر يولييه سنة ١٨٧٨ م وأدخل لجهاز الحكم عناصر قد أثقلت به من أداة صالحة ، للأخذ بيد البلاد نحو التقدم إلى أداة استعمارية كما أنه قد غيّر رأيه في مسألة الرقيق في حكمداريته ١٨٨٤/١٨٨٥ م كما سنوضحه في موضعه فيما بعد .

وهكذا نجد ان التكتيل بالأهالي في السودان على يد الموظفين الاجانب وعملاتهم تنفيذاً للعاهدة لم يكن مبعثه الشعور الانساني نحو الرقيق .

وكان مستجيلاً على الاهلين الذين أرحمهم هؤلاء العملاء والوكلاء، من الآوروبيين والليفانتين في إدارة غوردون . أثناء حكمداريته (١٨٧٧ - ١٨٧٩ م) ، أن يدركوا أو يصدقوا . ان هذا العنف والفسوة بأنهم يريدون حقاً إلغاء الرقيق وأبطال النخاسة . الامر الذي تعطلت معه الحياة اليومية وساد الذعر والارهاب ، وجاء فيما كتبه غوردون في يولييه ١٨٧٨ م ، قبضنا على اثني عشر قافلة رقيق في مدة شهرين ، وقال أيضاً «اني أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق وقد أقت ما يشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجارة» (٥١) ، كما كان يصدر أحكامه بالاعدام رماً بالرصاص على من يشبه فيهم هو وأعوانه بممارسة هذه النخاسة ، ، ويذكر صاحب « غرائب الزمان في فتح السودان » قصة تدل على سوء الظن ، وهذا أضعف النعيرات ، التي يمكن ان يوصف بها ما كان يدور في ذهن أهل السودان تجاه نشاط الحكومة العنيف ، الذي أوجد بلبلة زاد معها سوء الظن بنوايا الحكومة وأغراضها وقد وصف مؤلف كتاب « غرائب الزمان في فتح السودان » (٥٢) ، الذي أشرنا اليه ، زيارته لإحدى الشون ، التي أعدت في الخرطوم لجمع الرقيق الصادر من النخاسين ، قبل أن تبت الحكومة في مصيرهم ، فقال « قدخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (الرق) ، شيء لا يعد فلما نظرت ذلك اندهشت لكثرتهم ، ، قلت للتاجر ما هذا ؟ قال ألم تنظر قلت نعم أنظر (رقا) ، ولكن هذا شيء كثير ، وصدرت الاوامر بإبطال الاتجار فيه ، قال نعم لكن هؤلاء قد صار ضبعلهم من التجار ،

(٥١) ان - في كتابه غوردون والسودان ص ١٤٠ .

(٥٢) محمود طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان ص ١٢٧ وما بعدها ملبع مطبعة الاسلام بمصر عام ١٣٠٤ هـ (١٨٩٦ م) ومحمود طلعت هذا كان موظفاً في غرب السودان من ١٨٧٥ - ١٨٨٠ م .

وبجئوا في المحل خلاف إثني عشر ألفاً (مردآ) (نقطة أمرد تطلق على من سنه ١٧ إلى ١٦) وأرسلهم الحكمدار (يشير إلى غوردون) ، إلى الهند عن طريق مصوع ، ولا أدري إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته ، فتتخذهم عساكر بمستعمراتها الواسعة . ولكن الخبر الثاني هو الغريب عن العقل ، وكانت ذلك قبل مغادرة غوردون للسودان في عام ١٨٧٩ م بعد أن حكم من ١٨٧٤ / ١٨٧٦ م في خط الاستواء ، ومن ١٨٧٧ / ١٨٧٩ م حكمداراً للسودان بعساوته أوروبيون من مختلف الجنسيات ، في مراكز هامة ، عملت على آثاره الحفاظ وكرهية الحكم المصري . .

• • •

غادر غوردون السودان في عام ١٨٧٩ م ، بعد أن حكم البلاد ، كما سبق أن أوضحنا على أسس تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه ، فتمطلت التجارة والزراعة ، وشاع الفساد ، الذي امتد إلى القيم الاخلاقية ، وانحط بها بما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها ، وسلم أداة الحكم إلى مساعديه من الأوروبيين والمختطفين الذين أمروا في تعيينهم ، وكثر عدد المعتقلين من الأيادي العاملة على الأرض والرعي ، بدعوى المدنية والانسانية لتحرير الرقيق ، وقد هيأ لإرساء قواعد الحكم على هذه الصورة ، التربة الصالحة للتدمير والفتنة ، ودفعها دفعاً قوياً إلى الاستجابة إلى الدعوة التي نادى بها الامام المهدي ، للخروج بالبلاد مما وصلت اليه تحت حكم الأوروبيين ، ومن عاونهم من المختطفين .

مقاييد الإدارة في يد الأوروبيين

وكانت سلطات الحكم ، وقد تسلم زمامها الأوروبيون والانتهازيون ، تنحبط في فوضى وجمل ، وفق حاجاتها اليومية ، وقد ساعدت هذه الحالة ، الارتباك والفتن ، وتوقف النشاط ، على سرعة انتشار الفتنة ، باجتذاب الانتصار من الجماعات المذبذبة ، وكان الغدر بسليمان الزبير ورجاله على يد جمى ، بأمر من غوردون ، خاتمة المطاف ، فتكون بذلك شعور عام ، اكتسح الجميع وأشد ساعد حركة العصيان ، الذي كان موجهاً أولاً وقبل كل شيء ، إلى الخلاص من الإدارة ، التي اضطبقت بالطابع الأوروبي ، الذي انحرف بها عن تقاليدها ، التي عرفتها أهل البلاد ، قبل سنوات العشرة الثامنة عن القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما كانت الإدارة وطنية خالصة (مصرية سودانية) وقبل أن يتسرب إلى السودان الأجانب وتقليد مراكز رئيسية في إداراته ، وكان لسيطرة النفوذ الأجنبي في مصر أثره ، في تقوية سلطان

هؤلاء الحكام في السودان ، وفي اتخاذهم مآيرونه من إجراءات في حرية مطلقة ، تعطل معها سلطان الحكماء الذين خلفوا غوردون ، وذهب ضحيتها الألوف من الأهالي ومن جنود الحكومة ، الذين وضعتهم الظروف السياسية في مصر ، في حالة نفسية متدهورة ، وأسست قيادتهم لمن يحملون التنظيمات العسكرية ، وفنون القتال ، والتدريب على خوض المعارك ، وكان عتاد هؤلاء ومعداتهم وذخائرتهم ، غنيمة باردة ، ساعدت على تطور الحركة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ونذكر على سبيل المثال من طراز أولئك القادة ، الذين تولوا إدارة معارك دون سابق خبرة ، محمد بك أبو السعود تاجر الرقيق ، الذين عينه غوردون في منصب وكالة المديرية في وغندكرو ، في سنة ١٨٧٤ م ، ثم طرده من الخدمة وإعادة ثانية في سنة ١٨٧٧ م مديراً للحسابات في الخزانة العامة في الخرطوم ، وكان أبو السعود في المركز الثاني بعد الحكماء . وكان فشله ذريعاً وهزيمة منكراً ، عندما أرسله رؤوف باشا إلى الجزيرة ، أبا .

وعندما وصل رؤوف باشا لتولى منصب الحكماء ، بعد مضي ستة شهور من سفر غوردون سلك مسلك غوردون في تنفيذ منع الرقيق . ولم تكن لهذا الحكماء القدرة واتساع الأفق ، لمعالجة المشاكل كما كانت تتطلبها الحالة القائمة ، بل عمد إلى تنفيذ أوامر القاهرة التي كانت تنهم ، لظروفها الخاصة ، بتنفيذ هذه المعاهدة في أية صورة من الصور ، أملاً في اكتساب رضا الأجانب والإنجليز ليخفف عنها الضغط ، ولم تعلم إنما بعملها هذا إنما قد زادت النار وقوداً وكان في عهد رؤوف باشا هذا أن أخذت الدعوة المهدية مظهرها السافر ، في صورة دعوة إلى الهجرة إلى المكان الذي اتخذته الإمام المهدي مستقراً له لنشر دعوته ، وأرسل رؤوف باشا أبو السعود بك إلى الجزيرة ، أبا ، ومعه يوسف باشا الكلالى للقبض على صاحب الدعوة وأتباعه ، ولم تكن قيادتهما موحدة بل ترك لكل منها أن يتصرف كما يشاء دون اعتبار لموقف زميله ، ويبدو أن رؤوف باشا لم يكن يقدر الموقف حق قدره ، فكان نصيب هذه الحملة الفشل ، بسبب جهل أبو السعود واللالى بالفنون العسكرية ، ولم تكن هنالك خطة مرسومة للحملة ، بل ترك أمرها للظروف ، ولجبهود الأفراد من ضباطها ، وذكر إبراهيم باشا فوزي في كتابه أن رؤوف باشا أرسل في أول الأمر الطيب بك مدير فاشوده إلى الجزيرة ، أبا ، إلا أنه على حد قول إبراهيم باشا قد قبل رشوة من

أفصار الامام المهدي ، ولم يفعل شيئاً (٥٣) . وليس هناك من دليل على صحة هذه الرواية . ويحتمل أن يكون ابراهيم باشا قد نقلها عن الشائعات والمعروف ان ابراهيم باشا قد عاد إلى مصر في ذلك الوقت تقريباً ، وبقى فيها حتى سفره مع غوردون في سنة ١٨٨٤ م وبقى أسيراً حتى نهاية حكم الخليفة عبيد الله التعايشي في سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .

استدعى رموف إلى مصر ، وترك السودان في فبراير من عام ١٨٨٢ م بعد أن سلم مقاليد الحكمدارية إلى جيجلر باشا (١٨٧٧/ ١٨٧٩ م) بعد أن كان مفتشاً للتفريغات ، ولم يكن من اليسير على جيجلر أن يدرك أو يقدر مدى خطورة الحركة المهدية ، وهو من بيئة تختلف اختلافاً كلياً عن البيئة المحلية السودانية ، وذلك في الدين واللغة والتقاليد ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه قد عمل زمناً في تنفيذ معاهدة الرقيق على الصورة القاسية التي رسمها غوردون . وما يجدر ذكره ان جيجلر قد بقي نائباً للحكمداو طوال حكم عبد القادر باشا ، الذي كان متفياً عن الخرطوم ، لإعادةالامن في أرض الجزيرة . ونجد فيها ذكره أحمد حمدي بك ، رسول الخديو الخاص ، ان جيجلر قد عمل جاهداً على أضعاف مراكز الحاميات المصرية على النيل الأبيض مما عرضها للأخطار (٥٤) .

جاء عبد القادر باشا إلى السودان في مايو سنة ١٨٨٢ ، وقد تعين حكمداراً بالإضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) وكانت له شخصيته القوية وخبرته في معالجة الشؤون الادارية والعسكرية وقد استطاع القضاء على عناصر الفتنة والاضطراب في منطقة جزيرة النيل الأزرق والمنطقة الواقعة شرقي النيل الأبيض ، إلا أن الصفات ، التي استطاعت بما لديها من إمكانيات ضئيلة ، أن تقبض على ناصية الأمن ، لم تجد في مصر من يقدرها ، فيستمع إلى نصيح صاحبها ، بسبب ما كانت تعانيه مصر من أحداث داخلية وخارجية عند قيام الحركة العربية الوطنية ، وقد وجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية لاحتلال مصر ، متذرة بأكثر من سبب

(٥٣) ابراهيم باشا فوزي في تاريخه السوانح بين يدي غوردون وكتشفي جزه أول من ٧٧ القاهرة مفر ١٣١٩ وقد ذكر الشيخ محمود القبانى في كتابه السودان المصرى والانكليزى من ١٥٤ » ان مدير لشوده قد قبض على الامام المهدي وحاول أنصاوه ومثونة سائة أردب من القمح فأطلق سراحه .

(٥٤) يوميات رسول الخديو تاريخ ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٨٨٣ م .

نقطة لسياستها وخططها بالنسبة لوادي النيل ، وكان لزول الجيوش الانكليزية في مصر ، وهو المرحلة الأولى التي مهدت لخطوات أوسع ، انطباعاتها في السودان بصفة عامة ، وعلى مركز عبد القادر باشا حلي بصفة خاصة وكان وجوده في السودان ، يدير عملياته لاعادة النظام والاستقرار ، أمراً تضييع معه الفرصة المرجاه ، وكان عبد القادر باشا يعالج الموقف بما يتماشى مع طبيعة الدعوة المهدية ، وقد مكنته صفاته وكفائته من السيطرة على الموقف ، وهذا لا يتفق بل يعطل الاهداف الاستعمارية في حوض وادي النيل ، وكان من مصلحة تلك السياسة أن تسفرى نيران الفتنة في جنوب الوادي (السودان) لتخلق الوضع الذي يهيئ الفرصة لكسب جديد .

عمدت هذه السياسة بوسائلها المختلفة إلى نشر الشائعات المفترسة التي من شأنها أضعاف مركز مصر في السودان ، كما انها عملت على إثارة مخاوف الخديو توفيق من نشاط عبد القادر باشا حاكم دار السودان متهمه اياه القيام بتدبير يرمى إلى فصل السودان عن مصر ، وتبعيته المباشرة للباب العالي ، فاستدعاه الخديو في صورة توضيح لها مدى خوف توفيق ، الذي كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الانكاز له ، تحقيقاً لاهدافهم من بقاءه في مركز من الضعف ، فبينما كان عبد القادر باشا يعمل وجنوده في جنوب جزيرة النيل الأزرق ، لاجد من نشاط بعض ذوى المطامع الشخصية من الوطنيين ، الذين انتهزوا فرصة الدعوى المهدية لتحقيق بعض مطامعهم فالتفت حولهم بعض الجماعات وقاموا بحركة عصيان ، فاذا حسين باشا واصف يصل إلى معسكر عبد القادر باشا ليتسلم منه قيادة قواته ، فتعطلت بذلك خططه لتأديب الخارجين ، وفي نفس الوقت يصل إلى الخرطوم علاء الدين باشا صديق ، والجنرال هكس باشا ، ومعهما رسول الخديو الخاص ، الذي أحيطت مهمته حينذاك بالكتمان الشديد . وقد كشفت الرقائق عن هذه المهمة وحدودها ، فقد كلف الخديو هذا الرسول ضمن ما كلفه به ، إعلان حكمدارية علاء الدين باشا بدلاً من عبد القادر باشا حلي ، كذا تعيين الفريق هكس باشا رئيساً لهيئة أركان الحرب للقوات المصرية في السودان ، وإسناد قومندانية القوات إلى سليمان باشا تيارى ، وإبلاغ عبد القادر باشا بقرار إلغاء نظارة السودان التي كان يرأسها ، وبانفصاله عن الحكمدارية ، وغادر عبد القادر باشا الخرطوم في ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٣ م في طريقه إلى القاهرة .

وفي اليوم الذي أعلنت فيه حكمدارية علاء الدين وقومندانية القوات إلى

سليمان باشا نيازي صرح هكس باشا لرسول الخديو ان هذه الاجراءات قد تمت بناء على طلبه (٥٥).

وقد حاول رسول الخديو عبثاً إقناع الخديو بأن ما أشيع عن عبد القادر باشا لا يصيب له من الصحة ، بل بالعكس طالب بالابقاء عليه لاتمام ما قد بدأه من أعمال (٥٦) ، لأن الخديو كان واقفاً تحت نفوذ المستعمر لحوفه من الشعب.

وهكذا أقصى عبد القادر باشا عن الميدان، وانتقلت قيادة القوات إلى سليمان باشا نيازي ، بعد أن كانت هذه المسؤوليات من صميم اختصاص الحكمدار ، منذ امتداد الادارة المصرية إلى السودان حتى نهاية حكمداية عبد القادر باشا ، وعلى هذا تجزأت المسؤوليات ، وحصر في السودان حاكم إداري وآخر عسكري ، فازدادت الثغرات التي أطلت منها رأس المنازعات والمشاحنات حول الاختصاص ، وتمكن هكس من التدخل في كل صغيرة وكبيرة في تحركات القوات (٥٧) ، وبدأت بسيطرة هكس مرحلة خطيرة في تاريخ الادارة المصرية للسودان ، لأن هكس ومن معه من الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه لمعاونته ، قد كونوا شبكة خاصة ، وعمل هكس وزملاؤه بشئ الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل في دائرتهم ، حتى لا تكتشف خطتهم - واستعان هكس بمرجع من هيئة المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط (٥٨) .

النشاط البريطاني - محمد هكس

ويهمنا في هذا الموقف أن نتعرض للنشاط الذي قام به الانكليز وعملاتهم بعد أن هباً له غوردون التربة الصالحة خلال حكمدايته ١٨٧٧/١٨٧٩ م ، فقد حدث

(٥٥) يوميات الأدميرال إى احمد حمدي ورسول الخديو الماس بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣ .

(٥٦) المصدر آف الأكر بتاريخ ٩ ابريل سنة ١٨٨٣ دكتور صبرى - ص ٩٥

(٥٧) نلغراف ماليت في ٢٨ مايو سنة ١٨٨٥ م الى هكس - شبكه ص (٨٦) .

(٥٨) المترجم المشار اليه هو ادوارد بلدون ليقاس ، ولد في عام ١٨٤٣ ومات في سنة ١٨٨٣ م وموطنه شمال مقاطعة ريفز (بالبحر) وذكر عنه ريتشارد هل في قاموس التراجم - ص ١٢١ انه قد اشتغل بالتجارة في مصر وجده لبضة سنوات قبيلا التجاره بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الانجليزية على مصر في عام ١٨٨١ م وانه قد خدم مع هكس كرئيس لخبراته ومترجمه لاجادته اللغة العربية . وقد ألحق هذا المترجم في الجيش المصري برتبة البوزباشي . وكان الضابط الوحيد بين ضباط هكس من الانجليز الذي يستطيع التفاهم باللغة العربية في هجتها المحلية .

بعد احتلال إنجلترا لمصر في سبتمبر سنة ١٨٨٢م أن أرسل الكولونيل استيوارت في ديسمبر من ذلك العام إلى السودان ، لدراسة شئون البلد في مختلف نواحيها ، وقد دون نتائج مهمته في تقريره المعروف (٥٩) ، والذي ضمت توصياته ، بما يرى اتخاذه نحو لإدارة السودان ، وما يحذر ذكره أن هذا الضابط كان ضمن قوات الحملة البريطانية التي نزلت مصر ، وقد قام استيوارت باتصالات واسعة في الخرطوم وفي غيرها من المدن ، تحت ستار جميع المعلومات لتقريره ، لاستفزاز الأهالي وتحريضهم على الانشقاق والعصيان في وجه مصر الحكومة الشرعية في البلاد . وبالرغم من أن الحديبو توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من البريطانيين القيام بنشاط لا يمتشي مع مصلحة مصر والسودان ، فإنه لم يكن قادراً على اتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط ، نظراً لمركزه الدقيق فيما يختص بمرشده وولايته ، وبالإضافة إلى هذا فإن السيطرة البريطانية كانت قابضة على مرافق البلاد ، توجهها على النحو الذي تراه وقد اكتفى توفيق بأن طلب من الحكمدار الجديد - ولا حول له ولا قوة بعد انتزاع اختصاصاته العسكرية - أن يراقب حركات استيوارت وهكس ومن يتعاون معهم ، وأن يحيط الحديبو علماً بتلك الحركات أولاً بأول (٦٠) . وقد حاول هؤلاء رجال رعييون أمثال جيجلر وغيره من الأوروبيين ومن تعاون معهم من أصحاب المنفعة من الموظفين ، ومن غير الرسميين يبرز اسم الرحالة شوبر (٦١) ، الذي جاء إلى السودان في عام ١٨٨١م ، بعد أن أمضى فترة من الزمن في إنجلترا ، وبقي في السودان حتى عام ١٨٨٢م ، وقد طاف في منطقة النيل الأزرق ودار فنج وبحر الغزال ، ومنطقة أم درمان والنيل الأبيض ، وهي المناطق الأقرب إلى البدائية الصالحة لغرس بذور الأفكار الجسدية ، التي من شأنها إثارة الفتن والتمرد على الحكومة القائمة ، ورسم شوير خرائط عديدة للأقاليم التي زارها . وذكر الشيخ

(٥٩) تقرير الكولونيل استيوارت - وثيقة برلمانية بريطانية مصر رقم ١١ سنة ١٨٨٣ م .

(٦٠) يوميات رسول الحديبو .

(٦١) كتاب قاموس التراجع للسودان الإنجليزي لمصري - مؤلفه وينتشارد هل (بالإنجليزية) ص ٢٣٤ ويذكر هل أن هذا الرحالة هولندي الجنسية ، أيضاً كتاب السودان المصري والانكليز لكتاب مجهول وهو مجموعة مقالات نشرت في جريدة الاهرام وطلع منها الجزء الأول في هذا الكتاب - وكتاب المقالات هو المرحوم الشيخ محمود القيساني (المتوفى في أم درمان في أول عام ١٩٥١ م) ص ١٨٤ .

محمود القباقي في مقال له أصبحنا يوما وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق
(الدعوة الى) الاعراس مكتوب عليها باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ما يأتي
« يا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا - قد استولت حكومتنا
البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية . »

الامضاء

« رجال بريطانيا العظمى ،

فارتفعت الحكومة لهذا الحادث وبنت العيون والجواسيس فأسك خادم بربرى
وهوجم منزله فوجد فيه نحو خمسة صناديق مشحونة من هذه الأوراق وعليها كلها
ختم بواسطة لندرا ومصر والخرطوم وظهر بعد ذلك أنها وردت بطريق البريد وعليها
عنوان سائح انكليزي اسمه مستر شور كان نازلا في بستان خارج المدينة لاحد
الوطنيين وكان منزل الخادم المشار إليه بجوار منزلنا .

ولدى استنطاقه أجاب بأن « صندوقا كذلك الصناديق وردت في البريد باسم
سيده فأرسل منها أربعين صندوقا إلى جميع جهات السودان وسمى هذه الجملات
والاشخاص الذين أرسلت معهم وإلهم . فاستدعت الحكومة السائح لاستجوابه
فانعها فنصل الانكليز فكنت واستكانت (٦٢) .

ويضيف الشيخ محمود أن جماعة من السياح والبريطانيين كانوا يتصلون بالاهالى
وبخاصة في الخرطوم ويتحدثون اليهم عن عطف بريطانيا على السودانيين وأن جلالة
الملكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء ولذا سعت جلاتها في فصل
بلادكم عن حكومة الجناب الخديوى (٦٣) وهذا القول هو ما ذكره غوردون
عند وصوله الخرطوم في ١٨٨٤ م . وأقام هؤلاء الدعاة شبكة واسعة في أطراف البلاد
يعضد منهم كثير من المأجورين وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد، ويوزعون منشورات
جاء في واحد منها « ان حكومة جلالة السلطان عبد الحميد لم تعد قادرة على القيام
بنفقات حربيها مع الروسية ، وقد باعت قسما من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان
المصرى لحكومة جلالة الملكة فكتوريا ، وتقاضت عن ذلك ٢٥٠ مليوناً من
الجنهات وشروط البيع أن السودانين ليسوا من أحرار المسلمين ، بل هم زنوج أرقاء

(٦٢) بنعه من المصدر نفسه ص ١٨٢/١٨٤ (السودان المصرى والانجليز)

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٨١ .

تأخذهم الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض ، حتى إذا أمسكتهم حكومة انكلترا جميعاً وأنفذت فيهم ماتشاً وخلت بقاعهم من بني جلدتهم أرجعت الارض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانيين ليسوا بأحرار ولا مملين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشاهدوا بأعينهم هل القوم حقيقة كما تقول حكومة الاساتنة ، التي يعدونها قدوتهم دينياً وسياسياً أم الحقيقة أن ذلك ناشئ عن حيف الأتراك وبغضهم للجنس العربي الذي منه السودانيون والأمل وطيد أن لا يكون هذا القول صحيحاً ، وهو رأى حكومة انكلترا ، . والواضع في هذا الماثور وما فيه من مغالطات يعود لنا أساليب العناية التي تعمل على بذور الفرقة والفتنة واثارة الخواطر وإظهار الدولة العثمانية سلطانها خليفة المسلمين ، في صورة نمط من مركزها بين أهل السودان .

أخذ هكس في إعداد حملته استعداداً للزحف على كردفان ، واستطاع الخلاص من سلمان باشا نيازي ، الذي كان يعارضه في خطته ، وصار علاء الدين باشا القائد العام اسماً ، وانتهى الحل والهند إلى يد هكس ، وبدأ في إرسال قواته إلى الدويم بعد اليوم الثاني من سبتمبر سنة ١٨٨٢م الذي انتهى فيه الاستعراض الكبير في أم درمان وسار الجيش من الدويم في جو من التفكك وعدم الانسجام (٦٤) . وتضارب الآراء وانقسام القواد ، فكانت النكبة في شيكان في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٢ ، وقصة هذه الحملة مازالت في حاجة إلى التحقيق ، من حيث أسباب الهزيمة المنكرة ، التي ذهبت ضحيتها الحملة بأكملها ، ومن ضمن رجالها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب ومن بينهم علاء الدين وحسين مظهر . وقد أمدت هذه الكارثة الحركة المهدية بعناد كبير وسلاح وفير . الأمر الذي دخلت معه الحركة المهدية في مرحلة جديدة ، وبما يجدر ذكره أنه بينما كانت قوات المهدية تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هنالك قوتان على الأقل ، على درجة مامن القوة ، إحداها في دارفور التي على رأسها سلاطين والثانية في بحر الغزال يتولى إدارتها ليتون بك ، وكان في ظهير ليتون بك أمين باشا (جورج شنزر الألماني) مدير خط الاستواء ، وقد يكون لهذه القوات شأنها ، في تحسين الموقف وتخفيف حدة ، لو أن تفسيقاً قد تم في صورة من الصور تتضافر فيه تلك القوات برحمتها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه على تخفيف الضغط الذي تلقته الحملة التي قامت من الدويم . وقد كانت وسائل الاتصال مع دارفور

(٦٤) مذكرات عباس بك . نشرها انعاماً عيد الرحمن زكي في مجلة الجمعية التاريخية بمصر .

ممكنة عن طريق الصحراء من دنقلة ، كما كان في الامكان الاتصال ببحر الغزال عن النيل . وكانت الحالة في هاتين المديريتين - حسبما ورد في تقارير - رسول الخديو ، على مايرام ، ولا يعلم السر في بقاء مديريهما في موقف المنفرج . وجدير بالعناية أن تحقق هذه القضية لأنها لاتعنى إلا أحد أمرين ، أما تفكك القيادة العامة وعدم التناق في الخطط - وهذا أمر مسلم به ، أوتم ذلك عن عمد الحاجة في نفس يعقوب - وقد ذكر رسول الخديو أن أسرار الحلة وتحركاتها كانت تقرب إلى رجل الشارع ، واتهم الرسول ماركو بولو بذلك^(٦٥) ، وذكر الرسول أيضاً أن وكيل قنصلاتو انجلترا في الخرطوم - جورجي اسطنبولية كان في الأبيض يعمل في معسكر الامام المهدي .

وقد سلم سلاتين مديرته للهدية في ديسمبر سنة ١٨٨٣م أي بعد شهر تقريباً من هزيمة شيكان ، وسلم لبنون ببحر الغزال في ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٤م وبقي أمين في خط الاستواء يصارع الفتن والقلاقل حتى خر صريعاً في شباك الاستعمار .

وقد زادت هذه الاحداث أهل السودان إيماناً بانهم قد صاروا أمام حرب شنها عليهم الفرنجة ، الذين احتلوا مصر .

وبعد هذه النهاية المحزنة لحمة هكس ، وما ترتب عليها من اخطار ، تذبذبه الضمير البريطاني ، كما هي عادته بعد أن يطمئن إلى مقنم كسبه ، في محاولة نهضة ذمته من مسؤوليات هذه المغامرة ، وأرادوا الفاء تبعثها على عائق مصر وحدها ، وهي التي كانت مقبدة بتنفيذ توصيات السياسة البريطانية ، ولم تكن مصر في مركز يسمح لها باختيار ماهر في مصالحها هي ، والحكومة البريطانية التي تقول بأنها لم تكن مسئولة عن تعيين هكس في خدمة مصر ، هي أيضاً التي طلبت منه أن يحيطها علماً أولاً بأول عن تطورات الموقف في السودان ، وتكرر هذا الطلب من ماليت عن طريق الكولونيل استيوارت ، الذي كان يعمل كضابط اتصال مع هكس ، وهكذا حافظت انجلترا على القول بعدم مسئوليتها وبأنها لا تتم بشئون السودان ، الذي يخص أمره مصر وحدها فقط ، جريا على سياستها التقليدية في اخفاء أهدافها .

(٦٥) يوميات احمد حدى بك بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٣ م .

أوضحنا فيما سبق ما تميزت به الفترة التي جاءت بعد الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢م، من أحداث متتالية، عجلت بمصير السودان، فبينما كان هكس في طريقه من الدويم إلى الأبيض كان القنصل البريطاني العام الجديد في مصر — السير افلن بارنج قد بدأ معاهداته مع شريف باشا عن مسألة السودان، واشتملت خطته ترك دارفور وإقامة حكومة محلية، ثانياً تعيين لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص أحدهم أوروبي لإدخال تعديلات على الإدارة، ثالثاً بناء خط حديدي — وفي نفس الوقت بدأت مناورة المفاوضات بشأن تخفيض عدد القوات البريطانية في مصر، ولم تكن كل هذه المناورات أكثر من أسباب لكسب الوقت وتحويل التفكير إلى طريق آخر، والدليل على ذلك أن كل هذه المناورات صارت أثراً بعد عين بعد السبع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٣م الوقت الذي بدأ فيه بارنج يشعر باحتمال هزيمة هكس الذي لم يسمع عنه شيئاً بعد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣.

وبعد أن تحققت هزيمة هكس كان لازماً التوصية بإخلاء السودان حرصاً على أمن مصر وطاماً يئمتها — على حد التعبير البريطاني — وكانت مصر حينذاك في حالة مالية لا تسمح لها بإرسال حملة أخرى للسودان ولم يكن من المستطاع الحصول على قوة هندية أو إنجليزية، كما أنه لم يكن من مصلحة مصر، في نظر الإنجليز، أن تطلب مساعدة عسكرية من الباب العالي، إذن فلتوقف المباحثات الخاصة بتخفيض الجنود البريطانيين المحتلين لمصر، وعلى مصر أيضاً أن تقبل النصيحة بترك السودان إلى حدود معينة. حقاً أن السياسة المرتبة لها منطلقها الغريب.

وتحولت الاتجاهات إلى بناء سكة حديد من البحر الأحمر إلى بربر، وأرسلت قوة من الجندومة المصرية إلى سواكن لفتح الطريق إلى بربر.

وتقدم شريف باشا في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣م بذكره إلى بارنج يعارض فيها ترك السودان بحجة أن الحديدي لا يملك بمقتضى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ حق التنازل من أي جزء من أراضيه، وذكر أنه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد للتصرف في أمر السودان فإن تركه سوف تكون له أسوأ العواقب، وأوضح أن مصر في ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف في جميع أنحاء السودان فيما عدا كردفان، ولم يكن خبر استسلام سلاتين قد وصل بعد، وأشاد شريف بما قامت

به مصر من امتداد للدنية إلى السودان حتى منطقة البحيرات . وقال أنه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتح للتجارة والكشف العلمى ، وأضاف أنه لا ينكر أن مجروداً قد قامت به مصر للحد من نشاط النخاسة — ولم تكن كل هذه الحقائق الدامغة لتخلي بريطانيا عن مرقعها بصدد تنفيذ نصيحته بالترك أو الاخلاء بالمعنى المقصود من الكلمتين استعملتا وهما (Abandonment) و (Evacuation) ولكل من هاتين الكلمتين تفسيرها الخاص . وهو مطاط يمكن تأويله إلى الغرض المقصود ولم يكن اختيار هذين اللفظين إلا لتفادى الكثير من المشا كل التي قد تثار وتواجه بريطانيا مسئولية ما وبخاصة أن وضع بريطانيا في مصر كان شائكا للعداء الذى كان قائما بينها وفرنسا وروسيا ، وكان من نتيجة اصرار بريطانيا استقالة شريف باشا ، فى وثيقة سجل فيها موقفه ، وجاء بعده نوبار باشا ، الذى قبل تنفيذ النصيحة ، وقد عرض ايفاد عبد القادر باشا حلى إلى السودان ، ليشراف على سحب الحاميات المصرية ، وقال نوبار فى هذا الصدد أن القيادة العليا لن يسلم زمامها إلى يد أفضل من يد عبد القادر باشا حلى . الذى يعرف عن السودان مالا يعرفه غيره ، فضلا عن أنه ضابط شجاع وكفء ، واستطاعت الحكومة البريطانية أن تتخلص مرة أخرى من عبد القادر باشا بأن طلبت من الحكومة المصرية كشرط أسامى أن تصدر أولا بيانا تعلن فيه عزمها على الترك (٦٦) . وبما لاشك فيه أن اصدار مثل ذلك البيان سوف يقيم الصعاب فى تنفيذ هذه الخطة ، كما أنه يعرض القوات المنسحبة إلى أخطار جسيمة ، ويعرض المدنيين إلى النهب والسلب والفوضى . ولهذا رفض عبد القادر باشا هذه المهمة .

وقد حدث فى الوقت الذى كانت تقابل فيه المذكرات مع مصر ، ان طلبت الوزارة البريطانية من غوردون العودة من بروكسل ، للقيام ببعض المحادثات ، وكان غوردون قد ارتبط مع الملك ليوبولد الثانى للعمل فى الكونغو الحرة التى يتولى سيادتها ذلك الملك .

وكتب غوردون بعد مقابلته للوزراء خطايا إلى بارنس (Barnes) جاء فيه
 «تقابلت مع ولسلي، الذي دخل على الوزراء وتحدث معهم، ثم عاد إلى وقال: أن
 حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون واضحاً لك أنها تحتم اخلاء السودان، لأنها
 لا تضمن قيام حكومة المستقبل، فهل لك أن تذهب لتقيام بهذه المهمة؟ فأجبت:
 نعم. فقال لي أدخل معي لمقابلة الوزراء، الذين سألوني: هل أوضح لك ولسلي
 رأيها، فقلت نعم، انه قال لي انكم سوف لا تضمنون حكومة المستقبل، وانكم
 تطلبون السفر لاجراء عملية الاخلاء، فأخروا على هذا القول وانتهى الحديث»^(٦٧)
 وكانت الملكة فكتوريا مهتمة كل الاهتمام بمسألة السودان وقد ذكرت في خطاب لها
 إلى السير افلان وود أن ارسال غوردون كان يحجب ارساله قبل الآن بكثير.

وقد سبق للورد ولسلي أن أوضح لغوردون أن الحكومة البريطانية لا تمنع في
 خدمته في الكونغو الحرة حسب اتفاقه مع الملك ليوبولد الثاني، الا ان لأمته عليه
 حقاً أن يؤديه أولاً قبل الذهاب إلى الكونغو — وهو السفر إلى السودان، وبعد
 انتهاء مأموريته عليه أن يذهب إلى الكونغو الحرة.

وحاول غوردون الاستعانة بالزبير باشا، إلا أن هذا الطلب قد رفضته الحكومة
 البريطانية، لاكثر من سبب، منها خشيتها أن يفتقم الزبير من غوردون لدم ابنه
 سليمان وبخاصة بعد أن صرح الزبير في مقابلة له مع غوردون في القاهرة بحضور
 السير بارنج أنه يعتبر غوردون مسئولاً عن دم ابنه وأن ثأر الدم ما زال قائماً بينهما
 وسوف يكون انتقام الزبير من غوردون مضيقاً للخطوة البريطانية. ويؤيد هذا ماجاء
 في مذكرات المساجور جنرال الاونورايل منتيح ستورت ورتلي أن الزبير باشا قابل
 غوردون في القاهرة في يناير سنة ١٨٨٤ في منزل القنصل البريطاني العام بحضور
 السير بارنج والسير افلان وود وجيرالد بورتال وصاحب المذكرات، وقال لغوردون
 أن ابني قد قتل رمياً بالرصاص بأمر محكمة عسكرية مستعدة في حكمها إلى خطاب
 كتب مني (الزبير باشا) للحض على الثورة، وطالب غوردون بأن يقدم هذه
 الوثيقة. وفعلًا أرسل كاتب المذكرات إلى وزارة الحربية المصرية لاحتضار

(٦٧) نفس المصدر ٣٤٥

(٦٨) التي ٣٤٤

اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت بأختامها منذ ١٨٧٩م — أى أنها لم تنقض أختامها لحوالى خمسة سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى أشار إليها ، وقال غوردون أن الأمر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه . . . وانى سوف أعمل ما يمكن للترضية ، ويبدو أن الخاسر غوردون لذهاب الزبير إلى السودان كان لهذا الغرض — (المذكرات المشار إليها قد نشرت فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الجزء الرابع والثلاثين ص ٣٩/٤٠) .

جاء غوردون إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٤م ، بعد أن كانت نيته السفر مباشرة إلى سواكن عن طريق البحر الأحمر ، وصافر إلى السودان فى نفس الشهر ، ولا ندرى أنه كان قد ارتبط بخدمة ليوبولد فى الكونغو الحرة ، وندبته دولته لتنفيذ سياسة الترك فى سرعة ، والتي قدر لها غوردون شهرين تقريباً يذهب بعدها إلى الكونغو الحرة ، كما ذكر فى خطابه لاخته ، وكانت خطط غوردون لتنفيذ السياسة التى رسمتها له حكومته متضاربة فى كيفية القيام بهذه المهمة ، مهمة الترك ، وتكوين مشيخات وسلطنات صغيرة ، يربط بينها حلفاً فى صورة ما (٦٩) . ولا نعتقد أن مثل هذه المشيخات والسلطنات يترك أمرها لها فيما بينها دون أن تدخل فى تحالف معه باسم الحكومة البريطانية ، تدخل فيه هذه المجموعات فى حماية تلك الدولة ويسيطر عليها غوردون بعد انتقاله إلى بحر القزال ، إلا أن موته فى الخرطوم قد قلب خطته رأساً على عقب وعطلها بعض الوقت .

استمر غوردون بالقوة التى وصل إليها الامام المهدي أو نجاحها لها ، وقد كتب ، وهو فى طريقه ، فى كرسكو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٤م ، أن الاشياء قد زادت المبالغة ، وانى لا أخاف من تقدم المهدي ، فإنى بعون الله سوف أصل معه إلى حل ، فالمهدي هو ابن أخت الخبير الذى خدم معى سابقاً . .

وأعلن غوردون فى بربر رداً على الأسئلة التى وجهت إليه من أعيان المدينة بشأن معاهدة الرقيق لسنة ١٨٧٧م ، ومدى سريان تصورها على السودان فى وضعه الجديد ، قال أنها لا تسمى على السودان ، بسبب أن السودان قد صار منفصلاً عن مصر ، وأصدر بياناً رسمياً فى هذا الشأن ، وطلب غوردون من الامام المهدي أن يكون سلطاناً على كردفان ، كما كان راعياً فى إقامة سلاطين آخرين هنا وهناك فى

مناطق السودان القليلة ، وينسحب بعدها إلى حوض بحر الفزال ، وتحول تجارة السودان إلى أوغندا ومنها إلى ساحل المحيط الهندي وتنقطع عروبه .

وكانت التعليقات التي أعطيت مكتوبة إلى غوردون قبل مباحثته لندن كالآتي :
« ترغب حكومة جلالة الملكة أن تذهبوا حالا إلى سواكن (٧٠) ، لكتابة تقرير للحكومة البريطانية عن الحالة العسكرية في السودان ، وعن الوسائل التي يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية ، التي تحتل مراكزها في تلك البلاد ، كذا لسلامة الرعايا الأوروبيين الموجودين في الخرطوم .

« وعليك أيضاً أن تبحث وتقدم تقريراً عن الطريقة الممكنة للاخلاء من داخلية البلاد ، أيضاً عن الوسائل التي يمكن اتباعها لسلامة موانئ البحر الأحمر ، وإدارتها بواسطة مصر لإدارة حسنة .

« وفي صدد هذا الموضوع ، عليك أن تهتم اهتماماً خاصاً عن أجمع الوسائل لمنع التحريض الذي يخشى منه من جانب تجار النخاسة ، بسبب حركة التمرد (المهدية) وسحب السلطنة المصرية من البلاد .

« وسوف تكون عاضداً لتعليقات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام في مصر ، الذي عن طريقه ترسل تقاريرك للحكومة جلالة الملكة مختومة بالختم الأحمر .

« وعليك أن تعلم أنه قد خول لك — وتمكف بالقيام بأية مأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتي يجب أن ترسل إليك عن طريق السير افلن بارنج ، وسوف يسافر في رفقتك الكولونيل استيوارت ، الذي سوف يساعدك على إنجاز المهام التي توكل إليك .

« وبعد وصولك إلى مصر ، عليك أن تتصل بالسير افلن بارنج ، الذي سوف يحدد موعداً لمقابلتك ، لبحث معك مسألة سفرك إلى سواكن مباشرة ، أو أنك تذهب بنفسك أو يذهب معك الكولونيل استيوارت إلى الخرطوم عن طريق النيل .
وما لاشك فيه أن هذه التعليقات التي كتبها أصلاً اللورد جرانفيل (٧١) قد صيغت

(٧٠) تعدلت لفظة سواكن لقرأ مصر وذلك في المكنتاب الأزرق — ورنام من ٢٧٨

(٧١) ذكر التن من ٣٤٠ — ان القورد مورلي قد ذكر خطأ في كتابه عن ترجمة حياته غلادستون ان هذه التعليقات قد وضم صيغتها غوردون . والأصل مازال محفوظاً بخط جرانفيل .

في حذق ومهارة ، وذلك لابعاد المسؤولية فيما يختص بالاخلاء أو الترك ، عن عاتق الحكومة البريطانية ، وقد قال غلادستون رئيس الوزراء انه أى الحكومة البريطانية لا تلزم بأية مسئولية ، وكان أن أعدت الحكومة المصرية فرمان الخاص بمأمورية غوردون ، كطلب المعتمد البريطاني ، الذى كان صاحب الأمر والنهى الفعلى في مصر ، وان رفض تنفيذ ما يشير به من نصيحة — كما تواضع في تسميتها — معناه ترك كرسى الحكم .

وفي الوقت الذى كان فيه غوردون يقطع صحراء العظمور، بين كرسكو وأبو حمد في طريقه إلى الخرطوم التي وصلها في صبيحة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م كانت قوات فالتين بيكر باشا ، وقوامها من الجندرمة المصرية ، قد أصيبت بهزيمة منكرة في موقعة التيب في شرق السودان . وبما لا شك فيه ان هذه الهزيمة قد كان لها أثرها المباشر على مركز غوردون ومأموريته إلى السودان . كما أنها أذكت الشعور انحل العام ، ولا يخفى ان الشعور العام في البلد قد تزايدت كراهيته لحكامه من الأجانب ، بسبب ما أصابهم على يد هؤلاء من عسف وظلم منذ ولايتهم للنواصب الرئيسية في حكمدارية غوردون ١٨٧٧ / ١٨٧٩ . وقد وجد الأهالى في الهزائم المتتالية التي منيت بها قوات الحكومة فرصة ذهبية للتخلص من نيرها بعد أن ضاعت هيبتها وقوتها وصارت من الضعف بمكان ، وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتعاون السكان مع الامام المهدي في حركته ، التي كانت قد وصلت إلى مرحلة المقاومة بالسلاح ، وذلك بعد سقوط الأبيض .

ونجد فيما ذكره جراهام (Graham) الذى رافق غوردون في رحلته الأخيرة حتى كرسكو ، ان غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة ، الأمر الذى جعل جراهام يتخيل انه في محبة رجل قد حكم عليه بالموت، فهو تارة يتحدث عن الأماكن المقدمة ، وأخرى عن جوز الهند ، ثم ينتقل الى مشروعاته المستقبلية في السودان ، وبخاصة عن خطته لتسليم مديرتى خط الاستواء وبحر الغزال إلى الملك ليوبولد الثانى ، وعن ذهابه إلى تلك المنطقة لإدارتها باسم ملك الكونغو الحرة ليوبولد (٧٢)

ولم يكن مستغرباً وحاله هذه التي وصفها جراهام ، أن يتحدث إلى أعيان مدينة بربر عن مأموريته ، وانفصال السودان عن مصر، ورأيه في الرقيق، وتعطيل الاتفاقية

التي أبرمت في عام ١٨٧٧ م بالنسبة للسودان، فهو بهذا "التصرف الذي تتعصه الكياسة قد شجع عناصر القوضى، وزاد العراقل في طريقه، على عكس ما كان ينتظر من مؤازرة الأهالي له وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذي ارتكبه غوردون ودفع ثمنه غالباً، غوردون كان يؤمن من قرارة نفسه بضرورة انتهاء زعامة مصر للسودان كما ذكر لضيفه لورنس اليفانت (Lawrence Oliphant) (٧٣) الذي زاره في منزله في سفح جبل الكرمل.

أمر غوردون بعد وصوله إلى الخرطوم بهدم الحصون، التي عزها عبد القادر باشا حلي حول الخرطوم، كما أمر بحرق السجلات الحكومية، وحمل غوردون معه إلى الخرطوم من الريالات النقش ما بلغت قيمته المائتي ألف جنيه، وقد ضربت هذه الريالات خصيصاً في ترينستا (إيطاليا) (٧٤) وهي تحمل صورة (ماريا تريزا) وهي من العملات المتداولة في السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد، ويبدو أن هذه العملة كان مقدراً لها أن تحمل محل العملة المصرية المتداولة قانوناً في السودان.

وقد أثارت تصرفات غوردون بشأن الرقيق موجة من الدهشة في الصحف البريطانية التي أرسلت عدداً من البرقيات إلى غوردون تستفسر منه عن حقيقة موقفه وقد أجاب غوردون في برقيته بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٤ م أنه سوف لا يقوم بتنفيذ المعاهدة في عام ١٨٨٩ م وأنه إذا نظر إلى ما قرره حكومة جلالة الملكة بشأن مصير السودان (الاخلاء والفصل عن مصر) فإن المعاهدة لا تحتاج إلى إيضاح وأضاف بفرله، أن المسألة هي أحد أمرين، الرقيق الموجود في حيازة أصحابه أو اصطياده من مواطنه وفي رأي أن معاهدة ١٨٧٧ م سوف لا تنفذ في القاهرة فيما يختص بالرقيق الموجود تحت يد أصحابه، وعلق السير هنري غوردون على ذلك في ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٤ كالآتي، أن المعاهدة تشير إلى الاحتفاظ بالرقيق الموجود ولا تشمل إضافة رقيق جديد، وقد اعتبر الرقيق في بريطانيا في عام ١٨٠٧ م كعمل من أعمال القرصنة، إلا أن الرقيق لم يسترد حريته إلا في عام ١٨٢٩ م بعد أن دفعت الحكومة البريطانية تعويضاً لأصحابه بلغ حوالي العشرين مليوناً من الجنيهات اعتبرت مصر في ١٨٧٧ م إدخال الرقيق جريمة عقابها الموت وأن بيع الرقيق جريمة

(٧٣) بيني ٢٢٠ - الن م ٣٧.

(٧٤) مذكرات الماجور جنرال، نتيج ستوارت ورنلي - في مجلة السودان رسائل ومدونات

عقابها الموت وأن بيع الرقيق من شخص إلى آخر ينتهي في مصر في ١٢ أغسطس من سنة ١٨٨٤ وفي السودان في عام ١٨٨٩ م ومن هذا يقين أن الرقيق سوف يبقى على هذا الحال على أن لا يباع بل يجب أن يستمر في خدمة أصحابه - فالرقيق مال ، وإذا حرر الرقيق دون أن يدفع عنه تعويض لأصحابه ، وقد دفعت إنجلترا تعويضاً لرعاياها ، فإن ذلك يكون نوعاً من النهب واللبس . لهذا فإنه طبقاً للقوانين القائمة يحق لأصحاب الرقيق في السودان أن يتعاملوا فيما يملكون منه حتى عام ١٨٨٩ وهذا ما قاله غوردون لأهل السودان عندما أعلن أنه لم يأت إلى السودان لنقض القانون ومصادرة أملاكهم (٧٥) .

فصل سابع: الامور

وحاول أن يعالج الموقف ليخرج من ورطته ، ولم يرض عليه في الخرطوم إلا أيام قليلة ، وذلك بأن طلب من يارنج السجاس للوزير بالسفر إلى السودان ليخلفه في منصبه ، ويذهب هو إلى الكونغو ، وأرسل يارنج إلى جرانفيل بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م للوفاقة على عودة الوزير ، على أن يمنع نبشان القديسين من غايل وجورج الذي يخول حامله لقب سير وعضو في الامبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال يستعين به في تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر ، كما يمنع إعانة سنوية مقدارها خمسون ألفاً من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الاعانة لمدة خمسة سنوات على أن يتوقف صرف هذه الاعانة السنوية على مدى سلوكه في إدارته الجديدة ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب ، لأن الوزير كان تاجراً للرقيق ، الأمر الذي سوف يثير المعارضة البرلمانية الإنجليزية وجماعات منع الرقيق ، ولكن لحشيتها من صلابه عوده وعدم انصياده لتنفيذ السياسة البريطانية ، التي كانت تهدف من ولايته إقامة سواك أخرى في السودان ، تتنقل تدريجياً إلى أملاك التاج البريطاني فالوزير قد لاقى منذ حضوره إلى مصر مختلف وسائل الاضطهاد والنقي ، وما كان ذلك إلا لصهره في قالب جديد لحديثها ، غير أنه لم يتأثر بكل ذلك ، واحتفظ باستمساكه بعبادته وتقاليده ، فحق لوادي النيل أن يفخر ببطولته .

(٧٥) كتاب المهدي في السودان مؤلفه رجينالد ونجت باشا من ٥٥٥/٥٥٤ بالانكليزية .

وكان طبيعياً والامور تسير على هذا النحو أن يشتد الحصار على الخرطوم . الذى بدأ فى الثالث عشر من مارس سنة ١٨٨٤م، وأن تتعطل المواصلات وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى ، وأن يبدأ الامام المهدي فى الزحف صوب الخرطوم ، بعد أن بط سيطرته على كردفان ودارفور وبحر الغزال ، فأمن بذلك ظهره وجناحه الأيسر ، وفى الأسبوع الأخير من يونيو أرسل الدراويش جيوسي كوتسى الايطالى ، الذى وقع فى الأمر بعد سقوط بربر ، يحمل رسالة إلى غوردون للتسليم ، التى رفضها ، وكان غوردون ينتظر وصول الحملة البريطانية لانتفاذ الخرطوم ، وبعد أن ساءت الأحوال وطال الانتظار يارحت الحملة مصر فى طريقها إلى الخرطوم ، وفى خلال تلك الفترة أرسل الدراويش جيوسي كوتسى مرة أخرى إلى غوردون للتسليم فرفض الطلب ، كما طلب الامام المهدي من سلاتين^(٧٦) الذى كان أسيراً أيضاً فى معسكر الدراويش ليكتب إلى غوردون للتسليم حقناً للدماء وحفظاً على حياته ، غير أنه لم يرد على هذه الرسالة واكتفى بأن أوضح فى يومياته بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م . ليس لدى ما أحكيه من ملاحظات على رسالة سلاتين ، ولا أعلم ماهى الدوافع وراء هذه الخطوة منه بالكتابة إلى ، وعلى أى حال إذا كان (سلاتين) سيخرج من أسر ، فاقبى سوف آخذه معى إلى الكونغو ، لكنه يحتاج إلى بعض التطهير^(٧٧) . والتطهير المشار اليه فى رأينا من ناحية اعتناق سلاتين للإسلام . وقد أبدى غوردون فى أكثر من موضع اعتبار من ترك مسيحته وصار مسلماً كنبوذ لا يجوز التعامل معه وغوردون كما هو معروف ، يمثل طبقة مسيحية أرستقراطية ، التى تميز بها عصر المملوك فكوربا .

انقراض عهد انتفاذ غوردون

وقد أرسل قائد الحملة اللورد ولسلى كتاباً إلى غوردون تاريخه ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه وأفضل أن تنتهى المسألة سلباً ، وذلك بمساعدة محمد احمد فيما مضى وجعله سلطاناً مستقلاً على كردفان ، ويكون الملك له ولاولاده من بعده ، ويتأسس

(٧٦) سلاتين س ٣١٩ وما بعدها - كان جيوسي كوتسى المشار اليه وكيل غوردون الشخصى فى بربر كما كان فصل انجلترا فى تلك المدينة وقد تسمى بعد اسلامه محمد يوسف وهو إيطالى ولد ١٨٤٣ وتوفى ١٩٢٣ - راجع ترجمته فى هل س ١٠٧
(٧٧) ورنام س ٣١١

حكومة وطنية في الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر، وحكمه وراثي، فيملك دقله وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى انكلترا (٧٨) وقد أسقط والسلي درافور وسنار وبحر الغزل ، وخط الاستواء وشرق السودان . وقد يكون الامل مقتفراً لولا أن اللورد والسلي كان مطلعاً على دغائل السياسة العليا البريطانية وخططها نحو السودان ، إن لم يكن أحد صانعيها، وقد قام بدور هام عندما طلب إلى غوردون السفر إلى السودان ، كما أوضحنا من قبل .

قامت الحملة من كورتى في الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٨٤م في قريتين لإحداهما بقيادة السير هربرت استيوارت عبر صحراء البوصة ، والثانية بقيادة الجنرال أرل عن طريق النيل إلى أبو حمد وبربر ، والغرض من الحملة الثانية حماية جناح الحملة الأولى واسترداد بربر لتأمين المواصلات .

وبعد أن وصلت الحملة الأولى إلى آبار الجسكدول في الثاني من يناير سنة ١٨٨٥م ترك قوة صغيرة مكونة من ٢٢٢ صف وعساكر ، وعاد إلى كورتى في نفس اليوم ووصلها في ظهر اليوم الخامس من يناير ، وبارحها ثانية في اليوم الثامن من يناير ووصل الجسكدول بكامل قوته في صباح اليوم الثاني عشر وفي اليوم السابع عشر اشتبك مع الدراويش في معركة أبو طليح ، شمالاً المنعة وبالرغم من أن هذه الحملة قد حازت نصراً على الدراويش فإن القوة البريطانية قد لاقت مصاعب كثيرة كادت أن تودي بجميع الحملة ، وذلك أن بعض الأسلحة والمدافع قد أصابها العطل أثناء القتال إلى الحد الذي تمكنت معه قوات الدراويش الكثيرة العدد من الوصول إلى قلب الحملة ، ولو لم تتدارك الموقف سرية نزلت إلى الميدان في الوقت المناسب لكانت النتيجة فناء الحملة تماماً كما حدث في شرق السودان . ولا يخفى أن هذه الحملة البريطانية كانت أول تجربة في حرب صحراوية ، بعيدة عن البحر بأكثر من ألف ميل وفي ظروف قاسية . وما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحملة قد أضاءت حوالى العشرة أيام بين الذهاب والإياب .

ولأسباب لم تعرف بعد على وجه التحديد ، ويعتقد أنها بسبب مقاومة فرنسا لانكلترا في الميدان الدولي ، أن أرسل الخديو توفيق تلغرافاً إلى غوردون في نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه نحيطك علماً بأنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ أن أوصت الحكومة البريطانية بإخلاء السودان وانقطاع المواصلات معكم وأيضاً

(٧٨) نوم صغير جزء ٣ ص ٢٧٤ .

صار من الضروري إدخال تعديلات على فرمان الذى أصدر إليكم ، ولهذا تبق
سلطانكم كدير السودان الذى يشتمل على الخرطوم وسنار وبربر فى حدودها
الحالية (٧٩) .

وذكر نصحي باشا فى « جرنال الحوادث » الذى سجل فيه يومياته خلال الفترة
التي أمضاها فى منطقة شندى لمقابلة القوات البريطانية ، وذلك عن حوادث يوم الاحد
٢٤ ربيع أول (١١ يناير سنة ١٨٨٥ م) ما يأتى :

وقبوم (فى يوم) الأحد الموافق ٢٤ منه فى الساعة ستة و ١٥ دقيقة ورد لنا
جواب من الفقيه مصطفى أمير شتبات الغرب المجاورة للخرطوم المحضر يومين تاريخه
بالبر الغربى « قبالا لجزيرة لدمرى الموجودين نحن بها مع ادمية (امرأة من الرقيق)
وهذه صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولي الكبير والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التلليم وبعد فمن
عبد ربه احمد المصطفى ابن الفقيه الامين إلى سعادة لواء قوهندان وابورات السفرية
محمد نصحي باشا أما بعد لا يخفاكم (بلاغ السلام منا وإلينا ولكن نعلمكم أنه لكل
أجل كتاب ولكل ملكة حد وزوال ودولة التورك (الترك) هذه كانوا أخذوها
من ناس غيرهم ومشبوت أن ملكهم يزولوا (يزيله) المهدي عليه السلام فمن حاربه
هلك ومن تبعه سلم ومن الجلة أن الانجليز أخذوا الملك من الخديوى وسيروه جسيم
بلا روح واستلوا مصر ونحن وأتم اخوان فى الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا
الكفر على المسلمين ولا طاقة لكم بذلك إلا أن تهلكوا أنفسكم على غير دين الله
فطالع جواب خشم الموس بيلك نجد حقيقة ما هو كائن فى الخرطوم فاقنع .

ولا سبيل إلى وصول الانجليز إليكم فان سلمتم فلکم مالنا وعليكم ما علينا
ورحاکم (أرحاکم) وجناکم (أولادکم) ومالکم محرمه علينا فان سلمت فأنت
وأولادک ومالك فى ذمتى أن ضاعت لكم ابرة تدفع لكم من بيت المال وعليك
وعلى كافة الضباط الذين معك امان الله ورسوله ومهديه وان تعدى عليكم أحداً

(٧٩) ونجت مقال حصار الخرطوم وسقوطها مجلة السودان فى رسائل وسدونات مجلد ١٣

(أحد) فيصير ما يصير عليه كالمناشير الصادرة من الامام وان صمتم فسوف ترون ما يحل بكم فشانكم ولكن كررت لكم يا أيها الباشا أنت ومن معك وأموالك وأولادك في ذمتي فان كنت لم تعرفني فسأل اخوانك الذين معك يفهموك وفاء معهم وانى رجل أشقى على العبد الغريب كالتقريب والناس كلهم اخوان في الدين ولا عدم (عدو) لى إلا الكافر فاحضر مسلماً مرحباً بمن معك ولا بأس عليك ولا ضرر إلا هذا الحرب والسلام (٨٠).

حاشية

ثم وباشرة الباشا ان هذا الجواب ورد علينا امبارح في اثني (أثناء) العشاء من البقعة الشريفة والاخوان عرفونا ان غوردون يوم الخميس الماضى أول أمس (٨٠) أرسل جواب إلى سيد الجميع الامام عليه السلام ، يقول له يا سيدى أعطيك عشرين ألف جنيه ودعنى أتوجه بلدى ، وأترك لك الخرطوم ، لحرر له الإمام عليه السلام على ذات الجواب يقول : احضر بمالك واحقق دعاء المسلمين ، ولا حاجة لنا بجنيتهاك (٨١) . وقد جاء هذا القول الخاص برغبة غوردون ترك الخرطوم وتسليمها للإمام المهدي نظير عشرين ألف من الجنيتات يفدى بها نفسه ليخرج من البلد ، قد جاء من جانب واحد ، وليس لدينا ما يؤيده أو ينفيه ، والمعروف أن حصار الخرطوم كان قد دخل في مرحلته النهائية بالعزلة التامة وقلة المواد الغذائية .

واننا لا نعلم الدوافع التي جعلت الإمام المهدي يرفض استلام الخرطوم دون حرب عندما عرض عليه غوردون ذلك في خطابه المشار إليه آنفاً ، في الوقت الذي وصلت إليه أخبار الحملة الانجليزية من دقله واشتبأها مع الدراويش في موقعة « أبو طليح » . وكان لانتصار هذه القوة على جموع الدراويش الكثيرة العدد أثرها في معسكر الإمام المهدي ، الذي عقد مجلساً من الأمرأه ليتخذ قراره في البقاء على حصار الخرطوم أو الهجرة إلى كردفان . وقد طلب أحد الأمرأه ضرورة الاسراع في احتلال الخرطوم حتى تضيق الفرصة على حملة الانتفاذ ، وكان الهجوم على المدينة

(٨٠) يوم الخميس المشار اليه بوائق الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ م .

(٨١) جورتال الحوادث الذي كتبه نصحي باشا . صورة شمسية مودعة بمكتبة معتمد الدراسات السودانية - كلية الآداب جامعة القاهرة - جاء في مقال ونجت عن حصار وسقوط الخرطوم مجلة السودان في رسائل ومذكرات جز ١٢ ص ٨٠ ما يفيد ان اليخايرة اسماعيلية كانت مدعة على تمام الاستعداد منذ القجر (من يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م) لركوب غوردون وهربه .

وسقوطها ومقتل غوردون وعشرات الآلاف من أهلها، وذلك في صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ م. وضاعت الفرصة على حملة الانقاذ التي عادت أدراجها وبقيت بعض الوقت في دنقلة، حيث اتخذتها مركزاً لها.

وقد تأثر موقف الحملة بالأحداث السياسية الدولية بسبب نشاط فرنسا وروسيا المعادى لسياسة إنجلترا، وقد كان مقدراً أن تقام حكومة في تلك المنطقة بتولى إدارتها ضباط من الانجليز، كما أن اللورد ولسلي قائد الحملة قد أرسل تلغرافاً إلى الوزارة البريطانية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٥ جاء فيه . . . أحبطوا اللورد جرانفيل علماً بأنه لا يستطيع الانتظار وقتاً أطول، وأرى من واجبي أن أصدر اعلاناً بوصفي حاكم السودان العام، وفي حالة عدم وصول الرد على هذا الاخطار حتى اليوم الرابع عشر من مارس، سوف أصدر هذا الاعلان في حدود سلطاتي^(٨٢). ومن الطبيعي أن يكون اعلانه بتنصيب نفسه مقاليد الحاكم العام للسودان باسم حكومته إنجلترا، لا باسم مصر، وذلك لأن إنجلترا وهي الدولة التي تحتل مصر حينذاك وتهيمن على شئوننا قد عطأت سفر الأدميرال حسن^(٨٣) أخ توفيق إلى دنقلة، ليتفقد الحالة ولتدعم ساطة الادارة المصرية. ويبدو من صيغة تلغراف ولسلي انه مزوداً بالعمليات اللازمة لمواجهة مختلف التطورات السياسية، وهي في مجموعها تهدف نحو فصل السودان وعزله عن شمال الوادي وربطه بطريقة أو أخرى مع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطاني في خط الاستواء، غير أن المشاكل الدولية واشتداد الصراع بين المعسكرين المتنافسين إنجلترا وفرنسا قد حال دون تنفيذ تلك السياسة وجعل بريطانيا تنلس طرق ووسائل أخرى في هذا السبيل. فنجدها في عام ١٨٨٥ م تثير مسألة الجلاء عن مصر بعد الانتهاء من مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م ويذهب درمند واف للفاوضة مع الباب العالي، ويسافر المندوب البريطاني بصحبة المندوب العثماني مختار باشا إلى مصر، وكل هذا كسباً للوقت ومراقبة التطورات الدولية وبخاصة بعد سقوط الخرطوم وانسحاب القوات إلى وادي حلفا، وقد ترك

(٨٢) جون جزء ثالث ص ١١٤

(٨٣) مذكرات الماجور جنرال منيخ استوارت ورغلي - مجلة السودان في رسائل ومدونات

بند ٣٤ ص ١٧٢ .

انسحاب القوات من دنقلة إلى وادى حلفا المنطقة بين الشلال الثالث وادى حلفا ،
التي كانت جزءاً من النوبة منذ قرون عديدة قبل قيام الكشافة العثمانيين بحكمها في
أعقاب فتح السلطان سليم لمصر .

وفي الوقت الذي كان فيه درمندOLF يتأهب للسفر من إنجلترا إلى الآستانة
طلب من ولفردي سكاون بلنت أن يجتمع مع السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان
اهتمام ولف في حديثه مع السيد مركزاً في استطلاع رأيه فيما إذا كان من المستطاع
الحصول على اعتراف الدراويش بخلافة السلطان العثماني كما أنه أوضح للسيد اهتمام
بريطانيا بمسألة احلال السلام مع السودانيين وقيام حكومة مستقلة في دنقلة تدخل في
اتفاق مع الباب العالي (٨٤) ، وربما كان هذا المنصب ، منصب سلطان دنقلة ، هو
الذي أرادت الوزارة البريطانية استاده إلى السيد جمال الدين الأفغاني ، الذي رفض
العرض بسبب أن بريطانيا لا تملك حق التصرف في أرض ليست من أملاكها .

وفي أغسطس من تلك السنة كانت بريطانيا تتفاوض عن طريق وكلائها غير
الرسميين ومنهم ولفردي سكاون بلنت للوصول مع الدراويش في مفاوضات على
أساس نقاط ثمان ، وكان طبعياً أن تنتهي المفاوضات بالاعتراف بالدولة الجديدة
بعد قيامها على الصورة الشكائية التي أرادت بريطانيا . وكانت هذه النقاط الثمان هي :

- ١ () إخلاء سبيل الأسرى .
- ٢ () تأمين القبائل التي اشتركت في القتال ضد الحركة المهدية .
- ٣ () انسحاب القوات المصرية والانجليزية إلى وادى حلفا وسواكن .
- ٤ () إخلاء سواكن ومهروح وتسليمها للباب العالي .
- ٥ () الاعتراف بالإمام المهدي بالسيادة داخل حدوده .
- ٦ () إنشاء علاقات سياسية مع إنجلترا .
- ٧ () حرية التجارة .
- ٨ () الوصول إلى اتفاق لتحديد تجارة الرقيق إذا كان ذلك ممكناً (٨٥) .

وقد صيغت هذه الأسس لتجعل من السودان بحية بريطانية ، فالبند الثالث
يقترح انسحاب القوات إلى وادى حلفا وسواكن والبند الرابع يسلم سواكن

(٨٤) بلنت - من ٤٧٤ / ٤٧٦

(٨٥) نفس المصدر من ٥٩٦ / ٥٩٧ ملخص خطاب سري من بلنت إلى غلادستون .

ومصوع للباب العالي ولم يذكر شيئاً عن وجود القوات الانكليزية في سواكن بعد انتقالها للباب العالي . والبند الخامس يعترف بالسيادة للدراويش داخل الحدود — أى أن العلاقات الخارجية سوف تكون بيد الغير ، وذلك الغير هو إنجلترا كما جاء في البند السادس .

وعطلت بريطانيا الأمر العالي الذى أصدرته مصر في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥ الى بيكر باشا في شأن حفظ خط المواصلات بين بربر وسواكن وجاء في هذا الأمر ما يأتى وسينضم اليكم أووط سودانيون تحت قومندانة الزبير باشا الذى لكم الرئاسة عليه مباشرة فلا شك في أنه يسهل عليكم اجتثاء ثمرات ما للبasha المولى اليه على القبائل من النفوذ المشهور (٨٦)

تفاوض درمند ولف بعد وصوله الاستانة مع الباب العالي لعقد معاهدة لتنظيم المسألة المصرية والوصول الى حل بشأن الجلاء البريطانى عن مصر ، ولم يكن هذا الاتجاه من بريطانيا نحو مشكلات حوض وادى النيل إلا امتداداً للسياسة التى كان على بريطانيا الاخذ بها بعد الصلاحيات التى تمت في مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ م ، وقد تم الوصول الى اتفاق تمهيدى مهم التوقيع عليه في اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٥ م ، من كل من محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية عن الباب العالي ، والسر هنرى درمند ولف عن بريطانيا وصارت هذه الاتفاقية نافذة المفعول بعد ذلك مباشرة ، وقد جاءت هذه الاتفاقية في سبع مواد بعد الديباجة ، وتحققت معها المرحلة الاولى للسياسة الانكليزية وذلك بحصولها على اعتراف الباب العالي — وهو صاحب السيادة على مصر والأقاليم التابعة لها — حينذاك — بشرعية احتلال بريطانيا لمصر وأشارت في الوقت ذاته بطرف خفى الى مسألة السودان .

وتعين بموجب هذه الاتفاقية مندوبين ساميين للسفر الى مصر للتعاون مع الحديو بشأن إعادة تنظيم الجيش المصرى ، ولمصلحة حالة السودان ، واجراء مباحثات لتسوية المسائل المصرية بعمامة ، وقد جاء المندوبان الساميان الى مصر وقدم كل من مختار باشا المندوب السامى العثمانى والسر درمند ولف المندوب السامى البريطانى ، تقريره الى حكومته (٨٧) . وبدأت بعد ذلك مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لوضع

(٨٦) قاموس الادارة والنشاء — قليب جلال المجلد الثاني ص ٣٠٦

(٨٧) الوثائق الفرنسية للمصرية عام ١٨٨٤/١٨٩٣ — ص ٤٣/٧١

صيغة الاتفاق النهائي ، الذي تم في سبع مواد بعد الدبلوماسية معه بروتوكولين وملحق ، تم التوقيع عليها في الاستانة في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٨٨٧ م من محمد كامل باشا الصدر الاعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية عن تركيا والسر درمند ولف عن بريطانيا .

وقد فقدت هذه الاتفاقية النهائية صلاحيتها بسبب توقف الباب العالي عن التصديق عليها ، وفقاً لما جاء في المادة السابعة ، تحت ضغط فرنسا وروسيا اللتان هددتا باحتلال فرنسا للشام وروسيا لأرمينيا . وفي الحقيقة وواقع الأمر أن بريطانيا لم تخسر شيئاً بسبب التوقف عن التصديق على هذه الاتفاقية ، وقد ذكر كرومر في كتابه مصر الحديثة في هذا الصدد ما يأتي : . انه بالرغم من فشل هذه الاتفاقية في تحقيق أهدافها فإن الحكومة البريطانية قد صارت في مركز دبلوماسي ، عند نهاية هذه المفاوضات ، أحسن مما كانت عليه عند بدئها ، فقد تحققت لها الحصول على اعتراف الباب العثماني بشرعية احتلال مصر ، كما أنه قد برزت معها مسألة السودان في كيان خاص يحتاج الى مصالحة .

وقد أشارت المادة الرابعة من الاتفاقية النهائية الى الوضع في السودان وما فيه من ثورة تهدد أمن مصر الداخلي ، وأن هذا الوضع يتطلب اجراءات استثنائية للحفاظ على الحدود الجنوبية - عند وادي حلفا - خوفاً من تسرب الدراويش الى شمالي تلك المنطقة ، وأخذت بريطانيا على عاتقها مسؤولية القيام بهذه الاجراءات للحفاظ على الحدود الى أن يحين الوقت الذي يتكون فيه الجيش المصري الجديد ويتم جلاء القوات البريطانية عن مصر .

وإذا قارنا ما جاء في الاتفاقيتين التمهيدية في عام ١٨٨٥ والنهائية في عام ١٨٨٧ م مع ما جاء في العرض البريطاني الذي قدمته لهندوب المهدي والذي أشرنا اليه من قبل ليكون أساساً للمفاوضات بينهما ، نجد أن بريطانيا كانت تهدف أولاً الى تثبيت شرعية وجودها في مصر ، ثانياً الدخول في مفاوضات مع الدراويش بشأن تسوية الموقف على أساس النقاط الثمان التي سبق ايضاها . ولو كان قد قدر لهذه الاتفاقية النهائية النفاذ لاستطاعت بريطانيا أن تواجه فرنسا وروسيا في مركز أقوى ، وأن هذا الفشل الجزئي جعل بريطانيا تعمل على تهدئة الحالة الدولية وأخذت في معالجة الموقف بعقد المؤتمرات الدولية ، واشتد الصراع بين فرنسا وانجلترا في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي كما سنبينه في القسم التالي .

وقد يكون أول ما نغنى به ، بعد أن أوضحنا فيما سبق الدور الذى لعبته تلك الحركة من تطور فى مركز البلاد ، أن تتوفر على دراسة هذه الدعوة بالتقدير الذى يتطلبه موضوع البحث ، الذى يتلخص فى تقصى الأسباب والعوامل الأساسية التى دفعت الى ما وصل اليه المجتمع فى الثلاثين عاما الاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم تكن تلك الأسباب والعوامل مجتمعة لإظاهرة اجتماعية تشابكت أطرافها وقد استجمعت عناصرها من الحياة اليومية وتقاليدها الموروثة عن أقدم العصور . ولم تكن حالة المجتمع المحلى فى الثمانين عاما التى تلت نهاية السلطنة السنارية إلا امتداداً لحياة المجتمع فى ماضيه القريب والبعيد ، متأثراً بما دخل البلاد من نظم و آراء مستحدثة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويشمل موضوع البحث . الظروف التى مهدت لقيام الحركة ثم ماهية الحركة وما دخل على طبيعتها من تطورات انتقلت بها من مرحلة الى مرحلة مع ترجمة لحياة زعيمها وخليفته وينتهى البحث بدراسة عن مركز البلاد فى الصراع الدولى الذى اشتد فى الأعوام العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى وامتد لأربع سنوات من أول القرن العشرين حيث استطاعت الدول من تصفية مشاكلها .

١ - الدعوة المصرية وظروفها

لقد أوضحنا أن السودان قد أخذ فى الاستمرار نوعاً ما فى نهاية الخمسين عاما الأولى من امتداد الادارة المصرية إلى البلاد ، كما أوضحنا الظروف الدولية التى أخذت فى التدخل فى شئون حوض النيل متذرعة بهذا السبب أو ذاك ، ومنذ ذلك الحين بدأت نقطة التحول فى تاريخ السودان . فقد جاء الى خط الاستواء صمويل بيكر باشا فى ١٨٦٩م وتولى إدارته باسم الادارة المصرية ، وخلفه غوردون باشا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧م ثم تسلم غوردون حكدارية السودان وأقاليمه من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩م وكانت السياسة التى اتبعها بيكر وغوردون أثرها العميق فى الانتقال بإداة الحكم ، من طريقها الذى كان يتمشى مع حياة البلاد والاخذ بيدها الى التدرج فى مضمار التقدم ، الى ما كان على العكس من ذلك . فانتكست حالة البلد ورجعت الفهقرى وبرزت مقومات المجتمع وتقاليده التى قد كانت فى طريقها الى الاختفاء أمام ما أقامته الادارة المصرية فى السنوات الخمسين الأولى من

أعمالها في السودان . فالسياسة التي اتبعها غوردون وبخاصة بعد أن أسرف في تعيين الأجانب من مختلف الجنسيات في المراكز الرئيسية . وقد عمل هؤلاء وهم مجهلون أو يتجاهلون الأوضاع المحلية وما تتطلبه من صفات خاصة لمعالجة مشاكلها ، على التنكيل بالسكان وتجاوزوا الحدود في تنفيذ القوانين الصارمة الخاصة بالرقيق ، بالرغم عما جاء في اتفاقية الرقيق بشأن تصفية هذه المشكلة ، كما تدخل هؤلاء بالعسب بالتقاليد والقيم الاخلاقية بدعوى نشر الحرية ، كما عملوا أيضاً على تقويض الأسس الاقتصادية الأمر الذي تعطلت معه الحياة اليومية ، وأحدث بقوة عميقة الغور في المجتمع الذي تميز بطابعه الديني الصارم ، ولم يكن من الهين الانتقال به فجأة من حال إلى حال وفي مرعة لا تعشى مع طبيعة الأشياء ، وقد كان من الدير على الأهالي أن يتقبلوا استناد مقاليدهم إلى جماعات من غير المسلمين لو أخلص هؤلاء في رعاية مرافق الشعب والمحافظات على تقاليده ، متساعحين لا يتدخلون في المشاعر الدينية والحياة اليومية . فقد سبق أن تولى مديرية الخرطوم أراكيل بك وتدمر بعض الزعماء من ولاية نصراني ، فقال لهم إذا كان تعييني لا يرضيكم فأنا أترك البلاد ، فأعجب الزعماء بشجاعته واحطأوا لانجاسته وبقي في مركزه مرفوقاً بالحب والاحترام ، غير أن الحال يختلف بتعيين غوردون الذي تميز بطابعه المسيحي المتزمت ، شأنه في ذلك شأن معاصريه في العصر الفكتوري ، الذي تأثر برواسب ماضي بلاده ، وكان غوردون ومعاونوه من الأجانب لهم نظرتهم الخاصة في معاملة الأهالي الذين كانوا يرون انهم في مستوى دون مستوى الأوروبي . وإن للأوروبي رسالة يتحتم على السكان قبولها ، فاندفعوا في تشديد حصراتهم اندفاعاً كانت من نتيجته خلق روح التدمير ، وتوالت الأحداث في مختلف صورها وألوانها مما زاد في حالة الفلق التي جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محتهم التي امتدت إلى الدين كما تعطلت معها الحياة اليومية ، ولم تكن الحرية التي أرادها غوردون وأعوانه نشرها إلا تمهيداً لخروج المجتمع عن قيمه الدينية ، ليتقبل التبشير بالمسيحية عندما تتمكن المدينة الأوروبية من تثبيت أقدامها والسيطرة على مصير البلد . ويقدم لنا الحديث الذي دار بين غوردون والمطران دكتور تيل على اتجاه غوردون نحو التبشير ، فقد تكلم غوردون مع المطران عند مقابلتهما في أكستر عن مسألة القشير والصعوبات التي تواجهها بسبب عدم السماح بتعدد الزوجات وسأل المطران عما إذا كانت الديانة المسيحية تصرح للمسلمين الذين يتكون دينهم ويعتقوا النصرانية بالاحتفاظ بعدد

من الزوجات يبلغ ثلاث بدلا من أربع يميزها الاسلام ، وكان رد المطران بأن القوانين الكنسية لا تسمح بهذا التجاوز (٨٨) .

وقد بلغت حالة القلق مرحلة حاسمة عندما انتهى غوردون حكمه داريته في ١٨٧٩م بمقتل سليمان الزبير ورجاله بعد أن قبلوا عرض غوردون للتسليم واستسلموا فعلا الى جسي باشا ، الذي أعدهم رميا بالرصاص في دم بارد تنفيذاً لأمر غوردون ، الذي بنى حكمه على سند لم يستطع أن يقدمه الى الزبير باشا عند مقابلتهما في مصر كما أوضحنا من قبل ، ولكن غوردون قد استطاع التخلص من سليمان حتى لا تعطل السياسة التي رسمها ، وهكذا تجمعت الزوبعة من عناصرها المحلية ، وزادت عليها نهاية الحركة الوطنية في مصر وتشريد زعمائها عرابي ورفاقه .

وكان لزاما أن يخرج الزعيم من بين صفوف الشعب اقيادة الحركة كما كان لزاما أن يكون لذلك الزعيم مقامه الديني ، الذي يعد بشواب الجنة . ومقام الشهداء الأبرار الذين جاهدوا في سبيل نصرة الدين ، وقد وجد الشعب ذلك الزعيم في شخص فقيسه أخذ قسطاً من العلوم الدينية ، تجاوبت مشاعره مع إحساس الأهلين ، وكان ذلك الزعيم هو الامام محمد احمد الذي تغلبت عليه حياة الزهد والتصوف والاعتكاف وكان مقصد أصحاب الشكاوى والمظلومين ليشق جراحهم ، فداع صنيته بين الشعب القلق المتذمر بسبب الخلاف الذي قام بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف نور الدائم وما يجدر ذكره أن الامام المهدي قد صرح لشيخه المذكور في عام ١٨٧٨م بأنه المهدي المنتظر ، فجاء إليه تاجر ، اتهم بتجارة الرقيق أو في تجارة مشروعة وأهبط جسده بالسياط وصودرت أمواله ، ومواطن عاды ، أُلقيت على كاهله أعباء أموال الحكومة التي وزعت توزيعاً غير عادل بسبب الاعفاءات التي منحها غوردون لبعض الجماعات على حساب المجموعة من السكان . وأوصدت أبواب العدالة في وجه أصحاب الشكاوى ، ووجد الأهلون في هذا الفقيه متنفساً لكبريهم ولتحقيق الانتقام والأخذ بالثأر لما أصابهم على يد غوردون ومن ظاهره في إدارته ، وقد اعتبر كل من تعاون مع غوردون خارجاً عن الدين وجبت محاربته ، وهذه الحالة تصور لنا مدى الأثر الذي تركه الظلم في النفوس وهكذا أخرج الشعب الامام المهدي إلى العمل بعد أن

تهيات الظروف المواتية لذلك . وبطبيعة الحال لم يسبق الامام المهدي الاحداث ويوجها تحقيقاً لرسالته ، والحقيقة وواقع الامر ان الاحداث هي التي وجهته وخلقت منه زعامته .

وكانت الدعوة ، التي ظهرت في الثوب الديني التقليدي الذي يمشى مع طبيعة البيئة المحلية ، قد تسلبها الزعيم المرتقب ، وليس لنا في هذا الموضوع أن نناقش الفكرة فكرة المهدي من ناحيتها الدينية الباطنية ، فهذه الفكرة قديمة ترجع إلى أقدم العصور ، وقد دخلت هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ، وأخذت في الظهور ، بين الفينة والفينة ، متكيفة بالظروف المحيطة بها ، وكانت ركناً أساسياً في الشيعة ، قامت عليها فكرة الامام المخفي ، أو المكتوم ، وقد عرف هذا الامام « بالمهدي » ليعني في ذلك مع التكليف الذي حض عليه الاسلام بالدعوة إلى اتباع الدين ، التي تقوم على بناء مجتمع سليم راسخ القواعد ، يؤدي رسالته في الحياة على الوجه الذي حددته الرسالة الاسلامية . وقد حض الدين قادة الرأي من العلماء وغيرهم بأن فرض عليهم القيام بهذا الواجب حيث جاء في الكتاب الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (آل عمران) .

ومن هذا ينضح لنا ان دعوة الامام المهدي في السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الاهلين التي انطمت بما تركه حكم الاوروبيين من أثر سيئ ، وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التي تمثلت في شخصية الامام المهدي وطبيعته الدينية . فالتفوا حوله وناصروه وبخاصة في المناطق الواقعة في دار غرب والنيل الأزرق وهي المناطق التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً في اقتصادياتها على الرقيق في القسام على الأرض والرعي والخدمة البيتية ألخ ألح . ولم يكن من السهل معالجة الرقيق دون أن تعطى للمجتمع الفرصة الكافية لتعديل نظمته . وقد طاف الامام المهدي البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولمس ما اختلاج في قلوب الاهلين من روح التذمر واليأس على يد أولئك الفرنجة ، ومن عاونهم من الوصوليين ، ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الادارية التي أوكلت إليهم ، وكان لهذا الخلط العجيب أثره في أضعاف الجهاز الإداري وتسرب الفساد إلى صميمه ، مما جعله عاجزاً عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن البلاد ورفاهيتها ، فتهايت بذلك الفرصة المناسبة ليعن الامام المهدي رسالته لمحاربة الادارة الأوروبية ، وما كان للحركة المهدي أن تسلك طريق

العنف لولا الظروف السيئة التي جعلت مقاليد الحكم في يد الفرنج ، مما جعلها تنحرف عن طريقها الديني إلى العنف والقتال . ولو كانت في البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف في أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنقذ أهـداقها في طريق سلمي ، والدليل على ذلك قائم فيها سبق أن ذكرناه عن الفترتين اللتين كانت فيها تقاليد الحكم في يد السلطة السنارية وفي الحسين عاما الأولى من امتداد الادارة المصرية إلى السودان .

وقصة الحركة المهدية في السودان التي نادى بها الإمام محمد احمد في حاجة قوية لدراستها دراسة عميقة لما لها من صلة بالمجتمع الاسلامي بصفة عامة وبالسودان بصفة خاصة . فهذه الحركة لها طابعها الخاص ولها ظروفها المحلية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند معالجتها . وما زالت تنقصنا الوثائق المحلية الاصلية لتحقيقها تحقيقاً علمياً سليماً وتنقيتها من الشوائب التي قد لحقت بها من أفلام الكتاب من الأوروبيين ، الذين عملوا على تصوير تلك الحركة بما كان يدور في أفكارهم التي لم تكن في حالة من الاحوال تعبر صادقة عن الحال . وقد أضفى هؤلاء الكتاب على هذه الحركة من خيالهم الامر الذي ترك أثره في أذهان الكثيرين بأنها كانت قطيعة بين شطري الودي ، وهذا لم يكن له وجود في تفكير الإمام المهدي ، بل بالعكس كان هدف نحو تحرير دار الاسلام من النفوذ الاوربي (٨٩) والتعاون بين المسلمين . وهناك وثائق كثيرة مبثورة هنا وهناك (٩٠) . ونعتقد ان الوقت قد حان لجمعها لتكون في متناول الباحثين ، ليتمكنوا من كتابة تاريخ صحيح له ماله وعليه ما عليه ، وللإفادة من ذلك في معالجة مشاكلنا الكثيرة ، فالمنشورات التي أصدرها الإمام المهدي لم تجمع

(٨٩) جاء في جورنال الحوادث الذي كتبه اللواء محمد نصحي باشا عندما كان في شندى في انتظار حملة أحمد عوردون ، ما يأتي في حوادث الخميس ١١ محرم سنة ١٣٠٢ هـ ٥ ٠٠٠ نلا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الفردوس الكافر الذي لا شبهة في كفره وأثم مغروين به ، ومنتظرون المجد من الانجليز ، وهم أعداء الله ورسوله وأعمدة المؤمنين مع عليكم يمددكم عنكم ٠٠٠ وبا حضرة الباشا ومشر الضباط والعساكر ان كنتم الجميع من بر مصر فتذكروا عدوان الانجليز اليكم وما جبروا لراى معهم وعملكم على بلادكم وأراضيتكم وخراجتكم ٠٠٠ هذه قد وردت ضمن الكتاب الذي وجهه امراء المهديّة الذين كانوا في منطقة شندى إلى اللواء محمد نصحي باشا .

(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية طبعه سنة ١٩٥٣ هـ - السكاسة الأولى - ترجمة الخليفة عبد الله التعايشى بقلم هلسون التي أوضح أن توجد حوالى الخمسائة والألفين من الوثائق الخاصة بالمهدية والتي وضعت عليها إدارة السودان بعدها بعد موقعة أم درمان .

بعد في صورة كاملة مرتبة ترتيباً زمنياً وتعمل لها قوائم موضوعية ، توضح لنا مراحل تطور طبيعة الرسالة والظروف التي أحاطت بكل حالة ، وهذه سوف تترجم لنا في صورة واضحة الأحداث والملايات .

والامام المهدي كما هو معروف لم يعمر طويلا بعد وصوله إلى الخرطوم واتخاذ أم درمان مركزاً لإدارة أعماله ، فلم تتح له الفرصة الكاملة لارساء قواعد جديدة لرسالته ، وانتقلت ولاية الدعوة من بعده إلى يد الخليفة عبد الله التمايشي الذي واجه أكثر من مشكلة اقتضت كل جهوده ونشاطه لمعالجتها ، ولا يفترس أن نذكر أن الحركة المهدية قد أثمرت حفاظ الكشيين من رجال القبائل وغيرهم ، وقد لعب بعض هؤلاء دوراً هاماً في أذكاء الفتنه والدسائس كما عملوا على توسيع شقة الخلاف بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدي . وفي الواقع أن هذه الدسائس لم تكن إلا مظهراً من مظاهر الصراع الخفي بين المهدية والكارهين لتنظيماتها ، التي حرمتهم الكثير مما كانوا يزاولونه من نشاط .

وهناك مسألة العلاقات الخارجية ، فقد كانت بريطانيا كما ذكر بملت في كتابه « غوردون في الخرطوم » (٩١) ، كانت مهتمة بهذه القضية على طريقتها التقليدية لاكتساب الوقت ومراقبة الحال وتطوراتها عن كسب بما نستجمله من معلومات من مبعوثي المهدية ، وقد بدأت المفاوضات فعلاً عن طريق السيد جمال الدين الأفغاني وأن شروطاً قد عرضت لتكون أساساً للمفاوضات للوصول إلى اتفاق على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وكانت هنالك علاقات بين النجاشي منليك - أمبراطور أنيوييا والخليفة عبد الله وكانت وراء أنيوييا فرنسا كما سنعرض له في القسم الثاني . كما أن ملك الأنابورو قد أرسل بعثة إلى السودان (٩٢) عندما وصلت إليه أخبار انتصارات زعيم البلاد على الرجل الأبيض (الانجليز) وكان هدف هذه البعثة الحصول على مساعدة ذلك الزعيم لطرد الانكليز من أوغندا ، وقد حجز هذه البعثة عامل الخليفة عربي دفع الله في الرجاف وكانت الحال في السودان قد قاربت نهايتها .

(٩١) بملت ص ٥٩٦

(٩٢) تقرير الخبايا السودانية رقم ٩٦ - دهلا عن مجلة أوغندا مجلد ١٩ مارس سنة

١٩٥٥ / ٩٤

الامام المهدي

اختلفت الرواية في تاريخ مولده (٩٢) ، فنعموم شقيق يقول انه قد ولد بحزيرة لب ، (في دقة) في عام ١٨٤٢ م وذكر ابراهيم فوزي ولد المهدي في عام ١٨٣٤ م بحزيرة الحناق ، وفي قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهدي ان الامام المهدي قد ولد في الاسبوع الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ م وينتمي الى بيت الولي نجم الدين (المدفون في القاهرة) وقد خرج من هذه الأسرة أكثر من فقيه اشتهروا بالعلم والولاية أضرحتهم ما زالت قائمة وبخاصة في أسوان وبلاد النوبة السفلى وتعرف الشعبة التي ينتمي اليها بالعون اللاب نسبة الي « عون الله » وهو الابن المباشر لنجم الدين - ويكن هؤلاء في شمال النوبة السفلى وفي أسوان ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التي دفعت هؤلاء الى الانتشار جنوباً ، وفي أي الفترات ، وكان والد الامام المهدي يشتغل بالتجارة في صناعة المراكب والسواقي ، وقد أنجب خمسة أبناء منهم اثني واحدة وأربعة ذكور اشتغل ثلاثة منهم في صناعة المراكب أما رابعهم فهو محمد احمد ، فقد ذهب الى الكتاب وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف في خلوة (كتاب) الفقيه الهاشمي بالقرب من كركرى (شمال أم درمان) ثم انتقل الى خلوة الشيخ محمد الشنقبلي ثم الى خلوة الشيخ الامين الصويلح بمسيد (مسجد) ود عيسى ، ثم الى خلوة الشيخ الامير ، وذهب بعد ذلك الى الفقيه الشيخ محمد الضكير (استبدله المهدي بالخير) في الغدس (في بربر) فخرط فيما بعد في سلك تلاميذ الشيخ محمد شريف نور الداييم في عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) ، وبقي حواراً (تلميذاً) لهذا الشيخ ما يقرب من العشرين عاماً .

فقد جاء في قصيدة نظمها الشيخ محمد شريف نور الداييم ما يلي :-

لقد جاء في عام زع (٩٣) لموضع على جبل السلطان (٩٤) في شاطئ البحر

(٩٢) قال الامام المهدي في نسبة الآق :

محمد المهدي بن عبد الله بن عبد الله بن خل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف ابن علي بن احمد بن علي بن حسب النبي بن صيد بن النصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله ابن نجم الدين (المدفون في القاهرة) بن عثمان بن موسى بن ابي العباس بن يوسف بن عثمان بن يعقوب ابن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن سخرة بن يعقوب بن الحسن البسط ابن الامام علي بن أبي طالب .

(٩٣) عام زع بحساب الأجدية ٧٧ (١٢) هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) م

(٩٤) جبل السلطان شمالي كركرى - أم درمان .

روم الصراط المستقيم على يدي
فقام على نهج الهداية مخلصاً
الى أن يقول :

وكان لدينا عيشة صدقاتنا
الى الخمس والتسعين (٩٥) أدركه القضاء
بصحبة شيطان من الجن ايس
وقال :

فقال أنا المهدي فقلت له استقم
وخادعني بالقول كالمسد ابنكم
فقم لي لنصر الدين نقتل من عصا
فأنت لك الكرسي ولي دول الغير (٩٦)

• • •

وقد أكد الشيخ محمد شريف مقرر الدائم لنوم شقير في عام ١٨٩٨ م (بعد فتح أم درمان) أن سبب العداء بينه ومحمد احمد مرجعه الى أن قد نهاه عن دعوته بالمهدية وقد أنكر أنصار المهدي هذا القول كما ذكر شقير ويقولون أن أصل العداء هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والانباع ويبدو أن القول بأن سبب الخلاف بينهما بسبب الافراح التي أقامها الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان أولاد والرقص والموسيقى يحتاج إلى دليل . وسواء كان هذا أو ذاك فإن الشيخ القرشي من مشايخ السبانية (٩٧) المناوئين للشيخ محمد شريف ، قد اجتذب محمد احمد اليه وأكرمه وفادته ، واشاع أن محمد احمد قد انفصل عن شيخه الذي خالف الشريعة والسنة ، لما بين الشيخين من جفاء .

وما تقدم ذكره نجد أن فكرة الدعوى المهدية ، قد راودت محمد احمد في عام ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) وتميزت هذه السنة بالذات بمكاشفة صاحب الدعوة لشيخه محمد شريف نور الدائم بأنه المهدي ، وقد نهاه شيخه عن ذلك ، كما تميزت بقيام

(٩٥) تاريخ ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .

(٩٦) أنظر التصيد : بأكلها في نوم شقير جزء ثالث ص ١١٦ / ١١٧

(٩٧) أنظر المصدر السابق ص ١١٨ .

(٩٨) مؤسسها الشيخ العليوب ود البصير وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مودة مفقودة .

الفقيه إدريس ومعه جماعة من أنصاره بإعلان العصيان على الحكومة ، التي أرسلت باخرة حربية فتكت به وشتت رجاله وقتل الفقيه في القراصة (على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم) ثم أرسل غوردون لأخته بما يفيد أن السودان قد بدأ يتيسر للخلاص من الحكومة واسترداد حريته - وغوردون كما معلوم كانت حكمداراً للسودان من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ م . وإن الخطوة التي سار عليها في حكمته في تلك الفترة قد هيأت التربة الصالحة لظهور الدعوة الإصلاحية وقد ذكر الشيخ محمد شريف في قصيدته آفة الذكر أن الإمام المهدي طلب من شيخه المعونة لنصرة الدين وعرض على شيخه أن يكون له الكرسي الرئاسة) ويقوم هو بالعمل - ومن هنا بدأ جانب من الصراع الذي أشرنا إليه من قبل .

وإذا رجعنا إلى الكتاب الأول ، كما أجمعت الروايات المحلية ، والذي وزعه الإمام سرّاً بين أصحابه والاختصاص من رجال القبائل والفقهاء ، نجد أنه قد صرح بدعواه بالمهدية وطلب إليهم الهجرة والانضمام إليه في حركته الإصلاحية الدينية ، ومبايعته على الجهاد في سبيل ذلك وكان ذلك الكتاب في التاسع والعشرين من يونيو من عام ١٨٨١ م أي بعد ثلاثة أعوام تقريباً من أول حديث له مع شيخه عن مهديته أما هذه الدعوة فقد أخذت مظهرها العلني بعد لقائه بالسيد عبد الله التعايشي الذي قال له يا سيدي أنا عبد بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت بصلاحك في دار القرب لجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان في أب صالح من أهل الكشف وقد قال قبل وفاته أنك ستقابل المهدي وتكون وزيره ، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته ، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها ، فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله (٩٩) ، فالحركة المهدية بدأت في أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية تحكم فيها الطابع المحلي للجموع ، إلا أن هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية العامة وبمجرى الأحداث في السودان وما أصاب الأهالي من تشكيل وصرامة في تنفيذ القوانين والطلبية (تسخير الأهالي للقيام بأعمال لسداد مال المثلالي وإلى ما غير ذلك) .

رأى الإمام المهدي من نفسه القيام بدعوته الإصلاحية واشتد عليه مع شيخه في نزاع في هذا الصدد وانفصل عنه في ذلك العام . وذهب إلى الشيخ القرشي ود الزين

وهو من المشايخ لطريقة السانية أيضاً . وقد توفي هذا الشيخ بعد زمن وجيز من زيارة الامام المهدي له . وخرج الامام في طوافه في البلاد السودانية ، وكان لما رآه من تدهور بالغ الاثر في نفسه ما اهتزت معه مشاعره ولما عاد لبناء قبة شيخه الشيخ للقرشي تقابل مع السيد عبد الله التعايشي كما أشرنا من قبل ، واختار الامام الجزيرة « أبا » التي اتخذ فيها غاراً للعبادة مركزاً لدعوته الجديدة ويرجع اختياره لهذه الجزيرة الى موقعها بالنسبة لغرب السودان (كردفان) وفيها الموطن الصالح لنشر دعوته لأن هذه كانت بيئة بدائية وأصاب المجتمع فيها الكثير من المحن بسبب النخاسة وما إقترن بها من تكيل واضطهاد وإرهاب الاهلين .

وقد بدأ الامام المهدي رسالته بوصفه « مهدي رسول الله » ثم صار « المهدي المنتظر » ثم انتهى إلى « امام الزمان » وجاء بعد وفاته آدم محمد البرقاوى في عام ١٨٨٧ وادعى انه « نبي الله عيسى » وظهر من بعده « النبي عيسى » في دار تامة في عام ١٨٩٥ م وتأتى مرتبة نبي الله عيسى بعد ظهور المهدي المنتظر .

وكانت أولى الهزائم الحكومة في الجزيرة « أبا » نقطة تحول في الحركة المهدية فقد ترك الجزيرة إلى مهجرة في جبل قدير (جنوبي شرقي كردفان) واتخذ من هذه المنطقة مركزاً لإدارة حركته . وهي الملجأ الطبيعي لبسط نفوذه ونشر دعوته وهناك ألف حوله المناوون للحكومة .

وبقي الامام المهدي في منطقة جبل قدير فترة من الزمن يرتب فيها شئون رسالته ، ويرسل الدعاة إلى مختلف المناطق والأقاليم ، كما كان يرقب نشاط الحكومة المركزية التي كان في غاية من الضعف والخور بسبب تطور الاحداث في مصر والتي انتهت بالحركة العرابية وزوال الانجليز في البلاد وصار مضططاً على رجال الحكومة في مصر أمراً واجب التنفيذ وكانت الادارة في السودان لا تقدر الموقف وخطورته وصارت تعالجه في صورة أن دلت على شيء فانها تدل على جهل فاضح فكانت ترسل التجريدات دون أن تعنى بدراسة تفصيلية لما قد تواجهه تلك الحملات من صعوبات ووضع الخطط الكفيلة بمواجهة تلك الصعوبات فكان طبيعياً أن ينتهي أمر تلك الحملات إلى الفناء .

وعمل الامام المهدي بعد توطيد سيطرته في تلك المنطقة على تنظيف الجيوب المعادية لحركته في داخل نطاق هذه المنطقة وهي جبل الجراد الذي رفض أهله قبول الدعوة في أول الامر ، ثم باره والطيارة وغيرها من المراكز التي كانت فيها

حاميات مصرية ، والدلاج التي كانت فيها محطة تبشيرية مسيحية واتجه بعد ذلك صوب الأبيض التي استولى عليها بعد قتال مرير في ١٧ يناير سنة ١٨٨٣ م . كما أنه راسل السيد محمد المهدي السنوسي ليقبل دعوة وليشغل كرمي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وطلب منه الحضور إلى السودان أو القيام في جهته والغارة على مصر . وقد أرسل السنوسي رسولا من قبله ليستطلع جلية الأمر وعاد الرسول بعد مقابلة الامام المهدي في الأبيض . ولم تسمع شيئا بعد ذلك عن علاقته مع السنوسي . كما ان الامام قد أرسل إلى السلطان رابع فضل الله (١٠٠) طالباً منه العودة من بلاد الغرب إلى السودان . وحدثت مشاكل داخلية بين كبار رجال المعسكر المهدي منها ما حصل مع ود المنة وغيره من الزعماء المحليين ومقتلهم . وقد اختلفت الرواية في أسباب مقتل ود المنة فابراهيم فوزي يقول ان الامام والخليفة عبد الله قد خشيا من مطامعه فتخلصا منه بتدبير قتله (١٠١) وفي قول مندوب الخديو توفيق الاميرالاي أحمد بك حدي ، ان ود المنة قد أغار على القافلة التي كانت محملة بغنائم الأبيض والتي كانت في طريقها إلى جبل قدير (١٠٢) لأنه وجد أن الامام المهدي لم يعطه نصيباً منها .

وأخذ الامام المهدي في إعداد جيوشه استعداداً لمواجهة ما قد ترسله الحكومة من قوات لقتال ، واشتبك مع هكس في موقعة شيكان التي هزمت فيها الحملة وفنيت عن آخرها ، وبعدها استسلم سلاتين مدير دارفور وفي أوائل عام ١٨٨٤ م استسلم لبتن مدير بحر النزال ، وأرسل قوة لمناوشة أمين باشا في خط الاستواء ، وبعد أن استتب له الأمر في كردفان ودارفور وبحر النزال ، وبعد ما اطمأن من ناحية خط الاستواء أعد حملته إلى الخرطوم . وقد انتقلت الحركة المهدية بعد سقوط الخرطوم إلى نهاية المرحلة الأولى وبداية مرحلة جديدة ، وهي مرحلة تأسيس جهاز للإدارة . وكما سبق أن أشرنا أن التنظيمات التي قرنها الامام المهدي لارساء قواعد رسالته ، قد أثارت حفاظ بعض زعماء القبائل وغيرهم ، ودخل بذلك في صراع خفي لم تشتد وطأته إلا بعد انتقال الامام المهدي إلى الرقيق الأعلى ، وتسلم الخليفة التعايشي أمر الرسالة ، فبدأت الغيرة والحسد كمظهر من مظاهر الصراع الخفي ، تشير الفتن

(١٠٠) جاء السلطان رابع فبلاغه انه رجع بعد وصوله إلى حدود دارفور عندما سمع بوفاة الامام المهدي .

(١٠١) فوزي جزء ثان ص ١٦٥ .

(١٠٢) يوميات الأميرالاي أحمد بك حدي .

والشكوك ، وانقسمت الصفوف واشتد الكرب والجماعات وتفشت الأمراض ، وصار الخليفة يواجه كل يوم مشاكل جديدة ، اختفى معها الهدوء والاستقرار ، فاستعان الخليفة بأهله من البقارة وقد زاد هذا الاجراء الأمور تعقيداً وكثرت التلاقل ، وبدأت خيوط الاستعمار في العمل ، وانجلترا كانت تختبئ لإنبياء مفاجئاً لسيطرة الخليفة قبل أن تستعد مصر - على حد قول السياسة البريطانية لاعادة الأمن والنظام في السودان ، وكانت هنالك أيضاً أثيوبيا تحاول التحالف مع الخليفة ومن ورائها فرنسا ، وهدف هذا التحالف مقاومة تقدم الانجليز نحو حوض النيل الأعلى وأرسلت فرنسا حملاتها المتتابعة إلى حوض بحر الغزال لاحتلاله والاتصال بالخليفة وحكومته في تحالف يربطه بفرنسا . وكانت انجلترا ترقب هذا النشاط الفرنسي الأثيوبي الذي زادت خطورته على مصلحتها بعد هزيمة الطليان في عدوة . وقد حطمت هذه الهزيمة الجناح الذي أقامته انجلترا من الطليان في شرق السودان وشمال أثيوبيا ، فصار الطريق معبراً أمام فرنسا وحلفائها للتوغل في حوض النيل الأعلى وفي أثيوبيا ولتحقيق هدفها في إقامة حائط يثنى أفريقيا الوسطى من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر يعترض الخطة البريطانية التي كانت تريد امتداد سيطرتها من الجنوب إلى حوض وادي النيل - فأصدرت بأرسال الحملة المصرية إلى السودان وادي النيل باسم مصر ، وانتهى القرن التاسع عشر الميلادي بانبياء سيطرة الخليفة وذهوله وقيام حكومة إدارية من نوع آخر ، وقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر نهاية صراع طويل مرير بين فرنسا وانجلترا كما سيقينه في القسم التالي .

مركز السودان والصراع الدولي
في
حوض وادي النيل

أوضحنا في أكثر من موضع فيما سبق مركز حوض النيل في الاستراتيجية الدولية وصراع الدول الاستعمارية لتنفرد إحداهما بالسيطرة على هذا الجزء من القارة الأفريقية ، الذي كان وثيق الصلات بين الشرق والغرب بعامة وبين أقاليم البحر الأبيض المتوسط بخاصة ، وترجع تلك العلاقات إلى أقدم العصور التاريخية . وبهنا في دراستنا هذه أن نتعرف على مراحل التطور في الصراع بين الدول واتجاهها نحو القارة الأفريقية ، فقد بدأ الصراع مرحلته الأولى في القرون الست التي سبقت القرن التاسع عشر الميلادي مستمداً جذوره من الحروب الصليبية والتطور الزراعي وما تبع ذلك من نمو الدول الأوروبية وتقدم الصناعات . وقد تميز التوسع الأوروبي بالطابع الذي اخفى بين جنباته العوامل الاقتصادية لانزعاج الاحتكار التجاري من يد المهاليك في مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وهما حلقة الاتصال بين الشرق والغرب .

اتجه الأوروبيون من الفرنسيين والدومنيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادي صوب أفريقيا الصغرى وتونس والجزائر ومراكش ، حيث تسامح المسلمون القائمون على الأمر وأذنوا لهم بتأسيس مراكز للتبشير . وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها في شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن هذه الجماعات التبشيرية قد جاءت إلى هذه الديار ونحى وراءها أغراضاً سياسية أكثر منها تبشيرية . والغالب على الظن أنهم كانوا يعنون في الإبقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمي هذه المنطقة وبين مسلمي شرق البحر الأبيض المتوسط حتى لا تشكل القوى لمقاومة السيطرة الأوروبية التي حمل لواءها الباباوات .

وجاءت في أعقاب المبشرين جماعات من التجار الأوروبيين من المسيحيين واليهود واشتغلوا في تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التي تنقلها القوافل عبر الصحراء إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط في أفريقيا الصغرى . ويصور لنا تسامح المسلمين لونا من الفرقة المذهبية والاجتماعية التي جعلت المجموعات الإسلامية في الجانب الغربي من أفريقيا في عزلة عن مجريات الأحداث في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الأوضاع العميقة الجذور في المجتمع الإسلامي جذيرة بالبحث والتحقيق . فالدين الإسلامي لم يكن في حال من الأحوال مستولاً عن هذه الأوضاع لكنها هي

الطبيعة البشرية في مقوماتها القبلية التي لم تتأثر بالروح الاسلامية التي تدعو إلى الوحدة المتناسكة .

وتوالت بعد دخول المبشرين والتجار البعثات المخلاصة للكشف عن ساحل أفريقيا الغربي لغرض تحويل التجارة بعيداً عن الشرق الأوسط (شرق البحر الأبيض المتوسط) وللوصول إلى أنبوييا الدولة المسيحية التي تزامت أخبارها إلى أوروبا . وكانت المسيحية الأوروبية تهدف من وراء وصولها إلى أنبوييا إلى توطيد العلاقات لعقد محالفات دينية مسيحية لمحاربة الممالك المسلمين في مصر والدولة العثمانية فيما بعد (١) .

وقد أصاب النشاط الكشفي في أفريقيا جمود نسبي خلال القرن الثامن عشر الميلادي بسبب مناقات الأوروبيين في السباق للسيطرة على الأراضي الأمريكية لاستغلالها في الزراعة . واشتد الطلب على الأيدي العاملة للقيام بالزراعة في الممتلكات الجديدة عبر المحيط الأطلسي . وقامت على الشاطئ الغربي لأفريقيا سلسلة من المحطات لصيد الرقيق وتصديره وقد بلغت هذه التجارة ذروتها في ذلك القرن وبدأت بعض الدول الأوروبية تشعر بوخز الضمير ، ومن ورائه العوامل السياسية كما أوضحناه من قبل .

وشهد القرن التاسع عشر الميلادي تطوراً في الاتجاهات نحو التوسع تحت ضغط التقدم الصناعي والاقتصادي ، وتدفق الأموال الأوروبية ، وبرزت عناصر جديدة في الحقلين الاقتصادي والسياسي ، فالسلطة كانت وقفاً على طبقة الأشراف والنبلاء ودخلت مع تقدم الصناعة طبقة من العامة ارتفعت بثرائها . كنتيجة لنشاطها الصناعي إلى مستوى اضطرت معها حكوماتها لكي تفسح المجال أمام المجددين من الطبقة الجديدة للدخول في سلك الوظائف العامة الكبرى ، التي كانوا محرومين منها في الماضي ، كما أنها سهلت لهم الوصول إلى مراتب النبلاء والأشراف . ونجد هذا الاتجاه بارزاً في بريطانيا .

وقد تأثر التوسع الأوروبي إلى حد كبير في طبيعته وفي سيكولوجيته بما ورثته كل من الدول الأوروبية عن ماضيها القريب والبعيد ، وبما اكتسبته في نطاقها مع

(١) راجع من ١٢ وما بعدها من الكتاب الأول من هذه الدراسة .

منافسها خلال القرون التي سبقت القرن الثامن عشر ونجد أثر الكنيسة واضحاً في المراحل الأولى من التوسع الذي قام بالتمهيد له نفر من رجال الدين والمغامرين الذين اتخذوا من الدين ستاراً لهم ، وقد تبلورت الأفكار فيما بعد واصطبغت بالحاجة الاقتصادية التي اكتسبتها من التوسع الصناعي وظهور طبقة جديدة من أصحاب الثراء متأثرة في ذلك بعوامل ثلاث هامة ظهرت بين الدول الأوروبية وهي : أولاً ، التطور الصناعي واستخدام البخار والكهرباء ، ثانياً ظهور القوميات والمملكات ، ثالثاً إشراك الشعوب في الحكم - الديمقراطية . وقد تطورت هذه العناصر بالاضلاع القديمة ، فأخرجت الأمم من تعريضها الضيق ، الذي كانت تراعي فيه مصلحة النبلاء والاشراف وغيرهم من أصحاب الاقطاع إلى المجال الدولي ، واستخدمت الوسائل العلمية في استثمار الأرض وغلاتها وأخذت التقاليد القديمة في الزراعة في الاختفاء ، وأخذ النشاط الصناعي في الازدياد .

وقد كانت بداية مراحل الصراع الحديث بنشاط بريطانيا لمقاومة الروح الثورية التي نشرتها فرنسا في الفارين الأوروبية والأمريكية الأمر الذي سبب متاعب لتلك الدولة ، فكان أن عملت على تبديد أحلام فرنسا في بسط نفوذها في الأراضي الواطئة^(٢) فاتجهت فرنسا إلى الشرق الأوسط لتضرب إنجلترا ضربة قوية بتهديد مواصلاتها التجارية مع الشرق وكانت الخطوة التي جاءت الحملة الفرنسية لتنفيذها تتلخص في احتلال مصر ، شق قناة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، لبسط سيطرة فرنسا على حوض البحر الأحمر وجعله خالصاً للخدمة الفرنسية ، واستطاعت إنجلترا بقوة أسطولها البحري ووسائلها الدبلوماسية إخراج الفرنسيين من مصر بعد احتلالها بما يقرب من الثلاث سنوات ، وهكذا استطاعت إنجلترا أن تبديد أحلام فرنسا مرة أخرى .

ومن الجدير بالملاحظة أن فرنسا قد نزلت في أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وخرجت منها في السنة الأولى من القرن التاسع عشر ، وظهرت فرنسا في مثل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر في حوض النيل الأعلى وخرجت منه أيضاً بعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً وذلك عندما خرجت حملة مارشان في نهاية القرن التاسع عشر وحلة تونكود خرجت من شامبي في السنة الأولى من القرن

(٢) كوبان - السفراء والبعثات السرية يقدم لنا دراسة عن الوسائل والأساليب التي اتبعتها إنجلترا في صراعها الحثي لوقف النفوذ الفرنسي .

العشرين . وقد طويت صفحة هذا الصراع بين إنجلترا وفرنسا في حوض النيل والذي استمر أكثر من قرن من الزمان ، بالوفاق الودي الذي تم توقيعه في عام ١٩٠٤ وقد أعلنت إنجلترا في هذا الوفاق أنها لا تنوى إدخال أى تعديل على الوضع السيامي لمصر ، وأعلنت فرنسا من جانبها ، أن تتوقف عن نشاطها بمطالبة إنجلترا لتحديد فترة احتلالها لمصر .

وكان الصراع في خلال القرن التاسع عشر بين إنجلترا وفرنسا حلقة مثالية الأطراف والزعامت مرتبطة بعضها ببعض بالرغم من اختلاف المظاهر بعض الشيء . متأثرة في ذلك بالظروف الخاصة وانقسمت الدول الأوروبية معسكرات يناهض بعضها البعض ، وقد تزعمت إنجلترا كتلة من هذه الدول لمحاربة فرنسا التي قادت معسكراً ثانياً ، وانتقلت بين هذين المعسكرين هذه الدولة أو تلك حسباً أمله سياستها الخاصة لتحقيق أمانها مستقلة في ذلك العداء المستحكم بين الدولتين الكبيرتين ، وكانت فرنسا تحاول جاهدة أضعاف إنجلترا والتفوق عليها في جميع الميادين السياسية والاقتصادية . وكانت إنجلترا بدورها تعمل على الحد من انتشار الافكار الثورية الجديدة التي نادى بها فرنسا والتي سببت لها مناعب كثيرة وبخاصة في أمريكا ، كما سبق أن أشرنا .

وقد أثار احتلال فرنسا لمصر مخاوف بريطانيا بالنسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يمر في شريان مواصلاتها مع الشرق الغريب والبعيد وكانت إنجلترا في خشية من عودة الفرنسيين إلى مصر ثانية ، كما كانت في خوف من أن تعتمد فرنسا إلى قفل البحر الأبيض المتوسط في وجه الاسطول الانجليزي بحكم موقعها عليه وبسلطانها على إيطاليا ، لذلك نجد أن بريطانيا قد أخذت في فتح طريق لها إلى وادي النيل من ساحل البحر الأحمر بعيداً عن متناول الاسطول الفرنسي ، فجاءت عن هذا الطريق بثلاث أروط هندية تحت قيادة السير دافيد بيرد الذي نزل في القصير ومنها إلى النيل وسافرت بالمرأكب إلى رشيد التي وصلت في نهاية أغسطس سنة ١٨٠١ م ، وبقين لنا مدى خوف إنجلترا من عودة فرنسا إلى مصر أنها قد بقيت في أرض مصر لأكثر من عام بعد خروج الفرنسيين وتوقيع معاهدة أميان في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ م التي لم تكن إلا هدنة مؤقتة بين الدولتين ، فالحرب قد نشبت فعلاً بينهما في ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ م وبالرغم من المشاكل التي كانت تواجهها إنجلترا في أوروبا بسبب تكتل الدول ضدها بزعامة نابليون الذي أصدر قرار برلين بتحريم التجارة بين دول أوروبا

الخاضعة لنفوذ فرنسا وبين إنجلترا ونواها كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فان إنجلترا لم تغفل الوضع في حوض النيل وكانت تستعد لمواجهة ما قد يحدث فيه من تطورات بتدخل الفرنسيين ومن ذلك أنها أرسلت بعثة إلى أثيوبيا برئاسة اللورد فالنشيا ومعه هنري صولت للتفصل الانجليزى في مصر ، للاتفاق مع النجاشي على منح قواعد حرية في أرض الدناكل لاستخدامها لتزول الجتود البريطانية الهندية إذا دعت الظروف إلى ذلك في حالة عودة الفرنسيين إلى مصر ، وجاءت هذه الفترة حملة فريزر لمساعدة الممالك ضد سلطة الباب العالي وكان عملها هذا مناقضاً لما جاء في معاهدة أميان بشأن إعادة مصر لسلطة الباب العالي . وقد باءت هذه الحملة بالفشل .

وبعد حوالي الستين عاماً من خروج فرنسا من مصر عرض نابليون الثالث على إنجلترا مقترحه بشأن تقسيم شمال أفريقيا على أن تكون مصر من نصيب إنجلترا ، غير أن اللورد بالمستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك رفض هذا العرض ورجع هذا الرفض أنه قد وجد أن بقاء مصر تابعة للدولة الألمانية هو خير ضمان لمصالحهم ثانياً أنها (أى إنكلترا) لم تدافعاً في ذلك الحين لتحمل أعباء مالية بسبب بسط حكمها على مصر ، وهناك نقطة هامة أخرى كان لها أثرها وهي أن الفكرة الاستعمارية في ذلك الحين لم تكن قد تبلورت بعد وكانت بريطانيا في موقف المراقب الحذر حتى تتجلى مطاعم غيرها من الدول ، لكنها لم تكن لتغف عن نشاط فرنسا وغيرها في هذه المنطقة ، واتخذت من الاحتياطات ما تواجه به التطورات الدولية بعد افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ م الأمر الذي ازدادت معه أهمية مصر في الاستراتيجية البريطانية ، لذلك نجد أن حملة نابيير على أثيوبيا في ١٨٦٧ / ١٨٦٨ م لم تكن في واقع الأمر إلا تجربة قامت به قوات عسكرية للاستفادة من نتائجها في حالة العودة لاستخدام هذا النشاط لغزو مصر إذ جاء إليها الفرنسيون .

وجاءت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا بعد أن اتخذت إنجلترا موقفاً محايداً من تطورات الأحداث التي انتهت بإعلان فرنسا الحرب على ألمانيا ، وكان من مصلحة إنجلترا أن تدخل فرنسا في عراق يبعدها عن الميدان الدولي لفترة من الزمن ، قد تطول أو تقصر ، وقد تركت هذه الحرب تنفد في الفنون العسكرية وللصناعية ، فزاد القلق بين دول أوروبا التي اهتمت بتأمين سلامتها بالدخول في محالفات ، التي تنتهي عادة بالحرب بين المعسكرين المتنافرين ، وقد أبعثت الهزيمة التي حلت بفرنسا ، هذه الدولة من ميدان الصراع مع إنجلترا لفترة بلغت ما يقرب من العشرين عاماً أخذت

في خلالها المنتجات الصناعية في الازدياد ، كما أخذت رؤوس الأموال الأوروبية في التدفق خارج مواطنها للاستثمار بطريقة أو أخرى وللحصول على المواد الخام الضرورية للصناعات ، وعملت الدول الأوروبية على حماية منتجاتها . الأمر الذي كانت من نتائجه عزل الجزائر البريطانية وحرمانها من أسواق القارة الأوروبية . واتجهت أنظار الدول صوب التوسع في أفريقيا لفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات وللحصول على المواد الأولية اللازمة للصناعات ، وكانت فرنسا قد أخذت في استعادة قوتها بعد هزيمتها في الحرب السبعينية ، واتجهت بدورها نحو أفريقيا لإنشاء فرنسا الجديدة ، كما حاولت ألمانيا أن تؤسس في هذه القارة ، ألمانيا الجديدة ، أما روسيا فقد كان اهتمامها موجهاً إلى آسيا ، وأن كل ما قامت به من نشاط في أسيوييا كان مسانداً منها لفرنسا في صراعها لضعاف مركز بريطانيا . وإذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا نجد صورة واضحة للتسابق بين بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة فشاطي أفريقيا الغربي يكاد أن يكون سلسلة من المستعمرات التي تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا ، فهذه فرنسية وجاراتها بريطانية ثم فرنسية وبريطانية وهكذا وتقوم في خلف هذا الشاطئ الصحراء الكبرى وتسيطر عليها فرنسا .

٢ — تطور الصراع بين الدول :

شهدت النصف والستون عاماً الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي تطورات خطيرة في اتجاهات الأوروبية بعمامة وفرنسا واتجلترا بخاصة ، وقد سارت هذه الاتجاهات قدماً مع التقدم الزراعي والصناعي ، الذي كان له أثره في نظم الحكم ، كما كان لهذا التقدم انطباعه التي شكلت أهداف الدول ، وقد خضمت تلك الأهداف بادي ذي بدء لتحقيق مطالب أصحاب السلطان ورجال المال وكان هؤلاء فئة تتحكم في موارد الدول وتدخل في محالفات ، انقسمت معها أوروبا معسكرات جمع كل منها أصحاب المصلحة المتقاربة ، وبالرغم من أن الدوافع التي حركت هؤلاء ليست سيطرتهم كانت عاطفية غايته تحقيق النفع لتلك الطبقة ولاظهار قوة هيبتها وتفوقها على مناقسها في الميدان الدولي ، فإن أولئك نفر من أصحاب السلطان ورجال المال كانوا يهدقون نحو تأمين طرق الملاحة البحرية وملاحة محطات تموينها وكان طبيعياً والحالة هذه أن يحدث الاصطدام بين الدول بسبب التسابق للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية التي تتحكم في طرق الملاحة وموارد الخامات . ولم تشترك الشعوب مع

طبقة السلطان والمال في أهدافها لأن حالة الشعوب في ذلك الحين لم تكن قد بلغت الدرجة التي شعرت معها بالحاجة إلى أسواق جديدة لتصريف المنتجات المتزايدة، وللحصول على المواد الخام بأسعار تمكنها من المحافظة على أسواقها ومستوى صناعاتها أمام منافسة غيرها من الدول . ولهذا بقي التنافس في الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قائماً بين أصحاب السلطان والمال في مختلف الدول وقد كنت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية ومطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحس الظهور بالقوة والنفوذ ، وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللتين تصدرتا التنافس وهما إنجلترا وفرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط وشواطئ غرب أفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ولم يتطور هذا التنافس إلى المرحلة التي أضفت عليه المظهر الاقتصادي إلا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما أخذت الشعوب في المساهمة في هذه الاتجاهات عن طريق أموالها التي دفعت بها إلى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة وإلى ماغير ذلك .

وقد أضحى المظهر الاقتصادي بين طياته أكثر من عنصر انتقلت من جيل إلى جيل مع رواسب الماضي ، وكانت الدعوة إلى التبشير من أبرز العناصر التي تخلقت عن العصور الماضية ، والتي استمد منها التوسع الاقليمي قوته ، وسار التبشير جنباً إلى جنب مع العنصر الاقتصادي وصار كل منهما متمماً للآخر في تحقيق مطامع الدول التي أخذت في الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفقدتها قيمها الانسانية .

وقد تميز مسلك كل من فرنسا وإنجلترا بطابع المجتمع في كل من البلدين ، فالانكليزي يؤمن بطبيعته ، عن وعي وعن غريزة ، بمصلحته في البحار وغايته في أن يحتفظ بقوة بحرية تفوق على غيرها مهما كان الثمن على حساب الغير ، ولم يكن للانكليزي أصدقاء أبداً أو أعداء أبداً بل كانت الأبدية لمصلحته أولاً وقبل كل شيء فهو يقاوم غيره بكافة الوسائل الدبلوماسية أو بالحرب إذا اضطره الامر للاحتفاظ بتوازن القوة البحرية ، وقد اكتسب الانكليزي من عراكة الطويل في البحار بالكثير من الصفات ما عاونته في المشاكل الاقتصادية وكان لجوده وبرود طبيعته الاثر الاول في مغالبة الشدائد .

أما الفرنسي فقد تأثر بالحروب الطويلة التي خاض غمارها ضد النبلاء والاقطاع والكنيسة وقد جعله كل ذلك سريع العاطفية ، تصدر قراراته دون تمحيص ودون أن

يدخل في حسابه المكسب أو الخسارة كما يفعل الانكليزي شأنه في ذلك شأن شعوب البحر الابيض المتوسط ، لذلك قد أفادت بريطانيا من أخطائه وصبرت عليه حتى يستنفذ طاقته فتتغلب عليه . والبريطاني بطبيعته تطوري والفرنسي ثوري .

وكان لمصر نصيبها الذي أسهمت به في الصراع بين الدولتين ، فقد كانت قاعدة المحور الذي دار حوله التطاحن لأكثر من قرن من الزمان ، وحاولت بريطانيا أن تستقطع من مصر أجزاءها الجنوبية باتهامها إياها بأنها ترغب في التوسع واستغلال الغير ، والحقيقة وواقع الأمر يفيان هذا الاتهام نفياً قاطعاً . فصر في تاريخها القديم والحديث لم تحاول استعماراً كما عمل الأوروبي على تحقيقه ، لأن الشعب المصري بطبيعته لا يميل إلى ذلك ولم يشترك الشعب في عهوده المختلفة إلا قليلاً في الحروب التي شنها حكامه الذين استخدموا المرتزقة من الجنود الأجانب ، وحتى في اشتراكه في بعض الحروب التي دقعت اليها ظروف القاهرة فإنه قد أعطى البلد الذي وصل اليه كامل حقوقه وعمل جاهداً لرفع مستواه في مختلف أوجه نشاط الحياة .

• • •

انتقل التسابق بين الدولتين بعد خروجه فرنسا من مصر إلى شمال وغرب أفريقيا وصارت تنقل الماورات والمداورات من نقطة إلى نقطة وكلها تهدف إلى فتح إنجلترا من تثبيت أقدامها أو بسط نفوذها في صورة أو أخرى على حوض وادي النيل ، وكانت إنجلترا تعمل بدورها على تحطيم الخطط الفرنسية ويقين لنا من الجدول المرفق مع هذا نشاط الدولتين في هذا المضمار ونرجو أن نستطيع القارىء عنده في تكرار ما سبق أن تعرضنا له بالغدر الذي ينطليه البحث استكالا لعناصر الموضوع .

وبينا نجد ان بريطانيا كانت تحاول تصفية مشاكلها مع فرنسا بعد خروجها من مصر بعقد معاهدة اميان التي تعهدت فيها بريطانيا فيما تعهدت به من إعادة ممتلكات للدول ، بعدم أحداث تغيير في وضع مصر وعلاقتها بالباب العالي ، فانها - أي بريطانيا - كانت تخشى قيام فرنسا بغزو لمصر مرة ثانية - لذا أرسلت حملة قريزر في سنة ١٨٠٧ م لمناصرة المالك وإعادة سلطتها على مصر والارتباط معهم بمعاهدة . وقد فشلت هذه الحملة - وبعد ذلك أرسلت إنجلترا بعثة إلى الحبشة من اللورد فلنشيا وهنري صولت للحصول على قواعد في أرض الدناكل لنزول قواتها للزحف على مصر إذا قامت فرنسا منفردة أو مع بعض الدول المناصرة لها ، على قتل البحر الابيض

المتوسط في وجه بريطانيا ، وعقدت بريطانيا معاهدة ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ م مع فرنسا أعادت بموجبها فرنسا ممتلكاتها ومؤسساتها ومصانعها في غرب أفريقيا ، ولم يمض طويل وقت حتى نزلت فرنسا في الجزائر في عام ١٨٣٠ م . وتدخل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أتوبيا لعقد معاهدة صداقة وتجارة في سنة ١٨٤٢ م مع يوحنا نجاشي شوا في أعقاب معاهدة ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ التي عقدتها بريطانيا مع النجاشي وقد جددت بريطانيا هذه المعاهدة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ ارتبط فيها النجاشي وخلفاؤه من بعده بصداقة بريطانيا .

وانتهت بعد ذلك قوى السابق بين إنجلترا وفرنسا إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ، فبريطانيا كانت تهدف نحو منع فرنسا من تلك المنطقة وأصدرت في عام ١٨٦١ م قراراً بحكمتها في الخلاف بين ابني السلطان - سيد الذي كان يحكم زنبار من مسقط (في جنوب شرق الجزيرة العربية) وذلك بتقسيم المملكة قسمين ، وكان الجزء الأفريقي ويشمل زنبار من نصيب السلطان مجيد ونولي الابن الثاني للسلطان سعيد الجانب الآسيوي في مسقط ، وفي ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ أعلنت فرنسا وإنجلترا اتفاقهما على المحافظة على استقلال كل من مسقط وزنبار وتركت بريطانيا مدغشقر لفرنسا وتبع ذلك ظهور النشاط الفرنسي عند مدخل البحر الأحمر حيث عقدت هذه الدولة معاهدة مع زعماء الدناكل في ١١ مارس سنة ١٨٦٢ م تخلى بموجبها هؤلاء الزعماء عن منطقة ، أوبوك ، وهذا حصلت فرنسا على نقطة أمامية لها خطرها على مدخل البحر الأحمر يبدأ منها الحزام الأفريقي الذي يمتد من شاطئ البحر الأحمر ويشمل منطقة حوض بحر القزال وينتهي عند المحيط الأطلسي وكانت فرنسا تهدف من إقامة هذا الحزام ليكون حاجزاً أمام التوسع البريطاني شمالاً إلى حوض النيل وهكذا كانت لفرنسا نقطتان استراتيجيتان أحدهما في البحر الأبيض المتوسط بعد احتلالها للجزائر والثانية عند مدخل البحر الأحمر في ، أوبوك ، .

وبعد ذلك سنوات قليلة حدث أن احتجز النجاشي تيودور بعض الرعايا البريطانيين في محبسه فأرسلت الحكومة البريطانية حملة الجنرال روبرت نايبير في ١٨٦٧ م لانقاذ هؤلاء الرعايا ، وما يسترعى الالتفات أن هذه الحملة قد غادرت البلاد الآتيوية بعد انتصارها على النجاشي الذي انتحر أثر هزيمته ، ولم تحاول أن تحصل على منعم كما أنها لم تفرض عقوبات بل تركت الزعماء المحليين يتطاحنون حول العرش الأمر الذي استمر حتى ١٨٧٢ م عندما استطاع يوحنا حاكم النيجري أن يعلن نفسه نجاشياً ،

وفي الواقع ان بريطانيا قد اكتسبت هدفين من خروجها على هذه الصورة من أتوبيا أولاً أنها تركت البلاد في حالة من الفوضى قصارت نفاً لصيد المغامرين ، وثانياً انها كانت تخشى أن تفرض عقوبات أو التزامات على دولة مسيحية ، وتركت الامر للزمن ، ولا ندمي ان بريطانيا قد اكتسبت خبرة حربية قد تفيدها اذا ما جاء الفرنسيون الى مصر مرة أخرى . وجاءت إيطاليا إلى حوض البحر الأحمر ولم تكن لها حينذاك في ذلك مصلحة فحصلت على منطقة عصب، وذلك في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٩م أي قبيل افتتاح قناة السويس بأيام قليلة ، وقد كان لافتح هذه القناة أثرها البالغ في انعكاساته على الصراع الدولي ، وأخذت بعد ذلك إيطاليا في تثبيت أقدامها في منطقة عصب، وعادت بريطانيا إلى سياستها التقليدية التي اكتسبتها من خبرتها الطويلة فهي بينما تظهر عدم الاهتمام بمنطقة ما تسعى جاهدة لمنح هذه المنطقة استقلالاً تعترف به هي ومنافستها فرنسا أو غيرها ، وتدخل في اتفاقات دولية بشأن الحدود، وانما بشروطها هذا إنما ترمي إلى الاحتفاظ بهذه المنطقة في حي القانون الدولي ، وترك المسألة لبعض الزمن فتبتاعها لقمة سائغة كما حدث في قضيتي زنبار ومصر ، فقد أوفضنا من قبل مسألة التحكيم في تقسيم سلطنة السيد سعيد ومعاهدة إنجلترا وفرنسا في ١٨٦٢م اما في مصر فقد عقدت اتفاقاً في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن ساحل السومال ، وأصدر الباب العالي فرماناً في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ بعدم السماح لمصر بالتنازل عن أي جزء من الأراضي التابعة لها ولم يكن كل ذلك إلا توطئة للسيطرة على تلك الأجزاء بعد أن أجبرت مصر على الانسحاب من منطقة ساحل البحر الأحمر في ١٨٨٤م .

وفي الفترة التي سبقت انسحاب مصر من البحر الأحمر ازداد النشاط الإيطالي الذي بدأ في عام ١٨٦٩م فاستولت شركة روباتينو الايطالية على رهيطه والجزائر الساحلية . ولم يكن دخول إيطاليا إلى هذه المنطقة إلا إيداناً بدخول قوى تستطيع بريطانيا استغلالها لمصلحتها في المحافظة على ذلك الجناح الخطير الاهمية بالنسبة لحوض النيل الاوسط والأعلى.

وأخذ الصراع يسير في خطى سريعة من عام ١٨٨٠م الذي أصدرت فرنسا في نهايته إعلاناً (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠م) أوضحت فيه حدود منطقة أبوك، وتبع ذلك احتلال فرنسا لتونس في سنة ١٨٨١م بموجب معاهدة قصر سعيد ، وكانت هذه المعاهدة من الناحية الواقعية اقتراب الخطر الفرنسي على مصر عن طريق

الساحل الأفريقي فلم تكن تفصل بينهما - مصر وثونس - إلا مسافة قصيرة نسبياً كما كان لفرنسا أن تتحكم على الطريق البحري ، وقد شعرت بريطانيا بالخطر الذي يهدد مصالحها التي كانت تدعيها لنفسها في حوض وادي النيل ، والتي كانت تسعى بجاهدة نحو تحقيقها . وتبع ذلك احتلال مصر في ١٨٨٢ م ، وعملت إنجلترا بطرقها الخاصة ، التي ستعرض لها فيما بعد لتثبيت أقدامها في منطقة وادي النيل ، واشتد لذلك الصراع بين الدولتين واستطاعت فرنسا كسب الجولات الأولى في الصراع وكان ذلك نتيجة لدخول ألمانيا في الميدان وما حدث بينها وبين إنجلترا من جفوة ، فتكونت كتلة لتحد من المطامع البريطانية في هذا الجانب من أفريقيا .

وبدأت رقعة النضال تضيق شيئاً فشيئاً حتى انكشفت حول منطقة حوض وادي النيل والمنطقتين شمال وجنوب أنيوبيا وساحل البحر الأحمر الأفريقي ومنطقة أوغندا ، وهذه جميعها تكون وحدة وادي النيل التي امتدت إليها الإدارة المصرية وفتحت أبوابها للهدنة والتجارة ، واتخذت القوات التي اشتركت في الصراع قواعد لها في الأراضي المجاورة ، عملت منها كل من الدولتين المتنازعتين للوصول قبل الأخرى إلى حوض النيل الأعلى ووضع يدها عليه . وتضمن المناطق التي اتخذ الصراع فيها مراكز زحفه ، ثلاث قواعد أساسية وهي :-

- ١ - المنطقة الشمالية . حوض وادي النيل الأدنى والأوسط .
 - ٢ - المنطقة الشرقية . أنيوبيا والقرن الأفريقي وأوغندا وكينيا من الشرق والجنوب الشرقي .
 - ٣ - المنطقة الغربية . الأملاك الفرنسية والكونغو من الغرب والجنوب الغربي .
- وظاهرت إيطاليا وشركات شرق أفريقيا البريطانية والكونغو الحرة السيامية البريطانية بينما عملت في جانب فرنسا كل من أنيوبيا وروسيا وترددت ألمانيا وبلجيكا بين المعسكرين .

ولم يكن هنالك من مقر بعد أن اشتد النشاط أن تلتقي الدولتان المتنازعتان وجهاً لوجه لتصفية موقفهما الذي بلغ ذروة أزمته في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي . التي سبقها نشاط كل الدولتين لتدعيم قواعدها في المراكز الخلفية المتنازع عليها كما عملت كل منهما على تأمين موقفها من الناحية الدبلوماسية .

المنطقة الشمالية :

لعل أوضح ما تميزت به هذه الرقعة أنها كانت الهدف الأول الذي اختارته فرنسا لاحتلاله في سنة ١٧٩٨ م لتتخذ منها مركزاً تبسط منه سيطرتها على الطرق الملاحية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، ولتفرض سلطانها على الطرق البرية، كما اتخذت من هذه المنطقة قاعدة لنشاط شخاتها البرية للعمل في الشرق الأدنى والأقصى على إثارة الفتن والقتل وكان مقصدها من كل ذلك أزعاج منافستها إنجلترا في طرق مواصلاتها ونفوذها، ويرجع اختيار الفرنسيين للسيطرة على مصر إلى وضعها الاقليمي من ناحية المناخ وسهولة مواصلاتها الداخلية ومواردها الزراعية، وسيطرتها على ساحلي البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط الشرقي .

وقد نبت في هذه المنطقة الغرس الأول الذي انطلقت عنه المسألة الشرقية - مصر - وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وحول هذه المنطقة اشتد الصراع بين الدولتين الأمر الذي استمر أكثر من مائة عام وامتد ميدانه واتسع حتى شمل جميع أفريقيا شمال خط الاستواء ، وشمل في نهايته رقعة واسعة جنوب ذلك الخط مباشرة. ولم يكن لبريطانيا أن تتقبل هذه الضربة القاصمة لما كانت تدعيه لنفسها من مصالح في هذا الجزء من شمال شرق أفريقيا ، دون أن تتنقم من غريبتها . فالأسطول الانكليزي قد تعقب السفن الفرنسية التي لم تكن وجهتها معروفة في بادئ الأمر ، وجاءت القطع الانكليزية بقيادة تلسن وهاجمت المراكب الفرنسية بعد أن ألقت مراسيها في مياه خليج أبو قير وأنزل بها خسارة فادحة وكان ذلك بعد اسبوع تقريباً من زول الحملة الفرنسية في مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأخذت بعد ذلك البحرية الانكليزية في فرض حصارها على الشاطئ المصري لمنع وصول الامدادات من فرنسا ونشطت في نفس الوقت لدى الباب العالي لعقد حلف تتعاون بموجبه الدولتان على إخراج الفرنسيين من مصر ، وكانت روسيا تسعى لدى الباب العالي لنفس الغرض ، وتم فعلاً الوصول إلى اتفاق بين روسيا وتركيا في ديسمبر سنة ١٧٩٨ م وتلاه توقيع الحلف التركي والبرطاني في يناير سنة ١٧٩٩ م .

وعما يسترعى الالتفات ان الحلف العثماني البريطاني قد ألزم تركيا بتقديم جيش مائة ألف من الجنود لتشارك معه جميع القطع الحربية البحرية العثمانية في حرب الفرنسيين ، وتعددت بريطانيا بالاحتفاظ بعدد مناسب من قطع أسطولها في شرق

البحر الأبيض المتوسط، وأن لاتضع انجلترا سلاحها إلا بعد تأمين أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تعقد بالجيش العثماني وبحريته في الصف الاول للقتال فينتلقى بذلك الضربة الاولى ، وتبقى في الصفوف الخلفية إلى أن يضعف الطرفان فرنسا وتركيا ، ويتبين لنا هدف بريطانيا من هذا الاتجاه بما أصاب الحملة التركية التي نزلت في أبو قير في يولييه سنة ١٧٩٩ م من هزيمة منكزة ، وقد كان مع هذه القوة السير سيدني سمث في سفينه تبحره (الدجله) واضطرت الحملة التركية إلى مغادرة المياه المصرية ، وبما تجدد الإشارة إليه أنه بينما كانت أهداف روسيا وانجلترا هي طرد الفرنسيين من مصر فانهما لم يوقعا حلفا ثلاثيا - روسيا - انجلترا - تركيا - بل عقدت كل من الدولتين حلفا منفصلا مع الدولة العثمانية . ويبدو أن السبب في ذلك ترجع إلى تفادى اصطدام مصالح الدولتين وإلى أن ارتباط انجلترا في حلف تشترك فيه دولة أوروبية من شأنه أن يحد من أغراضها ، وقد أوضحها وزير الخارجية البريطانية حينذاك في قوله ، ان امتلاك أية قوة مستقلة لمصر سوف يكون ظرفاً سيئاً بالنسبة لمصالح انجلترا (١) .

وأخذت القوات العثمانية تفتق طريقها إلى مصر حتى وصلت العريش وفي خلال ذلك كانت المفاوضات جارية لجلاء الفرنسيين عن مصر وتم الوصول إلى الاتفاق الذي عرف « باتفاق العريش » . لكن انجلترا قد تباطأت في إعلان موافقتها على هذا الاتفاق خوفاً من عودة الجيش الفرنسي ، بعد الجلاء عن مصر ، إلى فرنسا فيزيد من قوة فرنسا . وجاءت قوة بريطانيا بحرية وأخرى من الهند عن طريق القصير إلى قنا ومنها عن طريق النيل إلى رشيد وبقيت القوات التركية والانجليزية في أرض مصر بعد خروج الفرنسيين في سنة ١٨٠١ ولجأت انجلترا إلى وسائلها للبقاء في مصر ، غير أن الدول الأوروبية ومنها هندوب روسيا في مؤتمر ايمان أصرت على انسحاب انجلترا في مصر وإعادة سلطان الباب العالي ووجدت انجلترا نفسها مضطرة إلى ترك البلاد لتطور الاحوال في القاهرة الأوروبية . كما أنها وجدت إن المماليك وهم عملاءها قد اتصلوا بالفرنسيين ، وبالرغم من مشاكل انجلترا في حربها مع فرنسا في أوروبا فانها كانت تخشى ظهور الفرنسيين على أرض مصر ثانية ، لذلك أصلحت ما بينها وبين زعماء المماليك لتدفع بهم كوسيلة للتدخل في شئون مصر

وغزوها ، وفعلًا أرسلت حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ لمساعدة المالك ولتفويض سلطة الباب العالي غير ان هذه الخطة قد فشلت وانسحبت الحملة . وأرسلت اللورد فلنشيا وهنرى صولت إلى النجاشي للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة عسكرية في أرض الدناكل تستخدمها الجنود البريطانية الهندية لغزو وادي النيل إذا دعت الضرورة لذلك .

وانجحت بعد ذلك بريطانيا إلى سياستها التقليدية بالتدخل تدريجياً في شئون مصر حتى تكتسب مع مضي الزمن حقوقاً تثقل بها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل مرتبة استخدام تلك الحقوق كوسيلة للضغط السياسي الذي يتبعه استخدام القوة العسكرية وكانت مسألة الرقيق من أولى الأدوات التي استخدمتها للضغط على مصر وبخاصة بعد أن حصلت على فرمانات الباب العالي ، وموافقة مؤتمر فيينا على التوصية بإلغاء النخاسة ، وأخذت الظروف تتطور من صورة إلى أخرى حتى انتهت ، كما سبق أن أوضحناها بنزول القوات البريطانية في مصر في سنة ١٨٨٢م

وقد بدأت مع هذا الاحتلال مرحلة جديدة في العلاقات البريطانية المصرية بعامه وبالسودان بخاصة ، فاستغلت الأزمة المالية بالاضافة إلى قواتها المحتلة للسيطرة على جهاز إدارة البلاد وملحقاتها وصارت كلتها هي العليا الواجبة التنفيذ . وكان الموقف المالي حجة تذرعت بها لمنع مصر من عملياتها في السودان لاعادة الأحوال إلى بحارها الطبيعية ، كما أن ذلك الموقف بعد أن هيأت له ظروفه في السودان بعد هزيمة هكس جعلها تنفذ الخطوة التالية وهي إخلاء السودان على يد غوردون ، وانسحاب حملة الانقاذ بعد سقوط الخرطوم (٤) ، أعلنت أنها غير مستولة عن إنقاذ القوات المصرية الموجودة حينذاك في دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وشرق السودان (٥) ، وقد ذكر لوجارد ، إن الاطلاع على كتاب عشرة أعوام مع المهدي ، والمقال الذي كتب في المجلة الأهلية في فبراير سنة ١٨٩٢ يجعل القارىء يشعر بالعار بسبب الدور الخطير الذي لعبناه في تاريخ أفريقيا وذلك بإخلاء السودان وما ترتب على ذلك من إراقة الدماء (٦).

(٤) وافقت الملكة فيكتوريا بتاريخ ١٨ أبريل سنة ١٨٨٥م على انسحاب القوات البريطانية من السودان مع الاحتفاظ بحق حرية العمل في المستقبل . جوين ص ١١٨

(٥) الق ن ٣٥٧

(٦) لوجارد جزء ٢ ص ٥٧٢

وأخذت الأحوال تزداد سوءاً بالنسبة لمصر في عام ١٨٨٤م عندما بدأت بريطانيا في تنفيذ سياستها الرامية إلى اقتطاع أجزاء وادي النيل ، ففي يونيو من عام ١٨٨٤م عقدت معاهدة مع أثيوبيا باسم بريطانيا ومصر ، وقد وقعها النجاشي ، واليرير ادميرال السير وليم هيوت قائد الوحدات البريطانية في الهند الشرقية نيابة عن حكومة جلالة الملكة ، وميسون بك حاكم مصوع نيابة عن مصر . وتلت أثيوبيا بموجب هذه المعاهدة منطقة البوغوص وجميع ما بها من المبان والمهمات والأسلحة التي ترك بعد انسحاب القوات المصرية من كلا وأماديب وسنت ، وجاء في المادة الرابعة من هذه المعاهدة إعطاء الحق للنجاشي في تعيين مطران الكنيسة الاثيوبية وهي في ذلك قد سلّبت حق البطريرك المصري تمهيداً لفصل الكنيسة الاثيوبية عن أمها الكرازة المرقسية ، وجاء في المادة السادسة أن جلالة النجاشي قد وافق على أن يقدم شكواه عن ما يحدث من خلاف مع خديو مصر وذلك بعد توقيع المعاهدة ، إلى الحكومة البريطانية لتسويتها . وهذه صورة من محاولات إنجلترا لتنفيذ خططها وتعزيز مركزها في حوض وادي النيل ، الأمر الذي كانت تعارضه وتقاومه روسيا وفرنسا بكل قوة في الميدان الدولي . وقد أضعف هذا النشاط موقف بريطانيا وخشيت معه أن تتطور المسألة في غير مصلحتها وبخاصة في السودان حيث أخذ مركز غوردون في التدهور وتحقق فشله في مهمته وازداد خوفها أن ينتقل الزمام إلى يد أجنبيّة - فرنسا - لذلك عمدت بريطانيا إلى وسائلها الدبلوماسية لتقوية موقفها في مصر والسودان ، وكان أن عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م للنظر في الشؤون الأفريقية ، ووصلت الدول إلى اتفاق على الأسس التي يقوم عليها بسط السلطان على المناطق الأفريقية وما تجب مراعاته في مختلف الشؤون وشملت قرارات هذا المؤتمر ضمن ما اشتملت عليه عن التجارة والملاحة الخ الخ ، النواة التي قامت عليها النظرية التي تفسر الاحتلال الفعلي ، فقد جاء في التصريح الخاص بالشروط الأساسية الواجب مراعاتها لتحقيق شرعية احتلال أية دولة لمنطقة ما على الساحل الاقريقي . حيث جاء في المادة الرابعة والثلاثين أن « أية دولة تستولي من الآن فصاعداً على أرض من ساحل القارة الأفريقية من غير ممتلكاتها عند توقيع المعاهدة ، والتي لا يملكها أحد ، فإنه يتحتم على تلك الدولة ، أو الدولة التي تبسط حمايتها ، أن يتبع احتلالها أو بسط حمايتها إعلان الدول الموقعة على قرارات المؤتمر تعلنها فيه بما وضعت يدها عليه - امتلاكاً أو حماية - وبذلك يقتضي بموجب هذا الاخطار للدولة ذات الشأن والمصلحة

أن تطالب بحقوقها إذا كانت لها حقوق ، . ولما كان هذا النص قد ترك مسألة مصر دون تسوية فإن بريطانيا لجأت بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة إلى مفاوضات الباب العالي على أساس ما كثر ظاهره بحث مسألة الجلاء عن مصر ، وباطنه الحصول على اعتراف من الباب العالي بشرعية الاحتلال وقد عقد قعلا الاتفاق الأول في عام ١٨٨٥ م ، كما خرجت بموجب هذا الاتفاق مسألة السودان بحملها مادة تبحث مصالحاتها ، وجاءت بعد هذه الاتفاقية المعاهدة النهائية بعد قيام المندوبين الساميين العثماني والبريطاني لبحث المسألة ، وذلك في عام ١٨٨٧ م ولم تنفذ تلك المعاهدة ، كما سبق أن أوضحنا لتدخل فرنسا وروسيا. ولم تكن هذه المعاهدة في الواقع إلا امتداداً للاتفاق الأول الذي تم في سنة ١٨٨٥ م .

وعلى هذه الأسس نسجت السياسة البريطانية خيوطها حول وادي النيل لفصل شماله عن جنوبه ، وحاولت أن تجعل منه أرضاً مباحاً وتعطلت بسبب هذا الاجراء التجارة وصار السودان في شبه عزلة تامة عن العالم الخارجي . الامر الذي جعل رجال الاعمال من البريطانيين يطالبون بفتح التعامل التجاري مع السودان ورفع الحصار الذي فرضته وزارة الحربية المصرية التي صار السودان تابعاً لها وفق الامر الخديوي العالي بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ م وظلت شؤنه من اختصاص هذه الوزارة حتى السنوات الاولى من القرن العشرين . وحاول رجال المال من الانجليز تأسيس شركة بريطانية لاحتكار تجارة السودان ومركزها سواكن على غرار شركة شركة شرق أفريقيا وغيرها من الشركات البريطانية التي تقوم بالتמיד لضم البلد الذي تحسرك تجارتها إلى أملاك الدولة ، غير أن الباب العالي ومصر قد عارضتا في هذا الاحتكار ، ولم تكن الظروف الدولية بالنسبة لمركز السودان تسمح بهذا الامتياز .

ولما كانت بريطانيا تواجه المشاكل التي تثيرها فرنسا وروسيا وغيرها منفردة ، فقد جاءت إيطاليا وسهلت لها احتلال مصوع التي اتخذت منها قاعدة للتوسع في داخلية المنطقة وهدفها من ذلك أن تقوم إيطاليا بحماية القطاع الممتد على ساحل البحر الاحمر الافريقي الذي يتكون منه جناح حركاتها في حوض النيل . وعملت فرنسا جاهدة لتوطيد قواعدها في مدخل البحر الاحمر وبخاصة بعد أن نقلت انجلترا ميناء عدن ومنعت السفن الحربية الفرنسية من أخذ حاجتها من الفحم في عام ١٨٨٣ م عندئذ كانت مشتبكة في حربها مع الصين فسببت لها المتاعب وفي عام ١٨٨٧ أنشأت ميناء جيبيوتي وأعدته إعداداً كاملاً لاستقبال البواخر وحاولت بريطانيا الحد من

التوسع الفرنسي في هذه المنطقة فمعدت معها معاهدة ١٨٨٨م التي تشير بوجه خاص الى مرور والتي ستعرض لها فيما بعد .

ازداد نشاط الطليان في القطاع الشرقى بعد توقيع معاهدة أوتشبالى في سنة ١٨٨٩ والذي يهمنها من نشاطها أنها كانت تهدف الى احتلال كسلا الامر الذي تضايقت معه إنجلترا وعارضته معارضة شديدة خوفا من أن يقوم الطليان بإقامة خزانات على روافد المياه - الفاش والعطبرة الذي يتصل بالنيل وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من العامين توصلت بريطانيا وإيطاليا من الوصول الى اتفاق اعترفت فيه إيطاليا بحق مصر في أعالي النيل بما فيه كسلا ، وبعد أن تم التوقيع على المعاهدة في ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ م ، وافقت بريطانيا - لا مصر - على احتلال إيطاليا لهذه المنطقة اذا دعت الضرورات العسكرية مع الاحتفاظ بحق مصر . ولم يكن استخدامها لحق مصر في هذه المعاهدة أو غيرها للمحافظة على حقوق مصر لمصر فعلا بل بالعكس لم يكن ذلك إلا وسيلة لابتعاد المنافسين في عقود دولية وتسئولى هي على تلك الحقوق عندما تحين الفرصة المناسبة وكل ما يهيم بريطانيا الحصول على توثيق منعا للمشاكل الدولية .

واشتد النشاط الفرنسي وشمرت بريطانيا بخطورة الموقف وما ينتظر من تطورات لذا أمرت سردار الجيش المصرى كتشنر باشا دون سابق علم الحكومة المصرية بالاستعداد لقيام الحملة إلى السودان لإعادة الحياة إلى طبيعتها ، وسارعت بهتج الاعتمادات اللازمة للحملة بعد أن رفض المندوبان الفرنسى والروسى في صندوق الدين الموافقة على المصروفات . وكانت هذه الاعتمادات سلفة لحساب مصر ، وقد زودت إنجلترا كتشنر باشا بتعليقاتها السرية التي لم يسمح له برفض أختامها إلا بعد وصوله الخرطوم والاستيلاء على أم درمان . وكانت هذه التعليقات تتضمن ما يتبع بعد سقوط أم درمان من تسليم القيادة والسفر إلى أعالي النيل لتحقيق وجود الحملة الفرنسية التي قادها مارشان وخطاره بمغادرة البلاد باسم مصر . وذكر لوجارد بصدد حقوق مصر :

ولقد تركت مصر السودان بناء على أمر بريطانيا ، وكان من المعتقد أنها قد تنازلت عن جميع حقوقها على هذه الرقعة من الأرض ، غير أن تصريحاً حديثاً من نيجران باشا جاء فيها : أن مصر تحتفظ بكامل حقوقها على جميع المناطق التي كونت جزءاً من مديرية خط الاستواء المصرية واستمر لوجارد يقول : استب هذا القول الذي ألقى كالقنبلة لا يمكن قبوله إذا نظرنا إلى مقاله المستر هاردينج بالنيابة عن الحكومة المصرية

• إن مصر لا تتحمل أية مسؤولية بشأن الأهالي في تلك المديرية التي تركتها مصر أي من وادى حلفا وجنوبها ، وأنها تقبل فقط المسؤولية من الأشخاص الذين ولدوا شمال تلك المحطة (حلفا) ، ويضيف لوجارد « وب تطبيق نظرية الاحتلال الفعلي ، فإن مصر ليست لها حقوق على السودان الجنوبي بسبب أن أقرب نقطة تسيطر عليها (تقيم فيها الأمن ، تباشر فيها رعاية الأهالي ، وتحافظ على ممتلكات الأجانب تبعد بحوالى الألفين ميل وقد بقيت على ذلك خلال السنوات التسع الماضية (٧) ».

وأرسلت بريطانيا بعثة تحت رئاسة رنل رود لعقد معاهدة مع النجاشي . وقد فشلت هذه البعثة في مسعاها لتحويل النجاشي عن صداقته للفرنسيين ، وصار أمراً لا مفر منه أن تلتقي فرنسا وانجلترا وجها لوجه في أعلى النيل ، ولما كانت فرنسا لم تعترف بمركز انجلترا في حوض النيل وظلت تقاومه ما يقرب من المائة عام ، وأن زحفها على منطقة بحر الزغال واحتلال مارشان لفاشودة وتونكود لشامي كان يهدف الى ابطال حجة انجلترا في ادعاءاتها باحتلال مصر لتحقيق أحلامها في ربط مصر مع الكاب وشرق أفريقيا من جهة ومع غرب أفريقيا وشركة النيجر البريطانية من جهة أخرى على حد قول الجنرال مانجان (٨) لذلك أسرع بريطانيا بإرسال الحملة المصرية بقيادة كنشتر باشا سرداوها ، ولم تشرك القوات البريطانية في المرحلة الأولى من أعمال الحملة .

وننتقل الآن إلى النشاط في القاعدتين الشرقية والغربية والتي برز منها الصراع في صورته السافرة على أرض فاشودة .

(٧) لوجارد جزء ٢ ٥٧١/٥٧٢

انصرح تيجران باشا في مطبوعات البرلمان البريطاني ٧٣٠ بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٩٢ ، وانصرح هاردينج بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .

(٨) لاقر ص ٥٣٨

● المنطقة الشرقية :

تنقسم هذه المنطقة ، بالنسبة لموضوع البحث ، ثلاث أقسام ، أولها أنيوبيا - الهضبة الحبشية الخالصة ، ثانيها القرن الأفريقي وهو الجزء الذى يطل على خليج عدن وشاطئه المحيط الهندي - بحر الزنج - الواقع جنوب خليج عدن حتى مصب نهر الجوبا وثالثها شرق أفريقيا وكينيا وأوغنده وقد كانت مصر تسيطر على الجانب الأكبر من هذه المنطقة فيما عدا أنيوبيا، التي تحتل مركزاً ممتازاً بين جاراتها، التفت فيها الهجرات من جنوب غرب آسيا والمجموعات الأفريقية من مختلف مناطقها الدانية والقاصية ، كما امتدت إليها المدنية المصرية منذ فجر التاريخ ، وتأثرت بتطور الحياة في شمال الوادي - مصر - في مختلف العصور ، وقد ازدادت أهمية أنيوبيا في استراتيجية حوض وادي النيل بعد افتتاح قناة السويس الأمر الذى أدخل هذه القارة الأفريقية في نطاق السياسة الدولية ، وجعلها عنصراً له خطورته في اعتبارات الجغرافية السياسية (الجيوبولوتكس) لهذا الجزء من شمال شرق أفريقيا ، وبينما تمتاز هذه المنطقة في مجموعها بوجود منابع النيل وروافده في أراضيها فإن أنيوبيا - الهضبة الحبشية - تسيطر على الجانب الأكبر من موارد المياه التي تمتد نهر النيل بالماء والطين ، فمما يخرج السواط والنيل الأزرق برافديه الدندر والرهذ ، والمطربة وتلتقي هذه ببحرى النيل الرئيسى ، كما يخرج منها القاش وخور بركة وهما لا يتصلان بالنيل إلا أن لها أهمية في اقتصاديات شرق السودان - في زراعته ومياهه الجوفية بخاصة في البطانة وبالإضافة إلى ذلك فإن أنيوبيا تعال ، وهي في وضعها الأقليمي الطبيعي ، على الجانب الجنوبي الغربي لحوض البحر الأحمر ، وتمتد سيطرتها على الساحل الأفريقي لخليج عدن وبحر الزنج - من المحيط الهندي - إلى نقطة عند مصب نهر الجوبا ، فهي بذلك تتحكم على جزء كبير من الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر وعلى مدخله الجنوبي - بوغاز باب المندب وخليج عدن - ويشكل هذا الوضع الأقليمي على منافذ التجارة ، العنصر الحساس في السياسة الدولية بعد أن صار حوض البحر الأحمر ممراً تجارياً بحرياً بعد افتتاح قناة السويس ، وقد أكسبت هذه المميزات الإقليمية الساحلية نشاطاً بحرياً اشتغل به الاتيوبيون في الأزمنة الماضية ، وكان لهذه السيطرة ولهذا النشاط أثرهما في توجيه السياسة الأوروبية ، فبالرغم من أنها دولة مسيحية كانت الدول المسيحية في الغرب تسمى إليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتوثيق عرى الروابط وللتعاون على حرب المسلمين كما سبق أن أشرنا في الكتاب الأول ، فإن السياسة

الدولية الحديثة التي تؤمن بمصلحتها الاقتصادية وبرسالتها لنشر المدنية بين الشعوب الأخرى غير الأوروبية، قد تعاملت مع أنيويبا على أساس أنها دولة شرقية متخلفة يجب أن تخضع كغيرها لرسالة الأوروبي فتقبل ما يسمع لها به من مدنيته في نطاق مصلحة الأوروبي وأقامت هذه الدول مناطق على طول ساحلها خصصت لسيطرتها فعزلت بذلك أنيويبا عن حوض البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وقد تقاسمت هذه المناطق إيطاليا وفرنسا وبريطانيا - الأرتيريا - السومال الفرنسي - السومال البريطاني والسومال الإيطالي، وصارت تجارتها الخارجية لا تمر إلا عبر هذا الحاجز وبخاصة المنطقة الفرنسية التي يخرج منها خط السكة الحديد جيبوتي - أديس أبابا، ويبدو أن هذا الحاجز قد أقام أساساً ليعدم مصلحة هذه الدول في مسألة الرقيق ومنع استيراد الأسلحة والمخازن التي قد تسرب في كميات كبيرة إلى المناطق الأفريقية الأخرى فتخلق قلقاً للمستعمرين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الدول تهدف إلى حرمان أنيويبا من السيطرة على ساحلها حتى لا تجد لها أبعادها البحرية ولكي تحافظ على اقتصاديات في مستوى بدائي هزيل، ولحرمانها من استغلال مواردها المعدنية الغنية.

• ارتباط أنيويبا بحوض النيل :

وقد انصلت أنيويبا، في مختلف أوضاعها الإقليمية، بتطورات الحوادث في حوض النيل وبمنا في بحثنا هذا التعرض لهذه التطورات التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وقد أشرنا في الكتاب الأول إلى العلاقات في الفترة من الزمن التي سبقت القرن الثامن عشر، فقد اتجهت إليها السياسة البريطانية لتتخذ منها قاعدة تتحرك منها قواتها العسكرية لغزو مصر إذا عادت فرنسا لاحتلالها بعد خروجها منها في سنة ١٨٠١م وجاءت إليها حملة نابيير قبيل افتتاح قناة السويس وخرجت منها بعد إخلاء سبيل البريطانيين الذين احتجزهم النجاشي تيودوروس في سجنه كما سبق أن أوضحنا، هذا من ناحية بريطانيا في خططها لمقاومة النفوذ الفرنسي ومن ناحية أخرى بدأت الدول بما فيها بريطانيا في محاولاتها في تثبيت أقدامها في حوض الصراع وذلك بالحصول على معاهدات ووثائق من الزعماء المحليين يكسبون بموجبها ملكية لبعض هذه الأقاليم التي أخذت رقعتها في الاتساع شيئاً فشيئاً، ولم تسكن هذه المعاهدات والوثائق لقاء ثمن معقول، بل بالعكس كانت تارة عن طريق التخويف وطوراً نظير هدايا زهيدة القيمة من قماش وخمر، وقد فرضت هذه

المعاهدات فرضاً على الزعماء المحليين سواء رضى هؤلاء أو لم يقلوا وكانت مافي يد الأوروبيين من وثائق هو الحجة التي يلتزم بها الزعماء لقرض الحماية والدخول بلادهم ضمن مناطق النفوذ ، والامتيازات ، وقبول النصيحة . وكل هذه تهدف إلى تخطيم النظم السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة كما في غيرها من المناطق الأفريقية لتخضعها لخدمة الاستعمارية ، ومع الأسف فإن هذا المسلك لا يبعدو عن كونه سرقة منظمة استعمارات في الحصول عليها وسائل قانونية زائفة في أقط درجات التدليس والتزوير .

وقد اتخذت منهاكل من فرنسا وبريطانيا قواعد لنشاطهما نحو وادي النيل ، كما كان لاثيوبيا نفسها دور هام في الصراع بين الدولتين المتنافستين وقد حاولت أن توطد علاقاتها مع زعماء المهدي وبخاصة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي عندما اشتد الصراع ودخل في مرحلته الفاصلة . وبعنا أن نتعرف على الوضع في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت الحركة المهدي وعلى تطور العلاقات والأحداث التي تسببت في انسحاب مصر من شاطئ البحر الأحمر والمناطق التي كانت تسيطر عليها الإدارة المصرية .

تقسيم المناطق المصرية في موضح البحر الأحمر :

النشاط البريطاني :

امتدت إدارة مصر على ساحل البحر الأحمر حتى رأس غورد فواي وذلك في السنوات ١٨٧٢/١٨٧٤م واحتلت هرر في سنة ١٨٧٥ ، وأرسلت حملة الجوبا في سنة ١٨٧٥م ، ودخلت مصر في حرب مع اثيوبيا في عامي ١٨٧٥ و ١٨٧٦م انتهت بهزيمة ساحقة للقوات المصرية التي دخلت البلاد من أكثر من جهة تحت قيادة ضباط من الفرنج ، فقد كان الحديو وتويدة انجائرا يتعصب منافذ تجارة الرقيق لإرضاء للدول الأوروبية ، وقد دفعه إلى هذا المسلك رغبته في الحصول على معاونة تلك الدول في أزمتها المالية ، وبما يؤسف له أنه تقبل نصيحة مستشاريه من الفرنج وأسقط مصلحة بلاده من حسابه ، وفاته أن المطامع الاستعمارية كانت تخفي وراء تأييدها له في توسعه خطة ترمي إلى استنزاف آخر قطرة من دم مصر لتصبح عاجزة بثقل كاهلها الدين فيسبل على الدول وبخاصة انجلترا أن تستولى على المناطق التي تديرها مصر ، وقد اتخذت هذه الدولة من الحديو مشعلا أنار لها الطريق ومهده لدخولها واحترق بعد

أن استنفذ طاقته واحترق فكان خلع عن عرش مصر . وجاء الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢ وكانت من نتائجها أن أجبرت مصر على الانسحاب من شاطئ البحر الأحمر الأفريقي واستولت بريطانيا على النقاط الاستراتيجية وأعلنت حمايتها على ساحل السودان وميناء زيلع ، وبما يجدر ذكره أن بريطانيا قد مهدت لهذا باتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد فقدت صلاحيتها لأن الباب العالي لم يصدق عليها طبقاً للدادة الخامسة فإن بريطانيا اتخذت منها حجراً في بناء سياستها .

واشتد النشاط الفرنسي في منطقة أبوك التي أخذت في الاتساع حتى تكونت منها مستعمرة السودان الفرنسي ، وخشيت بريطانيا من أن يكون هدف فرنسا بسط سيطرتها في صورة ما على هرر ، وبخاصة بعد أن أنشأت فرنسا ميناء جيوتو التي افتتحت في عام ١٨٨٧م وتقع هذا الميناء في خليج تاجورة الذي تخرج منه القوافل إلى هرر ، وبعد مفاوضات توصلت الدولتان إلى أن التزمت كل منهما بعدم القيام بمحاولة ضم هرر أو بسط الحماية عليها ، كما أوضحت الدولتان في إعلانهما أنهما لا يفتانلان عن حتمهما في معارضة أية محاولة من جانب حكومة أخرى لامتلاك هرر أو المطالبة بأى حق عليها ، وكان ذلك في الخطابين اللذين تبادلهما السفير الفرنسي في لندن المسير وادنجتون واللورد سالبرى بوصفه وزير الخارجية البريطانية في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٨ على التوالي ، كما أن الوزير البريطاني قد أخطر السفير الفرنسي بكتابه بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٨ أنه قد أكد للسفير العثماني بأن الحكومة البريطانية لا تتدخل لافى الماضى ولا في المستقبل في حقوق السلطان المشروعة ، ويأمل الوزير البريطاني أن تكون الجمهورية الفرنسية في نفس الوضع (٩) . وقد فهمت فرنسا هذا البند على صورة تختلف عما كان يحول في ذهن رجال السياسة البريطانيين ، الذين اغفلوا نشر الوثيقتين حتى عام ١٨٩٤م حتى لا تمر قل مساعي إيطاليا في بسط نفوذها على اثيوبيا وكانت إيطاليا التي احتلت مصوع في ٢ فبراير سنة ١٨٨٥م بمساعدة من بريطانيا قد أخذت في التوسع في الداخل - وعقدت معاهدة أوتشالي في ٢ مايو سنة ١٨٨٩م ، وحاولت أن تفسر البند السابع عشر بما يفيد أن النجاحي قد وافق على أن تتولى إيطاليا المسائل الاثيوبية الخارجية وكان معنى ذلك أن اثيوبيا قد صارت محمية إيطالية،

(٩) هرسلت جزء ٢ ص ٧٢٦/٧٢٨ ، ملف س ١٦٧ وما بعدها .

ونظراً لأهمية هذه النقطة لما نتج عنها من تطور في الأوضاع نذكر فيما يلي الاختلاف في تفسير هذا البند ، كما جاء في النصين الأمري والاطال :

النص الأمري : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أثيوبيا الحرية في أن يستعين بالحكومة الايطالية في أية مفاوضات مع الحكومات الأخرى .

النص الايطالي : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أثيوبيا ملزماً بأن يستعين بالحكومة الايطالية . . .

أود أن جلالة ملك ملوك أثيوبيا يوافق على أن يستعين . . .

وقد أخطرت إيطاليا الدول الأوروبية بصورة من هذه المعاهدة في نصها الايطالي لإثبات حقوقها على أثيوبيا طبقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ م وحاولت فرنسا استغلال الموقف لتسوية مشاكلها مع إيطاليا في تونس بتنازل إيطاليا عن تلك المطالب نظير اعتراف فرنسا بمعاهدة ١٨٨٩ ، غير أن المفاوضات لم تنجح ، فبادرت فرنسا بعد نشر إيطاليا للكتاب الأخضر الذي احتوى على معاهدة ١٨٨٩ م وذلك في عام ١٨٩٠ م ، بتحذير النجاشي بمضمون البند ١٧ كما جاء في النص الايطالي فبادر النجاشي بإخطار الدول بعدم اعترافه بالتفسير الايطالي الخاطئ والذي لا يتفق مع النص الأمري — وهو الذي يرجع اليه في حالات الاختلاف ، وكان هذا الإخطار في فبراير سنة ١٨٩١ م . وأخذت العلاقات بين البلدين في التدهور الذي انتهى الى اعداد إيطاليا حملة لغزو الحبشة لاختصاصها بالقوة لقبول التفسير الايطالي . وقد منيت القوات الايطالية بهزيمة منكرة في موقعة عدوة في مارس سنة ١٨٩٦ م الأمر الذي أزعج بريطانيا ، لأن انهيار إيطاليا في هذا الجانب من حوض النيل معناه ترك الباب مفتوحاً أمام فرنسا ، وعقدت إيطاليا معاهدة مع أثيوبيا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ اعترفت فيها باستقلال أثيوبيا . وكانت إيطاليا بعهد هذه الهزيمة تفكر في إخلاء الأرتيريا واتهم هذه الفرصة الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة وأرسل وكلاءه إلى روما لمفاوضة الحكومة الايطالية للوصول إلى عقد اتفاق تبقى بموجب مصوص في يد الطليان وتنتقل الأرتيريا ومناطق النفوذ الايطالية الموضحة في معاهدة ١٨٩١ التي عقدت بين إيطاليا وانجلترا ، إلى شركة الكونغو للاستعمار والاستثمار على أن يكون دخل هذه المنطقة مناصفة بين الدولتين لإيطاليا والكونغو الحرة . وقد رفضت إيطاليا هذا المشروع .

وكانت إيطاليا قد عقدت مع النجاشي بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م
 منحت إيطاليا بموجبها قرصاً قدره أربعة ملايين ليرة للنجاشي بضمان إيراد جمارك
 هرر وقد سقط هذا الدين وفق البند الثاني من معاهدة ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م
 الذي أشار بإلغاء معاهدة ٢ مايو سنة ١٨٨٩ م التي كانت معاهدة أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م
 تكملة لها كما نص البند الثالث من معاهدة أكتوبر .

ويبدو أن إيطاليا بعد توقيعها معاهدة أوتشبالى في سنة ١٨٨٩ م كانت تتم
 بالحصول على تأييد بريطانيا التي كانت بدورها تخشى من امتداد الحماية الإيطالية على
 إثيوبيا إلى السودان وبخاصة منطقة كسلا التي كانت إيطاليا تطمح في امتلاكها ، وكانت
 بريطانيا تخشى أيضاً أن يطالب النجاشي بضم القسم المتاخم لحدوده من السودان إلى
 بلاده لذلك دخلت إنجلترا في مفاوضات مع إيطاليا لتحديد موقفها بالنسبة لحوض النيل
 وقد توصلت الدولتان إلى عقد بروتوكولين بتاريخ ٢٤ مارس و ١٥ أبريل على التوالي
 توضحت فيهما منطقة نفوذ إيطاليا وهي تبدأ من مصب نهر الجوبا وتمتد إلى الجزء
 الأعلى من حوض النيل الأزرق ويمتد الخط شمالاً شرقياً وينحرف من جنوب كسلا
 إلى رأس كسار على البحر الأحمر ولم تدخل في المنطقة النفوذ هذه كسلا والجزء من
 نهر العظيرة وسمحت بريطانيا لإيطاليا باحتلال كسلا إذا ما دعت الضرورة العسكرية
 إلى ذلك على أن لا تقوم إيطاليا بأى عمل على روافد المياه من شأنه أن يتدخل في مياه
 النيل لمصر وأوضحت بريطانيا حق مصر في استرداد هذه المنطقة (منطقة كسلا إذا
 ما احتلتها إيطاليا) عندما تحين الفرصة لمصر .

العلاقات بين إثيوبيا وإيطاليا والمهريز :

كانت لمصر في أوائل عام ١٨٨٥ م قوات عسكرية على الحدود الانبوية السودانية
 في محطى القلابات والجيزة وقد اتفقت الحكومة البريطانية مع النجاشي يوحنا على
 انسحاب هذه القوات وعودتها إلى مصر عن طريق إثيوبيا بسبب أن طريق النيل
 كان في قبضة الدراويش ، وقد أخلت هذه القوات مراكزها في الأيام الأخيرة من
 شهر فبراير سنة ١٨٨٥ م بعد أن تركت أسلحتها وذخائرها ومهماتهما كما نص الاتفاق
 الذي تم بين النجاشي والأميرال هيوت وماسون بك ، ولم تنص إلا بضعة أيام من
 انسحابها حتى دخلت القلابات الحملة التي أرسلها الامام المهدي لاحتلال القلابات تحت

أمرة عامه محمد ود الأرباب . وما تجدر الإشارة إليه أن الإيطاليين قد احتلوا مصوع في اليوم الثالث من فبراير سنة ١٨٨٥م وأخذوا يعد ذلك في التوسع في داخلية المنطقة ، ولم يكن مجيء الإيطاليين إلى مصوع ، التي كانت تديرها مصر ، إلا بتحريض من إنجلترا التي أرادت أن تتخذ من الطليان درعا لها لمقاومة المهدية من ناحية والنشاط الفرنسي في أنيوبيا من ناحية أخرى مستغلة في ذلك ما بين الفرنسيين والطليان من منافسة في تونس ، واستطاعت بريطانيا بملكها هذا أن تصيب عصفورين ، إيطاليا وفرنسا ، بحجر واحد ، فهي تعلم بمطامع الطليان في المنطقة الساحلية إلى كسلا وتعلم أن فرنسا تحاول بسط نفوذها على أنيوبيا ، فإيطاليا ستقاوم تقدم الفرنسيين كما ستكون شوكه في جنب المهدية ، وتعمل في الجانب الاتيوبي على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها ، ويدخل الدوئين في صراع في هذه المنطقة من أفريقيا يتهاى لبريطانيا بعض الوقت لتواجه مشاكلها الأخرى ، وتستكمل عدتها .

وقد ترك نزول الطليان في مصوع أثره السيء في نفس النجاشي يوحنا الذي أخذت مخاوفه وشكوكه في الازدياد ، فقد كان النجاشي يأمل في ضم مصوع إلى سلطانه ، وجد في تسليم إنجلترا لإيطاليا باحتلال مصوع مخالفة للاتفاق الذي عقده مع الاميرال هيوت ، كما وجد أن الطليان قد أخذوا في معاونة منافسه منليك حاكم شوا وتزويده بالأسلحة ، وبينما كان النجاشي قلقاً بسبب التعاون بين منليك والطليان ، كانت هنالك قلاقل في حدوده الغربية عند القلابات . فقد حدث أن طلبت أنيوبيا من عامل المهدية تسليم قاطع طريق يدعى الحاج علي الذي التجأ إلى القلابات ، فلم يجبه العامل ، فأعد جيشاً بقيادة الرأس عدار الذي هجم على القلابات فأحرقها وقتل عاملها محمد ود الأرباب ، وعين الخليفة عبد الله بنونس الحكيم عاملاً جديداً وزوده بجيش كبير ، كما أرسل إلى النجاشي كتاباً يدعو فيه إلى الاستجابة للدعوة المهدية . ولما لم يجبه شرع بنونس في إرسال الغزوات إلى داخل البلاد الاتيوبية (١٠) فأحدثت الأضرار والخسارة في المال والأرواح وفي أماكن العبادة مما دفع النجاشي إلى إعداد جيش لغزو القلابات ، وأخذ الرأس عدار في تجهيز القوات وأرسل الخليفة حمدان أبو عنجه في جيش كبير إلى القلابات استعداداً لمواجهة تطورات الموقف ، وحمل أبو عنجه

(١٠) أرشيف الكريمة الإداري بالسودان - المهدية - ملف ١٢ - من الخليفة عبد الله إلى منليك رداً على رسالة شفوية لتلاحق بحلة السودان في وسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ س ٦٥.

كتاباً ثانياً من الخليفة إلى النجاشي يدعو فيه إلى الطاعة ولما لم يجبه دخل أبو عنجه الاراضي الاثيوبية ، وأرسل النجاشي خطاباً إلى أبو عنجه يدعو فيه إلى الصلح وذلك في ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكان رد أبو عنجه قاسى الألفاظ ، أغضب النجاشي إلى الحد الذي دفعه إلى أخذ العدة لحرب الدراويش بالرغم من مشغولته بسبب نشاط الطليان في الشمال . ووصلت الجيوش الاثيوبية إلى القلايات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ م واشتبك الفريقان في موقعة انتصر فيها الاثيوبيون في أول الامر ، إلا أن الانتصار قد انقلب هزيمة كبرى عندما أحسب النجاشي يوحنا بجراح مميتة ، وانتهز الطليان موت يوحنا وساعدوا منليك لتولي العرش وعقدوا معه معاهدة أوتشالي التي سبق الحديث عنها ، وانتقل النشاط السياسي إلى داخل أثيوبيا وشهدت بريطانيا وإيطاليا اتفاقات ٢٤ مارس ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ و ٥ مايو سنة ١٨٩٤ الخاصة بمناطق النفوذ التي وضعت أثيوبيا بما فيها هرر في دائرة النفوذ الإيطالي .

• • •

وكان الخلاف بين أثيوبيا وإيطاليا بشأن تفسير المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشالي وما تبعها من استعداد الفريقين ، وحاول النجاشي منليك تحت ضغط الزحف الإيطالي الاتصال بالخليفة عبد الله الترابشي للوصول إلى اتفاق على عمل مشترك لمقاومة النفوذ الأوروبي ، وقد كان رد الخليفة مقتضياً وفي حذر (١١) . وقد بقيت المسألة معلقة إلى نهاية معركة عدوه وانتصار النجاشي ، الذي كتب للخليفة مبدئياً ورغبته في التفاهم ، وقد رد عليه الخليفة طالباً منه كمبريون للصدافة التي يريد بها أن يطرد جميع الأوروبيين من السياح والتجار الموجودين في أثيوبيا وبالرغم من أن النجاشي لم يقبل هذا العرض فإن العلاقات بينهما قد تحسنت وفي منتصف عام ١٨٩٧ أبدى الخليفة استعداداه للتعاون في حدود معينة ، وعمل للنجاشي على إحاطة الخليفة عبد الله علماً بتحركات القوات الاثيوبية في المنطقة المتاخمة للحدود بينهما ، لمنع ما قد يحصل من حوادث بسبب أو آخر ولا يعلم ما تم بهدد مطالب النجاشي الإقليمية في السودان التي أوضحها في كتابه إلى الدول الأوروبية في أبريل سنة ١٨٩١ م والذي جاء فيه بأن الحدود الفعلية لبلاد من ناحية الغرب والجنوب تبدأ من كركوج (على النيل الأزرق جنوبي سنار) وتنتهي عند نقطة التقاء نهر السوبات مع النيل الرئيسي ، ويسير خط

(١١) المصدر آتف الذكر جواب منليك إلى الخليفة بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٩٦ ورد الخليفة بتاريخ ١١ يونيو سنة ١٨٩٦ مجلة السودان في رسائل ومذكرات جلد ٣٥ عدد ١ ص ٩٥

الحدود محاذيا لمجرى السوياط حتى يصل إلى بحيرة سامبورا (رودلف) وجاء في هذا الاعلان ما يفيد بعزم النجاشي على إعادة حدود أتوييا إلى أوضاعها القديمة وهي في ذلك تمتد حتى الخرطوم ، وقد وعدت الحكومة الفرنسية بتعصيد النجاشي في مطالبته الإقليمية لإعادة حدوده إلى الوضع الذي زعمه . وأن إرسال النجاشي لهذا الاعلان يتمشى مع الصلاحيات التي قررها مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ بشأن إثبات الحق التملك الفعلي ، وقد أرسل النجاشي حملتين إلى النيل الأبيض للعمل مع مارشان كما سنوضحه فيما بعد ، كما أرسل حملة أخرى صوب النيل الأزرق .

المعارفات بين أتوييا وفرنسا :

أوضحنا من قبل الدور الذي لعبته فرنسا في تحذير النجاشي بما جاء في تفسير إيطاليا للبند السابع عشر من معاهدة أوتشيلي ، واستعدادها لتأييد النجاشي في مطالبته الإقليمية ، ويرجع نشاطها هذا إلى رغبتها في إنشاء علاقات صداقة تربط بينها والخليفة عبد الله الأمر الذي كانت تهدف إليه لنجاح حملة مارشان ، وقد حاول النجاشي في عام ١٨٩٥ م فتح باب المفاوضة مع فرنسا لإقامة علاقات سياسية وتجارية على دعائم أقوى مما كانت عليه في معاهدة سنة ١٨٤٣ م التي عقدت بين لويس فيليب وملك شوا ، إلا أن فرنسا قد أبدت تحفظاً بسبب حالة التوتر التي كانت قائمة بين منليك والظليان قبيل موقعة عدوة ، وبعد أن انجلى الموقف بانتصار أتوييا واستردادها لحقوقها أبدى الرئيس الفرنسي فيليكس فور استعدادة للدخول في المفاوضة لعقد المعاهدة المشار إليها ، وتكونت فعلاً بعثة دبلوماسية فرنسية للسفر إلى أديس أبابا وتعيين لاجارد رئيساً لها ، وقد وصلت هذه البعثة إلى أوبوك في ديسمبر سنة ١٨٩٦ م . وأرسل وزير المستعمرات الفرنسي أندريه لبيون بعثة أخرى تولى أمرها برنغالي - بونشان لإعداد حملة من أديس أبابا إلى النيل الأبيض ، لتقوم بمعاونة حملة مارشان واعدادها ، وقد طلب لبيون من لاجارد أن يتعاون مع هذه الحملة لضمان نجاح مارشان ، غير أن لاجارد كانت له شخصية من طراز خاص ، فقد تجاهل وجود هذه البعثة وحاول أن يعد بنفسه حملة أخرى لتسبق الحملة التي أرسلها وزير المستعمرات ، وكان لمسلح لاجارد أثره في فشل هذه الحملة في بلوغ الغرض الذي كونت من أجله ، وحاول لاجارد من ناحية أخرى تحريض النجاشي للقيام باحتلال فعلي لمناطق النيل الأبيض التي أوضحها في إعلانه للدول في ١٨٩١ م

وقد لاقى النجاشي الأمرين من السياسة الغربية وخداعها ، لذا أراد أن يتغادي ما قد يقوم في المستقبل من عقبات لو أرسلت حملة فرنسية خالصة فأعد حملة أتينية صحبها بوتشان الفرنسي ورجال بعثته عدا بولقالي الذي عاد إلى بلاده ومعهم المغامر الروسي ارتامنوف وقد وصلت الحملة إلى السواط في ديسمبر سنة ١٨٩٧ م عند نقطة تبعد حوالي مائة ميل جنوبى فاشودة ، ولم تستطع الانتظار بسبب قلة الاغذية والمتاعب الاخرى وعادت أدراجها الى أديس أبابا . وأرسلت حملة ثانية وصلت إلى النيل الأبيض في ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨ م وعادت أدراجها قبل وصول حملة مارشان إلى فاشوده بأسابيع قليلة .

ويبدو ان النجاشي كان يشعر بالتزامه بمعاونة فرنسا في تحقيق أهدافها السياسية في حوض النيل الأعلى ، ففي ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ وقع النجاشي اتفاقية سرية مع لاجار د مئيل تمثل فرنسا بخصه وحص السيطرة على حوض النيل الأبيض التي صدق رئيس الجمهورية الفرنسية على هذه الاتفاقية في ٢٤ مايو سنة ١٨٩٧ وما يجدر ذكره أن هذه الاتفاقية قد تم توقيعها في نفس اليوم الذي تم التوقيع فيه على الاتفاقية الفرنسية الاثيوبية بشأن مسألة الحدود بين المنطقة الساحلية الفرنسية وبين أثيوبيا ويخيل لي ان هذه الاتفاقية لم تكن الا ستاراً لإخفاء الاتفاقية السرية .

وقد جاء في البند الأول من الاتفاقية السرية تعهد فرنسا بتأييد النجاشي بقدر المستطاع أينما كان من المحافظة على سيطرته على الضفة النيل ، وجاء في هذا البند أيضاً أنه بينما يتمكن النجاشي من تثبيت سيطرته على الضفة اليمنى للنيل الأبيض في المنطقة جنوبى خط عرض شمال ١٤ فإنه يعاون بقدر الطاقة معتمدى الحكومة الفرنسية - الموجودين في المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى للنيل الأبيض بين خطى عرض شمال ١٤ و ٣٠ ر ه وجاء في البند الثانى الاتفاق على رفع العلم الفرنسى على الشاطئ الايسر كما يرفع النجاشي عليه على الشاطئ الايمن ، وجاء في البند الثالث . ما يمنع الفرنسيين من احتلال أى منطقة من شرق النيل الأبيض ، وأنه لا يحق لهم أن يدخلوا تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة فقط (١٢) .

وقد ذكر السيد محمد عثمان الحاج خالد في أقواله أمام ضابط المخابرات للقوات المصرية الانجليزية ر ذلك بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م . ان مندوبين قد وصلا

(١٢) نص الاتفاقية السرية في كتاب الوثائق الدبلوماسية الفرنسية جزء ١٣ ص ٢٧٨ / ٩ كما ذكره ساندوس في مقاله عن الأمير سايبان ابن أمير عبد الله .

إلى الخليفة يحملان خطابات من النجاشي. وكان أحد الرسولين يدعى السيد محمد الطيب وهو من مسالي الجبيرة ويعمل في خدمة النجاشي . وثانيهما رسول الخليفة الخاص ويدعى السيد محمد البشمري ، وأوضح السيد محمد عثمان أن السيد محمد الطيب قد أحضر إلى الخليفة علماً صغيراً مكوناً من ثلاثة ألوان وذكر أن هذا العلم قد تسلّم إليه في أديس أبابا بحضور القنصل الفرنسي لاجارد وطلب منه منليك أن يبلغ الخليفة أنه في حالة تقدم الانجليز لمحاربه فعلية أن يرفع هذا العلم لوقف تقدمهم كما طلب إليه أن يرفع العلم إذا جاءت قوة فرنسية إلى بلاده فأنها سوف لا تسب له ضرراً، وقد رفض الخليفة بشدة أن يتقبل حماية دولة أوروبية (١٤) . ومن هذا يتضح أن المعاهدة التي قيل أنها قد عقدت بين النجاشي والخليفة لا تقوم على أساس (١٤)

وعما لا شك فيه أن النفوذ الفرنسي كان قوياً في أديس أبابا في السنوات القليلة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي . وقد استطاعت أن تعرقل مساعي بعثة رنل رود . ونجت باشا التي ذهبت إلى أديس أبابا في مايو سنة ١٨٩٧ في محاولة لاقتناع النجاشي لتخطيط الحدود الأثيوبية السودانية ولتطلب من النجاشي سحب مطالبه بالمنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وقد رفض منليك لاستجابة المقترحات البعثة ، وقد فُتحت البعثة بالحصول على وعيد من النجاشي بمنع إرسال الأسلحة إلى الدراويش (١٥) وكانت فرنسا متهمة بامدادهم بالأسلحة . وقد طلبت البعثة تأجيل بحث هذه المسائل إلى ما بعد فتح أم درمان وهي تضم في نفسها أنه يمكن استخدام قطع نبليّة قوية على النيل الأبيض وسوف يكون لها أثرها في تثبيت حقوق مصر وبريطانيا (١٦) .

(١٣) نقلاً عن مقال ساندرس عن الأمير سليمان ابن النجاشي عبد الله - مجلة السودان في رسائل وودونات مجلد ٣٥ جزء أول ص ٥٩ / ٦٠

(١٤) أشار إلى المعاهدة عبد الله حبيب في ص ٢٥١

(١٥) مذكرة ونجت وكلاهما المرفقة مع كتاب رود إلى سالجى - أوراق دار المحفوظات العامة البريطانية - وزارة الخارجية / ١ / ٣٢ نقلاً عن مقال ساندرس مجلة السودان رسائل وودونات مجلة ٣٥ جزء أول ص ٦٤ .

(١٦) نفس المصدر آنف الذكر وبلاحة هنا أن بريطانيا قد أوضحت أن لها حقوقاً .

النشاط الروسي في أتيويا :

اشتد نشاط الروس في أتيويا في صورة واضحة منذ يناير سنة ١٨٩٥ م وذلك لشد أزور فرنسا في الصراع بينها وبين إنجلترا ، وقد اتخذ النشاط الروسي مظاهر غابيتها الاهتمام بالمسائل الجغرافية والدينية ، وجاء إلى أديس أبابا مغامر روسي يدعى ليونتييف في أوائل عام ١٨٩٥ م ومعه هدايا غالية للنجاشي ، ورد النجاشي على ذلك بإرسال بعثة إلى القيصر الروسي لتقديم التحية . وعاد ليونتييف إلى أديس أبابا في نهاية العام ويعتقد أنه قد قاد المدفعية الأتيوية في موقعة حدوده . وأصدر النجاشي أمره بتعيين ليونتييف هذا حاكما لمديريات خط الاستواء الأتيوية ومعه البرنس هنري دي أورليانس الفرنسي كمساعد له .

وحاول الضابط الروسي أشاكوف أن يربط بين الكنيسة الأتيوية وبين الكنيسة المسكوفية . وكان هنالك روسي آخر يدعى بولا توفيك ومعه عدد من القوزاق وبعض الفرنسيين وقد رافقوا حملة الراس ولد جيورجيوس .

وقد أخذ النشاط الروسي في الخمود بعد انتهاء الصراع الفرنسي البريطاني وما كان له أن يستمر وليست لروسيا مطامع في هذه المنطقة أكثر من معاونته صديقها فرنسا ضد إنجلترا .

النشاط البلجيكي في أتيويا :

أوضحنا فيما سبق محاولة الملك ليوبولد الثاني الاستيلاء على الأراضي عدا مصوع التي تترك للبلجيان ، وعلى منطقة نفوذ إيطاليا التي تشمل أتيويا وإدارة هذه المنطقة بشركة الكونغو للاستعمار والاستثمار وقد فشلت المفاوضات بعد أن تمت صياغة الاتفاقية وكان ذلك في نهاية عام ١٨٩٦ م . وجاء في عام ١٨٩٧ م البرنس هنري دي أورليانس لإنشاء شركة رأس مالها ١٨٠٠٠٠٠ فرنك لأغراض التعمير وقد كان ليوبولد الثاني مهتما بالاهتمام كله بهذه الشركة التي كانت مؤسسة بلجيكية وبالرغم من أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح فإنه يعطينا صورة من النشاط البلجيكي الذي يهدف إلى ربط الكونغو مع أتيويا وبالتالي مع البحر الأحمر .

شرق أفريقيا ، كينيا ، أوغندا :

يختلف هذا الجزء الثالث من المنطقة الشرقية في أكثر من ناحية ، فبينما نجد أن سكان القسمين الأول والثاني - أثيوبيا والقرن الأفريقي - يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمنطقة الأولى ، التي تشمل حوض النيل في شطريه مصر والسودان ، في الحضارة والمدنية على درجاتها المختلفة نسبياً ، فإن هذا القسم الثالث تسكنه أقلية لها ماض حضارى ، وأن غالبية سكانه من مجموعات من الأفريقيين الذين تفاوتت درجات أفريقيتهم ، وهم في صورة عامة يعتمدون اعتماداً أساسياً على الزراعة والرعى ، لذلك قد وجد فيهم الأوروبي بجالا لم يصطدم فيه بتقاليد ووراثات قديمة تناهيه العداء بين الفينة والفينة ، كما أن الأوروبي قد استطاع استقلال ضعف هؤلاء في السيطرة عليهم وتسخيرهم لخدمته في الزراعة وموارد الثروة المعدنية ، مخالفاً في ذلك تلك الأسطورة الكبرى التي ادعى الأوروبي أنه قد جاء لتحقيقها وفي مقدمة ذلك خرافة الرقيق ، والعمل على رفاهية السكان المحليين ، وترويضهم على قبول رسالة المدنية الأوروبية ، وهذه هي الأسس التي انفتحت الدول على مراعاتها في قرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ وبروكسل عام ١٨٩٠ م . فالرقيق قد اتخذ وسيلة لامتلاك أراضي الوطنيين ، وأن استيلاء الأوروبي على أرض الوطني التي هي عماد حياته ، معناه أن يكون الوطني مستعبداً اقتصادياً يسعى لخدمة الاجنبي لقاء قنات العيش الذي يتركه له ، وأصدر المستعمر الأوروبي القوانين والتشريعات الخاصة باستخدام الاهالى كل في منطقته وتحرم عليه الانتقال من سيد إلى سيد ، وينقل الوطني من مكان إلى مكان للخدمة في المناجم والمصانع ويفرض عليه أن يعيش في الحدود التي ترسم له ، فأجوره غاية من الغبن ، معيشته ومكانه من أحط الدركات ، وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم الاجتماعية المحلية وهدم الاسرة ، ولم تختلف دولة عن أخرى من الأسس التي قامت عليها نظميات العمل والتي لم يقصد منها أصلاً إلا منع المنافسة بين المزارعين الأوروبيين لتخفيض التكاليف في الانتاج . ولو ترك أمر العمل لحرية الوطني لكان التنافس والهجرات من منطقة إلى أخرى بل من ولاية إلى أخرى وفي هذا ما فيه من سبل يجتمع فيها الوطنيون في حرية يتشاورون ومن هنا تبدأ مرحلة التطلع إلى المزيد وهذا ما يشاء الأوروبي ، ويعمل على منعه ولو إلى حين . وقد تجاوزت بعض الدول - إن لم تكن كلها في صورة أو أخرى - القيم الانسانية في معاملتها للاهليين وتسخيرهم للعمل الآلى تحت ظروف قاسية - من تغذية سيئة وحرمان من

العلاج فتفتت بينهم الأمراض المختلفة ، وزادت على ذلك بالقتل والتعذيب لأقل الأسباب ، كما حدث على نطاق واسع في الكونغو الحرة ، الأمر الذي أثار فضائحه الرأي العام الأوروبي ، وتصور لنا القسوة التي مارسها الأوروبي بين الشعوب التي جاء لتدبيرها ورفاهيتها الأكاذيب الكبرى التي قامت عليها رسالته التي اتخذها معبراً لتحقيق سيادته التي تهدف نحو الحصول على مغنم مادية اختص بها لنفسه فقط وجعل من الوطني منبوذاً لا يرتقى إلى مستوى الأوروبي . وبالرغم من ضآلة الجهود التي بذلها الميثرون لتعليم الوطني إذا قورنت بما يصرف على الأوروبيين المستوطنين في البلاد الأفريقية ، والتي رسمت مناهج لخدمة الحكومات ، فإن ذلك قد دفع بالوطني إلى اليقظة بعد أن أخذت الصدمة النفسية التي تركها في نفسه دخول الرجل الأبيض الذي اعتقد فيه في يادى الأمر أنه الرجل المختار الذي جاء لرعايته .

• • •

وقد بدأ الصراع في مرحلته الأولى بين الأوروبيين والمجموعات من العرب إلى استوطنت ساحل أفريقيا الشرقى - بحر الزنج - وكانت فيها سلطنة زنجبار (برالنج) واشتد بعد ذلك التخاصم بين إنجلترا وألمانيا وعمل وكلاء البلدين على الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين في البلاد بطريقة أو أخرى ، وتأسست الشركات التجارية البريطانية والألمانية ، وجاءت البعثات التبشيرية ، وكل يعمل في ميدانه الخاص لتحقيق هدف موحّد هو بسط السيطرة ، فرجال الشركات قد حصلوا على امتيازات لإنشاء المزارع واستغلال المناجم وفرض تنظيماً لخدمة مصالحهم ، وأخذوا ينفذون رويداً رويداً حتى أتموا تقويض الزعامات المحلية وتحطيم المجتمع كما تم لهم اغتصاب السيادة ، والسيادة في نظر الأوروبي معناها تعطيل جميع الأجهزة القائمة وتسخيرها على الوجه الذي تراه - دون اعتبار للفهم الإنسانية والأخلاقية - وبالرغم من أن حكومتى بريطانيا وألمانيا لم تظهر اهتماماً بنشاط وكلاء كل منها في بادى الأمر فإن عدم الاهتمام هذا قد انقلب بعد وقت قصير إلى حماس شديد أقرب صورة إلى الصرع ، ولم يكن ذلك التعفف إلا مرحلة رياضة الفكر والرأى العام ، وامتدت سيطرة الدولة الدولة وحمايتها أوسياستها في سرعة فائقة على الممتلكات التي حصل عليها أولئك الأفراد الذين لم يكن نشاطهم موضع اهتمام دولتهم .

واشتد السياق في التوسع بين الدولتين ، فألمانيا كانت تحاول أن يمتد سلطانها على منابع النيل والأقاليم المجاورة ، وأن تقيم حزاماً يبدأ من الشاطئ الأفريقي على

المحيط الهندي وينتهي في الجانب الغربي المطل على المحيط الاطلسي ، وكانت هذه الاطماع صورة لما كانت تفكر فيه فرنسا . ويبدو أن ألمانيا لم تكن في مركز يسمع بالمبادأة بالعداء لانكلترا لأنها كانت تعتقد أن بريطانيا سوف تعاونها في تثبيت أقدامها في القارة الأفريقية نظير المساعدة التي قدمتها ألمانيا لانكلترا في المشاكل الدولية وفي مقدمتها مسألة احتلال مصر .

وقد توغل المخامر الألماني كارل ييتزر إلى حوض النيل الأعلى طمعاً في وضع يده على خط الاستواء الذي كانت يحكمه باسم مصر أمين باشا (ادوارد شينزر الألماني) . وكانت إنجلترا قد دبرت حملة إنقاذ أمين باشا لاجراجه من مديريته ، وجعلها أرضاً مباحاً ، بينما كانت موارد المحلية تكفيه للاحتفاظ بولايته التي شملت رقعة واسعة من الارض ضمنها المادى ، واللاتوكا والاشول والمورى والمكراكة الجزء الشمالى من الانيبورو ، وتنتهى حدودها الجنوبية في نقطة شمالى بحيرة فكتوريا ، ويتألفها من الشمال مديرية بحر الغزال .

وقد أسهم في حملة الانقاذ ولجنتها أباطرة الاستعمار ، الفرسان الثلاثة ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة ، ووليم ماكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا ، وهنرى استانلى الرحالة المعروف ، الذى عمل في الكونغو لحساب ليوبولد الثانى ، وكان يعتقد ان الكونغو الحرة سوف تنزعها بريطانيا في يوم ما تضمها إلى أملاكها الافريقية . وقد جمع استانلى لهذه الرحلة ١١٥٠٠ جنياً وحصل من مصر على ١٠٠٠٠ جنيه فصارته جملة المبلغ ٢١٥٠٠ جنياً وتزودت الحملة بخطابات من مصر إلى عاملها أمين باشا ، وكانت لجنة الانقاذ ورجالها الثلاثة ينظرون إلى معتم كبير يعرض لهم المبالغ التي صرفوها ، فقد كان لدى أمين باشا حوالى خمسة والسبعين طناً من سن الفيل في محطة وادلاى ، قدر ثمنها بحوالى الستين ألفاً من الجنيهات .

وأخذ المستعمرون بعد خروج أمين باشا قوة واقتداراً ثم مقتله على يد جماعة من الكنتين ، على تقسيم أراضي المديرية فيما بينهم . ولم يكن من اليسير على المستعمر أن يستبقى الاوضاع التي عملت الادارة المصرية على انشاؤها لتقدم البلاد ورفع المستوى المعيشى فقد حملت شعلة العلم والمدنية دون شرط أو قيد للجنس أو لون كما فعل الأوروبي ، كما انها أدخلت زراعة البيضاء والقطن والأرز والخضراوات واستوردت

أشجار الفاكهة من الهند وغيرها لزراعتها لمصلحة الأهالي لأنه لم تكن حينذاك وسائل النقل سريعة لتصديرها إلى الخارج وشجعت الإدارة المصرية على غزل الدمور من القطن المحلي . وقد عمل الأوروبي على مطاردة العرب والتسكيل بهم واضهاد الزعماء المحليين الذين فتحوا بلادهم للتجار من العرب ، وأنزلوهم عن سلطاتهم ورفعوا من سار في ركابهم ، وحتى تيبوت (حامد بن محمد من كبار تجار زنجبار) الذي استعان بفروذه الفرنجة في الكونغو والأوغنده لم ينج من محاولة القديره ، كما اضطلع — سليم بك مطر الضابط المصري وأجبر على السفر وهو في حالة المرض الشديد (١٧) وغيرهما كثير ، ولم تكن ألهم التي وجهت إليهم ومنها الخيانة ، ولم تكن هنالك خيانة في معناها الصحيح بل أنهم كانوا يمثلون الرسالة الإسلامية التي تقض مضاجع الاستعمار (١٨)، واستخدم المستعمر الجنود من السودانيين الذين كانوا في خدمة الجيش المصري وبقوا في خط الاستواء ، لإخضاع التبت وأساء المستعمر إليهم بعد أن وصل إلى أغراضه فكان ترمدهم .

* * *

وقامت على الساحل الأفريقي ، أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الشرقية الألمانية وذلك في مناطق النفوذ التي تفاسمتها الدولتان بمقتضى اتفاقيتي أكتوبر/نوفمبر سنة ١٨٨٦ وأول يولييه سنة ١٨٩٠ م . وحاول ولهم مكيئون مدير الشركة البريطانية الإمبراطورية لشرق أفريقيا عقد معاهدة مع الملك ليوبولد الثاني بوصفه صاحب السيادة على الكونغو الحرة وقد تم الوصول إلى صيغتها النهائية في ٢٤ ماي سنة ١٨٩٠ م إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق عليها وبقيت معلقة حتى عام ١٨٩٤ م الذي اتفقت فيه الحكومتان الإنجليزية والكونغو الحرة على عقد معاهدة استبدت خطوطها العريضة من معاهدة ما كينون ليوبولد كما سمينه في القسم التالي من البحث الخاص بالمنطقة الغربية .

وكانت بريطانيا منبهة بإقامه حاجز حول حوض النيل الأعلى في حدوده الجنوبية ليكون سداً أمام مناقبها وبخاصة فرنسا التي كانت انجلترا تخشى وصولها إلى حوض

(١٧) مات في الطريق في منتصف ليلة ١٦ أغسطس ١٨٩٣ م . وقد اثنى عليه لوجارد أثناء عاصراً وأتم مكدونالد يعدم فهمه للرجال — لوجارد جزء ٢ ص ٤٨٨ / ٤٧٩ .

(١٨) جون . المرحون ملتر في مقاله عن تيبوت بمجلة أوغنده مجلد ١٩ — جزء أول مارس ١٩٥٥ .

النيل وثبتت أقدامها فتنتقل بذلك المشكلة المصرية في حوض النيل إلى المجال الدولى ولفرنسا فيه الكثير من المناصرين . وفى الوقت الذى كانت فيه انجلترا تعالج المشاكل عن الطريق الدبلوماسى كانت تعد عدتها لتقوية أسطولها البحرى للساعة الفاصلة بينها وبين فرنسا ومناصرها من روسيا وألمانيا وقد كفت الدولة الأخيرة عن مساعدة انجلترا بعد أن خاب أملها فيها .

وكان نصيب هذا القسم الثالث من المنطقة الشرقية قاصراً على حماية ذلك المدخل الجنوبي الشرقى إلى حوض النيل الأعلى وخرجت حملات مكندونالد واستن النخ .

المنطقة الغربية :

جاء الفرنسيون ووكلاء ليوبولد إلى منطقتى خط الاستواء وبحر الغزال وازداد نشاط وكلاهما في التسعة العاشرة من القرن الماضى . وبدأ المزحف لبسط السيطرة عن الطريق الذى سلكته الدول في الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين وكان ذلك المسلك هو الطابع الذى تميزت به العشرين عاما الأخيرة من القرن الماضى التى اشد فيها التطاحن وبخاصة في المشرية سنوات الأخيرة . فقد كانت الكونغو الحرة دولة اعترفت بها الدول وهى وإن كانت قد مدت فراغا في الحزام الذى كانت تعمل بريطانيا على إقامته حول حوض النيل الأعلى كما أشرنا من قبل ، فإن الجانب الشمالى الغربى من هذا القطاع قد بقى في حاجة إلى تدعيمه وربطه مع بقية الحلقة التى بدأت بإيطاليا على ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا ، وانجلترا في شرق أفريقيا والكونغو الحرة في الجنوب ومنطقة نفوذ ألمانيا شرق بحيرة تشاد . وكانت لفرنسا منطقة نفوذها بموجب إعلان فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠م الذى تحددت فيه هذه المنطقة في الصحراء الكبرى وحدود منطقة النفوذ البريطانى بين النيجر وبحيرة تشاد ، واعترفت بريطانيا في إعلانها بحماية فرنسا على مدغشقر .

وكانت منطقة النفوذ الألمانية التى أشرنا إليها قد تم الوصول إليها بين الدولتين في الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٣م . وما جاء في البند الرابع من هذه الاتفاقية « أن النفوذ الألماني لا يمتد بعد حوض نهر شارى وأن دارفور وكردفان وبحر الغزال سوف لا تدخل في نطاق النفوذ الألماني حتى ولو كان أحد روافد نهر شارى يخرج من هذه المناطق . غير أن طمأنينة انجلترا بعد أن أتمت حزامها حول حوض النيل الأعلى قد انقلبت إلى قلق وذعر عندما تنازلت ألمانيا عن منطقة نفوذها هذه إلى فرنسا وذلك

بالاتفاق الفرنسي الالمانى بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٩٤م ، الذى حصلت منه فرنسا على منفذ إلى حوض النيل الأعلى فسارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع الكونغو الحرة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ لمنع توغل الفرنسيين ودخولهم إلى حوض بحر الغزال ، وبموجب هذا الاتفاق أعطت إلى ليوبولد الثانى لمدى حياته منطقة اللادو (غرب النيل وبحر الجبل شرق خط طول ٣٠) وتبدأ جنوباً من بحيرة البرت إلى فاشوده شمالاً كما أعطت ليوبولد الثانى ولخلفائه من بعده المنطقة الواقعة ما بين خطى طول ٢٥ و ٣٠ وتحد شمالاً بخط عرض شمالاً ١٠ ، ومنحت الكونغو انجلترا مراً عرضته خمسة وعشرين كيلو متراً بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة البرت أدارد وقد لقي هذا الاتفاق معارضة شديدة من ألمانيا في احتجاجها وتهديدات فرنسا بما اضطر معه ليوبولد على تغيير موقفه ، وقد عقد اتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أوضح فيها الحدود بين ولايته في الكونغو الحرة وبين مستعمرة الكونغو الفرنسية ، وقد التزم ليوبولد الثانى في المادة الرابعة من هذه الاتفاقية بتنازله عن احتلال أى جزء أو محاولة أى نشاط سياسى في المستقبل في منطقة حوض بحر الغزال داخل الحدود التى أوضحتها الاتفاقية (١٩) .

وكانت فرنسا في نفس الوقت قد استعدت لارسال حملتها لاحتلال محطة فاشوده التى وقع عليها الاختيار بالنسبة لموقعها الاستراتيجى الخطير على بحرى النيل الرئيسى بعد خروجه من حوض بحر الغزال والتقاءه بالسوبات وجادت الحملة الفرنسية إلى هذه المحطة في يولييه سنة ١٨٩٨ ، ووصلت بعدها حملة صغيرة استقرت في شامبي ولم يكن قائدها يعلم شيئاً عن تحركات مارشان قائد حملة فاشوده . وقد سبق وأوضحنا الفشل الذى أصاب الحملة التى أرسلت عن طريق أثيوبيا ، وبقى مارشان في فاشوده إلى أن جاءه ككتشمر قائد حملة السودان وطلب منه الخروج من المحطة بوصفها بلدة سودانية تابعة للسودان الذى استعادته مصر . وبعد مشاورات سياسية بين انجلترا وفرنسا أخطرت فرنسا إلى إخلاء فاشوده والانسحاب من تلك المنطقة ويرجع هذا التقهقر من جانب إلى ضعف أسطولها البحرى بالنسبة للأسطول البريطانى الذى استكمل عدته وصار على استعداد لمواجهة التطورات . وخرج مارشان من فاشوده في عام ١٨٩٩ وعاد إلى بلاده عن طريق أثيوبيا وبقيت حملة شامبي التى قادها الضابط تشكودك وقوامها حوالى الثلاثين من الجنود السنغاليين ، وقد وصلت إلى شامبي في ٢٠ مارس

(١٩) مرسلت من ٥٦٩ / ٥٧٠ نص الاتفاقية .

سنة ١٨٩٩ (٢٠) بقيت في محطتها حتى تسلمت أوامر الحكومة الفرنسية بالانسحاب .

وهكذا انتهت مرحلة الصراع البريطاني الفرنسي الذي استمر أكثر من مائة عام في هذا الجزء من القارة الأوروبية ، وقد اتخذ خلالها مظاهر مختلفة وانتقل من مكان إلى مكان ، وتصور لنا هذه الأحداث الديبلوماسية والأساليب والوسائل التي اتبعتها بريطانيا في معالجة مشاكلها في صبر وجلده غير عابئة باللطمات وما أصابها من فشل في أكثر من موقف . انسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا العراك الطويل الذي كانت تهدف من ورائه مضايقة إنجلترا وإخراج مسألة احتلالها لمصر إلى الحقل للدول ، الأمر الذي يرجع إنجلترا الإزعاج كله ، وقد بقيت بعد إخلاء الفرنسيين لفاشودة مشاكل كثيرة بين فرنسا وبريطانيا وبين أكتيوبيا وبريطانيا لما كانت تدعيه الأخيرة لنفسها من حقوق في حوض وادي النيل . أما عن فرنسا فقد عقدت معها الاتفاق الودي في عام ١٩٠٤م الذي التزمت الدولتان في مادته الأولى : ان بريطانيا تعلن أنها ليست لها فيه في تعديل مركز مصر السياسي ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لا تولى اتخاذ أى إجراء من شأنه عرقلة أعمال بريطانيا في مصر . وذلك بطلب تحديد مدة احتلال إنجلترا لمصر . وشملت المواد الأخرى تبادل المنافع الخ (٢١) . وبدأت الدولتان صفحة جديدة في التعاون في الميدان الدولي . أما أكتيوبيا ومطالبها في حوض النيل الأبيض وغيره من مناطق السودان فقد تحددت في معاهدات عقدت في هذا الشأن . وخسر السودان جزءاً كبيراً من أراضيه الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية ، التي انزعمتها بريطانيا وضمنتها إلى الاقطار المجاورة وفي مقدمتها الكونغو البلجيكية وأوغنده ، كما فقدت أسطورة الرقيق قيمتها كأداة للضغط السامي . وبقيت مشكلتان وهما التبشير والاستعمار

هذه كلمة موجزة عن الصراع في حوض وادي النيل بين الدولتين وما تخلف عنه من مشاكل كثيرة وبخاصة بعد أن انفردت بريطانيا بفرص سياستها وسيطرتها ، تحققت معها بداية مرحلة جديدة أساسها اتفاقية سنة ١٨٩٩م ، وهذه تتطلب دراسة أكثر عمقاً وتفصيلاً لتحقيق العناصر الخفية . ونرجوا مخلصين أن تستوى هذه الدراسة من يتوفر عليها .

(٢٠) مقال البريجادير جنرال قيج - قطع الحدود ، مجلة السودان في رسائل ومذكرات مجلة عدد من ٨ وما بعدها .

(٢١) مرسلت من ٨٢٠ / ٨٢٢ .

جدول مختصر عن النشاط الدولي

نزلت القوات الفرنسية أرض مصر.	١٧٩٨
توقيع اتفاقية العريش بشأن جلاء الفرنسيين عن مصر.	١٨٠٠ ٢٤ يناير
جلاء للقوات الفرنسية عن مصر.	١٨٠١ سبتمبر
معاهدة اميان بين انجلترا فرنسا واسبانيا وهولنده الخ.	١٨٠٢ ٢٧ مارس
جلاء القوات البريطانية عن مصر.	١٨٠٣ مارس
محمد علي واليا على مصر.	١٨٠٥
نزول حملة فريزر أرض مصر.	١٨٠٧ ١٧ مارس
خروج حملة فريزر من مصر بعد هزيمتها.	١٤ سبتمبر
حرب الروهابيين - مصر في جزيرة العرب.	١٨١١ / ١٨١٩
بورخارد في رحلته إلى النوبة	١٨١٢ / ١٨١٤
مؤتمر فيينا الذي اقترح على الدول منع الرقيق.	١٨١٥
امتداد الانارة المصرية إلى السودان.	١٨٢٠ / ١٨٢١
وصل لينان دي بلفون إلى أعالي النيل.	١٨٢٧
وصل الكاشف ابراهيم إلى ما وراء الخط العاشر عرض شمالا	١٨٢٨ / ١٨٣١
اتفاقية بين فرنسا والجزائر - احتلال الجزائر.	١٨٣٠ ٥ يولي
معاهدة بين فرنسا وتونس.	٨ أغسطس
زار روبل أنيوبيا.	١٨٣١ / ١٨٣٣
أعلنت بريطانيا تحرير الرقيق.	١٨٣٣ / ١٨٣٤
حرب بين الأمير عبد القادر الجزائري والفرنسيين.	١٨٣٣ / ١٨٣٧
اعتراف الأمير عبد القادر بالسيادة الفرنسية.	١٨٣٧ ٣٠ مايو
دفعت بريطانيا تعويضاً للزارعين الانجليز عن الرقيق.	١٨٣٨
حملة سليم قبودان لكشف أعالي النيل.	١٨٣٩
اتفاقية بين بريطانيا والدول بشأن مصر.	١٨٤٠ ١٥ يولي
وثيقة بيع جزيرة موسى في خليج تاجوره لبريطانيا.	١٩ أغسطس
وثيقة بيع جزيرة باب في خليج تاجوره لبريطانيا.	٢٧ أغسطس
معاهدة تنازل بموجبها السيد محمد حاكم زيلع عن جزيرة	٣ سبتمبر
اوباد القريبة من زيلع لبريطانيا.	

فرمانات تركية عن حدود مصر ، (لمحمد علي باشا) .	١٨٤١ / ١٣ فبراير
معاهدة بين بريطانيا وحاكم شوا (أتوييا) .	١٦ نوفمبر
أخطرت فرنسا الدول باحتلالها للجزائر .	١٨٤٢ / ٢٨ يناير
معاهدة تجارية وصداقة بين ملك شوا وفرنسا .	١٨٤٣
معاهدة بين بريطانيا وأتوييا .	١٨٤٩ / ٣ نوفمبر
لفنجستون في حوض الزمبيزي :	١٨٤٩
بارت وزميله في رحلة من طرابلس إلى النيجر .	١٨٤٩ / ١٨٥٣
اخترق لفنجستون أفريقيا من الزمبيزي إلى لوانده .	١٨٥٣ / ١٨٥٦
صراع بين إنجلترا والولايات الأمريكية بسبب التجارة في شرق أفريقيا وخليج المعجم .	١٨٥٥ / ١٨٥٩
ريتشارد بيرتون وسبيك يكتشفان بحيرة تنجانيقا وفكتوريا نيانزا .	١٨٥٨ / ١٨٥٩
رحلة لفنجستون الثالثة في أفريقيا .	١٨٥٨ / ١٨٦١
معاهدة تجارية بين سردينيا وأتوييا .	١٨٥٩ / ١٠ فبراير
سبيك وجرانت - سافرا عبر أوغندة إلى غندوكرو ، قابلا السير صويل بيكر في سنة ١٨٦٣ -	١٨٦٠ / ١٨٦٣
بيكر يكشف بحيرة البرت .	١٨٦٣ / ١٨٦٤
تحكيم بريطانيا بشأن استقلال كل من مسقط وزنبار .	١٨٦١ / ٢ أبريل
اعلان كل من فرنسا وإنجلترا عن استقلال زنبار .	١٨٦٢ / ١٠ مارس
تنازل زعماء الدناكل عن أبوك بفرنسا	١٨٦٢ / ١١ مارس
فرمان تركي عن مصوع وسواكن .	١٨٦٥ / مايو
لفنجستون في تنجانيقا .	١٨٦٦ / ١٨٧١
شغيفورت . سافر من الخرطوم إلى نيام - وكشفه	١٨٦٦ / ١٨٧١
لنهر أويل .	

١٨٦٩ / ١٨٧٣	صمويل بيكر في خدمة مصر . حاكماً على المناطق الجنوبية من السودان .
١٨٦٩ ١٧ نوفمبر	انتاج قناة السويس .
١٨٦٩ ١٥ نوفمبر	اتفاقية عن بيع عصب لإيطاليا .
١٨٧٠ ١١ مارس	
١٨٧٠	كشف ناخجال منطقة بحيرة تشاد .
١٨٧١	ستافلي يبحث عن لفنجستون لانقاده
١٨٧٤ / ١٨٧٧	ستافلي في الكونغو بالنيابة عن ليوبولد الثاني .
١٨٧٤ / ١٨٧٦	غوردون في خط الاستواء بدلاً من صمويل بيكر .
١٨٧٥	دي برازا الفرنسي في حوض الكونغو الأدنى .
١٨٧٦	تأسيس الجمعية الدولية لكشف أفريقيا .
١٨٧٧ ٧ سبتمبر	اتفاقية بين مصر وبريطانيا بشأن ساحل السومال .
١٨٧٧ / ١٨٧٩	غوردون حكاماً عاماً للسودان .
١٨٧٩ ٢ أغسطس	فرمان تركي لا يسمح لمصر بالتنازل عن أي جزء من ساحل السومال لأبنة دولة أجنبية ، فرمان تولية الحديدي توفيق .
١٨٧٩ ٣٠ ديسمبر	اتفاقية بين سلطان رهيفة وشركة روباتينو الإيطالية يتنازل فيها عن جزائر أم البشار ورأس الرمل ودرماشيه .
١٨٨٠ ١٥ مارس	اتفاقية بين سلطان رهيفة يتنازل فيها عن للشاطئ والجزائر في خليج عصب بين رأس لومه ورأس سفتيار .
١٨٨٠ ٢٠ سبتمبر	اتفاقية حماية إيطالية على رهيفة .
١٨٨٠ ٢٥ ديسمبر	إعلان من فرنسا عن حدود أبوك .
١٨٨١ ١٢ مايو	معاهدة احتلال فرنسا لتونس .
١٨٨١ ٣٠ نوفمبر	ذكريتو مصري بشأن شرق السودان ويشمل مديريات الناكه ، وعفاظلي سواكن ومصوع ، وسنهت والقلايات ، وتوابعا بما فيهم قبيلة الضيانية .

- ١٨٨٢ ١٠ مارس إنفاقية بين الحكومة الإيطالية وشركة روياتينو اشقلت بموجبها أملاك الشركة إلى الحكومة .
- ١١ يوليو بريطانيا تضرب الاسكندرية .
موقعة التل الكبير ، واحتلال مصر .
- ١٨٨٣ ١٥ مارس معاهدة بين إيطاليا وسلطان عصب بشأن عصب صدق عليها ملك شوا بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣ .
- ١٢ مارس معاهدة بين إيطاليا وشوا عن الحدود .
- ١٨٨٤ ٢٢ أبريل اعتراف الولايات المتحدة بالكونغو الحرة :
- ٢٣/٢٤ أبريل فرنسا والكونغو تتفان على حق فرنسا في الاستيلاء على الكونغو في حالة إخلاله .
- ١٨٨٤ ٣ يونيو معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا ومصر بشأن منطقة البوغوص والمسائل المتفرعة واعتراف النجاشي بحق بريطانيا في الفصل في المشاكل بينه وبين مصر بعد هذا التاريخ ، وحق النجاشي في تعيين المطران لكرسي الحبشة .
- ٢١ سبتمبر معاهدة بين فرنسا وسلطان تاجوره حامد بن محمد يتنازل عن قبة خراب ، وتعهد السلطان بأن لا يدخل في معاهدات مع الدول الأجنبية قبل الحصول على موافقة حاكم أيوك الفرنسي، وفي هذه المعاهدة مخالفة لما جاء في المادتين السادسة والسابعة من معاهدة ١٨٤٠ بين السلطان وبريطانيا .
- ١٨٨٤ ١٥ نوفمبر مؤتمر برلين للمسائل الأفريقية .
- ١٨٨٥ ٢٦ فبراير
- ١٨ أكتوبر إقرار تنازل عن قبة خراب لفرنسا .
- ٨ نوفمبر اعتراف ألمانيا بالكونغو الحرة .
- ١٤ ديسمبر إقرار تنازل لفرنسا من اديلاي إلى امبادو .
- ١٦ ديسمبر اعتراف بريطانيا بالكونغو الحرة .

١٦ ديسمبر اتفاقية بين بريطانيا والكونغو الحرة بشأن الاختصاص
القتلى وغيره .

١٩ ديسمبر اعتراف إيطاليا بالكونغو الحرة .

٢٧ ديسمبر اعتراف هولندا بالكونغو الحرة .

نوفمبر-ديسمبر معاهدات بين جمعية شرق أفريقيا الألمانية مع الزعماء المحليين

معاهدات بين بلجيكا والزعماء المحليين في أعالي نهر الكونغو . ١٨٨٢ / ١٨٨٥

عودة غوردون لاختلاء السودان ١٨٨٥ / ١٨٨٤

٢ يناير معاهدة بين فرنسا وزعماء العيسى في الصومال - حماية .

٧ يناير اعتراف اسبانيا بالكونغو الحرة .

٢٦ يناير سقوط الخرطوم في يد الدراويش ومقتل غوردون .

٣ فبراير احتلال إيطاليا لمصرغ .

٥ فبراير اعتراف فرنسا بالكونغو الحرة .

٥ فبراير اتفاقية بين فرنسا والكونغو الحرة بشأن المخططات الخاصة

والممتلكات .

٥ فبراير اعتراف روسيا بالكونغو الحرة .

١٠ اعتراف السويد والنرويج بالكونغو الحرة .

١١ فبراير ١٨٨٥ اعلان فرنسا حمايتها على المنطقة من رأس على إلى قبة خراب

١٤ فبراير اعتراف البرتغال بالكونغو الحرة

٢٣ فبراير اعلان بلجيكا اعترافها بالكونغو الحرة

٢٣ اعتراف الدانمارك بالكونغو الحرة .

٢٧ وثيقة الشركة الاستعمارية الألمانية .

٢٦ مارس معاهدة فرنسا بحمايتها على ساحل الصومال

١ أغسطس اعلان من البلجيكي عن تأسيس الكونغو الحرة ، تولى سيادتها

ليوبولد الثاني .

٢٤ أكتوبر اتفاقية بين الباب العالي وبريطانيا بشأن الجلاء عن مصر الخ

اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا عن حدود زنجبار .	١٨٨٦ } ٢٩ أكتوبر ١ نوفمبر
معاهدات بين بريطانيا وزعماء ساحل السومال - حماية	١٨٨٦/١٨٨٤
معاهدة بين بريطانيا وألمانيا - مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .	١٨٨٧ مارس
٢٢-٢٩ أبريل مذكرات بين الكونغو وفرنسا بشأن حق الاستيلاء .	
٢٩ أبريل بروتوكول بين فرنسا والكونغو عن الأوبانجي .	
٢٤ مايو امتيازات الشركة البريطانية لشرق أفريقيا في زنجبار	
٢٤-٣١ مايو مذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بتحديد مناطق النفوذ من رأس كمار على البحر الأحمر .	
٧ يوليو اتفاق بين إيطاليا وزعماء الدناكل عن أوسه .	
٢٠ يوليو إعلان بريطانيا حمايتها على ساحل السومال من رأس جيبوتي إلى بندر زيادة .	
يوليو اتفاق بين ألمانيا وبريطانيا بشأن عدم ضم أية ممتلكات تقع تقع خلف حدود مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .	
٢٠ أكتوبر اتفاقية تحالف بين إيطاليا وشوا .	١٨٨٧
٢-٩ فبراير اتفاق بين بريطانيا وفرنسا عن خليج ناجوره وهرر النخ الخ	١٨٨٨
٩ ديسمبر معاهدة بسيادة إيطاليا على الدناكل	
٢ مايو معاهدة أوتشيمالي بين أنيوييا وإيطاليا	١٨٨٩
٢ أغسطس وصية الملك ليوبولد الثاني بانتقال حقوق سيادته على الكونغو الحرة إلى البلجيك وذلك في حالة وفاته .	
٣١ أغسطس اتفاق عن حكر للشركة البريطانية في شرق أفريقيا في زنجبار .	
أول أكتوبر اتفاقية بشأن قرض من إيطاليا لأثيوبيا بضمان جمارك هرر	
٢٤ مايو اتفاقية ماكنون وليوبولد التي لم توافق عليها بريطانيا	١٨٩٠
١٤ يونيو اتفاق بريطانيا وزنجبار - الحماية البريطانية .	
١ يوليو اتفاق بريطانيا وألمانيا بخصوص مناطق النفوذ	

٢ يولي	قرار بروكسل بشأن الرقيق .
٤ نوفمبر	إخطار بريطانيا للدول عن حمايتها لزنجبار
١٨٨٤/١٨٩٠	مذكرات بشأن محميات ألمانيا في شرق أفريقيا
١٨٩١ ٥ مارس	اتفاق بين زنجبار وشركة أفريقيا الشرقية البريطانية بشأن موانئ بنادر
٢٤ مارس	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الإيطالية من الجوبا إلى النيل الأزرق .
١٠ أبريل	أرسل النجاشي خطاباً دورياً إلى الدول الأوروبية يعلن عن مطالبته بجميع حدوده القديمة على النيل إلى بحيرة رودلف .
١٥ أبريل	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بخصوص منطقة النفوذ الإيطالية من رأس كسار إلى النيل الأزرق .
٢٠ أغسطس	أعلنت الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عن مزاها على اخلاء اوغنده
١٨٩٢ ٢٢ مارس	قرمان سلطان بولاية عباس موضحاً فيه حدود مصر .
٣٠ مارس	اتفاق لوجارد مع ملك اوغنده
٢٢ يونيو	إخطار بريطانيا بوضع محميتها زنجبار في نطاق مواد التجارة الحرة التي وردت في قرارات برلين .
١٨٩٣ ١٢ أغسطس	معاهدة بين زنجبار وإيطاليا بشأن بنادر
٢٩ مايو	معاهدة مؤقتة بين بورتغال وملك اوغنده لسد الفراغ بالسحاب الشركة البريطانية .
١٥ نوفمبر	اتفاق بين إنجلترا وألمانيا عن مناطق النفوذ في غرب أفريقيا
١٥ مارس	اتفاقية بين فرنسا وألمانيا تنازلت لفرنسا عن جزء من منطقة نفوذ ألمانيا سنة ١٨٩٣ الموضحة باتفاق إنجلترا
١٨٩٤ ٥ مايو	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن شرق أفريقيا وهرر
١٢ مايو	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو بشأن مناطق النفوذ وحوض بحر الغزال واللاذو .
٢٢ يونيو	إخطار يسحب البند الثالث من اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين بريطانيا والكونغو .

- ١٤ أغسطس اتفاقية بين فرنسا والكونغو عن الحدود .
- ٢٧ أغسطس اتفاق كولفيل وملك أوغنده
- ١٨٩٥ ٥ فبراير اتفاق بين فرنسا والبلجيك بشأن الشفعة في أملاك الحكومة الحرة .
- { ٢٥ يونه
٧ يونه } اتفاق مصر وإيطاليا بشأن الحدود بين خور بركة والبحر الأحمر
- ١٤ ديسمبر اتفاق بين بريطانيا وزنبار بخصوص الإدارة البريطانية على الساحل والجزائر فيما عدا زنبار وبمبا .
- ١٨٩٦ ١ مارس واقعة عدوة التي هزمت فيها إيطاليا .
- ٢٦ أكتوبر معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا اعترفت فيها إيطاليا باستقلال أثيوبيا .
- ١٨٩٧ ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا بشأن الحدود بين أثيوبيا والمنطقة الساحلية الفرنسية .
- ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا (سرية) بخصوص امتداد نفوذ الدولتين إلى حوض النيل الأبيض .
- ١٨٩٧ ١٤ مايو تبادل مذكرات بين بريطانيا وأثيوبيا بشأن معاملة السوماليين الذين يقبلون الرعاية الاثيوبية .
- ١٨٩٧ ٣٠ أغسطس مذكرة بين بريطانيا وأثيوبيا بتوثيق معاهدة ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ .
- ٢٥ ديسمبر إقرار تنازل من إيطاليا لمصر عن قلعة كسلا
- ١٨٩٨ ٧ ديسمبر اتفاقية بين مصر وإيطاليا بخصوص ضرائب الرعي المطلوبة لإدارة أرتيريا .
- ٧ ديسمبر اتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود الشمالية لأرتيريا
- ١٨٩٩ ١٩ يناير اتفاقية السودان ثم اتفاقية ضم حلفا وسواكن للسودان
- ٢١ مارس إعلان متمم للاتفاقية التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا في ١٤ يونه سنة ١٨٩٨ عن مناطق النفوذ .

« الملاحق والوثائق »

الملحق الأول

وثيقة الفقيه محمد أبو دليق^(١)

بيان حامد بن صالح الدليقي قد توضح أفكار الزمان . والزمان وارثاً لكل مكان سنة ستائة واثنين وسبعين من هجرة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أن من أهل الشروق الآلسنة العربية ١٣ طائفة نزلت بدار ديمس وما من أبحار النيل أربع هلالية واثنان من بني غزوم واثنان من حكنانة وواحدة خزرجية من بني التجار واثنان من بني أمية واثنان من بنو هاشم ففرقوا من الأياثم إلى تولسه العلام بعد فتوح الاسلامي النوراني بالقسمة السهمية وقسمة هلاله لأجل الماسي من شيكة كار إلى تولسه العلام وككنانة وبنو غزوم من جبل أودون إلى جبال الذهب برور وبحار وبني أمية على شاطئ البحرين الفنتين مابين أتبه وبربر ومابين مرج البحرين الأبيض والأسود والعباسية من حجر العسل إلى جبل أبو نفاير مشرقاً وغرباً وبعضاً منهما مع الخزرجية من ملواد إلى البحيرة (بالقطار المصري) .

ثم بعد ذلك أولاد مرار حمار وسمرة وسميرة الهاشمية مع أعمامهم كامل واحد ولحمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق استقروا ليماني الكاشنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأم غيره بمعائم جديدة نحو بربر وقد انتقلنا برور الغرب إلى بحر الفزال استغرقنا فيه أربعة خلفات ومنه انتقلنا إلى وادي مقدم من جيرة إلى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهي الماسي قد توجهوا هنا أولاد محمد أبو دليق عبد الله وعلى وصالح إلى شرق هوات ملسى في مرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضي ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم على العين نار فوق الأذن مطرق وشاهد وانتقل منه سالم بن معارف إلى الصعيد هو وأولاده حكار وسليمان فاختلفوا مع الجمع ومدرروكون في السجل وانتقلوا النقارة إلى كويمات النوق (دنتلة) دار منها سبعة وعشرين^(٢) خلفنا فيها خلفه واحدة ومحمد وارث الدين أبو دليق وماسي

(١) نقلت هذه الوثيقة عن مخطوطة عتقت بها الشيخ عيسى أحمد أبو دليق بواد مدني . ويكتب الاسم أيضاً أبو « دلي » ومصرها « دليق » = الخثرة البالية .

(٢) دار منها سبعة وعشرين . يقصد دار منها سبعة وعشرين درجة التي للسعد = ويشير بذلك إلى أن دار كويمات النوق التي هي دنتلة هي نهاية ما تسمى الجماعة من امتلاكها في الدنيا .

أبو دليق كان بالتعليم قد حصل عراؤه بالمساجد والزمن وأحل لأميسرة بيد أبيه صلاح الأراية الاسلام الوارثها (٣) من جده عبد الله ابن العباس المنتسمة إليه من التسعة أريات المؤيدات بالنصرة - أنشأها صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة اثنان لأخواله أولاد عم آمنه بنت عبد الله ابن جابر الاومى وأخيه عامر وواحدة لشقيقه جابر بن عبد الله الخزرجى وواحدة لصديقه أبي بكر وواحدة لسيدها عمر وواحدة لسيدها عثمان وواحدة لسيدها علي وواحدة لعمه حمزة وواحدة لعبد الله ابن العباس . ثم أن صلاح لما هم (٤) من عراء ولده كساه الراية وأمه باباجها وحفظها تسكون ورثة لصاحب المقام وجرادة لمن يقدم بدينه إلى محلنا فبذلك تأثر اسم شاهر بالدليقاب . ثم نبين لك أولاد محمد وارث الدين ستة ضريس وكروم وعلى وناصر وعرض الله وحامد وأولاد ضريس شرق جبل أبونعوق وكروم وعلى ناصر الأشقة هما بالتوقد وعرض الله وحامد غارقوا أهلها في التوق إلى دار الغرب بمليط (دارفور) وأولاد كروم سليم وسال وعابد وأما ناصر وأولاده أربعة صالح وصبيح الله وسجاد وأمين وان صالح بن ناصر أمه كنزیه وفارق النقارة وفارث الموالكة (٥) في وادى عريس وله ولدين واحد صبيح الله وأخيه حامد وصبيح الله وولده حمد تنير وله كوكو وكوكو ولد عبيد الله ولد الضو وحامد وأخيه ولد صالح وصالح ولد الطيب والغليب ولد محمد ومحمد ولد الحسين والحسين ولد صالح فاختلفوا مع الموالكة ومدروكين بالسجل ثم أن الوسم على الايل أربعة وجوه نار الدليقاب أولاد ضريس ومن معه القلادة على الشمال والظوق على الورك اليمن وأولاد الملك ناصر القلادة على اليمن والحرار على الشمال عميد كفنز وأولاد كروم والقلادة على الشمال والحرار على اليمن والسامع وأولاد ادريس ولد عابد سكنوا وادى القعب (٦) باللقية بالشابط وتم تبين أهل الله من الدليقاب على وابن أخيه عبد الله بالهواد (٧) وحامد بمقرات واحد أبودليق لشرق جبل ابنعوف (ابن عوف) الملقب بقادى أمه زوافى بنت حسن الفتاوى الحسن حيدر وسليمان المعقور بن احمد بدارفور

(٣) الوارثها = التي ورثها

(٤) لما هم = عندما خالجه افموم

(٥) الموالكة = نهواير

(٦) القعب = شمال دقله .

(٧) الهواد = شرق أبودليق بالبطانة .

رئيساً بها وسالمة^(٨) بالاولى وصالح يجرأوة وارفر والشيخ ابراهيم بأرض مصر
وعبد الكريم بالين ثم نبين لكم الوارثون . قد انتقلت من النوق إلى وادي مريخ
جزيرة قشاب^(٩) استقرنا بها صاحب السجادة حامد بن صالح ابن عابد بن كروم
بين محمد أبو دليق إلى صلاح بن ساجد الملقب بدير بن سوان بن شرع الدين ابن
أبو مرخة بن سعد الدين بن سمار ابن كروم بن حمد الحجازي بن قضاة بن الرفع
ابن مصرف بن سقف بن أمان بن حرقان بن كوثر بن موسى بن ابراهيم بن سعد الدين
ابن عبد الله الفضل بن عبد الله بن العباس ثم النبي صلى الله عليه وسلم .

بيان حامد بن صالح الدليقي والله أعلم بالصواب يا غفار اغفر ذنبي يا الله .

(تعليق)

آثرنا نشر هذه الوثيقة بكاملها إتماماً للفائدة . قبي تبين لنا صورة من صور
الحياة بعد دخول العرب في هجرتهم إلى بلاد السودان وقد جاءت ترجمة حياة الشيخ
أبو دليق في كتاب الطبقات والوثيقة مكتوبة بحبر العمارة الأسود القاتم اللون على
ورق المعروف باسمه . أبو شباك ، الذي يستعمل في كتابة الوثائق .

(٨) سالة = ينطق بفتح السين واللام والهاء .

(٩) قشاب = المروقة باسم فوشاي . أو غوشاي في دقاه .

الملحق الثاني

وثيقة عن حفريات أثرية في حوض خور برکه بالارتيريا^(١)

كتبها كارلو كوفت روسيتي^(٢)

قام الضابط الايطالي لويجي تالاموتي^(٣) برحلة تفتيشية في حوض خور برکه - في المنطقة بين بلدة أغوردات إلى ملتقى هذا الخور برافده (Ambacta) وكان ذلك في شهر يونيو من عام ١٩٠٢ الميلادي - وقد لاحظ هذا الضابط أن بعض المواقع لها قيمة أثرية من شأنها أن تساعد على توضيح تاريخ الارتيريا والمناطق المجاورة من أثيوبيا والسودان . وقد بعث إلى هذا الضابط بمذكراته عن هذه المواقع لتحقيقها وأرى من المفيد أن أنشر ماوصلت إليه من نتائج للحفريات التي قُت بها في هذه المنطقة التي لم يكشف عنها من قبل .

مقابر الفونج :

هناك مجموعات من البنايات الصغيرة الحجم منتشرة على طول السهل الواقع في واد الرافد (Lacrob.) وتمتد على خور برکه في اتجاه شمالي حتى تقترب من ميناء سواكن . وتعرف هذه البنايات بمقابر الفونج الذين أسسوا ملكا في سنار في القرن الخامس عشر الميلادي والتي امتدت حدودها جنوبا وشرقا حتى شارفت على البحر الأحمر .

وهذه البنايات صغيرة مربعة في حجمها ولا يعرف هذا النوع من فن البناء في هذه المنطقة في الوقت الحاضر . ويتكون البناء من أحجار كبيرة منتظمة الشكل الخارجي معقودة قوق بعضها مناسكة بطبقة طينية بين الأحجار . وهنالك أحجار طويلة متشابهة الأطراف تربط بين الأجزاء العليا للبناء وتقوم على هذه الأحجار قبة .

(١) روسيتي مقال ١٩٠٢ من ١٣٤ - ١٥٠

(٢) أنظر مقال الدكتور مراد كامل عن ترجمة حياة روسيتي (٢٥) إبريل سنة ١٨٧٢ -

٢١ أغسطس سنة ١٩٤٩ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ جزء ١ من ١٥١/١٥٨

(٣) كان موظفاً بالإدارة الإيطالية لارتيريا .

من الحجر والطين . وفي الناية نافذة صغيرة في كل من الجوانب الأربع وتقع في منتصف المسافة من سطح الأرض لاعلى البناء . وتطل على السهل المحيط بها وأرضية البناء في كل الحالات أعلى من مستوى السهل .

وقد قمت بفتح إحدى هذه البنايات المنتشرة في أعداد قليلة متعزلة أو في مجموعات كبيرة . وكانت تلك البناية التي نبشت من المجموعة القائمة في وادي لنقيب (Langeb) بين تأميمات وآبار إداردي . وقد وجدت على عمق خمسين سنتيمتر من سطح الأرض بقايا عظام بشرية تحول هيكلها إلى مسحوق أبيض اللون . ولم أعثر على أوعية أو كتابات في داخل المدفن وأضيف على ما تقدم ذكره أن عدداً كبيراً من هذه البنايات موجود من دور طه .

ويقال أن الفونج قد أصيبوا بهزيمة منكرة كما تذكر الرواية التي يتناقلها الأهالي أن الجماعة المعروفة بالقدين Al Gheden ترجع في أصلها إلى الفونج التي هاجرت بعد الموقعة الفاصلة .

• • •

هذا هو التقرير الذي نشره الاستاذ روسيني عن هذه الحفريات ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير إلى ما كتبه مادجان مساعد جيولوجي إدارة السودان الذي زار منطقة البحر الأحمر شمالي بورسودان في ديسمبر سنة ١٩٢٠ وإلى تعليق كروفرت على هذا المقال والذي حاول فيه أن يحدد تاريخ تلك المباني وقد أنهى كروفرت تعليقه بأنه "يربط باطمئنان بين هذه القباب وبين الجماعات من البشا المستعربين الذين اتصلوا عن طريق القوافل بين بلدة قوص أو أسوان وعيذاب في القرن الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر . " أنظر مجلة السودان في مدونات ورسائل (S.N. & R.) الجزء الخامس ص ٧٨ / ٨٢ مقال Madigan C.F. عن وصف الحصون شمالي بورسودان .

وبما لاجدال فيه أن هذه المسألة تتطلب المزيد من البحث الذي يتحتم قيامه في منطقة البحر الأحمر من حوض خور بركة وعلى طول طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية . وهذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مملكة البلي الإسلامية وحروبها التي انتهت باضعاف هذه المملكة وتفرق أصلها إلى مجموعات صغيرة امتصتها قبائل أخرى كما ذكره لوبو وكتاب فتوح الحبشة الذي نشره ربنيه ياسيه . وكتاب قبائل البجا الذي كتبه بول (Pavl, A.) سنة ١٩٥٤ .

الملحق الثالث

ملخص تاريخ أريحي^(١)

أول من أسس المدينة المذكورة هو حجازي ولد معين وذلك في عام ٨٨٠ (هجريه) ثم من بعد المدينة المذكورة أسست مدينة سنار بواسطة الملك عمارة دنقس وذلك بمدينة (معاونه) الشيخ عبد الله جماع جد العبد لاب ثم بعد انتظام وتعمير مدينة أريحي قال شيخ تعين للمدينة المذكورة الشيخ نور محمد ولد رحيمه في عام ٩١٣ هـ وقتل في غزوة محمود ولد كوينه حينما غزا الجعليين خرب ادريس ود ملك الجعليين حينما غصى ملك سنار . وتعين بعده شيخاً لأريحي ابنه محمد نور وتعين بعده ابنه الشيخ شنبول محمد ولد نور الذي جمع بين المشيخة ووزارة ملك سنار بادی ودرجب وكان ذلك قبل خروج الملك بادی للحرب الشكرية الذين خرجوا عن الطاعة وعين الوزير شنبول ود محمد نور لخدمة العريان جهة الداخلة الشلال ثم لما رجع الملك بادی من حرب الشكرية بآتيرة^(٢) واستقراره برفاعه^(٣) وكان من عادة ملوك سنار يعملون عروضات ويرحمون بالخييل أمام الملك وكانت أول من رجح بالحصان أحد إخوانه أبناء عمه محمد ناجي وعادة أهل الخيل يقفون على بعد من الملك والمذكور (محمد ناجي) طلق الحصان حتى قرب من الملك وعلا الفيار على رأس الملك بادی فامتلا قلبه غيظاً منه وأمر أن يضرب بالسياط لإساءته الأدب فلما ألقى على الأرض لم يثبت للضرب وعظم ذلك على إخوانه لعدم صبره وتجلده لأن عادة أهل السودان التجلد والصبر على المسكاره وكانوا اخوان الرجل المضروب استأذنوا من الملك ليحملوه إلى سنار للعلاج فاذن لهم بحمله وكان الملك بادی قبل قيامه لحرب الشكرية عزل الشيخ الأمين مسمار والشيخ احمد على ولد هيفه شيخ الكاثير والمذكور من

(١) هذه المخطوطة من الأصل التي يحتفظ بيت ولد شنبول بالدية (بين ولد مدني والحصيصا على النيل الأزرق) وقد تقبل بالاشراف على قتلها الأستاذ يوسف أحيمر بكك حديد السودان .

(٢) حوض الطيرة أو الآتيرة.

(٣) رفاعه تقع شرق النيل الأزرق بالقرب من الحصيصا .

كبار أهل الطواقي (٤) وكان أولاد عم الرجل المضروب تعصبوا (٥) واضمروا على قتل الملك هم وعشيرتهم وبعضاً من الطواقي كالشيخ أمين مسيار والشيخ أحمد على هيفه وحلفوا على قتل الملك بادى ثم أن اخوان المضروب كانوا تحت قبضة الملك فصار كلا منهم يستأذن الملك للتوجه إلى سنار من رفاقة لأجل مناظرة أخوهم (أخيهم المضروب) حتى تكاملوا بسنار جميعهم وقويت شوكتهم وسعوا في كيفية حرب الملك بادى . وكان الوزير إذ ذاك شنبول ود محمد نور الذي كان خليفة الملك على سنار لأجل خدمة العربان بالداخلية . فتوجهوا إليه وقتلوه وشاع الخبر إلى الملك برفاقه وقام الملك بادى من حيته بالجيش وتوجه لسنار للحرب معهم قبلما وصل إليهم قابله واحطفت الصفوف ثم أتى الملك أمر ابنه دوس (٦) أن يفتح معهم الحرب فتنازلهم وبعد قليل ولى منهم هاربا ثم بعد ما هرب ابنه دوس تقدم الملك بنفسه للحرب فبرز الشيخ الأمين مسيار من مشايخ طائفة العبدلاب (٧) فضرب الأمين مسيار الملك بادى بالسيف على رقبته فقطع وريده ثم أن الضربة قد أذت الملك بادى وأما الملك بادى عاقب الشيخ الأمين مسيار بالضرب بالحفنة ستة ضربات بالسيف فلم تؤثر فيه ضربة واحدة ثم أن الملك لما أحس بالآلم وعرف أنه هالك أمر أولاد عمه بأن يقتلوه بسيوفهم لأجل ما يقولوا (٨) قتله الشيخ الأمين مسيار وهو عار عليه وقد كان ضربه بسيوفهم وقتل على ماله الكيفية . ثم بعد قتل الشيخ شنبول ود محمد نور تعين ابنه الشيخ مدني ود شنبول في أربحي أعظم مشيخة وكانت أيامه في معظم عمارة أربحي وفي أيامه كان أحد الفقراء المشاهير الفقيه محمد علقم ثم أن الفقيه نفسه توجه إلى ملك سنار وفي ذلك الوقت كان ملك سنار محمد ولد ناصر وبعد وصوله إليه والوقوف بين يديه طلب من الملك جاها إلى حلقه (٩) بمعنى خدمة جميع البلد تعطى إليه لأن عادة ملوك السودان يعطون الفقهاء في ذلك الزمن الأعشار وقد مضى له بأعشار حلقه وصار يتخدم حلقه بنفسه خاصة وبدون أمر

(٤) طواقي مفردة طائفة وهي غناء الرأس الرسمي إشارة الحكم وتعرف بالصفاية أم قرين (فرق) أنظر صفحة ١٢٣ .

(٥) تعصبوا = جنوا أهل عصبيتهم .

(٦) دوس = شطى بضم الدال وفتح الين = والكلمة أصلاً ترجع إلى المصرية القديمة

(٧) مشايخ طائفة العبدلاب = أي مشايخ المجلدية العبدلاب .

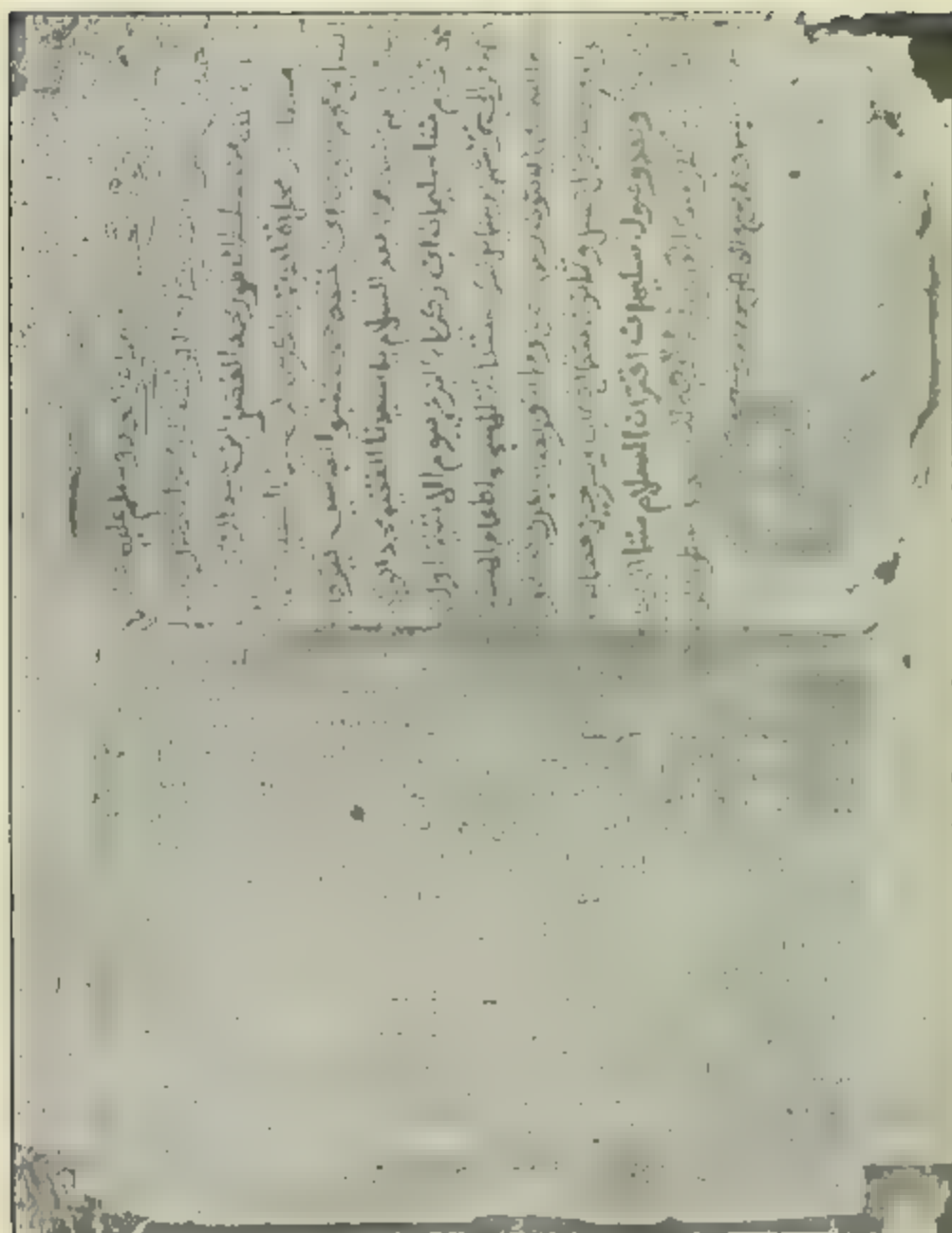
(٨) لأجل ما يقولوا = حتى لا يقولوا .

(٩) حلة = قرية .

الشيخ مدني وبعد ما أمضى له الملك لم تمكن للشيخ مدني ود شمبول سلطة عليه ولا على
 أهل الحلة التي بها الفقيه ود علقم وبهذا السبب الشيخ مدني شيخ أربجي قتل الفقيه
 ولد علقم وجميع أهل الحلة التي كانت تخدم الفقيه ود علقم فلما سمع ملك سنار بذلك
 غضب غضباً شديداً وعزل الشيخ مدني ود شمبول عن شياخة أربجي وعين بدله
 لأربجي محمد ود النو من دنافة أربجي وأهلها القدام وكان من أهل الغناء المشهورين
 بأربجي وكان بعد ما عزل الشيخ شمبول توجه هو^(١٠) وجميع جيشه إلى جبال العطيش
 وأقام هناك مدة سبعة سنوات والشيخ محمد النو الذي تعين بدله مقبلاً بأربجي وبعد
 حضور الشيخ مدني من جبال العطيش بنار هو وأخواته وجميع الجيوش والعوائل
 والعشيرة التي معه قاصدين جهة السلية ليكونوا بها فلما سمع الشيخ محمد النو أن الشيخ
 مدني شمبول أخذ معه الخواص من أولاد عمه وتوجه بهم إلى سنار لمقابلة الملك
 ليتمس رضاه فلما سمع الشيخ ود النو أن الشيخ مدني ود شمبول شيخ أربجي المعزول
 سابقاً توجه لسنار خشي منه أن يتفق مع الملك ويرجع شيخاً على أربجي ثانياً وأن
 الشيخ المذكور محمد ود النو أخذ خيولاً وعبيداً وجوارياً وذهباً كثيراً ليعطيه
 للملك لبثائه على شياخة أربجي فلما قرب من سنار قابله الشيخ مدني الذي كان يخافه
 خارجاً من سنار بعد أخذه الأذن من الملك ثم إن الشيخ مدني بادر على قتل الشيخ
 محمد ود النو وذهب بجميع ما جاء به للملك من خدم وعبيد وخيول وذهب ورجع
 به للملك وأخبره الخبر فلما سمع منه الملك ذلك غضب غضباً شديداً وعم بقتل الشيخ
 مدني شمبول ثم إن أكابر رجال الدولة والأعيان دخلوا على الملك ليشفعوا للشيخ
 مدني من القتل وقالوا هذا الرجل من بيوت الملك وأن أبناءه لهم عند الملك بهاها
 وكانوا من أعظم شجعانه ولهم مزايا كثيرة وقد انحل غضب وقال للشيخ مدني قد
 عفوت عتلك فن وقتها قد قام الشيخ مدني لوطنه المسلية وصار جميع عمار أربجي
 تحته وكان خراب أربجي سنة ١٠٤٠ (هجري) وتعمرت المسلية وكان بلال ود به
 من أهل شورة الملك وكانت تصدر منه كلمات في حق الشيخ مدني ومنها كلمة قالها
 قال ساجيب مشيخة الشيخ مدني وأعطيها إلى أحد عبيدي ولما بلغ الشيخ مدني هذا
 الكلام بهذه الصفة اغتاض على بلال ود به وكان أحمد إبراهيم من قبيلة البساننة وهو
 من التجار المشهورين بأربجي والمذكور كان سافر إلى أرض النخا (نخا - بالين)
 وأحضر معه بضائع نفيسة تليق بالملك - سيوف ودروع عظيمة . ولما بلغ ذلك ملك

سنار قد أرسل إلى الشيخ مدني شميل بأن يشتري له منه سيف ودروع بالثمن وقد أخذ الشيخ مدني السيوف والدروع وكان مقدراً قيمة الجميع ٢٥ أوقية ذهب وأن الملك تأخر في ردها إلى الشيخ مدني شميل وطال الزمن بعد وصول الأشياء إلى الملك وصار التاجر يلح على الشيخ مدني شميل بالمطالبة وأن الشيخ مدني عرف التاجر بأن الملك لم يرسل إليه الذهب ولما طالت المدة وكرر التاجر إلحاحه بالمطالبة على الشيخ مدني وأخيراً التجأ إلى بلال ودبّله مستنجداً به للخلاص من الشيخ مدني وتداخل بلال ودبّله بين الشيخ مدني والتاجر وعرفه أن أصل المال له لذلك صار بلال يطالب بالمال وأخيراً اشتكى الملك سنار وقال له إن الشيخ مدني ود شميل قد أكل ذهبي ظناً فلهذا ملك سنار طلب الشيخ مدني ولما حضر عنده أمره يدفع المبلغ إلى بلال ولما اتضح للشيخ مدني الأمر استأذن الملك في الرجوع إلى المسلية وبعد مراجع للمسلية استعد بألة الحرب إلى بلال ودبّله في رحلته وكانت بالقرب من المسلية وقتله هو ومن معه من أولاده وعشيرته ثم إن الشيخ مدني عصا على ملك سنار وطلبه ملك سنار ليحضر عنده ولم يحضر عنده فقال له الوزراء إن هذا الرجل إلا نحتال على قبضه بدون حرب فقاموا من وقتهم وتوجهوا إلى المسلية وقالوا له إن ملك سنار حلف يميناً لا يعافيك بشيء مطلقاً وحلف الوزراء أمام الشيخ مدني المسلية على كتاب الله وقالوا له قد قتلت قبله الشيخ محمد التو بستار قريباً من كرمي الملك فلم يحصل لك شيئاً وإن هذا هو وأهله لم يؤخذ له الملك فيهم بشيء فلما سمع منهم الشيخ مدني هذا الكلام توجه هو وأخواته إلى سنار فلما بلغ الملك قدمهم إلى سنار قال اعملوا حيلة عليهم واقبضوهم بدون شوشرة قبورها قد عين الملك جيشاً قبل وصولهم حقة طيبة فندلاوى فوقفوا على الشيخ مدني أربعة أنفار وألقوا عليه القبض ووضعوا فيه الحديد وكذلك أخيه الشيخ عدلان في محله قبض وكذلك بقية أخواته توجهوا إليهم أنفار وألقى فيهم الحديد ثم إن الشيخ مدني اجتمع مع الوزراء والرؤساء بالمبالغة (الرشوة) في قك أخيه الشيخ عدلان وقال إن أنفك الشيخ عدلان وبقي في العقب (الأهل) لم تخرب دار شميل ما دام هو فيها وقال للوزراء قولوا له أن أخيك مدني توجه للشرق ولم تعرف له جمة ومن وقتها قام الشيخ عدلان وهرب منهم وخرج بالشرق وإن الشيخ مدني شميل هو وأخواته أدخلوهم على الملك ففي الحين أمر الملك بقتلهم وقتلوا بسيف الشيخ محمد ناصر ضحى وأما ما كان من أمر الشيخ عدلان قد طلبه الملك وأحضره لديه وعفا عنه وأعطاه المشيخة وصار شيخاً (واستمرت المشيخة في بيت شميل إلى أن حل ركاب حكومة العصالية

(العثمانية) وعصت الجعليون وقتلوا ود الباشا (الأمير اسماعيل كامل) وحرقه بالنار وكان الحاج شنبول قد قدم من أرض الحجاز بصفة تاجر ولما وجد ود الباشا والأكابر الذين مقتولين معه وكانت الحكومة قد جردت العساكر لمحاربة الملك نمر لأن الملك نمر تجهز لحرب الحكومة وكان ما كان من أمره إلى أن قام من بلده ولما طلبت الحكومة المشايخ المعينين وجاءت الكشاف وكان مركزهم أبو قرووع وكان إذ ذاك الشيخ شنبول فاستمر شيخاً إلى ١٢٥٦ هـ وتعين بدله ولده عبد القادر شنبول أربعة سنين وبعدها عزلته الحكومة وتعين مساعد عبد القادر عام ١٢٦٠ هـ ثم بعد وفاة الشيخ مساعد ولد عبد القادر تعين الشيخ مدني ود عبد القادر وقد عزل وتعين بعده شيخا الشيخ احمد أبو الروس أبوام كثير من قبيلة الجوادكيك وبعد وفاته تعين الشيخ مدني شنبول ود مدني ود شنبول وقد عزل وتعين مأمور إدارة المسلية وتعين بدله شيخا الشيخ نجيت عبد الصادق الشيخ عدلان شنبول وتعين بعده الشيخ مدني شنبول مأمور إدارة المسلية وعزل وتعين بعده الشيخ بادى ود نجيت ود إدريس وعزل من المشيخة ثانياً وتعين الشيخ مدني شنبول استمر ببيك باشا (بكباشي) الرئيسة (الرؤساء) إلى أن قتل في أول ثورة المهدي بشات هو وأخواته فهم عبد القادر بيك باشا والعوض شنبول بيك باشا وكتور شنبول بيك باشا ومدني عبد القادر شنبول وعبد الصادق احمد شنبول ثم تعين بعده الشيخ عبد القادر مساعد سبعة عشر يوماً في المشيخة وحلت المهديّة. وقد تم نظام المشايخ المتقدم ذكرهم في سنة ١٢٩٩ هـ.



المحقق الرابع - (1) خطاب السلطان عدلان بن محمد
(2) خطاب السلطان القور محمد الفضل

الملحق الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وصليت على محمد خير
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور اللهم اجعلنا من المعتصمين بسنة ...
ومن وإلى السلطنة السنارية اتي قد أجزت وأمرت إلى من يتولى بأحكام مدينت
ضنقلة بشرط أن يوفى كل عام من خزينة سلطان الدار الزرقاء فيدفع مرتباً كل
سنة بعد إفضاء ذوالحج لمسجد الشيخ أحمد شنبو خليفة الشيخ محمد أبو دليق مائة
وعشرون مكيال من معالي عيش الدينار وأربعون شاه ساوية وعشرة أبقار ساوية
وسبعين ثوب بنادي وكذا أجزت جميعاً من بالملك التحت ظل سيني يؤدي وفاء
زكاته لمسجد الشيخ أحمد شنبو ومن بعده لمن يصعب المسجد المذكور لا يعاقب منا
أبدأ وكذا ألزمتكم أيها القايمون الآن بالمالحطكيه فسدل بن ابراهيم وزنادي ابن
الجرى وعجيب ابن الذكروبادي بن اسماعيل ان تجددوا بناء مسجد الشيخ أحمد شنبو
وقال تعالى إنما يعمر مساجد الله الآية وقال تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو
خير له عند وقال تعالى ذلك من يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب
وقال صلى الله عليه وسلم من أتى بشيء قليل لمسجد الله حلت له شفاعتي وكونوا من
الذين يستمعون القول وقد أبدت أمرى تحت يدي الشيخ المذكور فيؤدي من يتولى
ملك مدينت ضنقلة فيعامل بما أمرت في ذلك السند وهيئات يا من يتولى السلطنة
الزرقاء من بعدنا الفتنجية قد يجري لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور انه
توصيت من السلطان جهره الاموي سنة ألف وأربع وثمانون .

الملك لله ولرسوله
عدلان ابن محمد
ختم السلطان

ملحق نمرة ٥

١ — بيان التقسيمات الزراعية — ب والمعاملات

١ — التقسيمات الزراعية:

١ (الأراضي النهرية:

جزائر — وتشمل الأراضي التي يفصلها الفيضان العالي عن الشاطئ .

رمال — شاطئ النهر الرمل .

براية — (Barraya) الأرض المنحدرة من الشاطئ حتى شاطئ النهر الرمل
وتعرف أيضاً بالسوكة (Seluka) .

القيف — (Qeif) الجزء الأعلى من شاطئ النهر .

القرير — (Qerer) الجزء من الأرض من طرف القيف الأعلى وتمتد إلى حدود
الغابة . أو الأرض الزراعية السوداء المعروفة بالتربة الفطنية وتشمل أرض القرير
الجرف المطري إذا كانت زراعية بالأمطار والجرف الحلي إذا كانت الزراعة
بالري الصناعي .

مبمه — (Ma'ya) أو فراش وهي الأراضي المنخفضة وتقع بالقرب من النهر
وتحيطها غالباً أشجار السنط .

٢ (الأراضي التي تعتمد في زراعتها على الأمطار :

تعرف بأرض « الضهاري » وهي تبدأ من نهاية أرض القرير النهرية وتشمل
الضهاري (مفرداً ضهره : ظهر) .

١ — الرزازة (Azaza) وهي الأرض الصلبة والرملية وتصلح لزراعة الدخن
أو لإقامة مباني القرية (الخلة) .

٢ — البادوبه (Badoba) وهي الأرض المشققة وهي التربة الفطنية وإذا كانت
تتشرب المياه بسرعة تعرف بالفوده (Foudah) وإذا كانت المياه تبقى على سطحها
فتعرف بام حميده (Baom Gemeida) وحصول هذه قليل رغم ان الزراعة تنمو
فيها بسرعة .

٣ - حريق - وهي الأرض التي ينبت فيها في فصل الأمطار (الحريف)
نوع من القش يزيد ارتفاعه عن القامة . وتشتعل فيه النار قبيل الزراعة ويكون
الرماد المتخلف عن الحريق سماداً كبير القيمة وتختص المناطق الآتية لهذا
النوع من الزراعة :-

دار الأحامدة : جنوبي كوستي

منطقة جبل مويار جبل أولي : غربي سنار

منطقة الدندر : وتشمل حوض الدندر والرهد .

البطانة : القسم جنوب غرب وشمال شرق القصارف .

وفي المناطق التي ينمو فيها القش القصير فإنه يترك للتمسل الأبيض المعروف
بالأرضة أو أم رصاص والمتخلف منها يترك على الأرض لتسميدها .

ويستخدم الشادوف أو النبوه (الاسم المحلي للشادوف) لرى الأراضي التي
على النيل . كما تقوم الساقية على النهر لزراعة الأرض العالية على شاطئ النهر . وتحتضن
الآبار التي تعرف عالياً باسم المتره (Malara) لاستخراج المياه الجوفية لرى
الأراضي البعيدة عن النهر .

هناك مصطلحات أخرى وهي :

البور - (الفغار - الفغار) وهي الأرض التي لا تزرع .

حداب - وهي الأرض الصخرية على شاطئ النهر ولا تصلح للزراعة .

هدام - أرض الشاطئ التي تتآكل من المياه .

قرض - وهي الأرض الصخرية التي نفطها طبقة طينية وتقوم عليها
بعض الشجيرات .

حرام - وهي الأرض التي تفصل بين مزرعتين ويكون عرض هذه المنطقة
على مسافة رمي الفأس .

نقاده - الأرض الزراعية قريباً من الحقة .

مغورة - (Maghura) التي تقع بين المساكن وتم على زراعتها النساء .

بلاد - أو بلدات الأرض التي تزرع أذرة .

ب (المصطلحات المحلية في المعاملات الزراعية - الجبايات الخ :

العشور - وهي العشر الذي يدفع عينا من محصول الأذرة .

قدح — يدفع بواقع أربعة أرباع من الأردب من زراعة السمسم (الأردب ٤٢٢ رطلا والرابع يساوي واحد على عشرين).

دقافه — (Dagaga) (القاف صعيدية) يدفع صاحب القطية (محل السكن؛ البيت) عشرة قروش سنوياً لصاحب الأرض (صاحب الأصل). ويستولي صاحب الأرض على قطعتين أو ثلاثة من أثواب الدعور من زارع الجروف بصرف النظر عن مساحة الأرض المزروعة.

وفي زراعة أرض السلوك (البراية) يتولى صاحب الأرض على ثلث أو نصف المحصول حسب الاتفاق وذلك في حالة قيام صاحب الأرض بتقديم التقاوى.

دقندي — (Dugundi) المبلغ الذي يحصله صاحب الأرض من المستأجر الجديد في حالة ما تكون قطعة الأرض قد أصلحها المستأجر السابق وتقدر القيمة بالاتفاق. ضحوه — (Dahiwa) جرت العادة على أن يستخدم صاحب الأرض الرجال وهم غالباً من الرقيق في العمل نصف اليوم لاصلاح الأرض وتنظيفها للزراعة وهذه تحدث عند إنشاء قرية جديدة وفي الحالات التي يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصة فان على كل شخص أن يدفع قرشاً أو قرشين بدلاً عن شغله شخصياً. وما يجدر ذكره أن هؤلاء الأشخاص المطلوب منهم العمل هم الرقيق.

خيرية — ريال صغير. ويؤخذ عن تأجير الأرض لمالك الأرض وهذه متعارف عليها بصفة خاصة في دار الحسانية والحسينات.

قيراط — ما يحصله رئيس القبيلة عيناً من الزراعة التي يقوم بها الأجانب في دار البقارة.

وهناك جبايات أخرى تحصل وتعرف بالقطرة والزكاة وهي كالرسم الآتي :-

١ — القطرة :

تحصل بواقع $\frac{1}{4}$ أو طال عن الشخص - رقيق أو حر - طالما يعيش في كنف العائلة وتدفع هذه سنوياً في أول عيد رمضان الذي يعرف باسم شهر القطرة فإذا كان لرجل زوجين وخسة أولاد وثلاثة من الرقيق يدفع رب العائلة ثلاثة وخمسين رطلا وثلاث الرطل عن أهل بيته العشرة.

٢ — الزكاة :

أ (زكاة النقود : تدفع بواقع خمسة في المائة من المال أو ثمن الذهب والفضة .

ب) زكاة العيش (الحبوب)

تؤخذ عن الزراعات التي تنتج ١٦٠٠ رطلا فأكثر . ولا يحصل شيئاً عن

الزراعات التي تنتج أقل من ١٦٠٠ رطلا.
 ج) زكاة المال عن الحيوان
 وتقدر هذه وفق نوع الماشية كالآتي :-

الغنم والماعز :

رأس واحد عن كل أربعين أو زيادة إلى ١٢١ وعند ذلك يدفع صاحبها رأسين وإذا زاد العدد عن ١٢١ فتؤخذ رأس عن كل مائة .

المواشي :

من ٣٠ إلى ٤٠ : يدفع عجل صغير
 • ٤٠ • ٥٠ : يدفع عجل عمره من سنة إلى سنتين ويعرف بالثني
 • ٥٠ • ٦٠ : يدفع عجل واحد عمره ثلاثة إلى أربعة سنين ويعرف بالربع
 • ٦٠ • ٧٠ : يدفع اثنين من العجول الصغيرة
 • ٧٠ • ٨٠ : يدفع عجل واحد صغير وواحد ثني
 • ٨٠ • ٩٠ : يدفع اثنين من العجل الثني

وبعد ذلك يؤخذ عن كل ثلاثين رأس عجل صغير وعن كل أربعين عجل ثني أي أن تسعين رأساً تساوي ثلاثة وحدات كل منها ثلاثين يؤخذ عنها ثلاثة عجول صغيرة - أيضاً مائة وعشرة من الماشية تساوي أربعين زائداً أربعين زائداً ثلاثين تؤخذ عنها عجل صغير واثنين ثني .

الجمال :

من ٥ إلى ٢٠ : شاة عن كل خسة جمال
 • ٢٥ • ٣٦ : جمل صغير أو ناقة صغيرة
 من ٣٦ • ٤٦ : جمل لبن
 • ٤٦ • ٥٦ : جمل عمره من سنتين إلى ثلاثة سنين
 • ٥٦ • ٧٠ : جمل عمره من أربعة إلى خمسة سنوات
 • ٧٠ • ٨٠ : جملين لبن
 • ٨٠ • ٩٠ : جملين لبن وعدد اثنين من الغنم وهكذا كلما تم العدد ٣٥ جملاً يدفع جمل لبن أي أن ١٢٠ جملاً تساوي ٣٥ + ٣٥ + ٣٥ + ١٥ يدفع عنها ثلاثة جمال لبن وثلاثة أغنام .

الملحق السادس

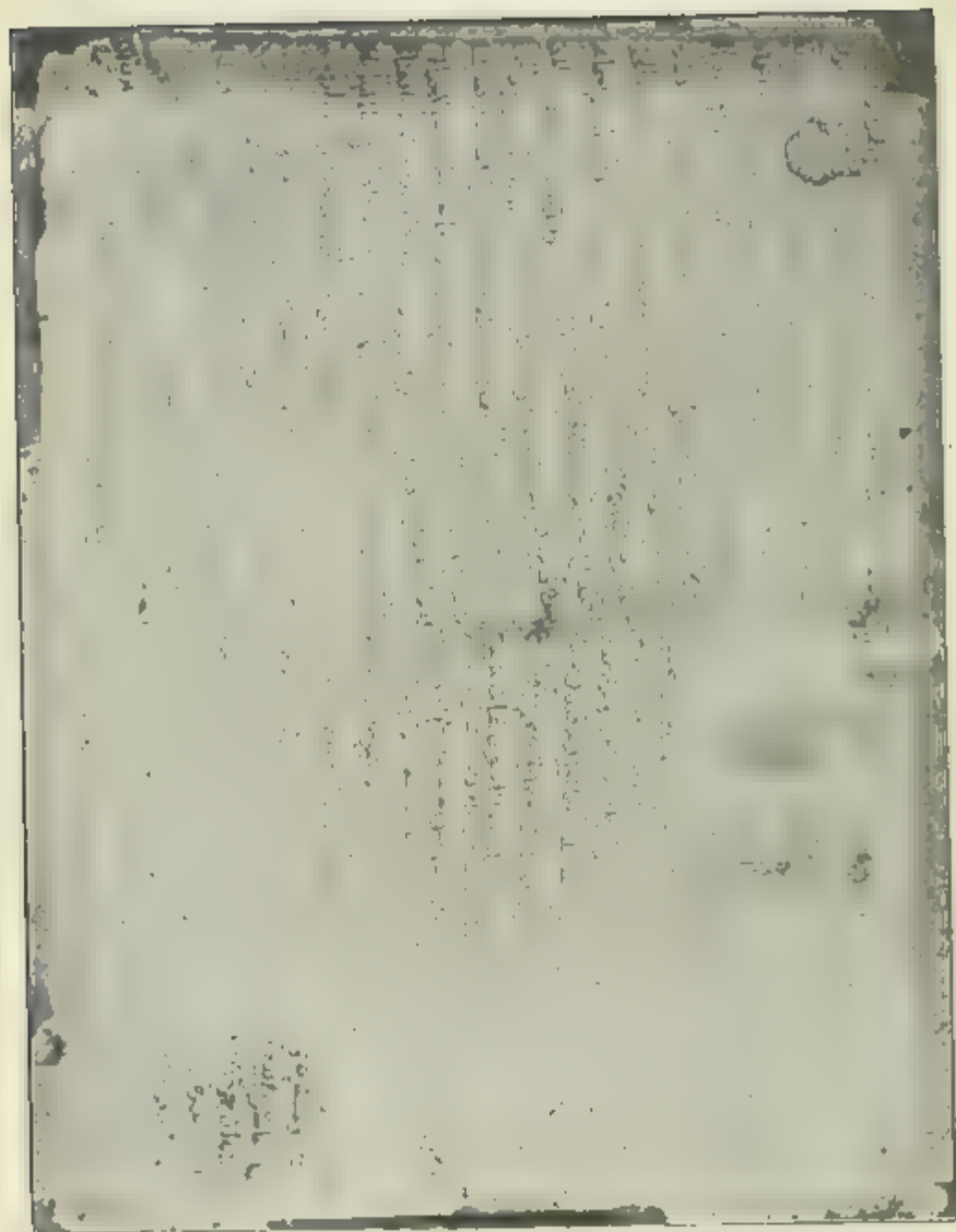
صورة خطاب من الشيخ محمد ابن المرحوم الوزير الشيخ عدلان
إلى الفقيه احمد ابراهيم الفرضي

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده
محمد لا نبي بعده

(ختم) (الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان)
(١٢٣١ هـ)

- × (١) من حضرت من نهايه الرجال وتخشي من صولته الإبطال .
(٢) يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن
(٣) المرحوم الوزير عدلان نصره الله أمين إلى حضرت
(٤) الفقيه ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافة الفقرا (٥) الفرضيين يسلم عليكم
جزيل السلام فالذي نعرفكم به (٦) نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبائل قاعدين
في الجزيرة (٧) وعمارها تعبوا (٨) ونظرنا في حالهم رفقا بهم (٩) والوقت هذا
بيننا (١٠) في الدندر طالبين (١١) قبائل الشرق والغرب وأنتم إياكم مرتبتنا وفقرنا (١٢)
(١٣) وأسباب دعوتنا الصالحة وشركانا في الخير والشر (١٤) بعد وصول جوابي
أنتم وجملة فقراكم (١٥) جدوا واجتهدوا واتعبوا بسؤال الله (١٦) على نية قضا
حاجتنا عالة (١٧) ونية صادقة لا يكون منكم غفلة ولا تهاون (١٨) ولا فترة (١٩)
وانت سألتم عن الترك سلطنة (٢٠) مصر بلفظا خير قدومهم في مائة وثمانين
(٢١) ألف وهذا شيا قاسى على كافة المسلمين (٢٢) أتركوا جميع أموركم وأصرقوا
هتكم بالسؤال (٢٣) إن شاء الله ربنا يطل سفرهم ويرجعون (٢٤) إلى علمهم كونهم
ما يعرفوا مرتبة ولا غيره (٢٥) ولا عندهم اعتبار في خاص ولا عام لا نبي واثق بذلك

- × امر الموضوع بين قوسين تشير الى ترتيب السطور في الخطاب المذكور الذي لا يحمل تاريخاً
(١) أنظر كتاب الطائعات ص ٣٢ ترجمة الشيخ ابراهيم بن عبيد الفرضي
(٢) ما طلبنا القبائل أى اتنا لم نطلب القبائل الموجودة في الجزيرة .
(٣) تعبوا = أصابهم اليأس .
(٤) نزلنا في الدندر .
(٥) يقصد أنهم سندنا ووسيلتنا إلى الله - فقرنا جمع فقير أى فقير .
(٦) لا فقرنا وتكاسلوا



الملحق السابع - خطاب السلطان محمد بادي عجيب

الملحق السابع

خطاب السلطان محمد بادى عجيب

(ختم السلطان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتمزج من تشاء
وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . هذا مسطر من السلطان
محمد بادى عجيب الى بنو أمية الساكنين دار ضنقلة امراء القوم فقد نصركم الله
بعون دائم . الى المانجلك الشيخ قنديل ولد بادى والشيخ بادى ولد قنديل والشيخ
حماد ولد تيممه والشيخ القيل ولد الحجاج انكم ارسلتو لنا ابن أخينا المانجلك اسماعيل
ولد قنديل بمكاتبة منكم الجميع بان يرسلوا لكم اصول ابايكم الى مركز الصحابة
عليهم رضوان الله

فان يا أهلونا تعرفونا في كتابكم الاصول عز شان ولم لنا سوى شان عز
غير ذلك من

أولا نخبركم أتم من بنو أمية عليه أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم فبنوا أمية قبل النبوة سلاطينا وملوكا ولما ظهر نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم قد جعل الله أبكارا من بنو أمية أبا بكر وعثمان ابنيه وعمر
وعثمان ومعاوية ومن محبة النبي ص. م لمعاوية يدعو اللهم زد كرمكم الذى كنتم به
شانا ابايكم بقدر جاء النبي لم خفضت درجتنا ومستوين في زمان لان عشرة سلاطين
على المنابر في دار الدنيا فانا العاشر وأيضاً اسماعيل ابن المانجلك الشيخ قنديل
ابن بادى ابن اسماعيل ابن السلطان حمزة ابن السلطان صابر الشاهر بعجيب ابن عامر
ابن عبد العزيز ابن صابر ابن عميره ابن الهاجر ابن مرارة ابن مدين ابن صبيحة
ابن دهاشر ابن حذيفة ابن مروان ابن عبد الحكيم ابن معاوية ابن يزيد شره الله
به يكيد ابن معاوية حبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً الشيخ بادى
ولد قنديل ابن اسماعيل سلطان حمزة وأيضاً الشيخ حماد ابن عيمة
ابن عيسى ابن الكامل ابن عيسى

ابن جناح ابن هزيمة ابن الولي عباد ابن منار ابن عبد الله الجهنى جد الجينة وايضاً
 الشيخ القليل ابن . . . ابن بطيحه ابن الفيل ابن غريمه ابن شاهر ابن كيدة ابن زايد
 وش ابن عما ابن ضفروسه ابن دباب ابن هاجج ابن بصاير ابن كناية
 ابن صملة ابن قيا ابن حجاز ابن بهرة والحجرة مع بهرة من بنوا محزوم والنسب
 عز والا سف جارح فقد ترى وقايح والالسنه صامته والعبد عزيز ترى
 مكارمه الحذر من جارح الالسنه أيها الاهل بعد حضور ابن الاخي عنكم
 اسماعيل ابن قنديل فاحضروا عند الولي الصالح الفقيه محمد ابو دلق
 بعده فابرزوا جميع وأجمعوا رؤوس الديار بمناهات الخيول النحائس بعد الجمع
 يصير تلاوتها جبراً على الخلق وبعد التلاوة فقد صارت من شرف نسبنا من يدرك
 وكانت النسبة منى الى سيدى محمد ابو دلق امانة عنده لا يسلم لأحد
 امم لشيء لازم يحضر بصورة من للنسبة الامية وتفضل بطرقه ائمة وايضا
 من أمراء القوم فقد وكلنا لكم المانجلك اسماعيل ابن أخينا قنديل وطالبين
 حضوره عندنا لاستواء المجلس بعد الاتمام لأجل حضور الرسايل
 منكم اليها الامراء بالاستماع للمانجلك بعدم الخلاف واوصينا المانجلك اسماعيل
 لحظيرت مسجد الفقيه محمد ابو دلق كل عن بيته عمومياً الجميع ما يسهل قدر الطاقة
 وعن كل سنة تعطوا الزكاة له وعقدنا نيتنا عليه وانباع خلف ذريقنا لذرية خلف
 الولي الصالح محمد ابو دلق ابن الفقيه نفعنا الله ببركته فى الدارين آمين .

(ختم السلطان) المكاتبه من السلطان

محمد بادى عجيب

ملحق رقم ٨

أحمد ممتاز باشا

مدير عموم قبلى السودان

قد يتساءل المرء عن سبب اختيار هذه الشخصية من بين الشخصيات التي تولت حكمداية السودان في الفترة من ١٨٢٠م الى ١٨٨٥م وبينهم من أثبت جدارته وكفاءته وحسن إدارته . أما أحمد ممتاز باشا فقد اكتسفته ظروف غامضة حاولت أن تطمس معالم نشاطه وجوده لرعاية السودان وتقدمه الاقتصادي على أسس سليمة . وتبين لنا التقارير والمكتاتبات التي تنشرها في نهاية هذا الملحق مدى اهتمامه بالزراعة بخاصة القطن وعمله على رفع مستوى المعيشة وتحسين البلدان بإعادة تخطيطها وتوفير مياه الشرب وإدخال تعديلات على الضرائب بما ينمى مع حالة الأهالى . كل ذلك قد خلق له أعداء وحاسدين وجدوا فيه منافسا قويا سوف يضعف من مركزهم وحظوتهم لدى الخديو المتعطل للبال . وحتى لا تضيق عليهم قرص مطامعهم التي أغرقت البلاد في الديون التي ذهبت ضحيتها مصر والسودان فصرحت أحتياها الأجنبي والسودان ترك في أيدي الأجانب من الموظفين الذين عمدوا الى هدم كل أثر للإصلاح الذي قامت به الإدارة المصرية ، لكي تعود به الى حالة بدائية حتى يصبح أرضا بلا صاحب تقبل سيطرة المستعمر بطريق أو آخر . ولذلك لجأ منافسوه الى دس الوشائات في صورة شكاوى أرسلت تباعا الى الخديو كما ستعرض له فيما يلي .

• • •

عين ممتاز افندى محافظاً لمصوع بعد أن كان في ضيطة مصر واستندت اليه الرتبة الثانية (١) وقد تلقى علومه في ألمانيا وتخصص في الهندسة العسكرية وذلك بعد تخرجه من مدرسة المفروزة (٢) التي انشأها عباس الأول في مارس سنة ١٨٤٨ م .

(١) انظر مكتابه رقم ١ صفحة ٦٦ دفتر ٥٣٧ (تركي) عايد بن المعية وتاريخه ١٦ يونيو سنة ١٨٦٥م (١٤ محرم سنة ١٢٨٤ هـ) نقلا عن كتاب الحسك المنصري في السودان للدكتور محمد نؤاد شكرى ص ٢٥١ .

(٢) انظر مرهناك في كتابه « حقائق الأختيار في دول البحار » ج ٢ ص ٢٧٤ .

وقد عين ياورا للسلطان عبد العزيز خلال زيارته لمصر في مارس سنة ١٨٦٣ م وشغل منصب محافظ البحر الأحمر وعمل على ادخال تحسينات في سواكن كما اقام خزاناً عند الشاطىء (٣) لحفظ مياه الأمطار لتوفير مياه الشرب لليناء .

كما وضع مشروعات لزراعة القطن في دلتا القاش وخور بركة عند طوكر وانشا قنوات للرى في دقله مازالت آثارها باقية الى اليوم وطلب من الخديو انشاء خط حديدى يربط بين البحر الاحمر وبربر بدلا من شندى وقد كافاه الخديو برتبة الباشوية وبتعيينه محافظاً لشرق السودان وشمل اختصاصه موانئ سواكن وقطاع مصوع وساحل الصومال ومديرية الناكه وامتد نشاطه الى تعمير حوض خور القاش وحوض نهر العظيرة باستغلال الاراضى الصالحة لزراعة القطن التى جعل زراعتها اجبارية عندما تولى منصب مدير عموم قبلى السودان فى ١٨٧١ م لموسم زراعى واحد وكان غرضه من ذلك التكليف أن يتعرف على الطاقة الانتاجية للقدانس الواحد بالنسبة للمزارعين وقد أقامت الحكومة محلجا للقطن فى كسلا بلغت تكاليفه نحو الثلاثين الف جنيه وذلك استجابة لطلب أحمد ممتاز باشا . الذى يرجع اهتمامه بالتوسع الزراعى للفلال وزراعة القطن بالذات الى رغبته فى بناء مجتمع جديد يقوم على ممارسة الزراعة وبعض الصناعات فتستغنى الحياه ويرتفع المستوى المعيشى وبذلك تزداد طاقتهم على دفع الاموال الاميرية فى بسر وسهولة واقترح ممتاز باشا فى تقريره أن تحصل الجبايات عينية من المحصول كما اقترح أن يحلج قطن الاهالى فى كسلا ويرسل لسواكن حيث يباع بالسعر الجارى فى تلك الميناء . وكان السعر اثنى عشر ريالاً ونصف الريال للفنطار ويحمل الجمل بالثنين (وزن الباله قنطارين) وكان من رأيه أن ينقل القطن الذى تجمعته الحكومة على صالات للقاهرة فى أيام الفيضان حيث أن سعره فى القاهرة أعلى من سعر سواكن وهنالك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل السابق ذكره عن اهتمام ممتاز بالتوسع الزراعى وبخاصة القطن — الا وهو العجز فى انتاج القطن العالمى الذى تسبب عن الحروب الأمريكية وكان طبيعياً أن يحاول ممتاز باشا استغلال هذه الفرصة لتنمية الموارء المالية وقد بذل الخديو كل معونة لممتاز لتنفيذ مشروعاته لأنه كان يأمل أن يدخل عليه القطن أموالاً تساعد فى مشكلاته المالية .

(٣) تقع الشاطىء بجوار سواكن مباشرة .

(٤) عبارته عن مجموعة من الأشجار تضم الى بعضها وتستخدم لحمل القطن أو غيره بأقل التكاليف وفى نفس الوقت فإن الأشجار تباع بعد وصولها غايتها لاستعمالها فى المباني وغير ذلك .

وقد دخل ممتاز بسبب نشاطه في مشاكل دفعت إليها الغيرة والحسد في قلوب رجال اسماعيل المقرين وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش . فخير الناكه يعرقل جهود ممتاز ويعطل توزيع بذرة تقاوى القطن وأرسل هذا المدير شكوى للخديو . واشتبك مع جعفر باشا مظهر حاكم السودان حينذاك ورفع الأمر إلى الخديو الذى استدعى جعفر باشا مظهر بعد أن قام شاهين باشا كنج بالتفتيش على أعمال ممتاز في شرق السودان ورفع تقريراً للخديو مثنياً على جهوده وحسن إدارته وكان ذلك حوالى ١٨٧٠/١٨٧١ م .

• • •

عين ممتاز باشا مديراً لعموم قبل السودان لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بشئون السودان الاقتصادية والإدارية . ودخلت في اختصاصه مديريات الخرطوم وسنار والنيل الأبيض وفازو غلى (٥) . وفي المدة القصيرة التي قضاه في مركزه هذا وجه اهتمامه نحو لخص موارد الميزانية ومصروفاتها . وعمل على معادلتها أو على الأقل تخفيف ما تدفعه الخزنة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان لذلك أوقف الاحسانات التي كانت تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التي رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخسین في المائة لغير ما سبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ما ستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر في تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الاضافية التي قرضاها جعفر باشا لسداد قیمة نصف استحقاق وممرات سوارى وعسكر المعینين للمحافظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالاً أكثر مما كانوا يدفعونه في الماضى الذى كان فيه المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ما كانت عليه السياسة المالية من تحبط بسبب الارتمجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التي أجراها ممتاز باشا الطبقة الغنية صاحبة النفوذ ومن هنا بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد نزع هذه الحركة معنى بك الشاى (٦) وكيل مديرية الخرطوم صتيعة اسماعيل باشا صديق المفتش الذى كان عدواً لدوداً لممتاز باشا بسبب خشيتة من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والادارية لذلك كان

(٥) أمضى ممتاز في منصبه كدير عموم قبل السودان حوالى عشرة أشهر .

(٦) أنظر سرهنك في كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٧٤

اسماعيل باشا صديق اليد الخفية التي تلعب لاعداد الشكاوى وإرسالها للخديو عن تصرفات ممتاز باشا التي صورت بأنها تزوير في السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات ، أنه تقبل الرشاوى ، ولم يكن من العسير في زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز ضحية «نفسه» من رجال السلطة في مصر الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز وإقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم ليخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

وكان من نتيجة هذه الشكاوى التي صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامي ، أن تعطلت المشروعات التي بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع في السجن في القلعة بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافأ الخديو بأهدائه عزبته مساحتها ٢٥٠ فداناً إحداها في دار البقر في المحلة الكبرى والثانية في كفر الدوار . وقد حزت في نفسه حالة القبض عليه وإيداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة بعد جهود المضنية التي بذلها لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى . وعاد إلى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته في القاهرة . ولا شك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم في حالة نفسية غير طبيعية وبينما كان متأهبا لاستقبال المهثين في إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبيكراً عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكة ليسترخ قليلا وطلب من خادمه الخاص أن ينبهه عند اقتراب الموعد ولما ذهب إليه وجد أنه قد فارق الحياة وله من العمر ما يزيد قليلا عن الخمسة والأربعين عاما . وهذا ما ذكره خادمه الخاص نفلا عن حفيده الأستاذ ابراهيم رياض المحامى . وقد أيد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجل الخدمات في الوقت الذي وصل فيه الانحلال إلى مرحلة خطيرة وأراد الخديو اسماعيل أن يرسل ابنة الوحيد محمود في بعثة إلى الخارج مع البرنس حسن غير أن والدته قد رفضت أن يفارقها وحيدها الذي استمر في صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته في سبتمبر سنة ١٩٤٢ (ولد حوالى ١٨٦٧ م) وله من العمر خمسة وسبعين عاما ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعامة في إحدى العينين وقد أنجب ممتاز ابنتين تزوجت واحدة المرحوم محمد بك فهمى القمراوى والثانية من المرحوم محمد بك توفيق وبعد وفاة ممتاز تزوجت أرملته من الأمير الالى

محمد بك رستم - وتزوجت ابنة خال أرملة من محمود باشا خليل والد السيد محمد محمود خليل .

وهكذا يتبين لنا أثر الشائعات التي استطاعت أن تقلب الحقائق وتزورها وقد جاء فيها أن ممتاز قد حبس في الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام في انتظار هيئة المحاكمة برئاسة خالد باشا .

وقالوا أن أملاكه قد صودرت . وأنه مات مسموماً . وكل هذا لانصيب له من الصحة . فأبن ممتاز تقاضى معاشه حتى وفاته في سنة ١٩٤٢ والاطيان التي أعطاه له الخديو بقيت حتى زواج ابنته . وخالد باشا ذهب الى السودان في ١٨٧٤/١٨٧٥ م وشغل منصب وكيل المحكم دار اسماعيل باشا أيوب . وقد اعنى خالد باشا من أعماله ونقل الى مصر بسبب عدم رضا اسماعيل باشا أيوب عن أعماله . وجاء في خطاب آدم باشا العريفي مأمور ادارة عموم قبلي السودان الذي استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا ما يفيد بأن وفاته قد حدثت في أواخر عام ١٨٧٢ م (١٦) .

(١٦) أنظر وثيقة ٣٤ حيث جاء فيها تحصيل الأموال والبقايا (يقصد المتأخرات) من عهد حضوره لنفاية قيامه وقد حاولنا أن نراجع هذه الكلمة الأخيرة فلم نعثث على الأصل ورجح أن قيامه ، قد كتبت بدلاً من « وفاته » .

- ١ ٦ دفتر ١٩٣٤ أوامر عربي . صورة الامر رقم ٨ ص ١٤ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٧ هـ . بشأن نزح محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقي سواحل البحر الاحمر لحد بربره . وجعلها محافظة مستقلة تحت اسم محافظة سواحل البحر الاحمر . وتعيين احمد عتاز باشا محافظا عليها .
- ٢ ١٧ دفتر ١٨٤٩ وارد معه صورة رقم ١ ص ٨ و ٩ بتاريخ ٩ جمادى الثاني سنة ١٢٨٧ هـ . من مديرية التاكة إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بزراعة القطن في أراضي المديرية .
- ٣ دفتر ١٨٤٧ معيه عربي ، صورة المكاتبه العربيه رقم ٨ ص ٥٢ بتاريخ ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ . من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن واعتراضات مدير التاكة .
- ٤ دفتر ١٨٤٧ معيه عربي ، صورة المكاتبه العربيه نمرة ٧ ص ٥٢ في ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن .
- ٥ دفتر ٣٩١٠ معيه صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربيه نمرة ٨ ص ١٧٨ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ هـ . إلى المعية السنية عن زراعة القطن .
- ٦ ٢٦ دفتر ٣٩١٠ صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربيه نمرة ٧ ص ١٦٩ في ١٦٩ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ هـ . من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية . تقرير عن امكانيات التوسع في زراعة القطن في حوض القاش . وتنفيذ اعتراضات مدير التاكة .
- ٧ دفتر نمرة ١٩٣٥ (أوامر كرام) صورة أمر كريم صادر إلى محافظة سواكن نمرة ٤٤ ص ٥٩ في ٢٣ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ . شكر المحافظ لما بذله من مسعى للتوسع في زراعة القطن لما يترتب عليه من التقدم والرفاهية للسكان المحليين .
- ٨ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربي . صورة أمر رقم ٣ ص ٣٩ في ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ إلى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على رفع عبد الرازق بك مدير التاكة ووكيله وتعيين الاميرالاي الماس بك مسديراً والبكباشي

فرج افندي وكيلًا للتاكة وارسل ثلاثة آلاف أردب بذرة قطن لتوزعها على الأهالي .

٩ دفتر ١٨٤٩ واردمعية عربي ، صورة المكاتب العربية نمرة ٣ ص ٨ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . من مديرية التاكة الى المعية السنة - شكوى مدير التاكة بسبب ما يلاقه من محافظ سواحل البحر الاحمر .

١٠ ٣٣ دفتر ٣٩١٢ جزء رابع صادر ، سواحل البحر الاحمر، صورة المكاتب العربية رقم ١٦ ص ٤٨ بتاريخ ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الاحمر الى المعية السنية - عن زيارة المحافظ لسواحل البحر الاحمر .

١١ ٤ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربي نمرة ٥ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم الى محافظ سواحل البحر الاحمر . أمر كريم بشأن إقليم سمهر ، التابع الى مصوع .

١٢ ٥ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربي رقم ١١ نمرة ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم الى محافظة سواحل البحر - بشأن طابية حريقو .

١٣ ٦ دفتر ١٩٣٥ أمر عربي رقم ٦ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر الى محافظة سواحل البحر الاحمر ، بشأن الموافقة على تشكيل مجلس مخصص للنظر في القضايا والدعوى ، وانت أعضاء من نظار الاقسام بمديرية التاكة .

١٤ ٧ دفتر ١٩٣٥ ، أوامر عربي رقم ١٢ ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ هـ ، من المعية الى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على تخفيض المربوط على أهالي دهلك الى النصف .

١٥ ١٢ دفتر ١٨٤٨ معية مكاتب عربية رقم ٩ ص ٢١ بتاريخ ١٨ ربيع أول من محافظة مصوع للمعية السنية .

١٦ ١٥ دفتر ١٩٣٦ أوامر عربي جزء ثان رقم ٤٢ ص ٢١ بتاريخ ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ هـ الى محافظة مصوع . بشأن الموافقة على إنشاء سد على

خور بذلك الجهة ، لحفظ المياه للزراعة ، وتعيين المهندس الفرنسي بولان لهذا العمل .

١٧ ١٦ دفتر ١٩٥٣ . أوامر صورة أمر كريم صادر رقم ١٤ ص ١٥١ بتاريخ ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر - بشأن تشكيل مجالس محلية في الناكه ، وسواكن ، ومصوع ، للنظر في شكاوى الأهالي المدنية والجنائية والتجارية والفصل فيها .

١٨ ٤٠ دفتر رقم ١ (بدون نمره معية) ترجمة الوثيقة التركية نمره ٢ ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٨٨ هـ - [إرادة سنية الى رئيس المجلس المخصوص - بشأن إلغاء حكمدارية السودان وتعيين ممتاز مديراً عاماً لمديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض . وتعيين علاء الدين بك مـ مدير الناكه ، على المناطق الشرقية من السودان والمعقدة أراضيها الى حدود الحبشة وسواكن وجعلت هـ هذه المنطقة إدارة مستقلة . وتعيين حسين خليفة مديراً على مديريتي دنقلة وبربر ، كما أوضحت الوثيقة توزيع القوات العسكرية في مختلف المديريات .

١٩ دفتر ١٨٥٩ معية عربي - صورة المكاتبه رقم ١ مرور ص ٢٥ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلي السودان إلى المعية السنية . بشأن مقابلة ممتاز في أسبوط للمهندس المكلف بكشف الطريق إلى شندى لإنشاء سكة حديد ويذكر بعض المقترحات .

٢٠ دفتر ١٨٥٩ معية عربي - صورة الوثيقة العربية رقم ٣ ص ٢٥ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلي السودان الى المعية السنية . بشأن تعيين أورطة لاشتغال قطع الأخشاب .

٢١ دفتر ١٨٥٢ معية عربي - صورة الوثيقة العربية رقم ٥١ ص ٤٢ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية ، بختم المهردار ، لارسال ماتى أردب تقاوى نيلة مع الآلات المهمات الأخرى .

٢٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربي . صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣ ص ٤٣ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية الى نظارة المالية لارسال تقاوى قطن

- من صنف الاشعوى ، كذا عشرة أراذب من بذرة سيلان :
- ٢٣ دفتر ١٨٥٩ معية عربى رقم ٩ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلى السودان ، الى المعية السنية ، بشأن زراعة القصب
واستخراج العسل الاسود للاستهلاك المحلى .
- ٢٤ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١٠ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلى السودان ، الى المعية السنية ، بشأن الاهتمام بالتوسع
الزراعى ، القطن ، النخيل ، والقواكه والخضروات ، واقترح المدير تحويل
ماكينات بعض البواخر للنيلية لحليج وكيس القطن .
- ٢٥ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبه رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٢ شوال
سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية — يؤكد فيه
ضرورة الماكينات اللازمة لحليج القطن ويطلب ارسال تلامذة من مدرسة
الخرطوم ، أو من غيرهم ، الى القاهرة لتعليمهم بمدارس العمليات
الميكانيكية والزراعة ، وبعد تمام تعليمهم يرسلوا الى السودان ،
للعمل فى المناطق اللازمة .
- ٢٦ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبه العربيه رقم ٢٤ ص ٥٣٧ بتاريخ
٢٩ شوال ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية ،
يقترح انشاء مديرية جديدة مركزها القضايف وتضم مناطق القضايف
وراشد ودوكة وكنجاره وما يجاورهم من الاهالى والبلدان التابعة لمديرية
سنار وفازوغلى — كما يطلب تشجيع زراعة القطن والنيلة .
- ٢٧ دفتر ١٨٥٩ معية عربى ، صورة الوثيقة العربيه رقم ٢٨ ص ٥٦ بتاريخ
٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية ،
يذكر فيه أن الاموال المتأخرة فى مديرتى سنار والخرطوم لغاية ١٢٨٨
تبلغ ١٤ بارة و ٢١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيه ، ويرجع أسباب التأخير
الى اهمال التوسع الزراعى .
- ٢٨ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ٤ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ

من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان ، بشأن ارسال عمال المراقبة زراعة التيلة .

٢٩ دفتر ١٨٥٣ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان ، بخصوص أطيان جفلك الدائرة السنية .

٣٠ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١١٨ ص ١٤٩ بتاريخ ٧ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المالية ، وهو عبارة عن :

أخطار عن تعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً إلى عموم قبلى السودان بدلا من ممتاز باشا .

٣١ دفتر ١ بدون نمرة أمر نمرة ٤٤ ص ٣٤ بتاريخ ٣ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية إلى اسماعيل أيوب باشا ، تبليغه أمر تعيينه مديراً للسودان القبلى .

٣٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ٥٧ ص ١٥١ بتاريخ ٣ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المجلس المخصوص ، أخطاراً بتعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً على عموم قبلى السودان ، بدلا من ممتاز باشا الذى صار انفصالة من هذه الأمور .

٣٣ دفتر ١٨٦٤ معية رقم ٣٩ ص ٤ بتاريخ ٢١ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من آدم باشا مأمور لإدارة مديرية عموم قبلى السودان - يذكر فيه أن ممتاز باشا قد أدخل تعديلات فى التنظيمات والمقررات وأنه لم يتم بتحصيل الاموال من عهد حضوره لغاية قيامه (وفاته - التى حصلت بالخرطوم) .

٣٤ دفتر ١٨٦٤ رقم ٤٠ ص ١٤ بتاريخ ٢٤ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من سعادة آدم باشا مدير عموم قبلى السودان (مأمور ادارة مديرية عموم قبلى السودان وقائم بأعمال المدير المتوفى) إلى المعية السنية يذكر فيه أن الاموال المتأخرة لغاية حضور ممتاز باشا كالآتى :

بارة	قرش	كيس	
١٧	١٢	١٨٠٥٤	متأخرات الاموال
١٩	٢٧٩	١٥٣٦٧	الاموال المربوطة عن سنة ١٢٨٨
٣٦	٢٩١	٢٣٤٢١	
٢٥	١٨٠	٢٩٨٨	الاموال التي تحصلت في فترة ادارة ممتاز باشا
١١	١١١	٢٩٤٢٣	

المبالغ التي أمر ممتاز باشا بنقصها

بارة	قرش	كيس	
٣٠	٨٣	١٠٧٤	تصف استحقاق الجنود التي كانت مفروضة على قيائل النيل الأبيض .
٢٥	٤١	٥٣٧	خصم من زمام القسم .
٠٠	٠٠	٢٠٠	الغرامة التي حكم بها على أهالي النيل الأبيض .
٢٠	١٨١	٤٥٩	خصم من زمام عربان رفاعة الخوى لعدم مقدرتهم على الدفع .

٣٥	٣٠٦	٢٢٧٠	جملة الخصومات
١٦	٣٠٤	٢٧١٦٢	المبالغ المتأخرة

ملحوظة : الوثيقة عن ٢٧ توضح أن الاموال المتأخرة عن مديرتي سنار والخرطوم لغاية سنة ١٢٨٨ هـ ١٤ بارة و ١١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيس ، وبما لاشك فيه أن المسألة الضريبية في حاجة إلى دراسة تفصيلية للكشف عن أوجه الضعف ، فيها وإن لا تركز إلى القول أن المسألة مجرد اهمال شخص معين ، فهي في الواقع أبعد عمقا عن مثل هذه الأقوال .

الملحق التاسع

خطاب هنرى ستانلى الى بروكلموس

٣٤٤ حقائق دى فيبي ،

صديق العزيز

يكتب إلى في كل أسبوع عدد من الألمان والنسويين في لغتهم ، التي لا أعرف منها مع الأسف كلمة واحدة ، وربما أكون في موقف أحسن أقدر فيه ما تحمله إلى هذه الرسائل من عواطف ، وذلك عند ما يتم زواجي بسيدة معينة تعرف عدداً من اللغات منها الألمانية ، وحتى يجين ذلك الوقت فإنني قانع بإهمال هذا العدد من الرسائل ، ولا أعلم ما تحمله إليه من تمنيات أو لعنات .

(ويستطرد في حديثه عن المشاكل الخاصة بأمين باشا مدير خط الاستواء ، وعن المنافسة بين البريطانيين والألمان في شرق أفريقيا) .

ثم يقول في الصفحة السادسة من خطابه ما يأتي : —

« إذا كان المستعمرون من الألمان يعتقدون أنهم سوف يجدون مالا كثيراً عندما يطردون الانجليز من شرق أفريقيا ، فإنهم يقعون في خطأ عظيم .

إن التنافس بين الانجليز والألمان يجعل قيمة لشرق أفريقيا ، وإن خروج البريطانيين من هذه المنطقة في صورة مزرية سوف يحدث انعكاساته على المصالح الألمانية في القارة الأوروبية وإذا حدث وخرج الألمان من شرق أفريقيا في مثل هذه الظروف فإن المصالح البريطانية سوف تنعدم .

واني أود أن تصل الدولتان إلى اتفاق مناسب تتوفر معه لكل من الدولتين الامكانيات لاستغلال المناطق التي تسيطر عليها كل منهما وتجنّي ثمار جهودها . وأرجوا أن تفكر قليلا في هذا الموضوع فإنك سوف تجد نفسك قد وصلت إلى نفس النتيجة التي وصلت إليها .

أن جميع القارة الأفريقية لا تساوى شيئاً في نظر بريطانيا إذا قورن ذلك بما سيكلفه النزاع مع ألمانيا، وأن القارة الأوروبية لا تساوى شيئاً بالنسبة إلى ألمانيا إذا انقطعت العلاقات بين الدولتين فالخير لكل الخير أن تتفق الدولتان على تخطيط الحدود بينهما، وليكن بينهما التنافس في البناء والتقدم الأمر الذي أتمنى أن أراه في أفريقيا التي هي موضع اهتمامي .

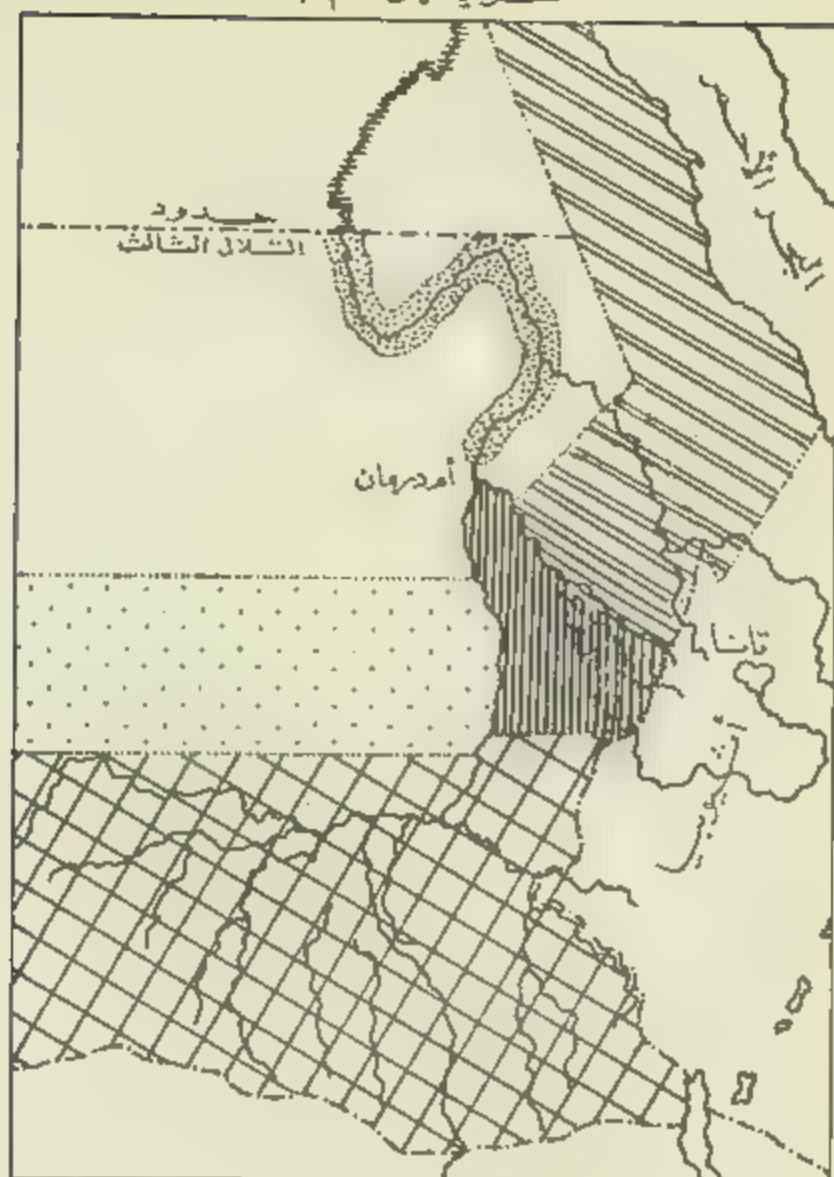
..... وان حماس الألمان سوف يموت إذا خرج الانجليز من شرق أفريقيا
لأنهم سوف يفقدون جارة غنية وقوية .
المخلص

هنري م . ستانلي

ملحوظة — :

المرسل إليه هذا الخطاب هو ف . ا . بروكلهوس صحفي ألماني من عائلة
بروكلهوس الشهيرة .

خريطة رقم ٢



المناطق المختلفة كما يعرفها أهل البلاد

دارصباح
أرض الكنوز
السافل

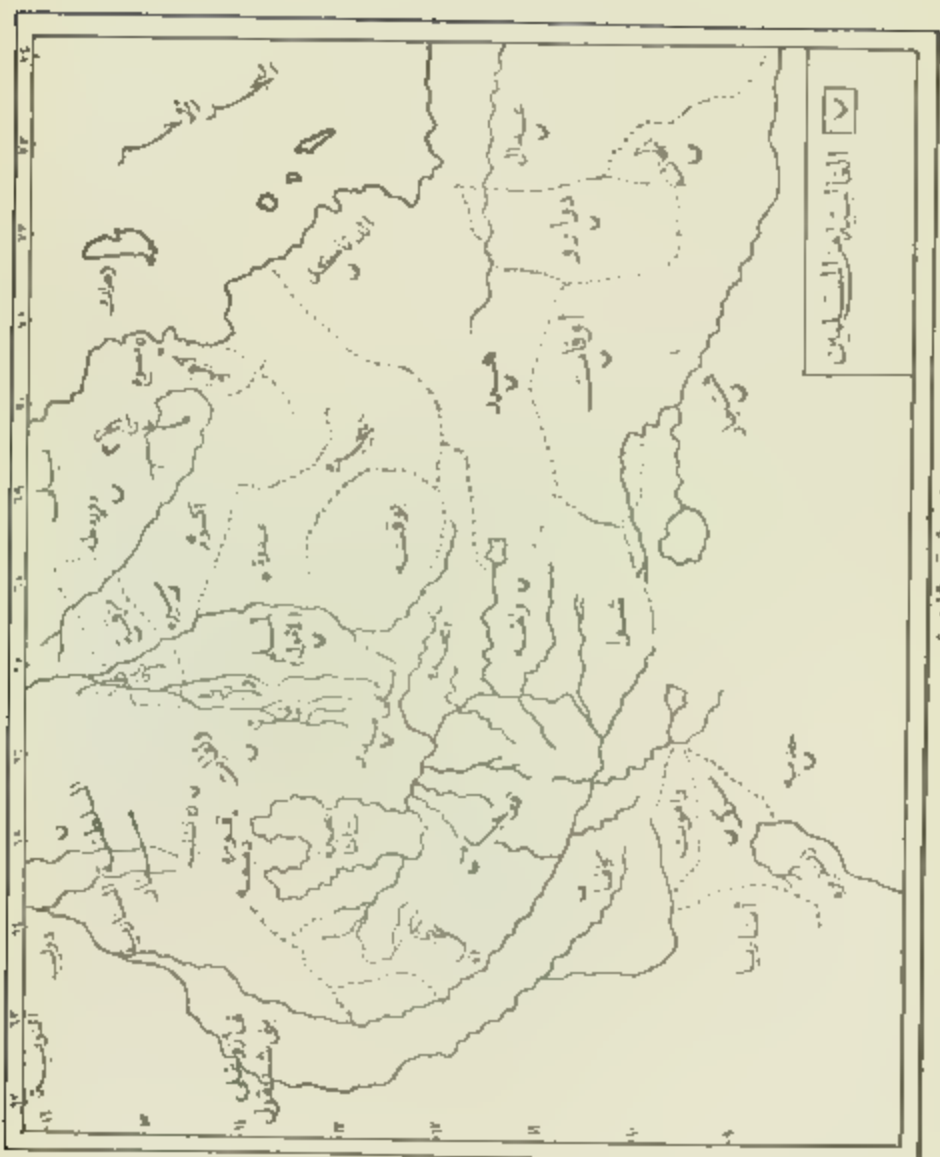


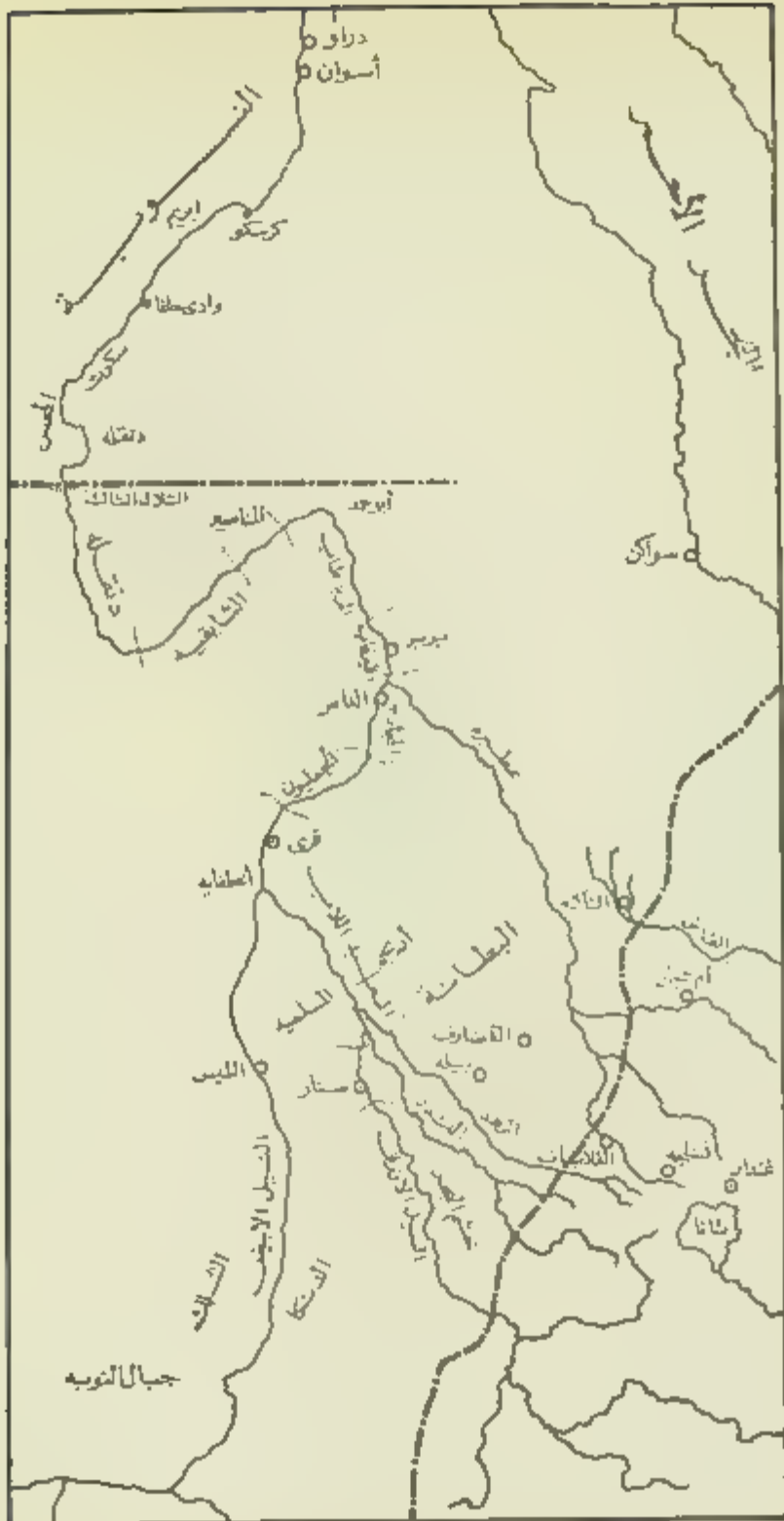
عظمور
الصعيد
المجنوب
دارعرب





خريطة العالم ٣
السلطنات الإسلامية في آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي





www.azadsharq.com

داخلية

نختره طبعه رؤفم ۵

الديار القبليّة التي تكون منها الحلف السناري

مصادر البحث

مصادر البحث

١ - مخطوطات - لم تنشر بعد

دار الكتب المصرية القاهرة :

أ (تاريخ مدينة سنار لكاتب مجهول . تحت رقم ١٨ م - كاتب المخطوطة كما هو مذكور في المتن هو أحمد ابن الحاج أبو علي - المشهور بكاتب الشونة - وقد كان موظفاً في الديوان العام في الخرطوم .

ب) تاريخ ملوك الفونج والسودان وأقاليمه . تحت رقم ٢٥٤٧ مصورة عن النسخة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس .

- مخطوطة تاريخ قلاوون .

المكتبة الأهلية - فيينا - النمسا :

ج (تاريخ السلطنة السنارية - وهي القسم الأول من مخطوطة تاريخ مدينة سنار ، وقد نقلها أحد الفقهاء في الخرطوم كطلب المبتشر اجناز كنوبلخر الذي أودعت باسمه في المكتبة الأهلية في فيينا . وتشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهايتها - وفيها بعض زيادات سقطت من النسخة الموجودة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

المكتبة البريطانية - لندن :

د (تاريخ ملوك الفونج - وتنتهي بالفترة التي سبقت حكم دارية غوردون - وقد أودعها غوردون في هذه المكتبة .

هـ (نسخة أخرى من (ج) أرسلها غوردون للدايرة السنية وهي باسم تاريخ مختص بأراضي النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفونج .

وثائق نقلها المؤلف من السودان :

انساب الركابية

انساب أولاد جابر

• مخطوطة الشيخ أبو دلق

كتاب مفيد الايمان في بيان من سكن من قريش في أرض السودان .

- تاريخ أربجي .
- خطابات من سلاطين سنار .
- خطاب الوزير الشيخ محمد ابن الوزير الشيخ عدلان .

■ منشورة ضمن ملاحق الكتاب .

٢ — مخطوطات منشورة

تاريخ ملوك السودان - وقد نشره الدكتور مكي شيككة تحت رقم ١ تاريخ من مطبوعات كلية الخرطوم الجامعية .

٣ — مطبوعات عربية

ابراهيم صديق — الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء القاهرة ١٩٣٠ م .

ابراهيم فوزى — السودان بين يدى غوردون وكشف القاهرة سنة ١٣١٩ هـ جزءان .

اسماعيل مرهتك باشا — حقائق الاخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٣١٢ هـ ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة . دار الكتب المصرية .

ابن حوقل — كتاب صورة الارض . طبع لندن سنة ١٩٣٩ أنظر كرامر

الشاطر بصلي عبدالجليل — على اطلال مدينة سنار . القاهرة ١٩٣٥ .

• • • — تاريخ المواصلات في سودان وادى النيل .

جزء أول القاهرة ١٩٥٠ .

سليمان داود مندیل — كتاب الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان - الخرطوم ١٩٣٠

شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر .

المعروف بعرب فقيه أنظر بآسيه Basset, R.

شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . أنظر مبرن .
ضيف الله — أنظر ابراهيم صديق وسليمان داود .

عبد الرحمن زكي يوميات عباس بك - المجلة التاريخية المصرية أكتوبر ١٩٥١
 دكتور عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان في القرن التاسع عشر .
 جزءان - القاهرة .

عرب فقيه — أنظر شهاب الدين بن أحمد بن عبد القادر .
 عمر محمد علي أنبوسيا - القاهرة ١٩٥٤
 العمري ابن فضل الله — كتاب مسائل الأبصار في عمالك الامصار - ترجمة
 فرنسية طبع باريس ١٩٢٧ .

أنظر Gaudetrory Demmlynes
 الطبري — أنظر مقال استافلي لين بول
 فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء . الاسكندرية سنة ١٨٩١ م .
 دكتور محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى في السودان القاهرة
 المقرري — المواعظ والاعتبار نشره فيديت

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية .
 — الامام بأخبار من أرض الحبشة عن ملوك الاسلام
 مطبعة التأليف القاهرة سنة ١٨٩٥ م
 محمود طلعت — غرائب الزمان في فتح السودان .

مطبعة الاسلام بالقاهرة سنة ١٨٩٦ م .
 محمود الفنباني — السودان المصرى والانجليز - طبع جريدة الاهرام
 مجموعة مقالات نشرت أصلا في جريدة الاهرام

قوم شقير - تاريخ السودان القديم والحديث . القاهرة - مطبعة المعارف ١٩٠٤
 اليعقوبى - تاريخ نشره هوتسما طبع لندن سنة ١٨٨٥ م

BOOKS OF REFERENCE

Abbreviated reference	A U T H O R A N D T I T L E
Etiopia I.	Teodosio Somigli De S. Detole, Fr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia della Terra Santa dell'Oriente Franciscana, Tome I, Quarachi presso Firenze, 1928.
Etiopia II.	Giovanni Maria Montano, Dr., O.F.M., Biblioteca-Bio- Bibliografia Della Terre Santa Del'Oriente Franciscana, Tome II, Firenze, 1948.
Hill, I.	A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan up to 1937 Hill, R. L.,
Hill, II.	Hill, R. L., A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford 1951
Ministere	Documents Diplomatiques Affaires d'Egypte, 1884-1893 (Ministere des Affaires Etranger) Paris 1893.
Parliamentary	Parliamentary papers relating to Egypt in Blue books since 1877 onwards.
Stewart	Stewart, C. E., Col., Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, Blue Book, London 1883.

PUBLISHED SOURCES IN OTHER THAN ARABIC

Abbreviated
reference

A U T H O R A N D T I T L E

- أبو صالح Abu Salih, trans. by Evetts, Churches and Monasteries of Egypt, Oxford, 1895.
- آدلر Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London, 1931.
- المكف Almkvists, Nubische Studien, Leipzig, 1911
- الفارز Alvarez, F., Ed. by Lord Stanley of Alderley, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, Hakluyt Society, London, 1881
- أمير علي Ameer Ali, Spirit of Islam, London,
- اركل Arkell, A.J., An Outline History of the Sudan, Khartoum, 1945.
- (٢) اركل Arkell, A.J., A History of the Sudan up to 1821 A.D. London, 1955.
- أوليا See Evliya.
- بيكر Baker, Sir Samuel, The Nile Tributaries of Abyssinia London, 1887.
- (٢) بيكر Baker, Sir Samuel, Ismailia, London, 1874.
- باسيه Basset, R., Histoire de la conquête de l'Abyssinie, Chehab El Din Ahmed Ben Abd El Qader. Paris, 1897.
- بيكاري Beccari, Rerum Aethiopicarum, Roma, 1904/17.
- بير Beer, G.L., Ed. Gray, B.H. African Questions at the Paris Peace Conference, New York, 1923.
- بيبر Biberfeld, E., Der Reiseb. des David Reuben, Berlin, 1892.
- بلنت Blunt, W.S., Gordon at Khartoum, second edition, London, 1912.
- بصلي Bosayley, C., The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile, Khartoum, 1945.
- برون Browne, W.O., Travels in Africa, Egypt and Syria, 1797-9, London, 1806.
- بروس Bruce, J., Travels to discover the sources of the Nile, Edinburgh, 1805.
- برون - روليت Brun-Rollet, N., Le Nil Blanc et le Soudan, Cairo, 1855.
- بكل Buckle, G.E., Letters of Queen Victoria, New York, 1926.

- بدج Budge, E.A.W., The Egyptian Sudan, London 1907
- (۲) بدج Budge, E.A.W., The Book of the Saints of the Ethiopian Church, London, 1928.
- (۲) بدج Budge, E.A.W., A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, 1928.
- بورخاردت Burchardt, J.L., Travels in Nubia, London, 1819
- بیرتون Burton, R.F., First Footsteps in East Africa, London 1856.
- کاپو Cailliaud, Fred., Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, ou dela dela de Fazoqqi dans le midi da Royaume de Sennar, Paris, 1825.
- تشرشل Churchill, W., River War, London, 1949.
- کوبان Cobban, A., Ambassadors and Secret Missions, London, 1954.
- کونسلمان Conzelman, W.E., Chroniques de Galawdéus, Paris, 1895.
- کروفورد Crawford, O.O.S., The Fung Kingdom of Sennar, Glous., 1951.
- دیسى Dicey, E., England and Egypt, London, 1881.
- (۲) دیسی Dicey, E., The Story of the Khedivate, London, 1902.
- دوان Douin, G., Histoire du Soudan Egyptien, Cairo, 1944.
- دربو Driault, E., La Formation de l'Empire de Mohd Ali (1814-1823), Cairo, 1927.
- الـ Elton, Lord, General Gordon, London, 1954.
- انجلیش English, G.B., Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under the Command of His Excellency Ismail Pasha, Boston, 1823.
- اولیا Evliya, Chelebi, Seyahatnemesi, Misr, Sudan Habesh, 1672-1680. Vol.X, Istanbul, 1938
- ابن فضل Ibn Fadl Allah Al Omari, Masalik el Absar Fi Mamelik El Amsar, trans. by Gaudefroy Demombynes, Paris, 1927.
- فیلد Field, Henry, The Anthropology of Iraq, Chicago, 1840.
- جودفری See Ibn Fadl Allah el Omari.
- جسی Gessi, R., Seven Years in the Sudan, London, 1892.

- جیبن Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, London,...
- جلیخن Gleechen, Count, With the Mission to Menelik, London, 1898.
- جرايتز Graetz, H., Gesch. der Juden. Leipzig.
- جریفث Griffith, F. LL., Studies presented to London, 1932
- جون Gwyn, S., and Tuckwell, G.M., The Life of the Right Honourable Sir Charles Dike, London 1918.
- جراى See Beer.
- هیک Hake, H.E. The Journal of Major-General C. G. Gordon, C.B., at Khartoum London, 1885.
- هرتسلت Hertslet, Sir Edward, see Map of Africa Bytreat 3rd Edition, 1909.
- هنرى See Waddington.
- ابن حوقل See Kramers.
- هومل Hommel, F., Ethnologie, Geog. des alten Orients, Munchen, 1926.
- هوسکن Hoskins, G.A., Travels in Ethiopia above the second Cataract of the Nile, London, 1835.
- ابن جبیر Ibn Jubayr, Travels ed. Goeje, M.J.de, Qibb Memorial Volum V.
- ارون Erwin, Eyles, A series of Adventures in the course of a voyage up the Red Sea on the coasts of Arabia and of a Route through the Deserts of Thebais in the year M.DCC.LZXVII. London, 1780.
- جکسن Jackson, H.C., Tooth of Fire, London 1912.
- جزای Jackson, JAMES GREY, an account of the Empire of Morocco, donda, 1811.
- کامیرر Kammerer, A., Essai sur l'histoire Antique d'Abyssinie Paris. 1926.
- (۲) کامیرر Kammerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Cairo, 1929
- کرمب Krump, T., Hoher und Fruchtbner translated in the Fung Kingdom of Sennar, by Grawford.
- لاجراقنس Lagercrantz, Sture, Contribution to the Ethnography of Africa, Upsala, 1950.
- لانفر Langer, W.L., European Alliances and Alignments, 2nd edition, New York, 1950.

- (۲) لاہر Langer, W.L., Diplomacy of Imperialism, 2nd Ed. New York, 1950.
- لبسوس Lepsius, R., Discoveries in Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai in the years 1842-5, London, 1853.
- لو Low, Sydney, Egypt in Transition, New York 1914.
- لوکاس Lucas, Sir Charles, The Story of the Empire Vol.II, London. 1924.
- لودلفس Ludolphus, J., A New History of Ethiopia, London, 1684.
- مکیمیکل MacMichael, H.A., A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922.
- ماجنوس Magnus, Ph., Gladstone, a biography, London, 1954.
- میک Meek; C.K., Tribal Studies in Northern Nigeria, London, 1931.
- (۲) میک Meek, C.K. Sudanese Kingdom, London. ...
- میرن Mehren, A.F., Manuel de la Cosmographie du Moyan Age, traduit de l'Arabe de Shams Ed Din Abu Abou Abdallah Mohd de Damas, 1874.
- مری Murray, O.W., A An English-Nubian Comparative Dictionary Harvard African Studies Vol. IV, Oxford University Press, 1923.
- (۲) مری Murray; G.W., Sons of Ishmael; London.
- مفضل Monfazzal Ibn Abil Fazail, Histoire des Sultans Mamloukes, Texte Arabe publié et traduit en Français par Blochet, E., Patr. Or. T. XII.
- نکلس Nicholls, W., The Shayikiya, Dublin, 1913.
- اوروالڈز Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, English edition by Wingate.
- العمری See Ibn Fadl Allah and Gaudetfroy-Demmombynes.
- پادمور Padmore, G., Africa Britain's Third Empire, London, 1949.
- پالمر Palmer, Sir Richmond, The Bornu Sahara and the Sudan, London, 1936.
- پول Paul, A., The Beja Tribes, London, 1954.
- پرہام Perham; Margery, Native Administration in Nigeria, London.
- پٹرک Petherick, John, Egypt, the Soudan and Central Africa, London, 1861.

- بونسيه Poncet, Jaques, The Red Sea and adjacent countries
 at the close of the Seventeenth Century, Hakluyt
 Society London, 1949.
- رنل Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories.
 1884-91 London, 1923.
- ري Rey, C.F., In the Country of the Blue Nile, London
 1927.
- (۲) ري Rey, C.E., The Romance of the Portuguese in
 Abyssinia London, 1929.
- روز Rose, J.H., Life of Napoleon, London 1913.
- روسيني Rossini, C.C., Storia d'Etiopia, Milan, 1928.
- روبل Rüppel, E., Reisen in Nubien, Kordofan und dem
 fethärischen Arabien, 1829.
- روسل Russell, Henry, The Ruin of the Soudan, London,
 1892.
- سولت Salt, H., H., A Voyage to Abyssinia, London
 1814.
- سلجيان Seligman and Brenda, Z., Pagan Tribes of the
 Nilotic Sudan, 1932
- شبيكة Shebeika, M., The British Policy in the Sudan,
 1882-1902, London, 1952.
- شكري Shukri, M.F., Khedive Ismail and Slavery in the
 Sudan, Cairo, 1937.
- سلاتين Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan, English
 edition by Wingate, London, 1896.
- ستانلي Stanley, Lord, see Alvarez.
- ستراشي Strachey, Lord Lytton, Eminent Victorians, London
 1949 (Penguin Series Book No. 649)
- تريمو Tremaux, P., Rapport sur le voyage au Soudan
 oriental Paris, 1853.
- (۲) تريمو Tremaux, P., Voyage en Ethiopia au Soudan
 Oriental Paris 1862.
- ترمنجهام Trimmingham, J.S., Islam in the Sudan, London,
 1949.
- (۲) ترمنجهام Trimmingham, J.S., Islam in Ethiopia, London,
 1952.

- فيلارد Villard, Moneret de, Storia della Nubie Cristiana, Roma, 1938.
- واديختون Waddington and Hunbury, B., Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London 1822.
- وسترمان Westermann, D., The Shilluk People, Philadelphia, 1912.
- (٢) وسترمان Westermann, D., African Today and Tomorrow, London.
- ونجت Wingate, R., Mahdism and the Egyptian Sudan, London 1891.
- (٢) ونجت Wingate, R., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp by Chrwalder, ed in English, London 1892.
- (٣) ونجت Wingate, R., Fire and Sword in the Sudan, 1879-1895, ed in English, London 1896.
- وئف Woolf, L., Empire and Commerce in Africa, London, 1922.
- ورثام Wortham ; H. E., Gordon an intimate Portrail, London, 1933.
- وايش Wyche, Sir Peter, A Short relation of the river Nile, London, 1669.

Encyclopædia of Islam, Vol.I; Fasc.I, Leiden 1954

Periodicals :

- عباس بك Abbas Bey, Diary of, found with a Dervish who was killed in the battle of Omdurman in 1898.
S.N. ■ R. Vol. XXXII, p. 179-196. See Zaki
- اركل Arkell, A. J., King Badi wad Nol, granting land,
S.N. ■ R. Vol. XV, p; 248-50.
- (٢) اركل Arkell, A. J., Fung Origins,
S.N. & R. Vol. XV, p 201-250
- (٣) اركل Arkell, A. J., More about Fung Origins,
S.N. & R. Vol. XXVII, p 87-97.
- (٤) اركل Arkell, A. J., Fung, correspondence,
S.N. ■ R. Vol. XXXIII, p 181-182.
- بلوس Bloss, J.F.E., The Story of Suakin,
S.N. & R. Vol. XIX, p 272-300 (286-287)

Periodicals (contd.)

- Cerulli, Enrico,
شیرولی Documenti arabi per la storia dell'Etiopia,
R. Accademia Nazionale dei Lincei,
classe de Scienze morali, memorie,
Vol. II. serie, p 39—101.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Note on the History of the Fung,
S.N. & R. Vol. XIII, 247—250
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Archaeology in the Souther Sudan,
S.N. & R., Vol. XIII, p 288—91.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Fung Origins,
S.N. & R. Vol. XVII, p III—117.
- Crawford, O.G.S.,
کروفورد Tagia umm Qerein,
S.N. & R., Vol. XVI. pp 333—334
- Crawford, O.G.S.,
کروفورد Lul; * * * 335—6
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت Some Red Sea Ports in the Anglo Egyptian
Sudan,
Geographical Journal, May 1911.
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت Christian Nubia,
Journal of Egyptian Archaeology, Vol.
XIII. p 141—50.
- Cumming, D.C.,
کنج The History of Kassala and the Province
of Taka,
S.N. & R., Vol. XX., p 1—45 (4,9)
- Disney, A.W.M.,
دیزنی The Coronation of the Fung King of
Fazoghli,
S.N. & R., Vol. XXVI., p 37—42.
- Elles, R.J.,
الس The Kingdom of Tegali,
S.N. & R. Vol. XVII, p 1—35
(10—12)
- Evans-Pritchard, E.E.,
ایفانز برتشارد Ethnological Observations in Dar Fung.
S.N. & R. Vol., XV., 1—61 (57)
- Gray, Sir John,
جرای East Africa and America,
Tanganyika Notes & Records, 1946
- Griffith, F.L.L.,
گریفت Christian Documents from Nubia,
Proceedings of the British Academy,
Vol. XIV. pp 117 ff, 1928.
- Guidi,
جویدی Giom. della Societa Asiatica Italiana
Tomes III

Periodicals (contd.)

- Hebbert, H.E.,
هبرت
El Rih, a Red Sea Island,
S.N. & R., Vol. XVIII, 308
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XVIII, p 149—154.
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XXXII, p 174—175
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XXXIV, p 315—316.
- Hillelson, S.,
هلسون
David Reubini, an early visitor to Sennar,
S.N. & R., Vol. XVI, p 55—66
- Holt, P.M.,
هولت
Mahdiya,
S.N. & R. Vol ; XXXIII, p 182—186.
- Jackson, H.C.,
جکسن
The Nuer of the Upper Nile Province.
S.N. & R. Vol. VI., p 69—70
- Kirwan, L.P.,
کروان
Note on the Topography of the Christian Kingdom, Journal of Egyptian Archaeology, Vol; XXI, p 59-62.
- Lane-Poole, Stauley,
لین پول
The First Mohammedan Treaties with Christians, Royal Inst. Academy Proceedings Vol. XXIV Part 5 — 1904.
- Madigan, C.T.,
مادجان
A description of some towers in the Red Sea North of Port Sudan,
S.N. & R., Vol , V. p 78—82.
- Mathew, J.G.,
مائیو
Land Customs and tenure in the Singa District,
S.N. & R., Vol. IV p 1—19.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Tales from the Fung Province,
S.N. & R. Vol. XIV, p 61—86.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Fung Origins,
S. N. & R., Vol. XIV, p 61—66.
- Neubauer, A.,
نیوباور
Anecdota Oxoniensia,
Semitic Series, Vol. I parts 4—6
1895

Periodicals (contd.)

- Owen, T.R.H., The Hadendowa,
اون S.N. & R. Vol.XX. pp 183-200 (185)
- Paul, A., Ancient Tombs in Kassala Province,
بول S.N. & R., Vol. XXXIII, p 54-59.
- Penn, A.E.D., Traditional Stories of the Abdullah Tribe,
پن S.N. & R., Vol. XVII, p 59-82.
- Pumphrey, M.E.C., Shilluk "Royal Language Convention"
پمفری S.N. & R. Vol. XX. p 319.
- Pumphrey, M.E.C., The Shilluk Tribe,
پمفری S.N. & R. Vol XXIV, pp 1-45(12)
- Robertson, J.W., Fung Origins,
روبرٹسن S.N. & R., Vol.XVII, p 260-265.
- Robinson, A.E., The Mamlukes in the Sudan,
روبنسن S.N. & R. Vol.V. p 88-94.
- Robinson, A.E., Abu El Kaylik, the King-maker of the
روبنسن Fung of Sennar,
American Anthropologist, Vol, XXXI.
- Robinson, A.E., The Conquest of the Sudan by the Wali
روبنسن of Egypt,
Journal of African Society,
October and January 1926.
- Robinson, A.E., The Fung Drum or Nehas,
روبنسن S.N. & R., Vol;IV. p 211-212.
- Robinson, A.E., Nimr the last king of Shendi,
روبنسن S.N. & R., Vol VIII, p 105-118.
- Rossini, C.C., Documents per l'Archaeologie iritrei nella
روسینی bassa Valle de Barca,
R. R. A. L., Vol. XII serie V.
Rome, 1903 pp 139-150.
- Sandars, G.E.R,
and Owen, T.R.H.
سانڈرز Note on Ancient village note in Khor Nubt
and Khor Omek with note by Shinnie, P.L.,
S.N. & R. Vol. XXXII, p 326-332

Periodicals (contd.)

- ستيوارت ورتلى Stuart-Worthley, Montague, E.J. { My Reminiscences of Egypt
and the Sudan, S.N. & R.
Major-General, The Hon. Vol. XXXIV pages 17-46
and 172-188.
- طوسون Tousson, Prince Omar, La Fin des Mamloukes,
Bullet. Inst. d'Egypte, Vol. 15, pp 193 ff.
- وطن Watson, C.M., Maor, Trad Prospects with the Sudan,
Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3
7/12, 1887.
- وطن Watson, C. M., Lt. Col., Suakin Berber Route to
the Sudan, Journal of Manchester Geographical
Society, Vol. I., 1894.
- ونجت Wingate, F. R., Beseige and Fall of Khartoum,
S.N. & E. Vol. XIII.
- ويلد Wyld, A. D., The Red Sea Trade, Journal of
Manchester Geographical Society, Vol. 3, 1887.
- زكى Zaki, Dr. Abdel Rahman, Diary of Abbas Bey in
Egyptian Society for Historical Studies (Arabic).

مجموع الدراسات التاريخية السودانية

للدؤلف

بالعربية

البحث الأول : على أطلال مدينة سناء . القاهرة ١٩٣٥

• الثاني : الدويلات الإسلامية في السودان وادى النيل . الخرطوم ١٩٤٦

• الثالث : تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٠

• الرابع : تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل جزء ثان (للتطبع)

• الخامس : السلطان راجح . ترجمة عن الألمانية للكتاب اوبنهايم ترجمه

الى الانجليزية (دكتور سلاوك) عربيه وعلق عليه . (للتطبع)

• السادس : رحلة اوليا شلي في السودان والحديثه بالاشتراك

مع الاستاذ محمود نفص

• السابع : معالم تاريخ السودان وادى النيل

• الثامن : جغرافية السودان مترجمة عن التركية بالاشتراك

مع الاستاذ محمود نفص

Note No.

1. The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile
Khartoum, 1945.
2. The Flight of Sudanese Tribes to a Lebensraum in the
Niger Valley. For Press
3. The Origin of the Sennar Sultanate. For Press
4. Geographical Dictionary of the Valley of the Blue Nile.
For Press

The Mahdi's movement was a natural outcome of the local institutions under the prevailing conditions with Europeans holding key posts in the Sudan Administration and consequent British Occupation in Egypt, the latter event had paved the road for further developments, and rapid changes in the nature of the rise.

This Mahdi's move is discussed in relation with foreign influencing elements, which had over-ridden the divine proclamation of the Mahdi. The foreign activities and their surroundings were responsible in one way or the other for the bloodshed and anarchy that prevailed in the country for about twenty years.

The survey presented in the third book, as outlined above, ends with the discussion of the broad lines of events up to the years of the nineteenth century with particular reference to the imperialistic struggle with its theatres in Ethiopia, East Africa, Uganda, Kenya and Congo State and French West Africa.

With the ending of the survey as such, it is not claimed that the very detailed account of events from within were fully treated but treatment is made on the turning key points in relation to agents from without.

It is hoped that the numberless problems, that are still awaiting study, would interest research workers to proceed with for the advancement of knowledge and to throw light on events which will, no doubt, be of great help in building up a sound and long term policy deeply rooted on facts, whatever these may be, for the promotion in gradual and steady stages and to fit in with the Sudan's share of responsibility in World affairs in general and African problems in particular.

C.B.A.

Cairo, December 1954.

in the maritime and colonial interests that decided this attitude, which had taken the human colour, secreting behind it economic aspects, with the power placed behind the interventionary zeal. The suppression of slavery, as a politically effective force, had undergone successive modifications during the late eighteenth and the whole nineteenth and early twentieth centuries. It was begun with human characteristics in the early eighteenth century, changing to a force of political pressure and ending with its final shape in the economic field. The fundamental basis of slave labour has never been changed, and it worked in parallel lines with the progress of industrialization. It is, therefore, rather difficult while approaching this question, to isolate it, as an historical event, from the successive modifications and from the contemporary events of each decade, which influenced the attitude and nature of the slavery question. An epitome is given, on attached Arabic table, illustrates the developments and the role it played in the international politics and imperialistic expansion.

We are mainly concerned in this study, which is confined to the Nile Valley regions, so our interest in discussing slavery comes within this field with due reference to forces from outside. A survey of Britain's use of this influential weapon, which ended with the Slave Convention of 1877, is given in the text. Contrary to the provisions of this Convention, which was intended to regulate the abolishment of this trade, within a specified period, Gordon and his assistants, who were of inconsistent European origin, have taken drastic measures in fighting this trade with the wide powers conferred upon them, which included Summary Trials with capital punishment and confiscation of property. This attitude had resulted the destruction of the substantial economies and social advantages offered by the new Egyptian administration, which was extended to the Sudan, during the period from 1821 to 1871. The European Lieutenants appointed by Gordon, as being of his own calibre and social standing, were his subordinates, and they followed the policy initiated by him for combating this trade, as it were in its disgraceful, inhumane and painful character, as experienced in the West; Gordon in one way or the other, was wrong in his hypothesis to fight domestic slavery to end the hunting of slaves, ignoring the place of domestic slaves in the social structure of the country; its abolishment needed time for assimilation and reorganisation of labour problems. This attitude had resulted dissatisfaction and serious relapse of the developments achieved; this state of affairs, for which the policy adapted by Gordon is responsible, had given way to the accumulated forces of the ages to revive with ultimate outcome of the emergence of a Saviour who was found in the Mahdi. It is necessary to mention that the policy for combating slavery, was originally framed by the British Government.

authority had ceased to function in its own means; this state was an opportune for the remnants of the Memlukes, who were in the country some years before the extension of Egyptian Administration, to take advantage of this dissatisfaction by agitating and stirring up the factions. This had resulted in the catastrophic end of Ismail, son of Mohd. Ali, and his party at Shendi. This catastrophe is treated in the light of local traditions, tribal rituals, prevailing conditions and other factors with the conclusion that the intrigue was coined by the Memlukes and that Mek Nimr was the scape-goat and victim. The case of Ismail's death at Shendi with his party, was interpreted in different ways to serve purposes other than the truth.

The Administrative system was, however, reframed as a result of experience gained in the first thirty years, when Mohammed Said visited the country and promulgated his four decrees which laid the sound foundation of the new administration with the local chiefs and inhabitants having the full opportunity both in sharing and in handling their affairs. Unfortunately, these decrees were too late to function as planned, owing to the appearance in an effective weight of the imperialistic beliefs and desires which brought the Nile Valley within its orbit. The Great Imperialistic Powers have exercised their respective ways and means for supremacy in the Nile Valley. These powers stood aloof and appeared behind the screen pulling the wires for the requisite chance fit for interference. Britain, one of the great powers struggling with its opponent France, used its pressure on Egypt and on the Porte, for the abolishment of slavery, which was brought before the European and American public opinion in the very inhumane state known to those people, whereas, the treatment of slaves in the orient was in a quite different way than that experienced in the west. The humane treatment in the Moslem country is given in the Islamic teachings. Britain had also used other means to achieve its plans for supremacy, such as the financial crisis of Egypt, to interfere in the affairs of the country landing its troops to crush the Nationalist movement under the pretext of safeguarding the Khedivial throne and many other reasons to meet the problems brought out to end the occupation of Egypt. The state of affairs in Egypt has reflected on the Sudan which had already been, more or less, in an administration of terror for the suppression of slavery instantly.

It is place and duty to take a pause to review the question of slavery and its developments in the international field as an imperialistic and economic weapon. Britain, after having been the leading power that profitted from this trade and had maintained slavery in the vast colonies over seas, had adapted a reverse policy towards slavery and its trade. An explanation of this change is found, among other reasons,

Republic» principles which did not allow for advancement and developments in other phases of activities. No wonder, then, that the Sultanate had caused the country to be torn by the ideological and social conflicts with the decaying chieftainships and restless populace. This state of affairs was a direct result of the reliance on trade and trade only, which was restricted mainly to transit transactions, hence the country failed to produce items for exchange on a reasonable scale. This system received a fatal blow with the appearance in the Red Sea of the Portuguese and Turkish struggle for mastery of this trade route, also with the establishment of trade stations of the African coast by the European powers, who used these centres for the expansion into the interior of the Black Continent; there were also further causes emerging from within with the failure in building up a central authority and modifications of the land tenure and the machinery of oriental feudalism.

In the early years of the nineteenth century, new trends and traits have endangered the country, consequent upon the flight of the remnants of the Memlukes from Egypt in face of the new regime which had brought the Memlukes to an end. The coming of the Memlukes into the Sudan was a serious threat to the interests and welfare of both countries. So a combined effort was made to throw them out of the country and the Egyptian Administration was extended to the Sudan to restore normal conditions, on a progressive scale.

In Book Three, a survey is made of the new Egyptian Administration in which an equilibrium was vested to the Local Chiefs; this administration was the first experiment of its kind embarked upon by Modern Egypt. Actually it was in no way an expansion of exploitation as given by a number of writers. It was an organization to promote local conditions by putting an end to the tribal wars and anarchy, and to prevent foreign influence from gaining foot hold therein. It is admitted that there were mistakes which were normally expected in such an experiment. The new administration, when compared with any other European organisation in Africa, demonstrates great differences, the simplest of which is the local inhabitants of the country of the Sudan were not rejected under colour bar institutions of the Europeans, furthermore they were allowed full participation in the affairs of the country. This was because Egypt had no beliefs and desires in the sister land. The Administrative mistakes were due to the fact that they did not take into consideration, in the first stage, of the institutions and the structure of society and its interrelations, which were inherited with the accumulated forces of all ages and the country was at the time torn by feudal wars. This ignorance had caused dissatisfaction to leap out in the regions where the tribal jealousies found that the chiefs

customs which allowed sons of the sisters of the ruler to ascend the throne, and that tradition had allowed the sons of local wives and daughters of the new-comers to seize power hence the Arabs were able to effect gradual modifications in the social organisation with the time going on; taking into consideration the fact that the Arabs were full of zeal for the new faith of Islam and their penetration was continuous for some length of time when the country was in a state of deterioration with social strains in morals and aberration. It was, therefore, possible for the new-comers to take over the chieftainships and throw the ancient dynasties off; it must not be forgotten that the modification caused by the Arabs did not go deep into the social structures of the local societies, but coated the old traditions for a while. The provinces of Dongola or Makura had disappeared in the early years of the fourteenth century, and Alwa followed the same fate two centuries later.

Turning to the study, under review, it discusses in the first book the developments of events and their consequences as a result of culture contacts and reflections on the social structure with conflicts with old traditions and inherited rituals, which were able to revive and retain their vitality and influence conditions. This is very interesting point showing the part played by local wives and the calibre of the character of the new-comers. These points, with others, are of great value with the Sudan now emerging into a wider horizon in the international field. This emergence is throwing more responsibilities on the country, because of the serious position, it occupies in the world strategy.

It is attempted in this study, which is not pretended to be a complete one, to present the broad lines of the turning key points in the history before the rise of the Sennar Sultanate, with a survey of affairs in Ethiopia and Egypt, which have contributed to the transplantation and restoration of a central federated power with its seat at Sennar, on the Blue Nile. A discussion of the arguments relating to the vexed question of the origin of Sennar Dynasty, brings the first book to an end with the conclusion that this Dynasty was originally functioning, in one way or the other, in the region of the south-west corner of Eritrea, through which the thorough-fare linking the Red Sea ports and up country was operating.

The Second book deals with the Sennar Sultanate in its new capital, after flight from the region of Lamul; its relations with the confederated sheikhdoms on the Nile Basin are also dealt with together with the causes that contributed ■ the Sultanate's progress and decline. The seeds of the decline were sown with the rise of Dynasty because of its organisation and functions which were confined within the «Commercial

had set on march northwards and north-westwards; this point is left for systematic archeological work in that part of the country.

The relations between Egypt and the Sudan, as illustrated by Churchill, in his work «The River war», as resembling a palm-tree, at the top the green and fertile area of the Delta region, spreads the greenful leaves and foliage-the stem with the root of the tree begin to stretch deeply in the Sudan, need be implemented by the fact that although the circuit begins with the flowing of the Nile waters which carries life and fertility to both the Sudan and Egypt, as illustrated in the palm-tree, it does not cease its activity with the discharge of its blessings; but it changes to another energy of inspiring influence which runs back in the form of a multi-pronged torch, diffusing culture and civilisation into the upper regions of the Nile Basin. It, therefore, resembles a magnetic field flowing in one direction with its waters and coming up with the torch of culture. It is no wonder that one finds that events in one country-the Sudan or Egypt-reflects on the other, as proved by historical evidences of various decades.

It is out of the province of the study, now presented, to enter into details of the past historical events of remote ages; and it was found necessary to limit the research to begin with the destruction of the Meroitic kingdom in the middle of the fourth century of our era, when the central power had fallen in decay and the inhabitants set on flight, as a result of the invasion, which was engineered by foreign elements not originating from Aksum, of King «Aezana». The Country of Meroe was deserted and left for the adventurers and new-comers. In this central zone of the Sudan which formed the provinces directly ruled by Meroe, rival chieftainships arose and entered into conflicts with other tribes. The other provinces lying on the southern and northern borders of the Meroitic Kingdom proper i.e. Alwa and Dongola respectively, have, more or less, been attending to their daily life and the inhabitants, who were agriculturists, were not affected by the differences which stormed the chiefs.

The State of internal wars continued in the central zone for almost ten centuries during which decade, Egypt was under the mastery of foreign powers. At the end of this epoch, the Arabs, who conquered Egypt in the seventh century, began, on the rise of the Memluke to power in Egypt, to pour into the country in mass immigrations; because the Memlukes were rivals to the Arab elements. The infiltration was carried in a peaceful and steady manner without serious violence; and through intermarriage of the new-comers with the local inhabitants, the power was transferred to the sons of the Arabs by virtue of the local

INTRODUCTION

The Sudan of the Nile Valley, a vast tract of country of about one million square miles, extends from (approximately) latitude 3° to latitude 22° North i.e. between the Equator and the Tropic of Cancer, through which the river Nile stretches for about 1400 miles; the country, therefore, runs from a lacustrine area to semi-arid regions and this setting exhibits a wide variety in climate and vegetation. These geographical features of the different zones have moulded the variant sizes of economic and social institutions of the relative habitats. The story of tribal struggle and immigrations lies secreted behind this physical setting.

One finds the primitive life in the far south and gradual stages of settled conditions, north thereof, in the open country on the banks of the Nile and its tributaries; and nomadic in the regions lying on both sides of the river and in the highlands of the Red Sea littoral and in Darfur. In the highlands, there are massifs ranging from about 4000 feet to 10000 feet (above sea level).

Taking into consideration, the anomalous place of the Sudan on the Nile Basin, which forms the main artery linking the Mediterranean and the Red Sea with the heart of Africa, the country holds a strategical position, which has given access to impulses from the bordering regions of Africa horn, lake plateau, the Sahara and Egypt; and the country, with such a situation, had rendered a transformation theatre of the impetus of varied stages of civilisations and cultures, the remnants of which are traced in the transition and cradle zones of the Blue Nile Basin and on the banks of the river Nile north of Khartoum, and in refuge pockets and isolated areas which are lying at the remote and inaccessible parts amongst which are the salient lines of Dar Fung and in Tegali Hills, Dar Fertit and Mahas regions; these pockets are worthy of an exhaustive field team research.

The history of the country, particularly the northern part, is tied mainly with that of Egypt since very remote decades of history, and the history of each of the two countries forms an indispensable part of the other for various reasons which include the favourable climatic conditions prevailing in both countries, the waterways of the river Nile, their serious position in the strategy of trade between the main sea routes and the fact that the earlier inhabitants who spread over the banks of the river were, more or less, from one origin interrelated with their economical interest. One theory says that the Blue Nile Basin was the kernel/cradle zone from which or in which the inhabitants of the Valley

ACKNOWLEDGMENTS

In recognition of the many obligations which were extended to me in various ways and means, I have to place on record my indebtedness to Professor Mohammed Shafik Ghorbal, Dr Mohamed Awad Mohamed, Dr. Selim Hassan, Dr. Sulliman Huzzayin, Dr. Mohammed Mitwali, Fathers Simons and Bombachi, A. J. Arkell Esq., Dr Mohammed Mahmoud Es Sayad, Sayed Salih Khalil, R.L. Hill Esq., Dr. Georgi Sobhy, Sayeds Abdul Fattah Hassan, Abdul Fattah Ibrahim, Ahmed Abdul Salam Kafafi, Dr Mohamed Ahmed Anis, Dr Abdul Magid Abdeen, Abdul Aziz Ismail, Ahmed Eisa and Badr El Deeb for patronage, Dr. Mohammed Foud Shukri for suggestions and criticism which were of great value, Dr. Hassan Osman for encouragement and promoting the work, Sheikh Yousif Ibrahim Baqoy, Sayeds Mohammed Kamil, Dr. Fred, Slezak, Mohammed Abdul Rahim, Sayed Medani Yehya, Hag El Sheikh Omar Dafallah, Ahmed Mohammed Salih Ez Zahid, Mohammed Ahmed El Gabri, Marion Laburda, Abdul Ghani Sa'oudi, Salah Esh Shamy, Omar Mohd. Ali, Ahmed Mohammed Salama, Abdul Rahman El Faysal Chater, Yousif El Amin Elheimer, late Engineer Taha Salih, late Prof. C. C. Rossini, late Mohammed Salah Ed Din El Bughir and all those who have contributed in one way or the other towards the production of the research.

I also wish to thank Mr. Anis Abu Fadil, proprietor of Abu Fadil Press and his staff for their support in many ways.

It is admitted that there are mistakes in the print, for which my apology is submitted.

C.B.A.



AN OUTLINE HISTORY
OF
THE NILE VALLEY SUDAN

BY

Chater Bosayley A. Galil

LIBRARIAN, INSTITUTE OF SUDANESE STUDIES,

FACULTY OF ARTS, CAIRO UNIVERSITY

(Formerly of Sudan Civil Service, 1919/1951)

ABU FADIL PRESS

CAIRO 1955

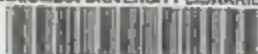
DATE DUE

FEB 18 2014

DAYLOND

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0057060487

962.4

B96

ON FILM NOW 3331985

OCT 5 1993

